عبد المجيد القدوري

المغرب وأوروبا

ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر

(مسألة التجاوز)



المركز الثقافي العربي

الكتاب

المغرب وأوروبا

تأليف

عبد المجيد القدوري

الطبعة

الثانية، 2012

عدد الصفحات: 408

القياس : 17 x 24

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-561-8

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب : 113 ـ 5158 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca _casa_bey@yahoo.com

عبد المجيد القدوري

المغرب وأوروبا

ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر

(مسألة التجاوز)

المركز الثقافي العربي

رمــوز مختــصــرة

مخ : مخطوط

خ. ح : الخزانة الحسنية

خ. ع : الخزانة العامة

م. سا : مرجع سابق

ص. ن : الصفحة نفسها

S. I. H. M : Sources Inédites de l'Histoire du Maroc.

مقدمة

يبدو الموضوع فضفاضا ويطفو على طرحه نوع من العنترية. ويحق للقارئ أن يتساءل عن الأهداف المتوخاة من هذا الطرح. فما المبررات المعتمدة في ذلك؟

لقد قيل وكتب الكثير عن هذا الموضوع الذي كان مصدراً لبلورة نظريات وفرضيات في فضاءات متعددة وضمن تخصصات مختلفة. وحاول الذين عالجوا بعض جوانبه، في ظرفيات معبرة، التفكير في التحديات المادية التي واجهت وما زالت تواجه مناطق كثيرة من العالم. وانطلق الباحثون من سؤال شبه أسطوري: كيف تقدم الغرب وتأخر غيره ؟ ويندرج هذا السؤال ضمن الصرخة الدّفاعيّة المناهضة لمركزية الغرب عموما وأوربا خصوصاً.

لم يبق تاريخ الكون مجسَّداً في تاريخ أوربا؛ فقد أصبحت شعوب وقارات أخرى تؤدي أدواراً أساسية على الساحة الدولية. وبالرغم من هذه الحقيقة، فإن العقلية الأوربية تستمر في دراسة الماضي وذكره وكأن الكون لم يكن عبر الأحقاب التاريخية سوى خريطة لا توجد بداخلها إلاّ أوربا المحاطة بمياه البحار والمحيطات على غرار ما كان سائداً خلال العصور الوسطى. وعمل هذا المنهج الإقصائي على ترسيخ مقولة الحضارة الإغريقية منبعاً ومصدراً لكلِّ الحضارات المؤمنة بالتقدم وبالعقل.

حاولت أوربا الانفراد بالمبادرة، وعملت على فرض إيقاعها على الآخرين. ولما تحقق لها ذلك، صارت تتلذذ وتفتخر بملكاتها العقلية لتنظر من فوق إلى العوالم الأخرى كما يفهم ذلك من الحكايات الأوربية المتحيزة. يقول ديلماس: " عندما يفتح الإنسان الأوربي أي أطلس جغرافي سنة 1914، فإنه يشعر بالنشوة وبالافتخار

لأن قارته تسيطر على معظم إفريقيا، وعلى جزر الأقيانوس، بالإضافة إلى نصف آسيا وربع أمريكا"[1]. وأشار ديلماس هذا إلى الدوافع التي جعلت العالم عاجزاً عن مسايرة هذه القارة، فقال: "استطاعت أوربا، بفضل صناعتها، أن تعيد تنظيم الحضارات الأخرى وترتيبها بحيث أصبحت الحضارات التي لا تملك الآلة الصناعية ولا تخترعها عاجزة عن المسايرة"[2].

والمثير في الأمر أن مدَّعي هذه المواقف قد نسوا أو تناسوا أن قوة أوربا وتقدمها جاء نتيجة استغلالها لمقومات وخيرات حضارية أخرى اعترف بها النزهاء من أوربا نفسها:

> لما وصل الإسلام إلى حدود أوربا، استطاع أن يمارس على هذه الأخيرة تأثيرات إيجابية قوية ومتنوعة. فغير في العمق الأوضاع السياسية الدولية ثم دعم العلوم وشجع الفكر في الغرب... وتعتبر إسبانيا مثلا حيا. فقد استطاع هذا القطر خلال مائتي سنة من الاحتلال العربي أن يقفز من مخالب الفقر والإهمال ليرقى إلى ريادة أوربا والغرب. وتحقق له ذلك بفضل التربية والتعليم الذي أدخله المسلمون وضمنوه لكل الفئات في إسبانيا؛ وتسبب ذلك في ازدهار العلوم والفنون بهذا البلد الذي حافظ، من بين باقي الدول الأوربية، على الريادة في هذه الميادين، لمدة خمسة قرون أخرى[3].

يبدو أن أوربا القوية قد انبنت على أنقاض حضارات أخرى. فبسبب الرحلات والاكتشافات، دخل الأوربيون في مرحلة استنزافية فرضوها على الآخرين بشهادة الأوربيين أنفسهم. لقد أشار المؤرخ هوسير إلى الممارسات التي لجأ إليها الأوربيون بعد الاكتشافات الكبرى، قائلا: "دمر الهولنديون، في مطلع القرن السابع عشر، حضارات بحار الشرق الأقصى"[4]. وانشغلوا بحروب داخلية نتجت عن

---

(1) Claude Delmas, *Histoire de la civilisation européenne*, Paris, PUF, 1969, p. 121.

(2) *Ibid*. p. 121.

(3) Sigrid Hunke, *Le Soleil d'Allah brille sur l'Occident Notre héritage arabe*, Paris, Albin Michel, 1963, pp. 388-389.

(4) Henri Hausser, *La Prépondérance espagnole 1559-1660*, Paris, p. 426.

خلافات بين أوربا الشمالية وأوربا الجنوبية في تقسيم المناطق التي استحوذوا عليها، وأصبح همها الأساسي هو العمل على تنظيم الإمبراطوريات التي احتلوها واستغلالها" [5]. وأدت هذه الهجومات الأوربية - في رأي هوسير - إلى تجميد عجلة النمو في المناطق التي وصلوا إليها.

و لم تكتف أوربا باستغلال الثقافات والحضارات الأخرى بل عملت على طمس هويات الشعوب؛ وقد أشارت دراسات حديثة إلى الطرق والسبل التي سلكها غزاة أمريكا من أجل تبديد هوية الهنود الحمر وطمسها وأوربة المعالم الحضارية لهذه القارة. واعتمدنا في هذه النقطة على أعمال ندوة عقدت في باريس في يونيو 1995 في موضوع مفهوم الأقليات، وهي عبارة عن لقاء علمي سنوي يتم فيما بين المهتمين بالموضوع من فرنسا وأمريكا الشمالية. وأثارت انتباهي مساهمة مؤرخ فرنسي سماها: "تهجينات ثقافية: محاولات قلب الهنود الحمر من واقع أغلبية إلى أقلية"[6]. تساءل المؤرخ الفرنسي فانتان فاشتيل (Vanthan Wachtel) في بداية عرضه عما حصل في المكسيك خلال خمسة قرون من الغزو الإسباني، وكيف استطاع الغزاة أن يغيروا ميزان القوى في هذا البلد ليجعلوا من الهنود أقلية بعدما كانوا أغلبية. ولاحظ الباحث أن عدد سكان مدينة مكسيكو كان يقدر بمائتين أو ثلاث مائة ألف عند وصول الإسبانيين، في حين لم يكن عدد الغزاة يتجاوز بضعة آلاف. فكيف حصلت عملية "تغريب" (l'Occidentalisation) الهنود ؟

فالهنود في المنطق الإسباني مجرد أطفال تجب رعايتهم[7]. وأدى هذا السلوك إلى خلق واقع مؤسساتي كرس مبدأ وجود جمهوريتين: واحدة للهنود والأخرى لغيرهم. وصاحب هذا التقسيم تأسيس قوانين تخدم مواقف المحتل وتدعم ممارساته. وساهمت الكنيسة في تقوية هذا الطرح. وتمكنت هذه الممارسات من

---

(5) *Ibid.*, p. 420.

(6) Vathan Wachtel, " Métissages culturels: la constitution d'une majorité en minorité", colloque, Ecole des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris, Juin 1995.

(7) *Ibid.* llos son como niños.

إبادة الهنود، وأدت في النهاية إلى ما سماه هذا المؤرخ بالقتل المشروع لهنود مدينة مكسيكو[8].

وتناول الاتجاه الاقتصادي مسألة التجاوز من زاوية اقتصادية. فربط الظاهرة باندماج اقتصاد هذا البلد أو هذه القارة أو بعدم اندماجه في اقتصاد السوق الدولية. وبرزت على أثر ذلك نقاشات كثيرة. فحاول البعض أن يحمل مسؤولية الجمود في البلدان النامية للحركة الاستعمارية التي أجهضت كل المحاولات الهادفة إلى التنمية والمعاكسة لصيانة مصالح المستعمر في هذا القطر أو ذاك، أو في هذه القارة أو تلك. وعلى العكس من ذلك، سعى باحثون آخرون في تبرئة أوربا من مساوئ ماضيها الاستعماري فلجأوا إلى معالجة موضوع التقدم أو التأخر من زاوية أوربية حاولت أن تربط الظاهرة بأسباب كامنة في عدم قدرة البلدان المعنية على استيعاب التحولات الاقتصادية العالمية. ونضرب لذلك مثلاً بمواقف هنري برانشفيك المتخصص في إفريقيا السوداء. فقد تطرق إلى مسألة التجاوز في القارة السمراء من زاوية عامة، أي أنه حلّل المسألة من زاوية قدرة اقتصاد هذه القارة على الاندماج في آليات الاقتصاد العالمي أو عجزه عن ذلك. فلاحظ أن القارة مرت من مرحلتين أساسيتين منذ القرن الخامس عشر: تمتد المرحلة الأولى من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر؛ ويعتبر الباحث هذه المرحلة مرحلة هامشية اقتصادياً، لأنها لم تكن مندمجة في ما سماه بالاقتصاد الكوني أو اقتصاد المحيط الأطلسي والمحيط الهندي. ولذلك كان اقتصاد القارة اقتصادا هامشيا بطيئا وتقليديا، ولم يكن مهتما بالتيارات الجديدة والسريعة التي كانت تنشأ حوله. وأما المرحلة الثانية في اقتصاد إفريقيا، فيسميها هذا الباحث بالاندماج الإيجابي، وقد تم هذا الاندماج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمساندة من أوربا وبفضل

---

(8) Vathan Wachtel, *Métissages culturels*: " La mort légale des indiens de la ville".

للمزيد من المعلومات، يمكن الرجوع إلى:

Marcel Bataillon y André Saint, *El Padre Las Casas y la defensa de los indios*, Madrid, Sarpe, 1985.

دعامة الأقليات الإفريقية التي تبنت النموذج الأوربي[9] .

وانتقد سمير أمين هذا التيار واعتبره غير تاريخي، لأنه لم يـراع خصوصيـات تطور إفريقيا، ولأن اندماج إفريقيا في الاقتصاد العالمي لم ينتظر القرن التاسـع عشـر بل حصل منذ قرون[10] . ووقف هذا الباحث عند المرحلة الميركانتلية ما بـين القـرن السادس عشر والقرن السابع عشر، بالإضافة إلى المرحلة الصناعية التي عرفهـا العـا لم خلال القرن الثامن عشر. فهذه الفترة كانت فترة حاسمـة في بنـاء إفريقيـا التاريخيـة. فكيف نتحدث عن إفريقيا وجمودها بمعزل عن الهجومـات الأوربيـة المتكـررة وعـن النزيف الديمغرافي الذي تسببت فيه آفة الاسترقاق الذي فرضته أوربا علـى إفريقيـا؟ يقول سمير أمين:

> لقد تسبب النزيف الديمغرافي الذي تسبب فيه الاسترقاق في تراجـع تقنيـات الفلاحـة وفي تراجع الإنتاجية في مناطق عديدة من القارة السمراء... ولم يتوقف خراب هذه القـارة ودمارهـا بانتهـاء الاسـترقاق، بـل اسـتمر بشـكل آخـر خـلال المرحلـة الاستعمارية... فأدت هذه الظواهر إلى تقهقر ظروف العيـش والصحـة وتراجعهـا، وساهمت في اندلاع مجاعات شرسة زعزعت مناطق كثيرة من هذه القارة[11].

انطلاقا من هذا التحليل، لجأ سمير أمين إلى التركيز على مفهومـي المركـز والهوامـش وطالب بدراسة المفهومين على أساس أنهما يمكنان مـن مقاربـة النظـام الاقتصـادي العالمي وفهمه في أبعاده التاريخية، وألح الباحث من جهة ثانية على ضـرورة التخلـي عن فكرة تحاول تحليل المفهومين في إطار وطنـي ضيق وكأن الأمر يتعلـق بوحـدات مستقلة[12] .

ووقف هذا الباحث عند واقع تراجع العالم العربي، فلاحظ أن اقتصاد هـذا

---

(9) Henri Brunchwig, *L'avènement de l'Afrique Noire*, Paris, 1963, p. 100. *sq.*

(10) Samir Amine, *Le développement inégal: Essai sur les formations sociales du capitalisme*. Paris, Ed. de Minuit, 1973, pp. 290-291, 311-312.

(11) *Ibid*, p. 278.

(12) Samir Amine, *op. cit.*, p. 315.

العالم قد بني منذ القديم على الوساطة في التجارة البعيدة المدى بحكم موقعه الجغرافي الذي هو بمثابة صلة وصل بين الشرق الأقصى وأوربا، ولاحظ أن الأمم التي تبني اقتصادها على الوساطة تبقى أمما هشة. فلما تحول مركز الاقتصاد من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي على أثر الاكتشافات، أصيب اقتصاد العالم العربي بخلل في توازنه. وبسبب ذلك، تراجعت مكانته وانقسم. وستزداد حالته سوءاً من جراء الهجومات الاستعمارية فيما بعد. ولعلّ مردّ هذا التراجع من جهة أخرى إلى فشل طبقة التجار في العالم العربي بحيث لم تبادر هذه الأخيرة إلى توظيف فوائد أرباح التجارة من أجل خلق رأسمال داخلي وتوليده على غرار ما حصل في أوربا، حيث كانت طبقة تجارها قاطرة نموها. وعلى عكس ذلك، فقد أتلف التجار العرب أموالهم في البذخ والترف[13]، وكأن سمير أمين يستحضر مقولات ابن خلدون في هذا الصدد والتي ألح فيها على عدم تجذر الصنائع عند العرب، لأنهم:

> أبعد الناس عن الصنائع. وهم أهل بدو على عكس العجم. ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الإسلام قليل الصنائع بالجملة، حتى تجلب إليه من قطر آخر. وانظر بلاد العجم من الصين والهند وأرض الترك وأمم النصرانية كيف استكثرت فيها الصنائع واستجلبها الأمم من عندهم فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الأماكن[14] .

وبالإضافة إلى هذا، فإن العالم العربي لم يدرك ولم يع الأخطار التي كانت تهدده بسبب مبادرات وحيوية وتحركات أوربا التي كانت لا تخفي أطماعها في السيطرة تدريجيا وبخطى أكيدة على خيراته:

> لقد حصل التجار في أوربا الميركانتية على امتيازات وتفضيلات من السلطة العثمانية منذ القرن السادس عشر. ويمكن اعتبار هذه المكاسب انهزاما وفشلا مني به التجار

(13) Samir Amine, *op. cit,*. p. 29.

(14) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الفكر، 1981، ص ص. 506 - 507.

(15) Samir Amine, *op. cit.*, p. 264.

العرب وانتصارا بينا لأوربا. وأظهرت القرون الثلاثة التي تلت القرن السادس عشر مؤشرات انحطاط العالم العربي ومظاهر هذا الانحطاط. واستمر الشرق غير واع بما يحاك ضده في الغرب. وبفضل هذه الامتيازات، كانت أوربا تنمو والعالم العربي يتراجع[15].

وهكذا انتقد سمير أمين المركزية الأوربية وكل الذين فسروا تجاوز أوربا للعوالم الأخرى بما سموه بالثورة الثالثة التي ذكرها الاقتصادي هيلبرونر بقوله: "تعود الإنسان (الأوربي طبعا) منذ قرون اعتماد التقاليد أو استعمال السلطة ليحل مشكل بقائه، وانتظر طويلا قبل أن يحقق ثورة ثالثة ليضمن استمراره في الوجود. وتتجلى هذه الثورة في إبداعه لعبة مذهلة: إنها اقتصاد السوق"[16]. وهكذا يتضح لنا أن مسألة التجاوز تختلف مقاربتها باختلاف منطلقات أصحابها وتخصصاتهم وانتماءاتهم. ولعل التناول السياسي للظاهرة يختلف في تحليله لها عما رأيناه عند الاقتصاديين.

اهتمت الكتابات السياسية بظاهرة التفاوت وأفرزت فيها وحولها فرضيات وطروحات كثيرة نذكر منها المحاولات التي ربطت تجاوز أوربا للعوالم الأخرى بنشأة "الدولة الحديثة". واعتبر أصحاب هذا الاتجاه ماكيافلي المؤسس والمنظر للعلوم السياسية. فقد أمعن هذا المفكر النظر في طبيعة الحكم وآلياته. وكان كتابه "الأمير" منطلقا لنظريات الفلاسفة ورجال السياسة الذين أتوا بعده. وساعدهم هذا الكتيب على "وضع الشروط اللازمة للوصول إلى الحكم وسبل المحافظة عليه"[17]. فلم تبق طبيعة الحكم تطرح، بعد صدور كتاب "الأمير"، من منظور البحث عن المشروعية كما كان في السابق، لأن ماكيافلي تبنى نهجا وأسلوبا جديدا اتسم بالواقعية وبحث عن السبل التي تتلاءم وغريزة الإنسان الطموحة إلى الانفراد بالسلطة. واعتمادا على هذا، يمكن القول إن ماكيافلي قد أحدث قطيعة بين زمان النهضة في الغرب وفلسفته التقليدية في السياسة، وأشار ماكيافلي إلى هذه القطيعة

---

(16) L. Heilbroner, *Les grands économistes*, Paris, Tendances actuelles, Seuil, 1973, p. 19.

(17) Claude Rousseau, *Le prince Machiavel*, Paris, Hatier, 1973, p. 9.

(18) *Ibid.*, p. 38.

بقوله: "تصور الفلاسفة في السابق جمهوريات وإمارات فاضلة، لكن لم يستطع أحد أن يرى هذه الكيانات السياسية أو يتعرفها على أرض الواقع"(18). وهكذا يكون ماكيافلي قد أزاح الأبعاد القدسية عن الحكم ليجعل منه مجرد ظاهرة احتماعية ترتبط في أساسها بالقوة والتجربة.

انطلاقا من هذا الطرح، رأى بعض الباحثين في نشأة الدولة الحديثة أساس التجاوز؛ لأنها كانت تساير التحولات والمنعطفات الجديدة في أوربا. لقد أعطى فرنان بروديل تفاصيل في الموضوع، حيث أظهر الترابط الموجود بين التحولات الاقتصادية والاجتماعية من جهة والمؤسسات السياسية، فأشار إلى المرور من المدن الدويلات إلى الدولة الوطنية الحديثة واعتبر ميلاد الإمبراطوريات خلال القرن السادس عشر (الإمبراطورية العثمانية/ والإمبراطورية الإسبانية) مأساة البحر المتوسط، لأن الواقع الجديد أصبح لا يسمح بوجود العمالقة في السياسة. يقول بروديل: "تتلخص مأساة البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر في نمو الكيانات السياسية العملاقة ... لكن بعد مرور هذا القرن...، تخلت الظروف السياسية عن هذه الأجسام الضخمة لصالح الدولة الوطنية الحديثة"(19) .

فإذا كان ماكيافلي قد ألح على ضرورة تقوية الأمير لضمان قوة الدولة، لأن مصلحة الجميع تقتضي أن تكون الدولة قوية، فإن البعد "المدني" بدأ يكتسح المجال السياسي ليأخذ في الكتابة السياسية الإنجليزية مكانة متميزة. وهكذا نرى جون لوك يعرف الدولة بقوله: "ويبدو لي أن الدولة جماعة من الناس تكونت لغرض وحيد هو المحافظة على خيراتهم المدنية وتنميتها. وأنا أقصد بـ "الخيرات المدنية: الحياة والحرية وسلامة البدن وحمايته من الألم، وامتلاك الأموال الخارجية مثل الأرض والنقود والمنقولات، إلخ"(20) . ويرى لوك أن الحاكم مسؤول عن حماية

---

(19) Fernand Braudel, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe* II, Paris, Armand Colin, 1966, T. 2, p. 9 et 47.

(20) جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

الثوابت. ومن واجبه أن يستعمل التخويف والعقاب في حق كل من أراد زعزعة هذه الثوابت. وقد يتساءل المرء هل ظهر شعور وإحساس بالانتماء القومي؟ لاحظ كاستون زيلير وجود تطابق واضح منذ القرن السادس عشر بين الدولة والوطن وألح على نمو الشعور الوطني وتجذره خلال العصر الحديث في أوربا. "لعل أهم ما ميز الغرب الأوربي خلال العصر الحديث هو نمو القوميات"[(21)]. وقد برز هذا الشعور في مجالات كثيرة، كتشبث كل دولة بلغتها، مثلا. وتكفي الإشارة هنا إلى ما أثر عن أن الشاعر الفرنسي رونسار (Ronsard) كان يعتبر تخلي الملك الفرنسي عن الفرنسية لإحياء اللاتينية جريمة. وتقوت اللغات الوطنية وبرزت رموز شكسبير في أنجلترا الذي يمجد:

هذا العرش العظيم للملوك،
وهذه الجزيرة التي تحمل صولجان السلطان،
هذه الأرض التي تستوطن فيها العظمة ويسكنها المريخ إله الحرب
هذه الجنة، جنة عدن الثانية، بل نصف النعيم الموعود
هذه السلالة السعيدة من الرجال. هذا العالم الصغير.
هذه البقعة المباركة. هذه الأرض. هذه المملكة... إنجلترا[(22)].

فبقدر ما كان الشعور بالقومية اللغوية يتصاعد، كانت الأصوات التي تطالب بتعميم اللغة اللاتينية تتراجع. ويعتبر المفكر إيرازموس من أكبر المتشبثين باستعمال اللاتينية. فقد ظل مرتبطا بأفضل ما في الماضي ولم يستوعب أبعاد الظروف التي كانت متجهة نحو المستقبل الآخذ في النمو. فقد ألف إيرازموس كتابا سنة تسع وخمس مائة وألف وضمنه أمهات أفكاره، كما يظهر ذلك من العنوان "**في تمجيد الحمق**" (*Eloge de la folie*). وقد شحن المؤلف مفهوم الحمق بمعان عبر بها عن الحسرة والانعزال الداخلي الذي كان يعيشه. "فقد أعطى

---

(21) Gaston Zeller, *Les temps modernes de Christoph Colomb à Cromwell*, Paris, Hachette, 1953, p. 1 et 18.

(22) جون هرمان راندال، **تكوين العقل الحديث** ، ترجمة جورج طعمة، بيروت،دار الثقافة، طبعة ثانية، 1965، ج 1، ص. 288.

إيرازموس الكلمة للحمق وتركه يمجد نفسه بنفسه وسعى في تبيان أن الإنسان أيّاً كان، يبقى بشكل أو بآخر أحمقَ؛ لأن الحمق في العمق أساس سعادته في هذا الكون"[23] .

ولم ينحصر الشعور بالقومية في أوربا في اللغة بل شمل مجالات كثيرة، وكان أكثر وضوح في القطاع الاقتصادي في الحركة الميركانتيلية. فتبنت كل دولة اتجاها اقتصاديا خاصا بها. وهكذا شكلت الميركانتيلية المعدنية أساس اقتصاد إسبانيا التي اعتبرت الذهب والفضة رمز القوة، في حين ركزت فرنسا على الصناعة. وأما إنجلترا، فقد اعتمدت التجارة أساساً للقوة والثراء[24] . واندلعت حروب ومنافسات فيما بين الدول الأوروبية لهذه الأسباب. وحاولت هذه الدول أن تنظم العلاقات فيما بينها. والتنظيم هنا لا يعني طبعا التخلي عن المنافسة، لأن التنافس والحروب أساس للمزيد من السيطرة والتجاوز والانفراد بالزعامة؛ ولكن المقصود بالتنظيم يبقى هو وضع نظام وخلق قواعد للعبة الدبلوماسية أو ما عرف بـ "الحرب المتمدنة" أو الحرب المباحة[25] .

في خضم هذه التحولات الجارية في أوربا وفي غمرة النقاش حول تجاوز هذه القارة لغيرها في الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر، ما الأوضاع التي كانت تسود العالم الإسلامي ؟ وكيف تمت معالجة الظاهرة ؟ سوف ننطلق من أسئلة أخذت باهتمام المهتمين بدراسة نمو الغرب بالمقارنة مع العالم الإسلامي. وانصبت معظم هذه التساؤلات في اتجاه الإسلام والمشروع المجتمعي. وتبقى أسئلة نظرية بالأساس أوردها ماكسيم رودانسون على النحو التالي: ما الروابط والعلاقات التي توجد بين الإسلام والنشاط الاقتصادي أو النشاط السياسي والأوضاع الاجتماعية في البلدان المسلمة[26] . وتوقف هذا المفكر عند

---

(23) Anne Berthelot et Fernand Egea, *Textes français et Histoire littéraire Moyen Age, le XVI^e et le XVII^e siècle*, Paris, Nathan, 1984, p. 103.

(24) Henri Denis, *Histoire de la pensée économique*, Paris, P.U.F, 1980, p. 91 *sq*.

(25) Fernand Braudel, *La Méditerrannée*, T. II, pp. 168-272.

(26) Maxime Rodinson, *Islam et Capitalisme*, Paris, Seuil, p. 20.

الجدل والعراك الذي صاحب هذه الأسئلة التي كانت تخفي مواقف إديولوجية، فأظهر كيف تبنى العلماء المسلمون مواقفهم الدفاعية من أجل أن يصونوا عقيدتهم التي تتلاحم مع شعورهم الوطني والحضاري ويناهضوا النظريات الدخيلة.

وإذا اقتنعنا بأن التنمية في الغرب اتجهت اتجاها ماديا بحتا، وحاولت التركيز على الحياة الاقتصادية وحدها مهملة أشد الإهمال الاهتمام بمبادئ الدين الحق وتربية الضمير... علمنا أن استيراد النماذج التنموية الغربية في العالم الإسلامي كان كارثة كبيرة عليه... ولذلك فقد حاول الكثير من المهتمين بالثقافة الإسلامية والمصير الإسلامي في العصر الأخير أن يقدموا دراسات متنوعة في تعديل الاتجاهات المنحرفة... منطلقين من مبادئ الإسلام وأصول شريعته[27].

واستعرض رودانسون من جهة أخرى مواقف المستشرقين من الموضوع، ليميِّز بين مواقف أولئك الذين تعاطفوا مع الإسلام والمسلمين وحاولوا أن يفهموه ويفهموهم، من أمثال لوي ماسينيون الذي أورد له رودانسون القولة الآتية: "لقد تبنى الإسلام مبدأ المساواة الاجتماعية... واحتل موقعا وسطا بين المذهب الرأسمالي وللمذهب الاشتراكي"[28]، ومواقف الذين هاجموا الإسلام وأظهروا عداءهم للمسلمين ولم يجدوا عندهم وفي إسلامهم "سوى المواقف القدرية التي أقصت كل الأفكار المتفتحة المبدعة والخلاقة فجمدت بذلك كل مبادرة ذات أهداف مادية"[29]. وسنعود لهذا النقاش لاحقا لنوضح موقف رودانسون من الظاهرة ولنقف عند سؤال شكل جوهر النقاشات في مسألة التجاوز لدى علماء الغرب الذين تأثروا بماكس فيبر، ويتلخص السؤال في علاقة الإسلام بالنمو. وبعبارة أخرى، هل التعاليم الإسلامية تشجع النمو أو تعرقله وتناهضه ؟

---

(27) د. محمد عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، جدة، دار المنارة، 1989، ص. 8.

(28) Maxime Rodinson, *op. cit.*, p. 255, note 3.

(29) R. Charles, *L'âme musulmane*, Paris, Flammarion, 1958, p. 17, cité par M. Rodinson, *op. cit.*, p. 256.

لاحظنا أن إشكالية التجاوز قد أخذت باهتمام تخصصات كثيرة وفرضت علينا الوقوف عند الطرق التي اعتمدها المؤرخ في معالجته للظاهرة. ننطلق من ملاحظة أن التاريخ بما هو مفهوم ومادّة ـ على عكس العلوم التي تطرقنا إليها في السابق ـ يظلُّ من إبداع عربي.

إن تأليف التاريخ الإسلامي من إبداع العرب. لقد فشلت المحاولات للعثور على مؤثرات خارجية... إن كلمة "تاريخ" كلمة عربية... يحق لنا إذن أن نضع التاريخ في مقام النحو، أي في ميدان أظهر فيه عرب القرون الأولى أصالة وقوة على الخلق والإبداع لاشك فيهما[30] .

والسؤال المطروح هو: ما درجة وعينا بالتاريخ؟ ويقتضي هذا الوعي كما أشار قسطنطين زريق ضرورة العودة إلى الماضي من أجل استخراج مقومات الحاضر وشواغله من أجل التخطيط الصائب للمستقبل[31] . ويتطلب هذا تجاوز الاتجاه التقليدي الذي "لا يزال ينبع من مصادر القرون الوسطى... ولا يقبل مطلقا ـــ أولا يقبل مترددا ـ على الاستمداد من منابع ومصادر أخرى، إذ إنه مكتف بمنبعه وواثق بأنه مصدر كل حق وبأن الابتعاد عنه أو التوجه إلى سواه زيغ وضلال"[32] . لقد نبه عبد الله العروي المؤرخَ المسلمَ إلى ضرورة الاحتياط من ظاهرتي الاغتراب والاعتراب: الاغتراب أو خطر ما يسمى بـ "التفرنج" والاعتراب الذي يحاول أن يحارب تجاوز الغرب عن طريق "تقديس اللغة في أشكالها العتيقة وإحياء التراث". والمطلوب هو استعمال اللغة والتراث من أجل فهم وبناء شخصية إسلامية منغمسة ومندمجة في واقعها الراهن في "الآن والمكان"[33] .

يبدو أن تشبث المسلمين بماضيهم المجيد جعلهم لا يولون أهمية كبرى في دراستهم التاريخية للأزمات والنكبات. وهكذا جاءت الكتابة التاريخية التي اهتمت بالعالم الإسلامي في علاقاته بـ "الآخر"، أي بالغرب، كتابة تمجيدية للحضارة

---

(30) عبد الله العروي، العرب والفكر التاريخي، بيروت، دار الحقيقة، 1973، ص. 45 ـ 46.

(31) قسطنطين زريق، نحن والتاريخ. بيروت، دار العلم للملايين، طبعة ثالثة، 1974، ص. 28 و 45.

(32) المرجع نفسه، ص. 29؛ والعروي، مرجع مذكور، ص. 55.

(33) المرجع نفسه، ص ص. 187 ـ 188.

الإسلامية خلال العصور الوسطى واعتبرت زمان ازدهارها وقوتها وإشعاعها الكوني وعلى العكس من ذلك كانت أوربا تعيش فترة ظلام:

في الوقت الذي كانت فيه أوربا تمر بهذه الحقبة المظلمة من تاريخها...، كانت الأمة الإسلامية تتقدم بخطى واسعة في مدارج الحضارة... وقد أصبح العرب حتى نهاية القرن الثالث عشر حَمَلَة لواء الحضارة الإنسانية... وقد شهد بذلك بعض الاستعماريين الأوربيين في فلتات كتاباتهم[34].

وهكذا ركز هذا الاتجاه على إبراز ظاهرة سبق المسلمين للأوربيين في جل المجالات إن لم نقل كلها واعتمدوا في ذلك على التذكير برموز الحضارة الإسلامية (ابن رشد، ابن سينا، ابن خلدون، إلخ). وإلى جانب هذا الموقف، ظهر اتجاه آخر ربط كل ويلات العالم العربي بأوربا؛ والأمثلة كثيرة: فالاكتشافات الجغرافية كانت بداية الهجمة الأوربية، وشكلت الحركات الاستعمارية الضربة القاضية على الحضارة الإسلامية.

وبالرغم من هذا، ما زالت ظاهرة التجاوز لم تدرس بما فيه الكفاية في تاريخ المغرب. فلا توجد أيّ دراسة شاملة لهذا الموضوع ـ حسب ما نعلم. وهذا لا يعني أن المؤرخين المغاربة لم يهتموا بها بل تناولوها من زوايا اهتماماتهم. فدرسوها من باب آفة التوغل الأجنبي على المغرب والمغاربة. لقد خاض المؤرخ جرمان عياش عراكا منهجيا ومعرفيا في مؤلفاته مع الإسطوغرافية الاستعمارية وحاربها، رابطاً الجمود الذي عرفه المغرب بالغزو الأجنبي. واستعمل في كتابته مصطلحات تعبر كلها عن هذا الاتجاه. يقول عياش: "فإن البرتغاليين الذين كانوا يتوفرون على أسلحة نارية مهولة، وشتان ما بينها وبين سهام العرب"[35]. وعاد للموضوع في مناسبات أخرى ليبرز أن الأوربي يتناسى أن التدخل الإيبري كان مبكرا في المغرب: "غالبا ما ننسى أن الهجمة الأوربية على المغرب بدأت منذ فجر

(34) شوقي عطا الله الجمل، "أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة الإسلامية"، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد 24، 1990، الدار البيضاء، ص. 58.

(35) جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب. البيضاء، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1986، ص. 28.

القرن الخامس عشر..."[36]. وشكل عمل أحمد بوشرب استمرارا في هذا الاتجاه. فقد درس دكالة والاستعمار البرتغالي وتميز عمله بإمكاناته التوثيقية الهامة، ويبقى البعد المهيمن على أطروحته آثار الاحتلال البرتغالي على المنطقة، وأثرت كثافة الوثائق البرتغالية في توجيه أطروحته، فقدم تصور الفئات الحاكمة للبرتغال والمنتجة للوثائق المعتمدة في الرسالة؛ وأوضح العمل من جهة ثانية تضارب هذه الفئات بخصوص التوسع في المغرب واعتبره غزواً وحشيّاً همجيّاً[37].فجاءت دراسته بخلاصة مفادها أن أوضاع دكالة الداخلية هي نتيجة لهذ التدخل، ويتبين ذلك من الخلاصات والنتائج التي توصل إليها الباحث في خاتمة عمله[38].

إن اهتمام بعض المؤرخين المغاربة بالتدخل الأجنبي جعلهم يقدمون تاريخ المغرب وكأن حركة المغاربة فيه جامدة. فقد ربط عبد الكريم كريم مسألة التوغل الإيبري بالموقع الجغرافي للمغرب، فقال: "ولما كان المغرب بموقعه الجغرافي أقرب نقطة إلى غرب أوربا الناهضة، فقد اتجهت إليه أنظار البرتغال والإسبان"[39]. وهكذا كانت المبادرة في المغرب وعنه تتم، حسب هذه القراءة، خارجه وكأن الاحتلال يكون الدافع الأساسي في تحريك تاريخ المغرب.

وتسترعي محاولة المؤرخ محمد حجي، في مسألة الوجود الأجنبي بالمغرب وخصوصا الهجومات الإيبيرية، الانتباه. فقد حاول أن يفرز في هذا الاكتساح ومن خلاله ملامح ما سماه بـ "تكوين القومية المغربية في القرنين العاشر والحادي عشر"[40]. وانطلق هذا المؤرخ من هذا الغزو ليحلل مقومات القومية ويناقش ثوابتها. ورأى في وصول الأشراف السعديين إلى السلطة إرادة شعبية قادها رجال

---

(36) المرجع نفسه، ص. 167.

(37) أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور (قبيل غشت 1481 - 1541)، البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص. 437.

(38) المرجع نفسه، ص ص. 487 - 489.

(39) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، البيضاء، شركة الطبع والنشر، الطبعة الثانية، ص. 5 و 12.

(40) محمد حجي، جولات تاريخية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1995، ج. 2، ص ص. [illegible] - 557.

الدين من أجل الحفاظ على الهوية الوطنية، وناقش الجهاد واعتبره من القضايا الأساسية في هذه المرحلة لأنه شكل أساس التحركات القومية المغربية. "وهكذا شغل رجال الفكر بمسألة الجهاد طوال عهد السعديين، مزجوه بالعاطفة الوطنية"[41]. وانتقد هذا المؤرخ الذين تشككوا في وجود هذا الشعور لدى المغاربة، قائلا:

> وإذا أردنا أن نبحث عن الدوافع التي حفزت المغاربة إلى مقاومة الأجنبي، فلنكتف بطرح ومناقشة مشكلين طالما رددهما بعض المتشككين في وجود القومية المغربية في القرون الخالية. فهم يقولون إن سكان المغرب لم يكونوا يشعرون... بوجود قومية مغربية، وكل ما كان من مقاومة للاحتلال المسيحي في القرنين العاشر والحادي عشر إنما كان بدافع ديني - لا قومي... وهم يقولون إن وقوف المغاربة في وجه المحتل لم يكن إلا من باب الدفاع عن النفس وضرورة دعا إليها الخوف على المصالح الشخصية المهددة[42].

ويتضح مما سبق أن موضوع المغرب وأوربا ومسألة التجاوز ما زال في حاجة إلى مزيد من الدرس والتعميق، لأن الدراسات القليلة المتوافرة ناقشت الإشكالية من زوايا تخصصها. ونهدف بهذه الدراسة إلى الوقوف عند بعض المفاهيم والمظاهر من أجل تمحيصها وتدقيقها بمقاربة تاريخية. لماذا تمكنت أوربا من الإقلاع في العصر "الحديث" - ونقبل تجاوزاً هذا المصطلح، بالرغم من المشاكل التي يطرحها -، في حين لم يوفق المغرب في محاولاته التجديدية والتحديثية خلال الفترة نفسها؟ وما الميادين والمجالات التي همتها المحاولات التحديثية؟ وتظل الغاية من هذه الدراسة هي الفهم والتفسير للعوامل التي حالت دون إقلاع المغرب والتي كانت سببا في تجاوز أوربا لنا.

وتتميز الفترة التي أردنا تناول الإشكال فيها بالطول. فهي تبدأ مباشرة بعد المد الإيبري على السواحل المغربية الناتج عن تدشين أوربا لمرحلة توسعها

---

(41) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، المحمدية، مطبعة فضالة، 1977، ج 1، ص. 216؛ وانظر كذلك ص ص. 41 - 42.

(42) محمد حجي، جولات تاريخية، مرجع مذكور، ج. 2، ص. 560، 557، 573.

واستغلالها للعوالم الأخرى. فقد بدأت هذه القارة تستحوذ على المبادرة في العالم في حين دخل العالم الإسلامي بداية الانكماش. وعوض أن يبقى المغرب متخذا الجهاد الهجومي في علاقاته بأوربا، أصبح مكتفيا بالجهاد الدفاعي الهادف إلى صيانة الكيان والهوية كما يتجسد ذلك في الصرخات اليائسة التي تركها ابن يجبش التازي شاهد العيان والمعبِّر عن أهوال المغاربة واعتمادهم الجهاد الدفاعي.

وصرت حليف الحزم مما كتمته ... وبين ضلوعي مثل كي بجمرة
ولم أستطع صبرا، وكيف يصبح لي ... وقد هتكت من ديننا كل حرمة
وشاركنا الأعداء في قطر غربنا ... وقد أخذوا جل البلاد البهية
وقد أرعبت تلك السواحل منهم ... وصاروا يؤدون الخراج كجزية
ولم يقنعوا بما سبوا من بلادكم ... وإخوانكم في حين تلك القضية
فقصة أصيلا عرفتم جميعها ... وما فعل الأعداء من شر غدوة
فما حال من أضحى أسيرا مكبلا ... حقيرا فقيرا في هوان وشقوة
فبالأمس كانوا كالملوك بأرضهم ... وقد أصبحوا مثل العبيد الأذلة
أيا أولياء النصر، يا آل غربنا ... بكم تضرب الأمثال في كل بلدة
وأسلافكم لم تأل عن مستغيثها ... على نهجهم فامضوا بصدق عزيمة
وكم من جيوش أوردوها حتوفها ... وكم فرقوا في دهرهم من كتيبة
وكم وصلوا من ذمة لمن انتهى ... إليهم: كما يحكى عن أهل الجزيرة[43]

وتنتهي الدراسة بنهاية القرن الثامن عشر وبنهاية تجربة محمد بن عبد الله التجديدية، لما أثارت هذه الشخصية من تساؤلات اعتبرها بعض الباحثين "شخصية فريدة من نوعها قامت بدور طلائعي في التجديد والإصلاح"[44]. فإلى أي حد صدق هذا القول وأين يمكن وضع تجربة هذا السلطان التي اعتبرها عبد الله العروي

---

(43) أبو بكر البوخصيبي، أضواء على ابن يجبش التازي، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، 1976، ص ص. 145 - 147.

(44) الحسن العبادي، الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله العلوي (حياته - حركته السلفية - نهضته العلمية والإصلاحية)، الدار البيضاء، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر بنميد، 1987، ص. 9.

أساسية. "فمحمد الثالث ـ يقول العروي ـــ هو مهندس المغرب الحديث الحقيقي"[45]. واعتمدنا المدى الطويل في هذه الدراسة من أجل تتبع المراحل التي تمت فيها محاولات التجديد بالمغرب من أجل إبراز خصوصيات كل مرحلة وإدراك ما إذا كان الجديد مستمرا ومتراكما أم أنه كان يتميز بالانقسامية والتقطع وأن كل تجربة كانت تتوقف بموت المسؤول عن إبداعها.

لا نهدف إلى ابتكار في هذا الموضوع، ولا نعتقد أننا قد توصلنا إلى ذلك؛ ولكن الغاية التي أردناها بالأساس هي إعطاء قراءة جديدة لمراجع ومصادر معروفة وأخرى غير معروفة من منطلق إشكالية التجاوز. ما العوامل التي حالت دون "تقدم" المغرب؟ وهل يجب البحث عن هذه الأسباب في التأثيرات الخارجية أو أنها توجد مدفونة في ذاتنا ؟ وأي تاريخ نريد أن نكتب وكيف ؟ هل نستطيع التأريخ للمغرب بمعزل عن تاريخ العالم العربي الإسلامي ؟ ثم كيف نقرأ التراث المغربي بصفته جزءاً من التراث الإسلامي قصد النفاذ إلى منطق هذا الأخير واستخراج خصوصية المغرب ؟ إننا ملزمون بالتراجع عن أطروحة الماضي الخالد والممجد، ومطالبون بتحديد مضامين المفاهيم الإجرائية: التقدم، التأخر، الالتحاق، التفاوت.

فلهذا نعتقد أن التجاوز يندرج في مستويات وأبعاد لعل أهمها البعد المنهجي الذي يبقى متمركزا في الذات الأوروبية وعليها. وتؤكد الدراسات المنجزة في الموضوع اعتمادها المرجعية الأوروبية. ولهذا يوظف مفهوم "العقلنة" لتبيان واحتواء التقدم، فتلصق الدراسات هذه المفاهيم بأوربا في حين تحاول إلصاق "التأخر" والتراجع بالإسلام. فبقدر ما يشكل العقل ـ حسب هذا الاتجاه ـ محور الذات في أوربا، يحاول أن يظهر أن الحقيقة عند المسلمين تكمن في الاعتقاد في الله الذي هو ذات روحية على عكس ذات أوربا التي تبقى ذاتا مادية بالأساس. فإلى أي حد يمكن قبول هذا الطرح ؟ علينا ألا نتصور أن أوربا ذات متراصة تميزت بالعصرنة والحداثة والعقلنة على الدوام كما هو الحال اليوم. بل على العكس من

(45) عبد الله العروي، تاريخ المغرب، مرجع مذكور، ص. 257.

ذلك ـ كما سنرى ـ عاشت التجديد والعقلنة بالتدريج وكانت الحداثة تتصاحب وتتزامن مع القيم والعادات الموروثة التي كانت تناهض محاولات التجديد وتجابهها.

لعل أهم ما تميزت به أوربا منذ قرون هو وعيها بإمكاناتها الجديدة وقدراتها الكامنة في الإنسان. لقد فجرت الفردانية كل طاقات هذا الإنسان الذي أخرج أوربا من الانعزال والانغلاق وجعلها تكتسح العالم وتستغله. وبفضل هذه الحيوية وهذه الديناميكية، استطاعت هذه القارة الانفصال، ثم الابتعاد عن القارات الأخرى؛ وبفضل ذلك، استطاعت أن تتجاوزها، وإن كان ذلك ـ في أغلب الأحيان ـ على حساب ثقافات هذه الأخيرة وحضاراتها.

لقد كونت أوربا صورتها عنا بالتدريج وحسب المصلحة. فاهتمت أولا بحضارتنا، وأخذت منها ما احتاجت إليه. وعندما أفرغتها من مضمونها، ابتعدت وتركت وراءها تيارا حقودا مشوها للأحداث ومؤسسا لإديولوجية جديدة، صار يهدف من ورائها إلى استكشاف السبل والوسائل التي تمكنه من الهيمنة ومن تركيز التجاوز وتعميقه. وهكذا بات يظهر الإسلام والمسلمين في مرحلة ركود وتأخر. هل حقا لم يتمكن المغرب، المرتبط بإفريقيا وبالمشرق تاريخيا وجغرافيا والقريب من أوربا، من بلورة حضارة أصيلة متأصلة ؟ كيف تعامل المغاربة مع المستجدات الدولية خلال هذا العصر ؟ ما النتائج التي نجمت عن تراجع نظام التجارة الصحراوية وتقدم التجارة داخل المحيطات ؟ هل حقا ساهم النظام الاقتصادي الجديد في ربط المغرب بالخارج (أحمد المنصور الذهبي، محمد بن عبد الله) وجعل المخزن في قبضة الأجانب وفصله عن المجتمع ؟ لماذا لم تنجح مركزية الدولة ؟ ألم تكن لإرادة بعض السلاطين في هذا التمركز صلة بالتمزق والانقسامات التي كانت تهز المغرب بعد كل محاولة (بعد وفاة المنصور، وبعد وفاة المولى إسماعيل وبعد وفاة محمد بن عبد الله) هل وجدت بالمغرب فئة التجار وما الأدوار التي أدتها في علاقاتها بالمجتمع والمخزن ؟ كيف تعامل الإنسان المغربي مع مشاكل عصره ؟ وما الحلول التي فكر فيها من أجل مواجهة التحديات الداخلية والخارجية ؟ كيف وبماذا تميز النظام التعليمي ومأأهدافه ؟ ما مقرراته ومناهجه ؟

وما دوره في بلورة ثقافة مغربية ؟ ألم يكن له دور في تكريس ممارسات كانت مبنية على التكرار وإعادة إنتاج أنماط معهودة، و لم يستطع مسايرة التغيرات الحاصلة ؟ ما الأدوار التي قام بها العلماء إزاء هذه الأحداث؟ وما المواقف التي اتخذوها من محاولات التجديد التي تبناها بعض السلاطين ؟ فمن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، تناولنا الموضوع في ثلاثة أقسام:

خصصنا القسم الأول لدراسة الإطار النظري لظاهرة التجاوز، حيث وقفنا عند المصطلحات والمفاهيم لضبط مضامينها التي ترتبط بشكل أو بآخر بإشكالية الإقلاع والتجاوز؛ وعملنا من جهة ثانية على استخراج مضامين المفاهيم من داخل المنظومة المغربية عن طريق تمحيصها ومقاربتها بما جاء في فضاءات ثقافية وحضارية أخرى. فالعقلنة المغربية قد تختلف عن مثيلتها في أوربا بسبب المقومات الاقتصادية والاجتماعية التي تكون مسؤولة عن شحن مضمونها هنا وهناك.

وتناولنا في الفصل الثاني من هذا القسم المد الإيبري وما تسبب فيه من انكماش في المغرب.وحاولنا أن نبين في هذا الفصل كيف دخل المغرب مرحلة الجهاد الدفاعي وتخلى عن الجهاد الهجومي، إذ كانت له المبادرة في أوربا. ويتضمن هذا الانكماش دلالات كثيرة. وتعتبر المرحلة منعطفاً تاريخياً، لأن أوربا احتلت المجال وزعزعت البنى الاقتصادية والاجتماعية المغربية فأصبح التفاوت ملموسا وصارت المبادرة لصالح أوربا. وعملنا في هذا القسم على إبراز الكيفية التي استطاعت التوسعات الإيبرية أن تفرق بها بين المغاربة، فأفرزت أولئك الذين قبلوا بالاحتلال وآمنوا بالتعامل مع الأجانب، كما أظهرت المغاربة الذين رفضوه وعملوا على محاربته واستطاعوا من خلال هذه المواجهة المحافظة على الهوية الوطنية.

واهتم القسم الثاني بالمجالات التي عرفت محاولات التحديث. فتناولنا في فصله الأول تلك التي قام بها عبد الملك السعدي لإدخال المغرب في التجربة المتوسطية. ومحاولات المنصور الذهبي مسايرة التحولات الدولية. وأما الفصل الثالث، فقد خصصناه لتجربة محمد بن عبد الله ولإرادته الفعلية للتحديث.

وحاول القسم الثالث من الدراسة البحث في جذور العراقيل التي كانت تحول دون إقلاع المغرب. وهدفنا من هذا القسم هو إعطاء تفسيرات أو تأويلات للأسباب التي كانت كامنة وراء إخفاق محاولات السلاطين لتحديث البلاد. وقد خصصنا الفصل الأول من هذا القسم للوقوف عند الأزمات السياسية التي كانت تهز المغرب خلال العصر الحديث وتتسبب في هدم كل ما كانت تشيده الأجيال السابقة لهذه الأزمات (مرحلة أحمد المنصور فيما يخص أزمة مطلع القرن السابع عشر، وأزمة البواخر في مرحلة المولى إسماعيل). واهتم الفصل الثاني من هذا القسم بتدخل المخزن المغربي في التجارة الخارجية وتوجيهه لها بالاستعانة بالتجار الأجانب وأهل الذمة. فتهميش المخزن للتجار المحليين واحتكاره لهذا القطاع كانا من العوامل التي حالت دون ظهور هذه الفئة التجارية بالمغرب، ودعم تسلط الأجانب على قطاع حيوي ومحرك لاقتصاد البلاد. وتساءلنا في الفصل الثالث من هذا القسم عن وجود دبلوماسية مغربية أو عدم وجودها خلال الفترة التي درسناها، وانتهينا إلى القول بأن الدبلوماسية التي كانت أداة ومؤسسة فعالة استعملتها الدولة الوطنية الحديثة في أوربا لاكتساح العوالم الأخرى، لم ترق إلى هذا المستوى في المغرب، بل كانت هذه المؤسسة مؤشراً من مؤشرات تجاوز البلدان الأوربية له، لأن السفارة كانت مجرد سخرة في المنطق المخزني المغربي إذاك. ودرسنا في الفصل الرابع موضوع البحر في الذهنية المغربية، ولاحظنا أن البحر كان أساس النمو في أوربا الحديثة، وبيَّنا كيف استطاعت الدول التي أولت الاهتمام بالبحر أن تسود وتقود العالم (البرتغال، أنجلترا، هولندا). وتساءلنا عن الأسباب التي جعلت المغاربة يهملون البحر. وكان ذلك الإهمال من أكبر المصائب على حد قول السلطان المولى عبد الحفيظ ومن أهم أسباب التراجع في المغرب.

وخصصنا الفصل الخامس والأخير في هذا القسم للنظام التعليمي في المغرب، فأبرزنا فيه الارتباط الحاصل بين التعليم وتكوين أطر الدولة، وبيَّنا أنه - أي النظام التعليمي - كان مسؤولاً بدرجة كبيرة عن التراجع، لأنه لم ينفتح و لم يستوعب التحولات و لم يساير المنعطفات العالمية، وتسبب في ترديد أنساق متجاوزة وتكرارها وإعادة إنتاجها.

القسم الأول

التجاوز والمسألة الذهنية

الفصل الأول

عن العقل في التاريخ

تلجأ أوربا إلى تمجيد العقل والعقلنة لتميز نفسها عن غيرها. ويعتقد الأوربي أنه استطاع بفضل ملكة العقل أن يسيطر على العالم ويقوده. "فقد تساءل ماكس فيبر كيف ولماذا استطاعت ثقافة أوربا أن تصبح فريدة وتكتسب قيمة ذات بعد زمني؟ فأجاب: لاشك أن لهذا التمييز علاقة بالعقلنة"(46). فبفضل العقل، صارت أوربا جوهرة العالم ودماغ جسمه الضخم، على حد قول الشاعر بول فاليري(47). وبسبب هذا الشعور، أصبح الإنسان الأوربي يومن بأن له مسؤولية عن البشرية كلها. ومن أجل هذا، طالب أصحاب هذا الموقف بضرورة التركيز على أوربا العقل والعمل، لأن العقلية الأوربية لا تحددها ـ حسب هذا الاتجاه ـ التمثلات ولا التصورات التي تكون مبنية أساسا على الانطباعات بل تتجسد في نوع العلاقات التي نسجها وما زال ينسجها الإنسان في تعامله مع الطبيعة وفي الطرق التي يتدخل بها فيها. ويتجسد الإبداع الحقيقي البناء المتين في العلم والعمل لا في القول والتصور. وتكون الدولة في هذه الحالة البيئة الإنسانية والإطار السياسي اللذين يستعملهما الأوربي ويسخرهما لتحديد وبناء الشخصية التي أرادها ويريدها لنفسه والتي تتلخص في خلق الإنسان ـ المواطن.

لقد تمكنت أوربا(48) من فرض نموذجها وصارت المرجع الذي تقلده باقي الحضارات... ورأى دعاة المركزية الأوربية في هذا الواقع آفة أوربا التي صارت تتلذذ

(46) Julien Freud, *Sociologie de Max Weber*, Paris, P.U.F, 1966, pp. 122-123.

(47) C. Delmas. *op. cit.*, p. 122.

(48) تُسْتَعْمَلُ أوربا مفهوماً واسعاً، تدخل فيه الحضارة الأمريكية التي تبنت النموذج نفسه وصارت استمراراً لأوربا.

بالتفوق وتركن إلى الخمول، وربما لذلك ستفقد الريادة. "عندما تنتشر الحضارة الأوربية عبر العالم، وتصبح أوربا موجودة في كل مكان فإنها ستفقد لا محالة من سحرها ومن جاذبيتها فتهمل وتهمش"[49]. والسؤال الذي يشغل بال الأوربي هو: ما العمل حتى تبقى أوربا مصدرا للعقل وللعقلنة؟ وكيف تسخر هذه الآلة حتى تستمر في هيمنتها على الحضارات الأخرى؟ ويبقى هم هذه الحضارات منحصرا في تهافتها على الأخذ والاقتباس من أوربا والسعي إلى الاندماج في حضارتها.

فانظروا من حولكم، وانتبهوا قليلا إلى ما يحصل في العالم منذ قرن؛ لأنكم إن فعلتم ذلك، فسوف ترون أن الحضارة الأوربية لم تكن لتنزوي أو لتنكمش على نفسها بل العكس هو الذي حصل. فاعترفت لها الحضارات الأخرى بالتفوق... فأصبح العالم "المتخلف" لا يلوم أوربا في المحافل الدولية على محاولاتها لتغريبه، ولكن يعيب عليها عدم مده بالوسائل الكافية التي قد تساعده على الأخذ من حضارتهاوالاندماج فيها[50].

لقد تركزت الذهنية الأوربية منذ عصر النهضة على العقل واعتبرته أساس تكوين الإنسان الكامل والكوني. فهو المدرك لكل شيء والقادر على القيام بكل شيء، لأنه يجسد وحدة الكون وخليته المركزية[51] . فمنابع ومصادر المعرفة التي قد يحصل عليها الإنسان تتلخص في ثلاثة أسس: الحواس والعقل والإيمان. ولكل من هذه الأسس مسار وحقيقة. فعلى الإنسان معرفة ماهية وجوهر المقاصد التي يريدها. واعتماداً على ذلك يستطيع أن يختار هذا المعيار أو ذاك من أجل فك أسرار الكون، هذه الأسرار التي تظل، بالرغم من كل الصعاب، في متناول قدراته العقلية.

ويتضح مما سبق أن الإلمام بالمفاهيم يتطلب الوقوف عند مضامينها من أجل

---

(49) "car dès que l'europe est partout, elle cesse de fasciner, d'interpeller chez soi". voir Christiane Vilain gandossi et autres, Le Concept de l'Europe dans le processus de la CSCE: une approche interdisciplinaire tübingen, gunter narr verlag, tübingen, 1990, p. 11.

(50) Levi - Strauss, *Race et Histoire Moyenne*, Gonthier, 1978, pp. 51- 52.

(51) Eugène Garin, *La Renaissance: histoire d'une révolution culturelle*, Vervier, Marabout, 1970, p. 230.

تمحيصها وتحديد مقاصدها. فما المقصود بمفهومي العقل والعقلنة في أوربا وفي العالم الإسلامي؟ وهل هي مضامين جامدة أو أنها تتوفر على ديناميكية متغيرة، يخضع تقلبها لخصوصية هذه البيئة أو تلك كما يتأثر بظرفية هذا الفضاء الحضاري أو ذاك؟ وهل آلة العقل آلة منغلقة ومنكمشة على نفسها أو أنها منفتحة ومتراكمة تؤثر وتتأثر؟ وما المنطق الذي يتحكم في هذه العقلية أو في تلك؟ وما علاقات العقل المغربي - إن كان هناك من عقل مغربي - بالعقل العربي الإسلامي وبالعقل الأوربي؟ وإلى أي حد يمكن معالجة المفهوم من زاوية تأريخية؟ لكن قبل هذا وذاك، ما هي مضامين العقل في أوربا وغيرها؟

1 - مفهوم العقل عند المسلمين

خصص صاحب لسان العرب لكلمة /ع - ق - ل/ ست صفحات. ويمكن حصر مدلولها سواء في هذا المعجم أو في غيره في اتجاهين: أولا للكلمة مدلول معرفي يحيل على الفهم والعلم والإدراك والرأي. فالعقل، حسب ابن منظور، هو الحجر والنهي وهو عكس الحمق. وعقل الإنسان الشيء يعني فهمه وتدبره. واعتقل هي حبس، وعقل البعير: ثنى وظيفه مع ذراعه فشدهما معا بحبل هو العقّال. وللعقل من جهة ثانية مدلول خلقي، ويعني الكف عن الهوى، والكف عن الإساءة. والعقل مرادف للاتزان وحسن المعاملة. فالإنسان العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن الانغماس والتورط في المهالك[52]. فالعقل قوة ربانية يسّرها الله للإنسان ليستعملها ميزانا يميز به بين الخير والشر. فالعقل هو الإدراك والحكمة والصواب والعدل والواجب والحجة والبرهان[53]. والملاحظ أن المعاجم والموسوعات العربية قد انطلقت في تحديداتها لمضمون العقل من التحديدات الواردة في القرآن الكريم. وقد استعمل الله كلمة عقل تسعاً وأربعين مرة في كتابه العزيز. ولم ترد في صيغة الاسم، بل في صيغة الفعل الماضي مرة واحدة عند قوله تعالى: "يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من

---

(52) للمزيد، يمكن الرجوع إلى ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ص ص. 458 - 466.

(53) *Encyclopédie de l'Islam*, 2è édition, 1960, t. I, pp. 352-353.

بعد ما عقلوه"[54]. واستعملت الكلمة في صيغة المضارع ثمانا وأربعين مرة. ويحمل المعاني التي تدلّ عليها: /ع - ق - ل/ في القرآن تدور حول عدم الإدراك وغياب الفهم الناتج عن غشاوة الجهل التي تمنع هذا النور الإلهي وهذه الملكة من القيام بواجبها وتجعل الإنسان يعي ربه ليأخذ العبرة ويسير في الصراط المستقيم.

وانطلق فقهاء الإسلام من الاستعمالات القرآنية ليحددوا العقل التشريعي، أي العقل التكليفي عند المسلمين المراعين لله. وتساءل الحارث بن أسد المحاسبي: متى يسمى الرجل عاقلا عن الله تعالى؟ وكان جوابه:

> إذا كان مومنا خائفا من الله عز وجل. والدليل على ذلك أن يكون قائما بأمر الله الذي أوجب عليه القيام به، مجانبا لما كرهه ونهاه عنه. فإذا كان كذلك، استحق أن يسمى عاقلا عن الله، بل لأنه لا يسمى عاقلا عن الله من يعزم على القيام بشخصه فأقام على ذلك مصرا غير نائب[55].

ورأى الإمام الغزالي أن "العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، لأنه يجري فيه مجرى الثمرة من الشجرة، والنور من الشمس، والرؤية من العين فكيف لا يشرف ما هو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة؟!"[56]. لقد فصل هذا العالم الكلام عن العقل ولاحظ اختلاف العلماء في تحديد ماهيته واقترح اعتماد أربعة أسس لبلوغ ذلك: فالعقل يميز الإنسان عن الحيوان "فهو، في نظره، غريزة"[56] يتهيأ بها لإدراك العلوم النظرية و "العقل نور يقذف في القلب، به يستعد الإنسان لإدراك الأشياء"[56]. والعقل من جهة ثانية ميزان سخّره الله للإنسان ليميز الجائز، كما أن العقل يخول اكتساب التجارب التي تجعله "عاقلا في العادة"، وأخيرا يقول الإمام الغزالي: "فالعقل قوة تمكن الإنسان من إدراك عواقب الأمور"[57].

وشارك الفقيه اليوسي في هذا النقاش حول العقل الإسلامي ليلاحظ بأنه

---

(54) سورة البقرة، الآية 75.

(55) الحارث بن أسد المحاسبي وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي، شرف العقل وماهيته، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1986، ص. 32.

(56) المصدر نفسه، ص. 51.

(57) المصدر نفسه، ص ص. 58 - 60.

آلة خص الله بها الإنسان، وهو مناط التكليف الشرعي. والعقل - حسب اليوسي - على أربع مراتب: أولا ــ العقل "الفطري أو الطبيعي" وهو استعداد بالفطرة للإدراك، كعقل الطفل؛ ثانيا - العقل "بالملكة"، وهو الاستعداد لتحصيل النظريات بعد التحصيل على الضروريات؛ ثالثا ــ العقل "بالفعل"، وهي عملية تفرض استحضار ما هو مخزون بغير حاجة إلى الكسب ويعتمد التجربة؛ وأخيرا ــ العقل "المستفاد"، وهو الذي يستطيع أن يمزج النظري والتجريبي:" فإن كان العقل النظري - يقول اليوسي - حكمة نظرية، فإن العقل التجريبي حكمة عملية"[58]. ولا يتأتى هذا في رأي هذا الفقيه "إلا بنور الشريعة وبما يرضي الله"[58]. وهكذا يكون العقل قوة والعلم هو النور الذي يهتدى به. والمطلوب على الدوام من العقل المسلم هو التقرب إلى الله في كل حركة وبها والتبرؤ من الحول والجبروت، لأن من فضائل العاقل أنه "يزهد في الدنيا ويتنزه عن فضولها لأنه أعلم الناس بخستها وشرف الزهد فيها، وأن العالم الحق هو من ينزه علمه عن أن يجعله سلما للأغراض الدنيوية من مال وجاه ورياسة وتقدم وشهرة"[59].

ويعتبر علماء الإسلام العقل أول ما خلق الله. فهو القوة الطبيعية التي وهبها الله للجميع. ولهذا السبب سماه الفارابي بـ "الرأي المشترك". فإذا كانت النفس تحيل على المحسوس، أي على المادي، فإن العقل يحيل على الجوهر. لقد أثرت الفلسفة اليونانية على النقاش المرتبط بالعقل. ولاحظ بعض الباحثين أن العلماء المسلمين لم يستوعبوا التراث اليوناني، ولذلك لم يوظفوه ولم يستخدموه في حياتهم اليومية بل رأوا فيه أداة تقليد وتشويش يحدّ من ملكة الإبداع عند العلماء المسلمين لأن هؤلاء قد لجأوا إلى المزج أولا فيما بين المذاهب المختلفة، وثانيا مزجوا شروح أرسطو والفلسفة اليونانية عموما وفلسفة الشرق، وأخيرا مزجوا بين الفلسفة والشريعة. فالعقل القدسي أو القوة القدسية عند ابن سينا ما هي في

(58) الحسن اليوسي، القانون، مخطوط.، خ .ع.، رقم د 2382، الورقات 4 و 5 و 6.

(59) المصدر نفسه، ص ص. 185 - 186.

الحقيقة إلا العقل الفعال عند الإغريق[60]. ورأى دعاة هذا الموقف جدة في الفلسفة الأندلسية، وخصوصا عد أبي حيان التوحيدي الذي انتقد أرسطو وقال بأن للـ "عقل البسيط" وظيفة عملية نفعية. فالعقل الذي يستعمل العلوم الدينية يحاول أن ينتفع بها بعد الموت. وهكذا يوظف المومن قوته العقلية لمناهضة الشهوات التي تدخل ضمن العالم المادي. لكن عندما يستخدم عقله لاقتناء العلوم الدنيوية، يلجأ إلى ذلك قصد الاستفادة منها والانتفاع بها من أجل دفع المضار في الدنيا قبل الآخرة. وهكذا يكون أبو حيان قد ركز على العقل الوظيفي النفعي سواء في أمور الدنيا أو الآخرة.

ولابن خلدون موقف متميز في موضوع العقل لما له من علاقة بالبعد التاريخي الذي تبنيناه في هذه الدراسة. فالعقل - حسب هذا العالم - قوة يتوفر عليها ويشترك في امتلاكها كل البشر. فإذا كان العقل ملكة مشتركة بين الناس، فإنه لا يبقى على حال؛ بل ينمو ويزداد نباهة بحسب ظروف كل واحدوملابساته. "ولهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد العقل"[61]. وأشار ابن خلدون إلى أن نمو العقل يرتبط بالتدبير وحسن التنظيم، وألح هذا العالم على أهمية الكتابة في تكوين العقل؛ لأن الكتابة تساعد على المرور من النظري إلى العملي.

"وبيانه أن في الكتابة انتقالا من الحروف ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني... فهو ينتقل أبدا من دليل إلى دليل... فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات، وهو معنى النظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة، فيكسب بذلك ملكة من التعقل ويحصل به قوة وفطنة"[62].

وأتى ابن خلدون بمثل، فتحدث عن ديوان كسرى ليظهر للقارئ أهمية

---

(60) محمد المصطفى عزام، « مصطلح "العقل" بين الفلسفة والتصوف»، ضمن: **المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية**، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، 1995، ص ص. 23 - 49، وبالخصوص 27، 29، 32 - 33.

(61) ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، دار الفكر، 1981، ص. 541.

(62) **المصدر نفسه** .

الكتابة والحساب في مسألة التنظيم والضبط في الإدارة، لأن العقل يقتضي التدبير فيها. فبالإضافة إلى الحس التاريخي، اعتبر ابن خلدون العقل ظاهرة اجتماعية. فالإنسان اجتماعي الطبع لا يعيش منعزلا، بل يحتاج إلى مؤانسة أبناء جنسه ليستكمل ما يعجز عن تحقيقه بمفرده. ولمواجهة الاحتياج الطبيعي، برز العقل التنظيمي الذي يعتمد التجربة التي تطول أو تقصر حسب ثقافة المعني بالأمر. ولاحظ ابن خلدون أن نمو الدول وتجذر عمرانها يرتبطان بمكانة العقل وعظمته فيها. "وأما الفرس، فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متسعا لما كانت عليه دولتهم من الضخامة واتصال الملك"[(63)].

والعقل، حسب ابن خلدون، تاريخ مركب. فلا نستطيع فهم عقل مجتمع ما أو ثقافة ما إلا إذا انتبهنا إلى تداخل الثقافات. فالعقل اليوناني قد استفاد من الثقافة الفارسية وبني عليها. إذ استولى الإسكندر الأكبر على كتب الفرس وتعرف الإغريق على مقومات هذه الحضارة فأخذوا عنها ومنها. وتأسف هذا العالم لما صدر عن المسلمين الأوائل عندما دخلوا بلاد الفرس وقرروا حرق الكتب التي وجدوها بها: "إلا أن المسلمين لما فتحوا بلاد فارس ووجدوا فيها كتبا كثيرة، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذنه في شأنها وتنقيلها للمسلمين. فكتب إليه عمر بن الخطاب أن اطرحوها في الماء؛ فإن يكن فيها هدى، فقد هدانا الله بأهدى منه؛ وإن يكن ضلالا، فقد كفانا الله. فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا"[(64)]. وقد أظهر ابن خلدون العلاقة بين نمو العقل وازدهار العلوم وشموخ الدول، وتحدث عما سماه "تبحبح من السلطان والدولة العباسية". فقد اجتهد أمراء هذه الدولة في اكتساب العلم، ولا سيما المامون الذي انفتح على "الآخر" ولم يتردد في الأخذ عنه ولاحظ أن تراجع الغرب الإسلامي زمن المامون وبعده ناتج عن تراجع العقل فيه: "ثم إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه، اضمحل ذلك

---

(63) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الفكر، 1981، ص. 631.

(64) المصدر نفسه، ص. 631.

منـهما إلا قليل من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة علماء السنة"[65].

فتميز ابن خلدون يكمن في تناوله للظواهر الاجتماعية باعتماده على العقل التاريخي. وحاول فهم هذه الظواهر عن طريق علم العمران، فتمكن بفضل هذه الأداة أن يرفض الطوباوية في العمل السياسي ويقر بأهمية العقل لدراسة الحياة الواقعية التي هي - على حد قول عبد الله العروي - "بمجموع الأفعال البشرية الناتجة عن القوى الحيوانية بعد أن نظمها العقل حسب الهدف الإنساني الأسمى: العمران عند ابن خلدون"[66].

تخضع مضامين المفاهيم للظروف التي تتولد فيها ولتبدل الأحوال. ويشحنها الباحث بمعطيات ذات ارتباط متين بشواغل عصره. فإذا كان العقل نتاجا لعلم العمران عند ابن خلدون، فما هي المضامين التي خصه بها علماء الإسلام اليوم؟ اهتم محمد أركون بالعقل العربي الإسلامي وطالب بإعادة قراءة التراث الإسلامي انطلاقا من شواغل آنية واعتمادا على مناهج جديدة: "لقد انصب اهتمامي منذ سنين على إعادة قراءة القرآن اعتمادا على معطيات معاصرة ووفق مناهج جديدة"[67]. ويعيش محمد أركون في باريز ويغرف من المناهج الفرنسية؛ فهو من أولئك الذين يعانون من قلق مزدوج بسبب انتمائه إلى فضائين ثقافيين. فدراساته وتحاليله تهدف بالأساس إلى فرض الذات على الساحة الثقافية الفرنسية وكسب المشروعية فيها. فلم يكن مشروعه يخدم الثقافة الإسلامية، بل كان يسعى إلى فرض ذاته. فردد مقولات كان الباحثون الأوربيون يفضلون سماعها وقراءتها من أفواه وكتابات محمد أركون وأمثاله. لقد وجهت إليه انتقادات وعاب عليه بعض الباحثين لجوءه إلى إصدار أحكام وإسقاطات هذا العصر على الفترات التي

---

(65) االمرجع نفسه، ص. 633.

(66) عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ.، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1983، ص ص. 73 - 74.

(67) Mohamed Arkoun, *Lecture du Coran*, Paris, Larose, 1974, p. 120.

يدرسها. فقد خاطبه الباحث شارني في موضوع "العجيب في القرآن" بقوله: "إنـي أتساءل... عندما أراك تستعمل مناهج العلـوم الإنسـانية الحديثـة: ألا تسـقط إرهاصات راهنة على الفترة التي عرفت نزول القرآن؟"[67].

اكتسب محمد أركون شهرة وضخمت أعماله، لأنه كان ينتج على النمط الأوربي وزكّى فرضيّات وأطروحات أوربية. ومع ذلك، فإنـه بقـي خـارج النسـق العربي الإسلامي بل وربما خارج النسق الأوربي، وانطلاقا من أعماله، قد نطرح أو نعيد طرح السؤال الـذي طرحه محمـد عـابد الجـابري في شـأن مـا سمـاه بالجنسيَّة الثقافية عندمـا قـال: "إن هنـاك في العصـر الحـاضر قـاعدة عرقيـة تتحـدد بموجبهـا "الجنسية الثقافية" لكل مفكر. هذه القاعدة تقتضـي أن المثقـف لا ينسـب إلى ثقافـة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها و... في قضاياها بل ... بواسـطتها"[68]. فـإذا كـان محمد أركون قد درس العقل العربي الإسلامي بمنظور وبمنطق خارجي، فما المقاربـة التي يقترحها محمد عابد الجابري؟

تشكل مساهمة هذا الأخير نموذجـا آخـر في التفكـير والكتابـة عـن العقـل العربي. ويعتبر الجابري من منظري حزب الاتحاد الاشتراكي ويتحرك مُثقفاً عضوياً. بالإضافة إلى هذا، فإنه يبقى من مؤسسي التيار الفلسفي المغربـي. فـإذا كـان محمـد أركون قد درس بنية العقل العربي بهدف تسهيل مهمـة مثقـف الغـرب عـن طريـق فكه لبعض رموز مكونات الذهنية العربية، فإن محاولات الجابري تندرج ضمـن مـا سماه "المشروع النهضوي"، لأن نقد العقل جزء مـن كـل، "جزءٌ أساسـي وأولي في كل مشروع"؛ وهو يريد أن يدرس هذا العقل الذي "تكون وتشكل داخـل الثقافـة العربية وعمل بدوره على إنتاجها وإعادة إنتاجها"[69]. فالعقل المغربي جزء لا يتجزأ من العقل العربي الإسلامي، ومعرفة ثوابـت ومتغيرات هـذا العقـل تتطلـب معرفـة القـاعدة الثقافيـة الأم. وللوصـول إلى دراسـة الأصـل، يطـالب الجابـري بنقـد

---

(68) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، الدار البيضـاء، المركز الثـقافي العربي، 1991، ص.13.

(69) المرجع نفسه، ص. 5.

"القراءات الاستشراقية والسلفية والقومية أو اليسراوية التي توجهها نماذج سابقة أو شواغل إيديولوجية ظرفية جامحة"[70]. ولهذا يحث على الاهتمام بالعقل المكون داخل بيئته العربية الإسلامية على شرط أن يكون عقلا متجاوزا للخرافات والأساطير. ويلح على ذلك، لأنه اختار - عن وعي - التعامل مع "الثقافة العالمة". ويريد الجابري ممارسة النقد المتحرر والفعال من أجل "التحرر مما هو ميت أو متخشب في كياننا العقلي وإرثنا الثقافي، والهدف فسح المجال للحياة كي تستأنف فينا دورتها وتعيد فينا زرعها... ولعلها تفعل ذلك قريبا"[71].

فالعقل العربي هو النظام المعرفي القائم الذي له بنية تم إنتاجها داخل الثقافة العربية بكل آلياتها الإجرائية والمفاهيمية التي تغذت من هذه الثقافة وتأثرت بظروفها. ويقول الجابري إن البنية هي "الثوابت والمتغيرات الثقافية التي صنعت هذا العقل". واتهم في معرض كلامه عن البنية، العقل العربي والثقافة العربية "بالركود والسكون لا بالحركة"[72]، لأنهما يندرجان ضمن الزمن المطلق، الزمن الذي لا بداية ولا نهاية له: "إن الله هو الدهر... إن ما أصابك من الدهر، فالله فاعله"[73].

ترتبط مرجعية العقل العربي في رأي الجابري بعصر التدوين. وترتكز بنية هذا العقل على أسس أولها "قداسة اللغة العربية" حتى قيل عن الإنسان العربي بأنه "حيوان فصيح". فالعربية لغة القرآن، وتعتبر أهم مساهمة عربية في الحضارة الإسلامية. والأساس الثاني الذي ترتكز عليه بنية العقل العربي هو: الفقه الذي شكل على الدوام أهم ضابط للمجتمعات الإسلامية[74]. وفي الأخير، يكتمل هذا العقل العربي باعتماده واستفادته من تداخل الحضارات وتلاقحها. أرجع الجابري ركود المجتمعات الإسلامية وتراجعها إلى عدم اهتمام المسلمين بالعقل، وأوضح هذه الفكرة في آخر كتابه "**تكوين العقل العربي**" حين خلص إلى القول:

---

(70) المرجع نفسه، ص. 5.
(71) المرجع نفسه، ص ص. 7 - 8.
(72) المرجع نفسه، ص.42 و ص. 70.
(73) الجابري، **بنية العقل**، ص. 188 - 189.
(74) الجابري، **تكوين العقل...**، مرجع مذكور، ص ص. 75 - 80.

وإذن فالسؤال... لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم... أو لماذا لم تتمكن النهضة العربية في "القرون الوسطى" من شق طريقها نحو التقدم المطرد؟ هذا السؤال سيظل ناقصاً ومحدود الآفاق... ما لم يتجه مباشرة إلى العقل العربي ذاته. ذلك أن المسلمين إنما بدأوا يتأخرون حينما بدأ العقل العربي يقدم استقالته، حينما أخذوا يلتمسون المشروعية الدينية لهذه الاستقالة؛ في حين بدأ الأوربيون يتقدمون، حينما بدأ العقل عندهم يستيقظ ويسائل نفسه. أما الرأسمالية، فهي بنت العقل[75].

وهكذا يكون الجابري قد تناول العقل من منطلق الفيلسوف الباحث عن بلورة مشروع نهضوي، والمعتمد في مقاربته على منهج البنيويين؛ في حين عالج عبد الله العروي الموضوع من زاوية تاريخية.

شكل التأخر أساس أعمال العروي، وتميزت مقاربته للتجاوز بالجدل والسجال، ويرجع ذلك إلى انفتاحه على حضارات الغرب وثقافاته عموماً، والفكر والذهنية الأوربية بالخصوص. واستطاع بفضل هاجسه المنهجي المنفتح وواسع اطلاعه أن ينفذ إلى عمق هذا الفكر ليدرك مكونات الشخصية الأوربية ومقوماتها والمنطق الذي يحركها. وقد لجأ العروي باستمرار إلى هذا الفكر لفهم ومناقشة القضية المركزية التي تشغل باله وتهيمن على جل مساهماته كما يوضح ذلك بنفسه عندما قال:

بعد أن أعدت قراءة مجموعة من المحاضرات والمقالات أعددتها في مناسبات عدة حول السياسة والثقافة ومنهجية البحث التاريخي، بدأت أحس أن المشكل الأساسي الذي أحوم حوله منذ سنين هو الآتي: كيف يمكن للفكر العربي أن يستوعب مكتسبات الليبرالية قبل (وبدون) أن يعيش مرحلة ليبرالية؟[76].

واعتبر العروي أن أساس التأخر في المجتمعات العربية راجع لغياب الوعي التاريخي عندها، لأن المجتمعات المتقدمة هي التي تعي تاريخها. والتحديد الحقيقي في رأي العروي مشروع "مواز لتحديث المجتمع وتغيير ذهنية المؤرخ نفسه"[77]. فقد ركز العروي على أهمية التاريخ في تأسيس الوعي وتقويته وتحصينه بالتقدم. واعتبر

---

(75) الجابري، تكوين العقل...، مرجع مذكور، ص. 347.

(76) العروي، العرب والفكر التاريخي، بيروت، دار الحقيقة، 1973، ص. 7.

(77) العروي، مجمل تاريخ المغرب، الرباط، المعارف الجديدة، 1984، ص ص. 21 - 23.

التاريخانية الأساس والاستراتيجية التي يجب تبنيها من أجل الالتحاق بأوربا ومسايرة العصر. "ترى التاريخانية في مسيرة الزمان فعلا إيجابيا ترتقي جنبها الأشياء عبر درجات متنامية من الاكتمال، وهي الرد العملي على التخلف بنواحيه. إذ هي بمثابة برنامج جامع الأبعاد"[78].

فالتاريخانية تعتبر التاريخ وحدة مسترسلة تقوم على ما سماه عزيز العظمة بـ "الغائية: لأن المستقبل غاية اليوم كما أن اليوم غاية الأمس والتاريخانية نبض أساسي هو إرادة العمل، وإرادة النهضة والتحرر والتقدم والترقي، والتاريخ تحتية هذا التحول ومآله"[79]. فالتاريخانية عند العروي هي العقل التاريخي. لهذا نراه يفسر تقدم أوربا وتجاوزها للقارات الأخرى بلحوثها للحس أو للوعي التاريخي. وليس المقصود بالعقل الحقيقة المطلقة أو العقل المجرد. فالتاريخانية تدرس روح العصر وتعمل على إدراكه، "لأن روح كل عصر يحدد أفق أفكار ذلك العصر. فلكل حقبة تاريخها المطلق"[80].

ويستعمل عبد الله العروي العقل التاريخي في مستويين. فإذا كان المستوى الأول يتجسد في التاريخ المحلي ويدرس البيئة التي ينتمي إليها المؤرخ، فإن المستوى الثاني يكون أوسع ليشمل الفضاء العربي. والاهتمام بالمحيط العربي يهدف إلى المحافظة على الشخصية العربية على أساس أن تكون الغاية المتوخاة هي "العمل على تحديث المجتمع العربي". ولأجل بلوغ ذلك، يطالب العروي بتجاوز البؤس والانتظار اللذين يطبعان واقع المثقف العربي "الذي يعيش اليوم في بؤس، لأنه يعيش في مجتمع ليس في مستوى العصر. ولن يرتفع هذا البؤس إلا إذا عمل (المثقف) على تغيير مجتمعه جذريا وواقعيا من أجل أن يخرج العرب بعد الخيبة والانتظار من شتاتهم الطويل"[81]. وقد أحال العروي هذا التمزق وهذا التأخر على

---

(78) العروي، العرب...، مرجع مذكور، ص ص. 149 - 150 و 170 - 171.

(79) عبد العزيز العظمة، "بين الماركسية الموضوعية وسقف التاريخ مناقشة لفكر عبد الله العروي" في مجلة الكرمل، فصلية ثقافية، عدد 13 سنة 1984، ص ص. 72 - 73.

(80) العروي، مفهوم الإيديولوجيا، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1980، ص. 59.

(81) العروي، العرب ...، مرجع مذكور، ص. 206.

ضعف العقلنة عندنا. ولنتجاوز هذا الواقع، فإنه "لا مفر من الاعتراف بأن حظوظ العقلنة الشاملة عندنا ضعيفة جدا وربما مستحيلة، إذ النظام مشيد لكي يضمن لذاته الاستمرار على الحالة التي هو عليها"[82].

فالنظرة التاريخية الواعية هي الكفيلة والواعدة بتجاوز العقبات. لذا طالب العروي بضرورة بنائها على أساس المنفعة "إذا أردنا أن نعيش في عالم اليوم. أما إذا أردنا أن نموت وندفن ونجعل من بلادنا حديقة حيوان يتفرج علينا السواح، فلنا ذلك"[83]. إن استيعاب التاريخ أمر ضروري. فإن قمنا بذلك، فإننا سندرك أن العالم الصناعي المتحكم اليوم في الكون قد تأتى له ذلك لأنه استفاد من التاريخ وسخره في تحديد سلوكه وبرمجة أعماله وخطط لعلاقاته الدولية وبناها على أساس المنفعة وتجاوز التقليد ووهم التواتر على حد قول الشاعر جوته:

التقليد يا جاهل ... هو أيضاً وهم من الأوهام[84]

وبقدر ما طالب العروي بالوعي التاريخي، كان يلفت الانتباه إلى خطورة الانتظار والتقاعس. وقد أنهى كتابه "**العرب والفكر التاريخي**" بصرخة لا تخلو من نبرة يأس واستعطاف مطالباً بتبني العقل التاريخي لركوب آمال المستقبل: "حان الوقت للمثقف... أن يلتزم نهائياً بمنطق العقل التاريخي... والهدف من هذا العمل الذي قد تتعدد ألوانه وأشكاله تحديث المجتمع العربي"[85].

اختلفت مضامين مفهوم العقل في الثقافة الإسلامية باختلاف المنطلقات والشواغل. فالعقل قوة إلهية، وهو "القسطاس" والآلة التي وهبها الله للإنسان "لبث العدل والإحسان"[86] وحسن السلوك:

---

(82) المرجع نفسه، ص. 198.

(83) المرجع نفسه، ص. 64.

(84) المرجع نفسه، ص. 57.

(85) المرجع نفسه، ص. 206.

(86) محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، بيروت، دار الكتاب العربي، ج. 7، ص. 73.

مـا أحـســن الـعـقـل وآثـاره	لـو لازم الإنـسـان إيـثـاره
يـصون بالعـقـل الفـتـى نفسـه	كـما يـصـون الـحر أسـراره[87]

2 - مفهوم العقل عند الأوربيين

والعقل بنية ووعي تاريخي، واعتماده ضرورة لتجاوز التأخر. هكـذا تنـاول العلماء المسلمون والعرب مفهوم العقل. فكيف قدمتـه الدراسـات الغربيـة؟ اعتبرتـه قوة متحركة ومتجددة، لأنها تخضع لتبدل الأحوال والظروف. وينتقـل العقـل مـن البسـيط إلى المعقـد ويربـط حـاضر الإنسـان بماضيـه، وعـن طريقـه يتصـل الإنسـان بأجداده الأقدمين أكثر مما يتصل بهم عن طريق الروابط الطبيعية والعرقيـة. ولأجـل هذه الخاصية، آمن الأوربيون بالتدريج في تكوين العقل اعتماداً على التراكم. ولهـذا يختلف عقل اليوم عن عقل الأمس وقد يكون مغايرا غداً لما هو عليه اليـوم. فـالعقل عمليـة مسـتمرة التكويـن تشـارك في بلورتـه ثقافـات وحضـارات بشـرية اختلــف عطاؤها باختلاف الظروف. وقد عبر الباحث الأمريكي عن هذه الوضعية بقوله:

ولو اعتبرنا أن القرن الحادي عشر يمثل نهاية تلـك "العصـور المظلمـة" التـي كـانت الشعوب الغربية أثناءها تكافح لتأمين الأسس المادية لحياتها، لوجب علينا أن نقـر أن أوربا الغربية لم تكن حينذاك سـوى أحـد المراكـز النائيـة في الحيـاة البشـرية... وفي الشرق البعيد كانت... بغداد قصبة الخلافة العباسية وموطن العلم الإغريقـي. ففيهـا نشط العقل وإليها انتقلت الفلسفة اليونانية ومعرفة الطبيعة بعـد أن طردهـا التعصـب الدينـي مـن القسـطنطينية... وكـان علمـاء المسـلمين ينظـرون مـن مدنهــم الغنيـة ومكاتبهم الزاخرة بالكتب النادرة الثمينة نظرة احتقار صـوب الشـمال حيـث كـان شعب بسيط يعيش في فرنسا وألمانيا[88].

وكانت النهضة الأوربية منعطفاً حاسماً. فقد قـوت الاتجـاه المنـاهض لـلزهد والمطالب بالعقلنة وبالانطلاق من الإنسـان ومـن الحيـاة الـتي يعيشـها هـذا الأخـير.

---

(87) محمد المقري التلمساني، **مصدر مذكور**، ج. 4، ص. 321.

(88) جون هرمان رانـدال، **تكوين العقل الحديث**، ترجمة جـورج طـعمـة، بيروت، دار الثـقافـة، طبعـة ثانيـة، 1965، ج. 2، ص ص. 54 - 55.

ودافع دعاة العقل عن الاهتمام بالإنسان في هذا الكون والتخلي عن الإهتمام بـه في الآخرة. وركزت النزعة الإنسية على اعتباره مقياساً لكل شـيء. "فالنزعـة الإنسـية إذن نسق من القيم... مثلها كمثل أي مذهب من مذاهـب القيـم الكـبرى في عـالم الغرب... إن الإنسان يمكن أن يكون معياراً لكل شيء"[89].

عرفـت أوربـا نهضـة القـرن الثـاني عشـر نتيجـة احتكاكهـا بالحضـارة الإسلامية، وشكلت الحملات الصليبية أولى محاولاتها في السيطرة علـى الأرض وفي ابـتزاز خيراتهـا. وارتبـط العقـل الأوربـي وقتهـا بإيلائـه الأهميـة لحضـارة المدينـة ومؤسساتها، وازداد اهتماماً بالتجارة. وقد عبر جـاك لوكـوف عـن هـذه الوضعيـة قائلا:

كانت سنة 1095 منطلق المغامرة الصليبية التي عرفت مشاركة الأفراد والجماعـات. وترجع أسباب هذه المغامرة إلى واقع أوربا الجديد والذي كان يتمثل في ارتفاع عدد سكانها، وفي إرادة الأوربيين مشاركة التجار الإيطاليين في أرباحهم بالإضافـة طبعـا إلى سياسـة البابويـة الهادفـة إلى استغلال الفرصـة مـن أجـل توحيـد الإمبراطوريـة المسيحية. وقبل هذا وذاك، فالاندفاع الصليبـي كان بمثابة انفجـار لذهنيـة المسـيحي التي كانت تحلم على الدوام بخيرات الشرق[90].

وتحول العقل الأوربي إلى الاهتمام بالتجربة والعمل من أجل السيطرة علـى الطبيعة لما في ذلك من منفعة. فلم تعد غاية الإنسان مجد الله، بل صـار يبحـث عـن الطرق التي يستعمل فيها العقـل العملـي لمزيـد مـن المعرفـة النافعـة. وكتـب روجـي باكون في هذا الصدد قائلا: "هناك طريقتان لاكتساب المعرفة: البرهان والتجريـب. أما البرهان، فهو يغلق المشكلة ويجعلنا نحن نغلقها أيضـاً. ولكنـه لا يقـدم دليـلا ولا يزيل الشك ولا ينتهي بالعقل إلى الراحة المنبثقة من الوعـي لامتـلاك الحقيقـة إلا إذا

---

(89) كرين برينتون، **تشكيل العقل الحديث**، ترجمـة شـوقي جـلال، الكـويـت، عـالم المعرفـة، 1984، ص. 60.

(90) Jacque le Goff et Pierre Nora, *Faire de l'Histoire nouveaux objets*, Paris, Gallimard, Tome III, pp .76-77.

كانت الحقيقة قد اكتشفت عن طريق التجريب"[91]. ودعم هذا القول جون لوك معتبرا التجربة أساس المعرفة.

ويعتبر عقل القرن الثامن عشر نتيجة طبيعية لتراكم حاصل خلال العصور السابقة. ولهذا تحدث فلاسفة هذا القرن عن قفزة التنوير وربطوا العقل بالحرية: "أما بالنسبة للتنوير، فلا شيء مطلوب غير الحرية بمعناها الأكثر براءة، أي تلك التي تقبل على استخدام علني للعقل في كل الميادين... إن الاستخدام العام لعقلنا لابد أن يكون حرا في جميع الحالات وهو الذي يستطيع وحده أن يأتي بالتنوير إلى البشر"[92]. لاشك في أن أوربا قد عرفت خلال عصر الأنوار تجذراً ورسوخاً لمفاهيم المجتمع المدني من قبيل المواطنة والمسؤولية والحرية. ومع ذلك، فإن العقل الأوربي عموما والعقل السياسي كان يتميز بالاختلاف والتنوع تحت وطأة الظروف البيئية والطبيعية كما ألح على ذلك مونتسكيو الذي كان يرى في المناخ البارد مصدراً لقوة وحيوية الإنسان الذي يعيش فيه. ولاحظ مونتسكيو أن شعوب المناطق الباردة تشعر بالتفوق ولها شجاعة تجعلها تعمل كما يعمل الشباب. وعلى العكس من هذا، فإن شعوب البلدان الحارة تكون خجولة وتتحرك كما يتحرك الشيوخ... وبقدر ما تكون الحساسيات والانفعالات قليلة في المناطق الباردة بسبب طبيعة المناخ فيها، فإنها تزداد ارتفاعا في البلدان المعتدلة حتى تصل إلى أقصاها في المناطق الحارة[93].

فالتاريخ أساس البناء في أوربا، أو كما قال العروي: "أوربا فكرة مرادفة للتاريخ"[94]. وهو ما أشار إليه هير بأوربا الوحدة التاريخية: "مازالت (أوربا) تعيش اليوم ميراث العصر الوسيط، لأن التاريخ واقع حاضر والحاضر واقع تاريخي.

---

(91) جون هرمان راندال، **تكوين العقل الحديث**، مرجع مذكور، الجزء الأول، ص. 340.

(92) إيمانويل كانط، " ما هو عصر التنوير؟"، ترجمة يوسف الصديق، مجلة **الكرمل**، العدد 13، السنة 1984، ص. 61.

(93) Montesquieu, *De l'Esprit des lois. Les grands thèmes*, Paris, Idées, 1970, pp. 191-193.

(94) A. Laroui, *Esquisse*, p. 172.

ولاشك في أن للقلق والأزمات التي نعيشـها اليـوم تجـذُّراً في العصـور السـابقة"[95].

وهكذا يكون تقدم أوربا غير منفصل عن عقلها التاريخي، لأنها استطاعت بواسـطة هـذا العقـل أن تسـاير التغيرات. والتحـولات لا تعنـي الانكسـار في الزمـن أو في التاريخ، لأن الحاضر استمرار للماضي وتهيـيء للمستقبل. ولعل النقاش الدائر اليوم عن أوربا: أية آفاق؟ لدليل واضح على اهتمـام الأوربـيـن بالتـاريخ بصفتـه وحـدة، بمعنى استمرار الماضي في الحاضر وتهييء المستقبل في الحاضر.

لقد شكل انهيار حائط برلين منعطفا للعقل الأوربي، لأنـه أنهـى قناعـات وزعزع ذهنيات، فأصبح النقاش دائرا حول مصير أوربا ومستقبلها.

وفي هـذا الصـدد، نشـرت جريـدة فرنسـية مسـائية مقـالا لعميـد إحـدى الجامعات الألمانية في برلين[96]. وتساءل صاحب المقال عن العمل الذي يجـب القيـام به في أوربا اليوم. ولاحظ وجود اتجاه يقـول بنهايـة التـاريخ بعـد سـقوط الأنظمـة الاشتراكية، واعتبر المؤلف أصحاب هذا الاتجاه دعاة الاطمئنـان لأنهـم اعتقـدوا أن الهيمنة صارت في يد الغرب. وأمـا الاتجـاه الثـاني، فيتلخـص في دخـول العـالم بعـد 1989 منعطفا جديدا، أصبـح يتميز بمرحلـة المواجهـة الثقافيـة. ولاحـظ المؤلـف أن المبادرة الاقتصادية صارت لصالح آسيا. وتسـاءل عـن السـبب في ذلـك قـائلا: ألا يمكن أن نجده في الثقافات الآسيوية نفسها؟ ألا يمكن أن نجد في الديانة الكونفوشـية مصدر هذه الانطلاقة الاقتصادية عوض أن تكون عرقلة كما كـان مشـاعا؟ وحتـى تحافظ أوربا على مسايرة العصر، طالب صاحب المقـال بانفتـاح الثقافـات الأوربيـة على الثقافات الأخرى:

"على مجتمعاتنا الصناعية التي كانت تنصب نفسها أستاذاً للمجتمعات الأخرى أن تعيد النظر في سياستها؛ وعوض أن تظل تتعامل مع الثقافـات الأخـرى علـى أسـاس أنها الأسـتـاذ، فقـد حـان الوقت لأن تجعل نفسـهـا تلميـذا وأن تتخلـى عـن تصديـر

---

(95) Friedrich Heer, *L'Univers du Moyen Age*, Paris, Fayard, 1970, p.7.

(96) Wolf Lepinies, " le Fondamentalisme occidental est depassé ", in *Le Monde* du 17 fevrier 1996, N° 15881, p.13.

ولاشك في أن للقلق والأزمات التي نعيشــها اليـوم تجـذُّراً في العصـور السـابقة"[95].

وهكذا يكون تقدم أوربا غير منفصل عن عقلها التاريخي، لأنها استطاعت بواسـطة هـذا العقـل أن تسـاير التغيرات. والتحـولات لا تعنـي الانكسـار في الزمـن أو في التاريخ، لأن الحاضر استمرار للماضي وتهيـيء للمستقبل. ولعل النقاش الدائر اليوم عن أوربا: أية آفاق؟ لدليل واضح على اهتمـام الأوربيـين بالتـاريخ بصفتـه وحـدة، بمعنى استمرار الماضي في الحاضر وتهيـيء المستقبل في الحاضر.

لقد شكل انهيار حائط برلين منعطفا للعقل الأوربـي، لأنـه أنهـى قناعـات وزعزع ذهنيات، فأصبح النقاش دائرا حول مصير أوربا ومستقبلها.

وفي هـذا الصـدد، نشـرت جريـدة فرنسية مسائية مقـالا لعميـد إحـدى الجامعات الألمانية في برلين[96]. وتساءل صاحب المقال عن العمل الذي يجـب القيـام به في أوربا اليوم. ولاحظ وجود اتجاه يقـول بنهايـة التـاريخ بعـد سـقوط الأنظمـة الاشتراكية، واعتبر المؤلف أصحاب هذا الاتجاه دعاة الاطمئنـان لأنهـم اعتقـدوا أن الهيمنة صارت في يد الغرب. وأمـا الاتجـاه الثـاني، فيتلخـص في دخـول العـالم بعـد 1989 منعطفا جديدا، أصبـح يتميـز بمرحلـة المواجهـة الثقافيـة. ولاحـظ المؤلـف أن المبادرة الاقتصادية صارت لصالح آسـيا. وتسـاءل عـن السـبب في ذلـك قـائلا: ألا يمكن أن نجده في الثقافات الآسيوية نفسها؟ ألا يمكن أن نجد في الديانة الكونفوشـية مصدر هذه الانطلاقة الاقتصادية عوض أن تكون عرقلة كما كـان مشـاعا؟ وحتـى تحافظ أوربا على مسايرة العصر، طالب صاحب المقـال بانفتـاح الثقافـات الأوربيـة على الثقافات الأخرى:

"على مجتمعاتنا الصناعية التي كانت تنصب نفسها أستاذاً للمجتمعـات الأخـرى أن تعيد النظر في سياستها؛ وعوض أن تظل تتعامل مع الثقافـات الأخرى على أسـاس أنها الأسـتـاذ، فقـد حـان الوقت لأن تجعل نفسهـا تلميـذا وأن تتخلـى عـن تصدير

---

(95) Friedrich Heer, *L'Univers du Moyen Age*, Paris, Fayard, 1970, p.7.

(96) Wolf Lepinies, " le Fondamentalisme occidental est depassé ", in *Le Monde* du 17 fevrier 1996, N° 15881, p.13.

ثقافتها كالمعتاد وتلجأ إلى تبني سياسة ثقافية جديدة تكون مبنية على الاستيراد".

فالمطلوب اليوم سياسة ثقافية تكون أكثر ملاءمة للظروف التاريخية ويكون هدفها الأساسي بناء هوية أوربية جديدة تكون قادرة على صيانة سيطرة أوربا الثقافية على العالم وعلى تقوية هذه السيطرة[97]. فالعقل الأوربي إذن عقل تاريخي نفعي متغير وتراكمي يعتمد التجديد ليساير الظروف ويطابق كل الممارسات. فهل يمكن قول الشيء نفسه عن العقل المغربي تاريخاً وممارسةً؟

3 - العقل في تاريخ المغرب

فالعقل في دار الإسلام هو غير العقل في دار الحرب. ولتوضيح اختلاف منطق العقلين ، سنقف عند العقل في الممارسة السياسية المغربية انطلاقا من مراسلات بعض السلاطين المغاربة. وبالرجوع إلى نماذج من هذه الرسائل، نلاحظ أنها كانت تستحضر نموذج النواة الأصلية ونقصد بها مراسلات الرسول عليه السلام سواء تعلق الأمر بالشكل أو بالمضمون في بعض الحالات. ولنقترب من المقصود أكثر، نسوق الأمثلة التالية:

1) "بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأضحم عظيم الحبشة. سلام على من اتبع الهدى".

2) "بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله إلى من بلغه كتابي هذا... سلام على من اتبع الهدى"[98].

3) "بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله تعالى الإمام المظفر بالله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب

---

(97) "Aspirer à la domination culturelle a toujours été l'un des buts de la stratégie politique et économique de notre continent" (Wolf Lepinies, *Le Monde*).

(98) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النقاش، الطبعة الخامسة، 1985، ص. 103 و 109 و 339.

العالمين الشريف الحسني إسماعيل بن الشريف الحسني الله وليه إلى عظيم الروم... لويس الرابع عشر من هذا الإسم السلام على من اتبع الهدى أما بعد..."[99].

لم تقتصر المراسلات الرسمية على استحضار الشكل الذي كان متبعا عهد الرسول والخلفاء، بل كان السلاطين المغاربة يستحضرون المضمون أحياناً. فقد بعث المولى إسماعيل برسالة إلى لويس الرابع عشر بتاريخ 15 شتنبر 1681 يذكره فيها بالرسالة التي بعث بها النبي محمد عليه السلام إلى جد لويس الرابع عشر هرقل إمبراطور الروم ناشده فيها بالدخول إلى الإسلام. ولأجل هذا، فإن المولى إسماعيل[100] أراد ربط الماضي بالحاضر وطالب لويس الرابع عشر بالدخول إلى الإسلام اعتماداً على الرسالة التي وجهها الرسول وهي:

" بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم، واسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فعليك إثم الإريسيين"[101]. وقد راسل المولى إسماعيل سلطان الإنجليز جيمس الخامس في "مسألتين... إحداهما دينية، والأخرى سياسية دنيوية". فأما الغاية الدينية، فهي "التنبيه لك (يقصد المولى إسماعيل في خطابه لجيمس الخامس) والإيقاظ والنصح والإرشاد". وبعدما ذكره المولى إسماعيل بحسن العلاقات المغربية الإنجليزية، بدأ يسرد له محاسن الإسلام معتمداً في ذلك على القرآن والحديث: "وها نحن قد أملينا عليك نبذة من الآي القرآنية والأحاديث النبوية والدلائل المعقولية المطبقة على أفضلية هذا الدين". وبعد تمجيده للإسلام، أنهى المولى إسماعيل رسالته بدعوة جيمس الخامس إلى اعتناق هذا الدين: "وأنت حمّمت مع رأسك وفكرت في نفسك واخترت الدار الآخرة على الدنيا ودخول الجنة على

---

(99) عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الرباط، المطبعة الوطنية، 1347 هـ ،الجزء الثاني، ص. 54.

(100) *S. I. H. M.* 2ème série filalienne, tome I, pp. 571-572.

(101) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص. 109.

النار؛ فأنت عرفت سبيلها فاتبع هذا الدين الحنفي وانطق بالشهادتين"[102].

فبالاعتماد على هذه الرسائل نكون فكرة عن العقل السياسي المغربي الذي لم يكن يساير التحولات التاريخية التي طرأت. فلو كان يعي ذلك، لما خاطب الملوك الأوربيين بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة، لأن الأسلوب الذي اختاره لا يلاءم ولا يخدم العمل الدبلوماسي المغربي. هذا لو أمكننا الحديث عن دبلوماسية مغربية خلال هذا العصر. فالخلط كان أساس الممارسة الدبلوماسية المغربية كما توضح ذلك الرسائل التي كان السلاطين المغاربة يتبادلونها مع هولندا. وتظهر هذه المراسلات عدم إدراك المسؤولين المغاربة لطبيعة نظام الحكم في هذا البلد. ولهذا لقبوه بألقاب مختلفة: فالمراسلات الإسماعيلية كانت تتحدث عن عظماء الروم بفلامنك: (رسالة مؤرخة 1682). وتذكرهم بلبنطيس أونياضاس[103]. وتتحدث رسالة بعث بها السلطان عبد الله بن إسماعيل عن الاصطادوس، وتستعمل كذلك القائمون بديوان الفلامنك[104]. ونشعر بحيرة محرر المراسلة الذي يكتفي أحياناً باستعمال كلمة "القائمين" أو المشرفين أو المتولين لأمورهم (العمالات المتحدة). ورافق هذا الخلط كل التحركات المغربية اتجاه العمالات المتحدة وتسبب في مشاكل كثيرة بين المغرب وهذه العمالات.

و لم يكتف سلاطين المغرب بهذا الحد، بل كانت تصدر منهم تصرفات لا تتلاءم والممارسات الدبلوماسية. وشكلت هذه التصرفات مؤشرات لتبيان التجاوز الذي كان حاصلا في الممارسات السياسية بين المغرب وأوربا. فكان السلاطين يتدخلون للمطالبة بتعيين هذا القونصو أو بإبعاد آخر. ونورد مثلاً على ذلك رسالة وجهها السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى العمالات المتحدة بتاريخ 12 شتنبر

---

(102) ابن زيدان، إتحاف...، الجزء الثاني، ص. 61.

(103) يمكن الرجوع في هذا الصدد إلى الوثائق التالية: دار المحفوظات الوطنية في لاهاي 08 - 01 - 1/ رقم 12578 ؛ 04 - 01 - 1 / رقم 6962 ؛ 08 - 01 - 1 / رقم 51/ 12578 ؛ 08 - 01 - 1 / رقم 52/ 12578 ؛ 04 - 01 - 1 / رقم 241/ 12597.

(104) دار المحفوظات الوطنية في لاهاي، 6969.

1766 طالبها فيها بالعمل على إبعاد القونصو دي ميطري، لأنه لا يستحمله:

إلى جماعة الاصطادوس سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإن قونصكم دي مطري كبر سنه وتعددت منفعته لكم ولم يوافق خاطرنا قبل. والذي يعجبنا هو أن تجعلوا في موضعه التاجر ككلير الذي هو خليفة قونصكم بثغر أسفي[105].

وكان السلاطين المغاربة يخاطبون المسؤولين الأوربيين في رسائلهم بصيغ وعبارات توحي بالترفع وبالأمر وكأنهم يراسلون رعاياهم. ونذكر مثالاً على ذلك الرسالة المؤرخة في أوائل ربيع الأول عام 1183 هـ والموجهة من السلطان المغربي إلى الأمير الهولندي وقد حررت بالصيغة الآتية:

اعلم أن حامل هذا الكتاب... كان بعث به طاغيته لخدمتنا المباركة وبقي في الخدمة مدة من أعوام. وقد طلب منا الرجوع إلى أهله، فأجبناه لذلك. وها نحن وجهناه وأمرنا بالجواز إلى مَسْتِرْضَمْ. فنأمرك ان تستوصي به خيرا[105].

وكان السلاطين المغاربة يستعملون أساليب الابتزاز في مراسلاتهم، وهي أساليب تخالف الأعراف الدبلوماسية. فنرى المولى إسماعيل يكتب ليصرح بأنه يقبل بالهدنة مع هذا البلد أو مع ذاك؛ إلا أنه يذكر البلد بأنه لا يقبل بالهدنة إلا إذا توصل بما يريد من مصالح تكون أحيانا خاصة به: "وهذا الأمان لا ينعقد بيننا وبينكم إلا بعد أن توجهوا لنا كروسة جيدة عجيبة أحببناها لدارنا العالية وستمائة قنطار من البارود الجيد العجيب الخالص الصافي"[106].

وعلى عكس هذه المراسلات وهذه الممارسات، فإن منطق الدبلوماسية الأوربية كان منطقاً مغايراً لأنه كان يتصف بالاتزان، ولو ظاهرياً، ويحرص على المصلحة العامة. ونذكر، مثالاً على ذلك، رسالة بعث بها لويس ا لرابع عشر إلى المولى الرشيد بتاريخ 7 سبتمبر 1666 للتعبير له عن صداقة فرنسا واهتمام لويس الرابع عشر بتحركات الرشيد. ويقول فيها: "نبعث إليكم بالسيد تروبير (Truber)

---

(105) دار المحفوظات الوطنية في لاهاي، 6969.

(106) دار المحفوظات الوطنية في لاهاي، 08 - 01 - 1 رقم 51/ 12578.

ليقترح عليكم بعض الأمور التي نعتبرها أساسية لصالحنا ولصالحكم. ونخبركم بأنكم يمكنكم أن تتيقنوا بكل ما يحمله لكم"[107]. وأشارت رسالة أخرى من لويس الرابع عشر إلى المولى الرشيد إلى اهتمام فرنسا بانتصارات هذا السلطان، لأن صدى هذه الانتصارات قد انتشرت في جميع أنحاء أوربا[108]. وأنهى لويس الرابع عشر رسالته بتقديمه طلبا إلى المولى الرشيد "ليخص فرنسا بالأفضلية ويحمي مصالحها بالمغرب"[108]. فأساس المراسلة البحث عن مصلحة فرنسا في المغرب.

وقد نجد في الممارسة السياسية في العمالات المتحدة أبعاداً لا تخطر ببال سلاطين المغرب. ومن أمثلة ذلك نذكر أن القرارات كانت تُتَّخَذُ داخل مجلس وبعد مناقشات دقيقة ومفصلة. وقد أشار تقرير إلى المداولات التي تمت داخل مجلس العمالات المتحدة حتى يمكن أن تتحمَّلَ الدولة مصاريف شراء المخطوطات والخرائط من سلا لصالح هولندا.

"فبعد المداولات، تقرر إرسال اللائحة التي تضم عناوين المخطوطات والخرائط إلى كل من نائب الأموال وإلى القونصو الهولندي وأصدرت لهما الأوامر لاقتناء المخطوطات والخرائط الموجودة في اللائحة من سلا. ويتم ذلك على حساب البلدان المنخفضة"[109]. وكان الهولنديون لا يتسرعون في اتخاذ القرار، مهما كانت أهميته. ولكن كانوا يركنون إلى التريث وحسن التدبير كما يتضح ذلك من خلال التقرير الصادر عن مجلس العمالات بتاريخ 27 مارس 1655 والمتعلق باستيلاء قراصنة سلا على سفن هولندية. فبعد مناقشة المجلس للحادث من جميع جوانبه، قرر البحث عن الوسائل اللازمة وبالطرق الملائمة من أجل دفع السلاويين إلى احترام معاهدة الهدنة. وقد استعمل التقرير كلمات توحي بالتعقل والتجربة من أجل "تذليل الصعاب" ودفع السلاويين إلى احترام التزاماتهم... وبعد مداولات مسؤولة

(107) *S. I. H. M.* 2ème série filalienne, France, Tome I, p. 192.

(108) *Ibid*, p. 415.

(109) *S. I. H. M.* 1ère série (saadienne), Pays-Bas, Tome VI, p. 105.

وناضجة، لجأ المجلس إلى استعمال كل السبل لتجنب الانزلاق[110].

إذا كان العقل السياسي الأوربي عقلاً تاريخياً وتراكمياً، فإن سياسة سلاطين المغرب قد تميزت بتضخيم "الأنا الإلهية"، وظل عقلهم السياسي مجزءا ومنكسرا بل كان يركن في أوقات كثيرة إلى الهدم والخراب الذي لم يكن خراباً معنوياً فقط بل كان خراباً مادّياً أيضا يمس حتى المنشآت. لقد اهتم ملوك المغرب بتخليد أسمائهم بمآثر عمرانية فتنافسوا في التشييد والزخرفة وحاول كل منهم أن يكون أفضل من سابقيه. وكان هذا التشييد أو ذاك يتم على حساب المغاربة وبفضل تضحياتهم الجسام. لكن ما تميز به تاريخ المغرب هو الدمار الذي كان يصيب بعض هذه المآثر بعد وفاة صاحبها.

لقد بذل أحمد المنصور النفس والنفيس ليشيد قصرا ومعلمة لا تضاهيها معلمة أخرى وحق للمغرّب والمغاربة أن يفتخروا بها على لسان الفشتالي:

> ويختص هذا القصر الشريف من جميل الألقاب بالبديع. لا جرم، طابق الاسم المسمى لاحتوائه على كل نوع من أنواع البدائع وغرائب العجائب... فهنالك يخرس اللسان وتحار الأذهان وتملك الدهشة الجنان ويجف القلم ويرتعش البنان... قد مثلت في رؤوسها دوائر المرمر المختلفة الألوان، العظيمة، ترقص فيها المياه الغزيرة على إيقاع طيور الأدواح...[111].

وكان قصر البديع لؤلؤة عصره، تباهى به أحمد المنصور وافتخر به وأراده على غرار الأسكريال لفليب الثاني؛ إلا أن الأسكريال ما زال قائما يزخر ويفتخر بوجود كنز المخطوطات العربية، وتقصده الوفود من كل بقاع العالم على عكس البديع الذي اندثر، وكان دماره على يد المولى إسماعيل كما أشارت إلى ذلك المصادر المغربية:

> وفي عام تسعة عشر ومائة وألف، أمر السلطان المولى إسماعيل بهدم الدار التي بناها أبو العباس أحمد المنصور الذهبي بمراكش وسماها البديع... وكانت مدة بنائها ست

---

(110) *S. I. H. M.* 1ère série (saadienne), Pays-Bas. Tome VI, pp. 1- 3.

(111) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط،ص. 254.

عشر سنة. فهدمت معالمه، وبدلت مراسمه، وغيرت محاسنه، وفرقت جموع حسنه. وعاد حصيدا كأن لم يغن بالأمس حتى صار مرعى للمواشي ومفيلاً للكلاب... ومن العجائب أنه لم يبق بلد من بلاد المغرب إلا ودخلها شيء من أنقاض البديع[112].

لقد هدم المولى إسماعيل البديع ليشيد قصور مكناس وحاول أن يجعلها تنافس المعالم الأوربية، فقارن السفراء المغاربة والأجانب حدائقها بحدائق فرساي، لكن قصور هذه الأخيرة وحدائقها ما زالت مفخرة في فرنسا؛ وأما مآثر المولى إسماعيل، فقد أصابها الدمار كما بين ذلك الناصري: "ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم وبحسب طاقاتهم"[113].

فمن خلال ما سبق، يظهر أن العقل السياسي المغربي ـ شأنه شأن الميادين الأخرى ـ كان امتداداً للعقل الإسلامي، وتميز بالانكسار وإقصاء التراكم. فإلى أي حد يمكن الحديث عن مفهوم العقل بمعزل عن مفهوم الحداثة؟

(112) محمد بن الطيب القادري، لشر المثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، مكتبة الطالب، 1986، الجزء الثالث، ص. 175.

(113) الناصري، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1955، الجزء السابع، ص. 55.

الحداثة في الذهنية المغربية

من المؤكد أن للتأخير علاقة بالعقل التاريخي، كما أظهرنا ذلك في الفصل السابق؛ ويبدو أن للتجاوز ارتباطا بالحداثة. فما المقصود بهذا المفهوم؟ وهل له تأصيل في الثقافة العربية الإسلامية أو أنه دخيل عليها؟ فأوربا تضع نفسها مرادفاً للتاريخ، وهذا يعني أن لها إيماناً مطلقاً بتبدل الأحوال. فالمجتمع يكون في هذه الحالة مجرد واقع متحرك، بل هو في نهاية التحليل موضوع قابل للدراسة. وإذا كانت أوربا تعيش الحداثة، فلأن الإنسان الأوربي يريد أن يكون حديثاً. فالحداثة هي الوعي بالتاريخ، وهي محاولة لتجاوز المخزون لتجديد الذاكرة الفردية والجماعية. فما المدلول الذي تعطيه الثقافة العربية للحداثة؟

لقد تعرض ابن منظور لكلمة /حـ ـ د ـ ث/[114] ليقول: "الحديث هو نقيض القديم". حدث الشيء حدوثاً وحداثة. وحدث أمر أي وقع. فحداثة السن كناية عن الشباب وأول العمر. وإلى جانب هذا المعنى فإن للكلمة بعداً دينياً: فمحدثات الأمور هي كل ما ابتدعه أهل الهوى من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها. وأورد ابن منظور الحديث الشريف "إياكم ومحدثات الأمور". فالكلمة موجودة لغة، وهي قديمة؛ لكن هل نجد فيها المضامين التي أعطيت لها في الثقافة الأوربية؟ سوف نرجع إلى هذه النقطة فيما بعد.

لن نطيل الكلام في تلك الكتابة المعادية للإسلام والتي تبنت العدوانية في

(114) ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، 1300 هـ.، مادة /حـ ـ د ـ ث/.

منطقها، فكانت تأتي بالحجج والبراهين المختلفة والمفتعلة لتبرر مواقفها فتقدم الإسلام خطراً على الحضارة الأوربية التي تمثل اليوم الحداثة، وهي أساس التخطيط بل هي مستقبل الإنسانية. فأما الإسلام، في رأي أصحاب هذا الرأي، فهو العقبة التي تناهض العلم والتقدم. وتندرج هذه المواقف المعادية للإسلام في طبيعة الذهنية الأوربية المبنية أساساً على المركزية الأوربية. فالطموحات الغربية كانت مدفوعة دائما بإرادة المعرفة والاستكشاف وبإرادة السيطرة على الآخر. وفي هذا السياق حاولت أوربا منذ أربعة قرون أن تخلق الأدوات التي تساعدها على ذلك. فأرسلت بعثات استكشافية وأخرى تبشيرية في كل جهات المعمور لتمهد لها السبل حتى تتدخل عسكريا[115] . فبقدر ما كانت أوربا تسعى في الاستكشاف والغزو وفي اتخاذ المبادرة، كان العالم الإسلامي منكمشا لابساً ثوب التقليد ولاجئاً إلى تبني الحلول السهلة. وقد عملت أوربا على ترسيخ هذه الفكرة في كل الذهنيات بما فيها ذهنية المسلمين أنفسهم.

ففي هذا الصدد نجد موسوعة لابلياد (Encyclopédie de la Pléiade) تهمش المساهمة العربية الإسلامية في الاختراعات التقنية: فقد تبنى المشرف على الجزء الخاص بتاريخ التقنيات في العالم موقفا معاديا للعطاء العربي الإسلامي في هذا المجال. فتحدث الكتاب عن الحضارة العربية ـ الإسلامية في فصل أعطاه عنوانا معبرا: "الأنساق الجامدة" (Systèmes bloqués) وتكلم فيه عن العرب قائلا:

> عوض الحديث عن عطاء إسلامي في التقدم المادي للإنسانية، فإننا نجد أنفسنا أمام جمود حضاري لهذا العالم. قد يصعب الحديث عن مساهمة الحضارة الإسلامية في المعرفة التقنية... بل نستطيع أن نجزم ونقول بأنها كانت بعيدة كل البعد عن المساهمة في الاختراعات التقنية مقارنة مع الحضارات الأخرى... لأن العرب كانوا رحّلاً ولأن هذه الشعوب ذات عطاء تقني محدود[116] .

---

(115) Jean Marie Domenach, *Approches de la modernité*, Paris, Ellepses, 1986, p. 7.

(116) Bertrand Gille, *Histoire des techniques*, Paris, Encyclopédie de la Pléiade, Gallimard, 1978, p. 491.

1 - الحداثة في الثقافة العربية الإسلامية

فالحداثة نقيض القدمة والمعروف أن ثنائية حديث/قديم تقتضي المصاحبة والملازمة والتزامن، بالإضافة طبعاً إلى الإرادة. والجديد ينشأ وينمو داخل القديم ويعمل على اكتساح الفضاء. فالدلالة لا تنفصل عن المضمون، والجدة حركة لا تتوقف. وعندما تكتمل الشروط وتتحقق، لا تلبث أن تتحول بدورها إلى القدمة. فهل يمكن الكلام عن الحداثة في العالم الإسلامي وكيف؟

لقد شكلت الدعوة الإسلامية أهم حدث في تاريخ المسلمين، فأحدث هذا الدين قطيعة بين الحقبة التي سبقت هذه الدعوة والحقبة التي جاءت بعدها. واعتبرت الكتابة الإسلامية المرحلة التي سبقت الإسلام مجرد ليل وظلام وبهتان. وأما تلك التي جاءت بعده، فإنها النهار والنور واليقين والتوحيد: وحدة اللغة (لغة القرآن)، ووحدة العقيدة، ثم وحدة سياسة الدولة الإسلامية: "مات محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن أدى رسالته كاملة... مات بعد أن بذل كل ما في وسعه لإصلاح المجتمع الغارق في ظلمات الجاهلية، مات بعد أن أبطل العبادات الوثنية بالظاهر، ووضع محلها العبادات الإسلامية"[117] . وقد هيمن هذا الاتجاه مدّة طويلة على الكتابة الإسلامية، فلم يحاول أن يتعامل مع تاريخ الإسلام، على أساس أنه وحدة تاريخية، أي أن الدعوة الإسلامية لم تمح كل الرواسب الاجتماعية التي سبقتها. وقد فطن بعض العلماء إلى ذلك، فحاولوا أن يبرزوا مظاهر الاستمرارية ومن بينهم الفقيه الحجوي في مطلع القرن العشرين وقد لاحظ الحجوي استمرار جوانب وأحكام جاهلية في الفقه الإسلامي، فكتب في هذا الصدد في مستهل كتابه "الفكر السامي" يقول:

"وقد ثبت اغتسالهم (الجاهلية) من الجنابة واختتانهم. وكان لهم نكاح بخطبة وصداق... ويظهر أن تلك الأحكام كانت عند العرب من بقايا شريعة إسماعيل

---

(117) عارف تامر، الإمامة في الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، دون تاريخ، ص. 44.

ووالده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. فلما جاء الإسلام، أقر ما أقر ونسخ ما نسخ"[118] .

وعندما قدم طه حسين كتاب "فجر الإسلام" لأحمد أمين، ألح من جهته على الاتجاه نفسه. فمعرفة العقلية العربية تقتضي الغوص في مكوناتها التي تأتي من المراحل السابقة للإسلام. فهي في رأي طه حسين:

خلاصة معقدة لطائفة كثيرة من العناصر اشتبكت وتداخل بعضها في بعض حتى نشأ عنها المزاج الذي نراه... نجد فيها أثر الحياة الجاهلية وهو كثير بعيد... ونجد فيها أثر المسيحية وفيها السامي واليوناني، ونجد فيها أثر المجوسية كما نجد فيها أثر الديانات الهندية[119] .

وعلى هذا الأساس، تبقى "الحداثة" في العالم الإسلامي مرتبطة بمشروع التغيير الذي يرتكز على مبادئ الدين واجتهادات عقل الإنسان المسلم. فالحداثة ظاهرة شمولية من المنظور الإسلامي الذي يتناولها في إطار المآل الأخير للإنسانية. وينطلق منطق التناول الإسلامي للحداثة من ضرورة معرفة طبيعة الإنسان الفطرية الميالة تلقائيا إلى التغيير. والفطرة المقصودة تجعل الإنسان قادرا على هذا التغيير في اتجاهين: فتارة يسمو ويسعى إلى الارتقاء، وتارة أخرى يفشل ويرتد إلى الوراء كما نص على ذلك القرآن الكريم. ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[120] . فقد كرم الله الإنسان وأعطاه طاقات خلاقة يتمكن، إن أحسن التصرف فيها، من البناء والتشييد؛ وإن أساء التصرف فيها، فإنه قد يدمر وقد يكون شريرا. ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾[121].

---

(118) محمد الحجوي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، القاهرة، دار التراث، 1376 هـ الجزء الأول، ص ص. 6 ـ 7.

(119) أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، مكتبة النهضة، 1959، تقديم طه حسين، ص. 7. وانظر كذلك: M. Arkoun, *La pensée arabe*, Paris, PUF, 1975, pp. 5 - 6.

(120) سورة التين، الآيتان 4 و 5.

(121) سورة الشمس، الآيتان 7 و 8.

ويتطلب التغيير - الذي يعني المرور من البسيط إلى المركب - من المسلم أن يكون مسلحا بالاجتهاد لامن حيث هو فلسفة فقط، بل من حيث هو منهج وأسلوب للعمل أساساً. و"الاجتهاد" لغة هو استفراغ الوسع في تحصيل أمر بشق من الجهد؛ واصطلاحا، أي بالمعنى الأعم، هو استفراغ الوسع في تحصيل شيء من الأحكام على وجه يحس من نفسه العجز عن المزيد فيه[122]. وحاولت بعض الدراسات الحديثة توسيع مضامين مفهوم الاجتهاد، فعرفته بالجهد الفكري المبدع والخلاق والمنضبط الذي يعتمد القرآن والسنة ويراعي المتغيرات التي فرضتها وتفرضها التقلبات الظرفية على المجتمعات الإسلامية[123]. فالاجتهاد أسلوب تبناه الرسول الكريم ليعطي المسلمين قدرة هائلة وقوة لا مثيل لها حتى يتمكنوا من مسايرة التحولات التي قد تطرأ وحتى لا يركنوا إلى الجمود والخمول.

فالاجتهاد هو حداثة المسلمين. وإذا صارت مجتمعاتهم تئن من وطأة الجمود والتأخر، فمرد ذلك إلى تخليهم عن الاجتهاد وتشبثهم بالتقليد[124]. وشكلت هذه الصرخة أساس الحركات الإصلاحية ومنطلقها في العالم الإسلامي. فالاجتهاد عند دعاة الإصلاح يمكن من تشخيص الداء، لأن معرفة الداء تسهل الدواء. هكذا يتساءل عبد الرحمن الكواكبي: "فما هو - والحالة هذه - سبب تعمم هذا الفتور وملازمته لجامعة هذا الدين كملازمة العلة للمعلول، بحيث أينما وجد هذا الداء حتى توهم كثير من الحكماء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان. هذا هو المشكل العظيم الذي يجب البحث فيه... عسى أن نهتدي إلى جرثومة الداء عن يقين"[125]. يكون الاجتهاد مبنيا على الحرية وتجاوز التقليد الذي يدفع إلى استئناس الراحة والخمول. يقول الكواكبي: "هذا، ونعترف أن فينا بعض أقوام قد ألفوا ألوف

---

(122) محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن. ليبيا، وزارة الإعلام، 1968، ص. 61.

(123) Taha Jabir AL Alawani, *L'Ijtihad*, London, International Institut Thought 1991, p. 4.

(124) Ibid., p. 32.

(125) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، بيروت، دار الشرق العربي، ط. 4، 1991، ص. 27.

السنين الاستعباد والاستبداد والذل والهوان، فصار الانحطاط طبعا لهم تؤلمهم مفارقته... والحاصل أن فقدنا الحرية هو سبب الفتور"[126] . فقبول الذل يقوي الاستبداد لدى الحكام ويبعد هؤلاء عن هموم المسلمين ويصبحون لعبة في يد الأجانب. فالاجتهاد يقتضي، حسب رأي أي مجموعة من دعاة الإصلاح، عدم اقتصار المسلمين على تعلم العلوم الدينية، لأن مسايرة تحديات العصر تستوجب الاهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية. فأوربا تقدمت وتقوت وعظم شأنها بسبب تبنيها لمنهاج العلوم والعلوم العملية بالأساس. وفي هذا الصدد، كتب عبد السلام السايح سنة 1922 يقول:

وليس العلم الذي نعني وحوله ندندن مجرد ألفاظ يتشدق بها أو أشعار يترنم بها أو حكايات يحاضر بها... أو محفوظات تتلى، ثم تملى. أو عن حكاية قول فلان ومناقضة فلان. لا والله! بل العلم هو الغوص في مغازي المعاني ثم النفوذ منها إلى حيز العمل... وما أنفق الناس من أعمارهم في سبيل العلم وقصروا حياتهم عليه لمجرد الحفظ أو الإملاء، وربك بالعمل[127] .

فالعلم النافع يقرب من الله، وألح الكواكبي بدوره على تجاوز الخرافات وطالب المسلمين باستخدام العقل المتنور. فالتقاعس الذي يعيشه المسلمون وعدم قدرتهم على مجابهة أوربا ومسايرتها ناتج عن تقصير علمائهم قديما وحديثا في إدراك العلم النافع وتشبثهم بالتكرار والتقليد وتشددهم في الدين: "فالتشدد وباء عظم في الأمة حتى صار الذي فيها أسراً وأغلالاً"[128] . فالاجتهاد هو الإيمان بمستقبل أفضل لهذه الأمة. والغد الأفضل يمر عبر اعتناء المسلمين بالأجيال الناشئة والعمل على تكوينهم تكويناً صلباً متفتحاً حتى يستطيعوا محاربة الفكر الواهن:

"فمن راجع تواريخ الأمم التي استرجعت نشأتها والدول التي جددت عصبيتها، يجد من حكمائها ونجبائها مثل حسان قريش وكميت العباسيين ولوتر الألمانيين

---

(126) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى...، ص. 35.

(127) محمد بن عبد السلام السايح، أسبوع في باريز، مخطوط، خ. ح.، رقم 161. ويمكن الرجوع إلى الرحلة في: عبد المجيد القدوري، سفراء مغاربة في أوربا 1910 - 1922: في الوعي بالتفاوت، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، 1995، ص ص. 127 - 147.

(128) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى...، ص. 74.

وفولتر الفرنساويين، قد تغلبوا على الفكر الواهن وأنصاره من الأشراف والشيوخ وأهل العناد والفساد، يحمل لواء الناشئة"[129].

لقد طال النقاش بين العلماء المسلمين في موضوع الحداثة وأبرز هذا الجدل مواقف متباينة. ولخص علال الفاسي هذه المواقف في كتابه "النقد الذاتي"، حيث خصها بفصل مستقل سماه: "الفكر بين العصرية والمعاصرة"[130]. ولاحظ وجود تيارين متعارضين في هذا الموضوع، تيار متشبث بالقديم على أساس أن كل ما تركه الأوائل "صحيح"، وتيار طغت عليه الرغبة في "الجدة والابتكار". وانطلاقاً من هذين الموقفين، تكونت ـ كما يقول علال الفاسي ـ فكرة المحافظة وفكرة العصرية. وبعدما بين أن الموقفين على خطإ، أوضح أن ذلك آت من الخلط الحاصل بين "العصرية والمعاصرة".

"فقد نجد اليوم أموراً وممارسات يرجع أصلها إلى أزمنة غابرة كما نجد العكس. وقد ضرب أمثلة من تاريخ الإسلام ومن تاريخ المغرب، ليقر بأن العصرية لا تعني الانتقال من تقليد إلى تقليد آخر كما أنها لا تعني الارتكاز والتشبث بالجامد والركون إلى الخمول، "لأن المنهج العصري الصحيح هو الذي يفتح أمامنا آفاق التقدم بجميع أنواعه: الفكري والاجتماعي والاقتصادي والروحي، لأن نتيجة المجهود كله هو الوصول لأن نتحكم في حركتنا ككائن حي، أي أن نوجه سيرنا إلى الأمام دائماً، وتطورنا إلى الأعلى، وإنه لمن العجز والكسل أن نقصر في واجبنا وأن نحاول اختصار الطريق بانتحال مذهب من المذاهب القائمة لا لشيء إلا لأنها تغنينا عن الفكر، وعن البحث. إن ذلك أعظم مساس بكرامتنا كأمة ذات تاريخ عقلي وحضارة تاريخية"[131].

وما زال هذا النقاش مستمراً ويدور دائماً حول مستقبل الأمة وكرامتها. ويرى الدعاة الجدد أن لب التاريخ الإسلامي وحداثة مجتمعاته يوجدان في مبدإ الصحوة الإسلامية والتي بدأت تتحدد ملامحها برأي عبد السلام ياسين:

---

(129) عبد الرحمن الكواكبي، أم القرى، مرجع مذكور، ص ص. 135 - 136.

(130) علال الفاسي، النقد الذاتي، بيروت/ القاهرة، دار الكتاب للنشر والطباعة والتوزيع، 1966،ص ص. 99 - 94.

(131) المرجع نفسه، ص ص. 98 - 99.

وما الصحوة الإسلامية ومضة برق خلب نعوذ بالله، ما هي حديث خرافة... وأن الصحوة تنطلق من تحرير عقل المسلم من آثار الغزو... المتراكمة، طبقا عن طبق على ركامنا التقليدي المتجسدة في نخبة متفرنجة تحكم وتفرض إرادتها بالنار والحديد. وتعجز آخر الأمر عن أداء مهمتها التاريخية وتفشل في كل ميدان[132] .

وظاهرة دخول عدد من المفكرين إلى الإسلام تثير الانتباه، لا سيّما وأن البعض يرى في الظاهرة إمكان تلاقح مهم ويعتقد في ذلك. فهؤلاء المسلمون الجدد يختلفون في تناولهم للقضايا الإسلامية عن المستشرقين لأنهم يدرسون الإسلام والعالم الإسلامي من الداخل. ويتميزون من جهة ثانية عن العلماء المسلمين بأنهم أتوا من المجتمعات الغربية، فبالرغم من اقتناعهم للإسلام، يبقون مندمجين في عقلنة الغرب ويتصرفون بذهنية نشؤوا وتربوا بها. وندرج مثالاً على ذلك، مواقف روجي غارودي المثيرة. دخل هذا المفكر الإسلام في الثمانينيات بعدما كان مسيحي النشأة، ومناضلا في الحزب الشيوعي الفرنسي، بالإضافة طبعاً إلى تكوينه الفلسفي المتميز. لقد أدلى غارودي في استجواب صحفي عن مواقف "جريئة" حاول من خلالها أن يعيد النظر في قضايا الإسلام والمسلمين. وأشار في بداية الاستجواب إلى أن دخوله إلى الإسلام لا يشكل عنده قطيعة، بل هو استمرار لرحلته الفكرية. ويعلّل ذلك بقوله: "لأن الدين الذي أومن به هو توفيق بين الإسلام والديانات التي سبقت الإسلام"[133] . وحاول أن يعطي مدلولا للاجتهاد. وحتى يصل إلى ذلك، أعطى تأويلا للشريعة التي هي في نظره مجموع الأحكام السماوية التي نزلت بها كل الكتب المقدسة، والتي تهدف إلى التوحيد المطلق للذات الإلهية. وتتلخص هذه الأحكام في ثلاثة مبادئ: أولا، الرب يملك والإنسان يتصرف. ثانيا، الرب يحكم والإنسان يطيع. وأخيرا، الرب يعلم والإنسان يجتهد في حدود معارفه ومقتضيات عصره. ولذلك، فإن هذه الكتب المقدسة تبقى مصدر

---

(132) عبد السلام ياسين، محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، الرباط، مؤسسة التغليف والطباعة والتوزيع للشمال، 1994، ص. 116 و 123.

(133) مجلة المجلة السعودية، 15/ 22 مارس 1996؛ جريدة الاتحاد الاشتراكي، 24 مارس 1996، العدد 4609. ص. 5.

التشريع في كل الأديان وفي كل العصور وهي ثابتة لا تتغير ـ وما عداها ـ كما يقول غارودي ـ يتغير ويتجدد. فلكل إنسان مجتهد الحق في الرجوع إلى مصادر التشريع هذه ليستنبط منها الأحكام والقوانين التي توافق عصره وقد لا تكون صالحة لعصور أخرى. وانطلاقا من هذه الملاحظات، أشار غارودي إلى ضرورة اعتبار الرسل ـ كل الرسل ـ مجرد مبلغين وليسوا بمشرعين. وحتى لو شرعوا، فإن ما شرعوه يكون محدودا ولا يوافق كل الأزمنة. "نعم، الرسول، أي رسول، هو مبلغ وليس مشرعاً. وإذا حدث أن شرع شيئاً، فيكون صالحاً لعصره. وكذلك الفقهاء لا تكون أحكامهم صالحة إلا لعصورهم فقط". وقد ذهب غارودي إلى أبعد من هذا، حيث اعتبر السنة غير صالحة اليوم. ولهذا طالب بالتخلي عنها: "السنة كانت صالحة لوقتها و لم تعد صالحة لعصرنا وكذلك الفقه الإسلامي". فأحكام الشافعي وأبي حنيفة كانت تلائم عصرهما و لم تعد موافقة لعصرنا. ولذا يجب تجاوزها. وشن غارودي هجوماً على علماء الإسلام المعاصرين وحملهم مسؤولية فتور المجتمعات الإسلامية:

وأنا لا أفهم ما يقوله هؤلاء العلماء الجهلة الذين يرددون: قال أبو حنيفة، قال الشافعي. مثل هؤلاء العلماء ما أكثرهم في العالم الإسلامي حيث يمثلون العقبة الرئيسية في طريق التجديد والاجتهاد وصوغ فقه صالح لزماننا... يجمع المسلمين وكل الناس المؤمنين في صف واحد من أجل مواجهة وثنية رأس المال والمضاربة البنكية والهيمنة الأمريكية.

نلاحظ من خلال ما سبق أن غارودي يتحدث عن إسلام اليوم، مستحضراً نماذج سابقة. فهو يعتقد أن تجديد الفقه قد يكون على يد مسلمي المجتمعات الغربية شأنهم في ذلك شأن ما قام به قبلهم علماء أتوا إلى الإسلام من بلاد الفرس أو من الأندلس. وهكذا نرى أن غارودي ومن معه قد تبنوا الاجتهاد على أساس أن أصل الدين ثابت؛ وأما المعاملات، فتتغير من "أجل التأقلم مع الأزمنة وظروف حياة الناس في كل عصر من العصور". ويبقى السؤال مطروحا: هل الحداثة تنطلق من الذات لتبحث عن الشروط المواتية لبناء "الأنا" الحضارية وتحصينها أو أن الحداثة هي مجرد اجتهاد يرمي إلى البحث عن وسائل وتبريرات

للتأقلم. وتكون العصرنة في نهاية المطاف لباس "الآخر" وتقليده أو كما سماها عبد الله العروي الحداثة الساذجة: "تبقى حداثة الثقافة العربية حداثة ساذجة، لأنها تكون دائماً مرتبطة بشكل أو بآخر بالغرب. فحداثة الغرب هي التي تغذي الحداثة العربية. فالمثقف العربي الذي يبحث في مجال من المجالات يعتمد في عمله - بوعي أو بغير وعي - على الرصيد الثقافي الليبرالي الذي أخذه عن الغرب. وهذا ما نسميه بالتأخر الثقافي عند العرب"(134) . والحداثة المشار إليها هنا تعني المثقف لا المجتمع نظرا لوجود قطيعة بين الثقافة والمجتمع وبين المثقفين والعامة.

قد نسلم بأن الاجتهاد هو الحداثة في الإسلام. ويكون الاجتهاد خصباً عندما تكتمل الشروط الاقتصادية والاجتماعية في المجتمعات الإسلامية. فعندما تبدل الأحوال، يفرض الاجتهاد نفسه. وإذا لم تتغير الأوضاع، فالحاجة إلى الجهد تقل وتركن النفوس إلى التكرار الميت والمميت وتدخل المجتمعات الانكماش. لكن هل الإرادة الفكرية وحدها كافية للتخلص من رواسب التقليد؟ وهل ميلاد فقه القرن الواحد والعشرين يمر حتما من اجتهاد مسلمي الغرب؟ يقول غارودي: "أنا في نقاش مع العلماء "المسلمين المتفتحين" لأن علماء الجمود والانغلاق من أتباع أبي حنيفة والشافعي وابن تيمية لا يهمونني. وليس هؤلاء هم الذين يمكن معهم تجديد الإسلام وإعداد فقه القرن الحادي والعشرين".

فالاجتهاد مفتاح الحداثة في المجتمعات الإسلامية؛ لكنه لن يتحقق - في اعتقادنا - ما دامت شروطه التاريخية غائبة وسيبقى صياح غارودي المتعالي وأمثاله صياحاً فارغاً، لأنه دخيل على الحضارة الإسلامية. فهو يناقش شروط الإقلاع في هذه الرقعة بمنطق حداثة الشخصية الأوربية ومن منطلقاتها.

---

(134) A. Laroui, *La crise des intellectuels arabes. Traditionalisme ou historicisme?*, Paris, Maspero, 1974, pp: 16-17.

2 - حداثة أوربا

يتحدث الكل عن الحداثة في أوربا، ولكن لا أحد يستطيع تحديد مضامين هذا المصطلح. فما معنى الإنسان الحديث؟ تتضمن الكلمة معاني كثيرة: فهي تحيل على السلطة وعلى التقدم، وتعني كذلك التغيرات التي يعرفها الفرد والجماعة. فالحداثة سيرورة وديناميكية لا تتوقف واعتبرها بعض المفكرين إيديولوجية التغيير. إنها تهدد بمحو كل معتاد أليف. فقد قذفت بمفاهيم الحدود الجغرافية ودمرت الحدود العرقية والطبقية، وهي تسعى إلى توحيد البشرية. ومع ذلك، فإن الوحدة التي تدعو إليها حداثة أوربا تبقى وحدة متناقضة، لأنها تبث الخلط والقلق. وقد عبر كارل ماركس عن الفكرة قائلاً إن الحداثة "تبخّر كل ما كان صلباً"[135]. والقصد من التبخر هنا هو السرعة في تحول الأوضاع الاجتماعية التي تكون مبنية على قناعات فكرية وذهنية، لكن سرعان ما تتبخر هذه القناعات تحت وطأة الحداثة لتحل محلها قناعات وقيم جديدة تتقادم بدورها بسرعة أكثر فتذوب. فالحداثة في أوربا اليوم تعني البحث عن السيطرة على الآخر من أجل طمس معالم الأمس وأوْرَبَة الكون (l'Européanisation du monde)[136]. لكن ما العوامل التي جعلت أوربا تصل إلى ما وصلت إليه؟ وما المراحل التي مرت منها؟

لكلمة موديرن (moderne) تاريخ. فهي تدل على ما هو معاصر وعلى ما هو محدد تاريخياً، وتتعارض مع ما هو قديم. ويبدو أن الكلمة تنحدر من اللغة الفرنسية القديمة. ونجد في اللاتينية موديرنوس (modernus) وهي من مودو (modos)، وتعني الحديث. ويظهر أنها ظهرت في نهاية القرن الخامس الميلادي، وهي المرحلة التي حددت الانتقال من الفترة الرومانية القديمة إلى الفترة المسيحية. وسرعان ما استُعمِلَت الكلمةُ مصطلحاً لتحديد الحقبة التاريخية وشحنتها الكنيسة بمضمون ديني، فأصبحت موديرنتاس (modernitas) تطلق على العصر المسيحي.

---

(135) Jean Marie Domenach, *Approches de la modernité*, p. 40.

(136) "Est réputé moderne, en effet, l'objet ou l'individu dont on affirme qu'il est en accord avec son époque" (Domenach, *Approches*.., op. cit., p. 13).

مقابل العصر الوثني الذي سبقه. ويعتبر عصر النهضة انطلاقاً للمفهوم، حيث أصبح الجديد الخلاق في مقابل الوسيط الظلام. لقد شحنت الكلمة خلال عصر النهضة بالحمولة الإيديولوجية، فصارت الحداثة رمز التغيير ورمز التجاوز وصارت تهدف إلى خلق ثقافة وقيم منفصلة عن تلك التي كانت تسود أوربا خلال العصر الوسيط. وأصبح رجال النهضة ينادون بالعودة مباشرة إلى التاريخ القديم، تاريخ الإغريق وتاريخ الرومان باعتبارهما عصري الحرية والإبداع. لكن تقديس القديم لم يعمر طويلا؛ إذ ظهرت تيارات معادية له، ونشأ الجدل خلال القرن السابع عشر بين دعاة القديم ودعاة الجديد. وقد عبر شارل بيرو عن رفضه التشبّث المطلق بثقافة الإغريق وبفلاسفتهم. وتحدث عن ذلك في أبيات شعرية أُلْقِيَتْ في الأكاديمية الفرنسية يوم 27 يناير 1687، قال فيها:

تعودنا أن نقدس التاريخ القديم
وهذا لا يعني في نظري أنه تجب عبادته
أصاحب القدماء دون خنوع
فهم عباقرة من دون شك، لكنهم أناس مثلنا
فأفلاطون الذي كان بمثابة إله عند أجدادنا
أصبح مملاً في زماننا[137].

لقد شن دعاة الحداثة هجوما على مقدسي القديم، وناهضوا استعباد الفكر الذي أرادوه أن يكون حرّاً طليقاً خلاقاً. واعتادت الإسطوغرافية الأوربية اعتبار 1453 منطلق العصر الحديث. غير أن البرتغاليين اقترحوا بَدْءَهُ سنة 1415، وهي السنة التي احتلوا فيها سبتة. وطالب مؤرخو إسبانيا باتخاذ سنة 1492 منطلقاً لهذا العصر، واعتقد هؤلاء وأولئك أنه من الأحسن أن يتخذ الأوربيون انطلاقة للعصر الحديث أحداثا يخلدون بها انتصاراتهم (دخولهم سبتة، طردهم للمسلمين من غرناطة ووصولهم إلى العالم الجديد عوض أن يتخذوا انهزامهم في القسطنطينية 1453).

(137) A. Simon Pierre Clavac, *Le XVII^e siècle: textes choisis et commentés*, Paris, Librairie classique, Eugène Belin, 1956, p. 303.

وضخمت الكتابة الأوربية محاسن الحقبة الحديثة على حساب العصر الوسيط. فإذا كان الحديث نوراً ونهضة، فإن الوسيط ليل وظلام. وانتقد جاك لوكوف دعاة هذا الموقف واعتبر مؤرخي البورجوازية هم الذين مجدوا النهضة وحاولوا أن يظهروا العصر الوسيط عصر بربرية. ولأجل هذا، طالب جاك لوكوف برد الاعتبار لهذا العصر، وبالتخلي عن الاعتقاد في وجود قطيعة بين الحقب التاريخية: "لا توجد في التاريخ نهضة، بل توجد فيه مراحل انتقالية"[138] . ولقد ألح عدد كبير من المؤرخين الأوربيين على ضرورة التراجع عن مفهوم القطيعة؛ وكان لوسيان فيبر، وهو أحد مؤسسي مدرسة الحوليات إلى جانب مارك بلوخ، يقول بأن التاريخ لا يعرف توقفاً ولكن يتوفر على محطات للعبور[139]. ومن ثم تكون مرحلة النهضة قد شيدت على ما بناه رجال الفترات السابقة ومجتمعاتها. وتكمن حداثة المرحلة في التبدل الذي طرأ، من جراء التغيرات المادية، على ذهنية العصر؛ فأصبح قابلا للتحول وراغباً في بناء منطلقات جديدة.

"كان الغليان والفكر الخلاق قد انبنى في منطلقه، في أوائل القرن السادس عشر، على طموحات عباقرة العصر من أمثال إيرازموس ولوتر وكوبرنيك ورابلي... لكن الأسس التي تركها هؤلاء هي التي ساعدت على ظهور ديكارت وغيره خلال المراحل اللاحقة "[140] .واستمرت المرحلة الحديثة إلى حدود الإعلان عن الثورة الفرنسية وميلاد الإنسان الجديد، إضافة إلى بداية عصر الآلة: "لقد بنى القرن الثامن عشر الثورات المالية التي عرفتها أوربا منذ القرن السادس عشر، وظهرت هذه الثورة بشكل واضح فيما بين سنتي 1750 و 1760، أي في المرحلة التي دشنت عهدالمكننة الحديثة"[141].

فالحداثة هي ديناميكية أوربا، وهي إيديولوجية الجد والتجديد. لكن ما

---

(138) "Il n'ya pas de renaissance en histoire. Il n'ya que des mutations". (Jacques Le Goff. "*Pour un long Moyen Age*" in Revue *Europe*, Octobre 1983,N° 654, p. 20).

(139) Lucien Febvre, *Au coeur du religieux du XVI*[e] *s*, Paris, Sevpen, 1957, pp. 337-338.

(140) Ibid.

(141) Claude Delmas, *op. cit.*, p. 75.

السر أو الأسرار الكامنة وراء تجذرها في المجتمعات الأوربية وانعدامها أو غيابها في المجتمعات الإسلامية عموما وفي المغرب على وجه التحديد؟

ترتبط الحداثة بكل المراحل التاريخية. فما من حقبة إلا وكانت حديثة في وقت من الأوقات[142]. والتحديث يعني إعادة النظر في الموجود ومحاولة تجاوزه والسهر دوماً على الانتظام فيه. ولن يتحقق ذلك خارج السياق الاجتماعي الذي يكون قابلا أو غير قابل للتحديث، والحداثة ـ على حد قول كانط ـ هي الاحتجاج الدائم على التقاليد[143].

ويرجع تجذر الحداثة في أوربا إلى ارتباطها بالطبقة البورجوازية. "فمنذ القرن السادس عشر أصبحت للتجار مكانة معترف لهم بها في المجتمعات الأوربية، بل طبقتهم لا غنى للمجتمع عنها"[144]. واعتبر كارل ماركس هذه الطبقة أساس وسر نمو وتقدم الرأسمالية في أوربا، لأنها عرفت كيف تجعل من حركتها حركة ثورية مناهضة ومفتتة للمجتمع الفيودالي المنهار[145]. لقد تمكنت البورجوازية من خلق الظروف الملائمة لتقود العالم:

"حطمت القوى الناشئة في الحياة الاجتماعية الأوربية القيود التي فرضتها السلطة الروحية في القرون الوسطى... ويتكون هذا التبدل في الواقع من ثلاثة عناصر: أولا، نتيجة حاجات التجارة... تركزت جهود طبقة التجار... حول الدولة بدلا من البلدة المحلية... ثانيا... تقلصت حدود المجتمع من الإمبراطورية إلى الدولة القومية... ثالثا، انتقلت السلطة من الكنيسة إلى الحكومة المدنية"[146].

---

(142) "Chaque période a été moderne à un certain temps". (T. Rockemore, "*La modernité et la raison* Habermas et Hegel", in *Archives de Philosophie*, Avril -Juin 1989, pp. 176-178.

(143) *Ibid.*, p. 179.

(144) Claude Nordman, *La montée de la puissance européenne 1492 - 1661*, Paris, PUF, 1974, p. 44.

(145) Jean Yves Calvez, *La pensée de Karl Marx*, Paris, Seuil, 1970, p. 116; Karl Marx, *Le manifeste du parti communiste*, 10/18, Paris, 1962, pp. 60 - 61.

(146) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، الجزء الأول، ص ص. 281 ـ 283.

ولأجل هذا، دعمت طبقة التجار الاكتشافات الجغرافية الكبرى. لقد اعتمد كريستوف كلومب في رحلته على مساهمة الأبناك الإيطالية وبالخصوص على عائلة برارد في فلورنسا التي ساهمت بنصف تكاليف رحلته[147] .

و لم تكتف البورجوازية بالهيمنة على الاقتصاد، بل وطدت مكانتها في المجال الفكري، فشجعت الإبداع والخلق والنقد. فكانت انتقادات الإنسيين لعادات العصر الوسيط وقيمه تخدم طموحات هذه الطبقة. ونزلت كتابة رجال الإصلاح ومواقفه كالصاعقة على مكتسبات الكنيسة، وكثرت الانتقادات ضد البابوية، وعمل رجال الإصلاح على تبسيط العبادات حيث ركزوا على ضرورة التقليص من تدخلات الكنيسة، وأظهروا أن الدين ينبني بالأساس على الإيمان وأن المؤمن لا يحتاج إلى وساطة بينه وبين ربه. وألح ماكس فيبر، في دراساته، على اعتبار الإصلاحات الدينية من العوامل الأساسية التي ساهمت في خلق ذهنية رأسمالية، وبذلك كانت دعماً لطموحات الطبقة الجديدة. وأتى ماكس فيبر بأمثلة ونماذج لتبين مواقف بعض الرهبان من الربح. ونشير، مثالاً على ذلك، إلى ما جاء به على لسان ريشارد باكستير (1615 - 1691):

> إذا حدد لك خالقك طريقا للرزق ويسر لك فيه الربح المشروع بالمقارنة مع طريق آخر يكون فيه الربح أقل، فإنك (المومن) إن اخترت الطريق الثاني حيث يوجد الربح القليل تكون قد أسأت التصرف مع الإله وتخليت عن تحقيق إحدى الغايات التي خلقك من أجلها وعارضت أحد الأمور التي استخلفك عليها. فقد وهبك وأعطاك لتحسن التصرف في ما أعطاك وتجيد استعماله، ويسر لك العمل لتكون غنيا له الخطأ[148] .

لقد عملت الطبقة البورجوازية على فسح المجال أمام كل عمل خلاق، وكانت الظروف تسمح بظهور عمالقة النهضة: "فإن هؤلاء الرجال ممثلي عصر النهضة في أزهى مراحلها، كانوا أيضا صناع العالم الحديث"[149].

---

(147) Mariane Mahn-Nlot, *La découverte de l'Amérique*, Paris, Flammarion, 1970, p. 49.

(148) Henri Denis, *Histoire de la pensée économique*, Paris, PUF, 6è édition, 1980, p. 97.

(149) كرين بريتون، **تشكيل العقل الحديث**، ص. 49.

لكن ما كان يهم البورجوازية هو السلطة، فإنها قبل الثورة الفرنسية كانت كل شيء اقتصاديّاً ولا شيء سياسيّاً؛ وحاربت النظام الفيودالي، لأن التشتت السياسي لا يلائم مصالحها؛ ودعمت الدولة المطلقة، لأنها كانت في حاجة إلى تجهيزات ومنشآت اقتصادية وأمن. وكانت ترى أن الحكومة ذات النظام الجيد تستطيع أن تضمن الغنى والقوة للدولة، وقوة الدولة تمر عبر عمل المواطنين. وقد فصَّل الكلامَ في دور السلطة والاستبداد في النمو عددٌ كبيرٌ من المفكّرين، ونذكر منهم كلاًّ من ماكيافلي الذي كان يرى قوة البلاد في ا ستبداد قائدها، وطالب بضرورة لجوء هذا الأخير إلى كل الوسائل ليحقق غاياته السياسية؛ وجان بودان الذي يرى من جهته "أن الملك فوق القانون، لأنه صانع القوانين ويتعين أن يكون كذلك"[150] .

ومن خلال ما سبق يتضح أن الحداثة في أوربا آلة وقوة وأداة ارتبطت بالطبقة البورجوازية المحركة لاقتصاد هذه القارة، بل ولحضارة الغرب كله. وجعلت هذه الطبقة من هذه القوة أداة لفرض طموح لا يتوقف، يحركه هاجس السيطرة والتفوق اليوم وغداً. وأرادت البورجوازية السيطرة على وسائل الإنتاج، كما عملت على توجيه العلاقات الاجتماعية عن طريق استحواذها على السلطة. فالحداثة في نظرها استحضار للذاكرة الجماعية وعملٌ على استخدامها من أجل فرض مركزية الإنسان الأوربي وتعميقها وإقصاء "الآخر" من كل بناء حضاري سابق ولاحق. ومن ثم تكون العودة إلى الماضي إرادة لترسيخ قناعات راهنة. فالتاريخ الإغريقي هو أساس الحداثة والعقلنة، بل هو منطلق تكوين الإنسان الشمولي[151] . وأوربا لا تتوقف عن الهدم والاكتساح، وتتخذ الحداثة إلهها، وباسمها تتسرب إلى قناعات "الآخر" المختلف المرفوض لتهدم قيمه عن طريق الفئات التي

---

(150) المرجع نفسه.، ص. 69.

(151) "Seule la Grèce nous concerne. Seule elle a entretenu et marqué l'homme total de vitalite, de raison, d'harmonie. Elle a crée la pensée historique et politique". (Henri le Febvre, *Introduction à la modernité*, p. 223).

تبنت النمط الأوربي. ولو لبست المجتمعات الأخرى هذا النمط، لبقيت محتقرة غير مرغوب فيها. فالحداثة أوربية، وستظل كذلك. والمجتمعات التي تبنت هذا النموذج تبقى مقلدة تابعة لأوربا:

> لنقرر ونَقُلْ صراحة إن الفكر الحديث هو أولاً وأخيراً نتاجٌ غربيٌ صرفٌ، وإنّ الذين أصيبوا بالحداثة وإن كانوا من أصل شرقي صاروا في حقيقة الأمر غربيين... ويظلّون في نهاية المطاف مجرد خدام للغرب(152) .

وتختلف حسب روني جينو ذهنية الأوربي عن الشرقي. فالأول يرجع إلى الماضي ليبني شخصيته التي لا تقف عن التغير، والحضارة الأوربية تبنت النزعة الفردية وسلّطت كلَّ اهتماماتها على استكشاف العالم المحسوس، عالم المادة، من أجل ترويضه والسيطرة عليه. وأما الثاني، فقد ظل منغمساً في عالم الروحانيات والتقاليد(153) . فالعصرنة في أوربا إذن فكر وديناميكية بنيت على غليان ونقاش وجاءت نتيجة تحولات تاريخية أثّرت في المجتمعات الأوربية وقادتها طبقة نشيطة عملت باستمرار على فرض اقتناعاتها الاقتصادية والسياسية على الجميع وجعلت مشروعها مشروعاً ينخرط فيه الجميع، لأنه ينطلق من الحاضر ويراهن على مستقبل الإنسان الأوربي والحضارة الأوربية. وعلى العكس من ذلك، فإن الاجتهاد في العالم الإسلامي ظل أسلوباً ومنهاجاً دفاعيّاً بقي مرتبطاً بالفكر الإسلامي ويعتمد أساساً على الجدل والنقاش ويتميز بالعقم، نظراً للقطيعة الحاصلة بين المجتمع والثقافة وبين المثقف والإنسان العادي. فلا يوجد تقاطع بين الفكر والواقع، لأن المجتمعات الإسلامية دخلت منذ فترة قديمة مرحلة الفتور الاقتصادي والاجتماعي وفقدت روح المبادرة التي كانت تتوفر عليها خلال العصر العباسي. وقد عرفت هذه المجتمعات آنذاك غلياناً فكرياً ونقاشات خصبة، ربما لأنها كانت تعيش تحولات اقتصادية كذلك وتلاقحاً حضاريّاً بسبب الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً. فالحداثة قوة وديناميكية تقتضي وجود ظروف تاريخية معيّنة. وزيادة في توضيح

---

(152) René Guenon, *La crise du monde moderne*, Paris, Gallimard, 1969, p. 154.

(153) *Ibid*. و يمكن الرجوع إلى الصفحات 36 و 54 و 90 و 129 و 154.

الفكرة، سنعمل على دراسة عينات من تاريخ المغرب خلال الفترة التي حددناها آنفاً. فما هي خصوصيّة التحولات التي عرفها المغرب؟ وما هي الأسس التي كانت ستبنى عليها ملامح التغيير فيه؟

3 - اسس التغيير في تاريخ المغرب

يظهر أن الوازع الديني كان أساس التحولات في المغرب. كان المغاربة بعد المرحلة الإسلامية يستحضرون باستمرار النموذج النبوي أو ما سماه عبد الله العروي : "القبول الإرادي للنموذج الموجّه: دولة المدينة"[154] . وأضاف علال الفاسي أن قبول المغاربة البربر للإسلام كان أمرا طبيعياً نظراً لتوافق تعاليم هذا الدين مع مزاجهم:

> ولكن قلوبهم انفتحت للإسلام ودعوته التي رأوا فيها أداة للتحرير القومي والاستقلال الوطني، إلى جانب الانعتاق الفكري والروحي. و لم تكن الدعوة الإسلامية في نظرهم إلا امتداداً لعقائد الوحدة الإلهية التي تنسجم مع طابع الوحدة الذي يريدونه ويعملون له[155] .

من الصعب أن نتحدث عن المخزن المغربي كما لو كان يخدم مصالح فئة معينة على غرار ما رأيناه في أوربا. والواضح أن الانقلابات السياسية التي عرفها تاريخ المغرب كانت تنطلق من فكرة دينية وتستمد مشروعيتها من المرجعية الإسلامية. وارتبطت السياسة في المغرب بطريقة أو بأخرى بالمشرق. وقد ألح محمد حجي على هذا الارتباط الروحي، لأن الأمة الإسلامية واقع تاريخي لم يتحقق إلا زمن الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين:

> أما بعد قيام الدولة العباسية، فقد تغيرت الأحوال وظهرت الإقليمية في الجماعة الإسلامية... وهكذا تكونت في حظيرة الجماعة الإسلامية قومياتٌ أندلسية ومغربية ومصرية وفارسية... وهذا لا يعني اضمحلال الروح الدينية عند المسلمين

---

(154) A. Laroui, *Histoire du Maghreb*, *op. cit.*, p. 150.

(155) علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، تطوان، دار الطباعة المغربية، دون تاريخ، ص. (ك).

الذين عرفوا طوال العصور - حتى اليوم - بتعلقهم المتين بالحنيفيّة السمحة، وإنما يعني إدخال اعتبارات أخرى في عوامل الارتباط[156] .

والعوامل الأخرى التي أشار إليها محمد حجي تتجلى في المميزات التاريخية الخاصة بكل إقليم من أقاليم دار الإسلام. ولعل ما ميز تاريخ الأمة الإسلامية هو وجود هذه المفارقات بين الأمة المشروع والهدف والطموح والأمة الواقع والمعيش التاريخي الذي يختلف من منطقة إسلامية إلى أخرى ومن مرحلة إلى أخرى[157] . وقد انتبه ابن خلدون إلى المسألة وميز بين "الملك الطبيعي الذي هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، والسياسي الذي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار؛ والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها"[158] . فسرعان ما تحولت الخلافة إلى ملك. وتقوم الدولة، في رأي ابن خلدون، على ثلاثة عناصر هي: القوة والتنظيم ووجود هدف خارج السياسة، وما من سياسة إلا وتعتمد على الإكراه والعدالة والأخلاق وتظل مرتبطة دائماً بالواقع التاريخي[159] . فالمسار التاريخي هو المحدد لمميزات كل بلد وكل فترة، ودينامية التحول في كل منطقة يحددها تاريخها. فالمغرب وإن ظل مرتبطاً بالمشرق، فإنه على عكس ما قدمت الكتابة الاستعمارية ظل ذا هوية متميزة:

فالحضارة العربية... تكون هي الأساس... على أن المغرب بالرغم من اعتناقه

---

(156) محمد حجي، **جولات تاريخية...**، مرجع مذكور، الجزء الثاني، ص. 547.
تبدأ الإسطوغرافية التقليدية تاريخ المغرب بمرحلة الفتح الإسلامي وكأنها تريد تجاوز المراحل السابقة، لأنها تذكرها بجاهلية الجزيرة العربية. وفي هذا الموقف دلالة على الارتباط الروحي بالمشرق كما أشار إلى ذلك محمد حجي وعبر عنه علال الفاسي بمصطلح الامتداد في كتاب "**الحركات الاستقلالية**".

(157) M. Kably, *Variations islamistes et identité du Maroc medieval*, Paris, Maisonneuve et Larose/ Okad, 1989, pp. 47- 48

(158) ابن خلدون، **المقدمة...**، مصدر مذكور، ص ص. 238 - 239.

(159) العروي، "إشكالية الدولة العربية الإسلامية"، مجلة **المشروع**، العدد 2، أكتوبر 1980، ص ص. 21 - 22.

الإسلام ديناً والعربية لغة، ظل دائماً معتزّاً بوجوده الخاص... فالقومية المغربية موجودة منذ القديم فيما قبل الإسلام وبعده مبثوثة في كل الآثار المغربية التي سلمت من عوادي الدهر...[160].

لعل التداخل بين الديني والسياسي والمرور من المرجعية الإسلامية إلى الخصوصية المغربية أساس المواقف المتباينة التي تحاك حول تاريخ المغرب قديماً وحديثاً. فهل نستطيع الكلام عن وجود ملامح العصرنة في تاريخ الدولة المغربية؟ قد تصعب الإجابة عن هذا السؤال بالسلب أو بالإيجاب، ولكننا سننطلق من دراسة المسألة في بعديها السياسي والاقتصادي لنرى هل كان ذلك ممكنا أو غير ممكن.

يبدو أن تعاقب الحركات السياسية بالمغرب كله ذو بعد ديني. كان الفتح الإسلامي مسؤولاً عن وصول الدعوة الإسلامية إلى المغرب. غير أن تجذر الدعوة في المجتمع البربري ظلّ سطحيّاً. ومع مرور الزمان، تلاشت هذه الدعوة و لم يبق من التعاليم الإسلامية إلا بعض المظاهر. وقامت الدولة المرابطية على أساس ديني. فكلمة مرابطين تحمل في طياتها معنى جهاديّاً. ويمكن اعتبار عبد الله بن ياسين المرشد والمصلح[161]. فلما دخل المغرب، صار يدعو أعضاء قبيلة جدالة إلى إقامة حدود السنّة في الشريعة وطالب البدو بتنظيم الصفوف وجعل من علامات الإيمان الصادقة القيام بالمعارك صفّاً صفّاً. وشكل الفقهاء الدعامة الأساسية للدولة المرابطية على أساس أن الفقه المالكي كان جوهر الأحكام. وأنيطت بهم مسؤولية الدفاع عن الدولة وصيانتها. واعتمد الفقهاء في تبليغ ذلك على السيرة النبوية، فكانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام هي القدوة وهي الأساس وكانت الحاجة لا تدعو إلى هادٍ آخر، وربما لجأ المرابطون إلى التوحيد عن طريق المالكية ردّاً

---

(160) علال الفاسي، الحركات...، مرجع مذكور، ص ص. (ك - د).

(161) "ولما قبل عبد الله بن ياسين الدعوة (من فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحاؤهم)، خرج في جيش عظيم والتقى بجيش مغراوة وانتصر عليه ودخل سجلماسة وأقام بها حتى هدّنها وأصلح أحوالها وغير ما وجد بها من المنكرات: قطع المزامير، وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمور، وأزال المكوس، وأسقط المغارم المخزنية، وترك ما أوجب الكتاب والسنة". (علي ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973، ص ص. 127 - 128).

لفعل التيارات الأخرى التي كانت منتشرة في المغرب. فحركتهم دعوى دينية هدفها محاربة الانحراف والاعوجاج الذي أصاب المغاربة، وبالتالي كانت استمراراً لما كان مألوفاً وموروثاً في المشرق العربي مع مراعاة الخصوصية المغربية شأنها شأن الحركات التي أتت من بعدها.

وتبنى المهدي بن تومرت في دعوته قاعدة إسلامية أساسية، هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسببت له في مغامرات ومحن أينما حل وارتحل ودونها البيدق في كتاب عن "أخبار المهدي". وكان يتحدث عنه بالإمام المعصوم: "فلما كان يوم الفطر، اختلط الرجال والنساء في الشريعة. فلما رآهم الإمام رضي الله عنه دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالاً حتى بددهم"[162]. ولما دخل مراكش، استمر في الأمر بالمعروف. وكانت له مواجهات ومناظرات مع فقهاء المرابطين وكان ينتصر عليهم و لم يتردد ابن تومرت في انتقاد المرابطين بحضور أميرهم كما أشار إلى ذلك البيدق:

ثم أقبل (المهدي) إلى جامع علي بن يوسف، فوجد علي بن يوسف قاعداً على غضارة بن تيزمت والوزراء واقفون، فقال له الوزراء: رد الخلافة على الأمير فقال (ابن تومرت): وأين الأمير؟ إني أرى جواري منقّبات. فلما سمع علي بن يوسف ذلك، حط النقاب عن وجهه وقال لهم: صدق !! فلما رآه المعصوم، قال له: الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف. ثم قال له المعصوم: يا علي... قم عن هذه المغيرة تكن إمام عدل... ودخل مع الفقهاء بالمذاكرة حتى قهرهم القهر كله[163].

لقد جاء المذهب الموحدي ليضع حدا للنظام المرابطي، واعتمد الموحدون على مذهب كان بمثابة عقيدة وممارسة سياسية وعسكرية. وكان الإنسان مجرد عبد خاضع للمذهب وللنظام، وكان الخليفة مستحوذا على كل السلط مستبدّاً بها

---

(162) أبو بكر بن علي الصنهاجي البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية الموحدين، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص. 13.

(163) أبو بكر بن علي الصنهاجي البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية الموحدين، ص. 27؛ وعبد الله علي علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي، القاهرة، دار المعارف، 1971، ص. 43 و 61.

سواء كانت دينية أو دنيوية[164]. واعتمادا على ما سبق، يظهر أن الموحدين حددوا أسلوب العمل واستبدلوا بالجهاز المرابطي الذي كان يعتمد على الفقهاء جهازاً موحّدياً اعتمدوا فيه على الأشياخ أو الطلبة من أجل بناء دولة كانت استمرارا للدولة السابقة، و لم تقطع صلتها بالمشرق. ومن ثم يكون من الصعب الكلام عن وجود تغير جذري.

فإذا كانت الحركات السياسية امتدادا بطريقة أو بأخرى لأوضاع المشرق فهل عرف المغرب تجديدا في مساره السياسي مع بداية العصر الأوربي "الحديث" أو لا ؟ لقد تساءل جاك بيرك بطريقته الساخرة المعهودة عن مدلول العصر "الحديث" في حالة المغرب، وسعى إلى طمأنة الأوربي في هذا الصدد فقال: "فليطمئن الجميع، فالمغرب لم يعرف عصرا حديثا على النمط الأوربي، و لم يعرف حكم الدولة الوطنية؛ كما أن الإسلام المغاربي لم يعش إصلاحات دينية"[165] .

دشنت أوربا عصرها "الحديث" بخروجها من المجال المغلق إلى المجال المفتوح؛ وكانت دورة ماجلان، ورحلات كريستوف كلومب رمزا لذلك. ومن نتائج المد الأوربي الانكماش الإسلامي، وكان المغرب أول البلدان المتضررة بهذا المد بحكم موقعه الجغرافي ومواقفه ومساهماته في الوجود الإسلامي في الأندلس. ولعل من أهم نتائج الهجوم الإيبيري على المغرب وصول الأشراف إلى الحكم. وهكذا لم تعد السلطة في المغرب تعتمد العصبية القبلية، بل اتخذت منطلقاً آخر وحاولت الاعتماد على مكانة الأشراف لتبقى بعيدة عن ضغوط المجتمع[166] . وهذا لا يعني أن السعديين أو العلويين لم يعتمدوا في حركتهم الدعوة الدينية؛ إلا أن الجديد هو أن الدعوة أصبحت ضد المسيحيين الذين أصبحوا يهددون الوجود الإسلامي، والهوية المغربية في المغرب نفسه. لقد دخل الإسلام مرحلة الجهاد

(164) Mohamed Kably, *Variations.., op. cit.*, pp. 40-41.

(165) Jacques Berque, *Ulémas, Fondateurs, insurgés au Maghreb au XVII^{e} siècle* Paris, Sindbad, 1982, pp. 14 - 15.

(166) Jacques Berque, *Ulémas, Fondateurs, insurgés au Maghreb au XVII^{e} siècle*, pp 38.

الدفاعي بعدما كان متزعماً ومتبنياً للجهاد الهجومي في الأندلس. لقد اعتبر الجهاد من أهم المواضيع التي استأثرت باهتمام العلماء خلال هذه الفترة[167].

لقد تميزت المرحلة بوصول الأشراف إلى الحكم، لأن الاعتقاد فيهم والتبرك بهم في أوقات الشدة كان الوازع المشترك بين المغاربة. وبسبب ذلك كثرت الكتابة عن الأنساب وعظم النقاش حول الموضوع. وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى الجدل الذي دار حول الطعن في صحة نسب السعديين الشريف. وأورد الناصري النقاش في الموضوع بين محمد الشيخ بن زيدان السعدي والأمير المولى محمد بن الشريف السجلماسي العلوي. فقد بعث محمد الشيخ السعدي برسالة يقول فيها:

> وبلغني أنك تعلق في البوادي والحواضر أن جرثومة انتمائنا لبني سعد بن بكر هوازن، مع أنها من بني نزار بن معد وافية المكاييل ثقيلة الموازن... ولئن كان غرضك حط منطقة قدرنا من اللبب، فهذا من العلي عليك عار، وأن تحاول محونا من صحيفة النسب، فتلك دعوى لا تغلي أو ترخص أسواق الأسعار"[168].

وأجاب الأمير العلوي على هذه الرسالة "أن الكل أهل بساطكم، ومحل فراحكم وانبساطكم. ولقد بلغتنا نسخة "**مناهل الصفا**" فلم نجد فيها مورداً أعذب وصفاً وكفى دليلاً الناطق والظاهر"[169].

من خلال ما سبق يبدو أن الشرف كان رمزا أساسيا لمن أراد الوصول إلى السلطة خلال هذا العصر، وتميزت سياسة السعديين والعلويين بعدهم بالابتعاد عن المجتمع، لأنهم لم يتبنوا العصبية بل حاولوا تقديم أنفسهم على أساس أنهم

---

(167) "الجهاد ظاهرة عامة في العصر السعدي من لدن قيام الدولة إلى نهايتها، وذلك بسبب ظروف الاحتلال الأجنبي... وكان لظاهرة الجهاد انعكاسات بارزة الملامح في كل من الميدانين العملي والفكري". (انظر الفصل الذي خص به محمد حجي الموضوع في **الحركة الفكرية**، مرجع مذكور، الجزء الأول، ص ص. 197 - 216).

(168) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، مطبعة دار الكتاب، 1955، الجزء الثالث، ص. 3 والجزء 6، ص.103 وما بعدها.

(169) المصدر نفسه، ص. 104.

ينحدرون من سلالة الرسول، وهي فوق الاعتبارات العصبية المألوفة. وتعتبر الظاهرة تجديداً ومنعطفاً في المخزن المغربي. وعمل الأشراف على مسايرة عصرهم عن طريق خلق جيش نظامي هدفوا من وراء تأسيسه إلى خلق قوة تجعلهم في مأمن من فتن المجتمع. وكان هذا الجيش مرتبطا بالسلاطين (العلوج عند السعديين ــ وعبيد البخاري عند العلويين). وقد رأى بعض الباحثين في الظاهرة إشارة أو ميزة من مميزات الدولة الحديثة[170] . ولعل الجديد في العصر الحديث هو محاولات الأشراف خلق سلطة مركزية تعتمد على العلماء من أجل صيانة الشريعة واستمداداً للسند الأساسي اللازم للمشروعية[171] . واستعملوا النسب رمزاً لدعم سياستهم تجاه القبائل وسخروا الزوايا ـ كلما استطاعوا ذلك ـ لتنوب عنهم في البوادي النائية. لقد حاول الأشراف اعتماد توازن فيما بين المجال والنسب في سياستهم. غير أن هذا التوازن كان مهددا بالانكسار، لأنه لم يكن متجذرا في القاعدة الاجتماعية بل بقي منحصرا في النخبة، وبالتالي بقي الدعم الشعبي مرتبطا بدرجة النفوذ والقوة التي يملكها هذا السلطان أو ذاك: فعندما يقع خلل في هذه السلطة، يعم الهرج وتنتشر المحن فيظهر تاريخ المغرب وكأنه محكوم عليه بأن ينطلق دائما من الصفر[172] . فغياب التراكم السياسي كان لا يسمح ببناء دولة ذات مؤسسات اجتماعية واقتصادية قادرة على بناء الدولة الحديثة، لأن منطق السلطة ظلّ مشخصا وذا سند مهزوز.

لقد اهتمت الدول التي تعاقبت على المغرب بالتجارة، وحاولت أن تنشط هذا القطاع لما له من فوائد على "الخزينة". وبالرغم من أهمية الرواج التجاري، فإن هذا القطاع لم يقم بدور المحرك في اقتصاد المغرب على غرار ما وقع في أوربا. فما الأسباب التي كانت وراء هذا العجز، بالرغم من المحاولات التي انطلقت في بعض

---

(170) J. Berque, *Ulémas...*, op. cit., p. 43.

(171) عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي ورحلته الإصليت الخريت، الرباط، عكاظ، 1991، ص. 27.

(172) تكفينا الإشارة هنا إلى الأزمات الخانقة التي تلت حكم كل من أحمد المنصور الذهبي، وحكم المولى إسماعيل.

الأوقات؟ كانت سبتة ملتقى الطرق في البحر المتوسط، وقاعدة تجارية أساسية إليها تصل البضائع الواردة من إفريقيا عبر الطرق الصحراوية وتلك التي تصلها عبر الطرق البحرية في الشمال ومنها توزع هذه البضائع شمالا وجنوبا.

"فقد صارت سبتة ما بين القرن X والقرن XIV مركزا لصناعة النسيج والنحاس والخشب والكتب. وأصبحت سبتة خلال هذه الفترة تزود المناطق العديدة بكل ما تحتاجه من بضائع وخدمات. وكون الفقهاء الذين كانوا يسيرون المدينة أوليكارشية كانت مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالتجارة"[173].

وقد ظهر في المدينة حس تجاري هائل وكان التجار السبتيون يطوفون أنحاء العالم. وقد أشارت حليمة فرحات، اعتماداً على ابن بطوطة، إلى أن هذا الأخير لقي في الصين بعض التجار من سبتة. ولكن لماذا توقف دور سبتة؟ هل له ارتباط بالاحتلال البرتغالي فقط؟ أو أن الأمر يتعلق بظروف خاصة بالمدينة؟ وجود أوليكارشية الفقهاء؟ أو أن منطق نمو المدن الدويلات الذي عرفته أوروبا لم يجد الشروط الملائمة في سبتة. لاحظ محمد القبلي أن سبتة لم تقم بدور المدينة ـ الدويلة على غرار ما عرفته مدن الضفة الشمالية من البحر المتوسط، لأنها كانت قريبة من المدن المغربية العريقة ذات التجذر التاريخي وربما بسبب هذا الوزن التاريخي الذي كانت هذه المدن والتي تحظى به سماها القبلي Villes dites impériales، لم تتمكن سبتة من القيام بذلك الدور الذي قامت به بعض المدن في شمال البحر المتوسط. وتحقق لهذه الأخيرة ذلك بفضل حيوية بعض العائلات. وأشار بروديل إلى الظاهرة بقوله: "عرفت هذه المدن تمركز المقاولات... وسيتحول هذا التمركز بسرعة خلال القرن السادس عشر ليصبح مؤسسات عائلية كمؤسسة فوغر أو فلزير أو عائلة افايطاطي"[174].

فإذا كانت المرافق الاقتصادية في أوروبا في يد عائلات من الحجم الذي ذكرنا، فإن المنصور الذهبي اعتمد في سياسته الاقتصادية على تدخله في القطاعات

---

(173) Halima Ferhat, *Sabta des Origines au XIV^è siècle*, Rabat, Manahil, 1993, p. 305.

(174) T.F. Braudel, *La méditerranée et le monde méditerranéen*, Armand Colin, 1976,I p. 405.

الحيوية، وأعني زراعة قصب السكر والمتاجرة فيه، ثم احتكار التجارة مع العالم الخارجي. وكان المخزن يتحكم في هذا القطاع ويوجهه، كما يريد لا كما تفرضه المصلحة. وكان يوكل هذا العمل إلى أهل الذمة: "وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم (معاصر السكر) لطائفة أهل الذمة"[175]. وكان يكلف التجار الأجانب ويعطيهم الرخص لتنشيط التجارة كما يتبين من الأمر السلطاني الذي وجهه المنصور الذهبي للتاجر الإنجليزي جوان بنطون في دجنبر 1578:

عن أمر... أمير المومنين أبي العباس أحمد... الشريف الحسني... يستقر كتابنا هذا بيد التاجر النصراني جوان بنطون يعلم منه أننا سرحنا له عشرة جمال من التمر التي يريد لبلاده من غير معارض له ولا مانع. ولابد ولابد ولابد. والسلام. وكتب في اوائل شوال عام ستة وثمانين وتسعمائة[176].

لقد استمر احتكار المخزن للقطاعات الحيوية على عهد العلويين وحاول السلاطين أن يجعلوا من التجارة الخارجية دعامة سياستهم وأساس استقلالهم عن المجتمع. فقد لجأ المولى إسماعيل إلى خلق شبكة من تجار السلطان مكونة أساساً من أهل الذمة. وقد رأت ماكالي مرسي في ذلك بادرة من بوادر خلق ما سمته بـ: "رأس مال الدولة الذي ظل مرتبطا بشخص السلطان"[177].

وذهب سيدي محمد بن عبد الله في سياسته التجارية إلى أبعد من ذلك، فربط اقتصاد المغرب بالعالم الخارجي؛ وما تأسيسه لمدينة الصويرة إلا تجسيد واضح لهذه الإرادة. وقد راسل في هذا الشأن الدول الأوربية وأعطى تجارها امتيازات وطالب القناصل بالاستقرار في الميناء الجديد كما تظهر الرسالة التي وجهها للعمالات المتحدة سنة 1766:

إلى جماعة الاصطادوس. سلام على من اتبع الهدى... وقد صنعنا مرسى جديدة تسمى بالصويرة قريبة من حضرتنا العلية مراكش... وكافة القنصُوات من الأجناس

---

(175) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، مصدر مذكور، ص. 210.

(176) *S. I. H. M.* 1ère série Angleterre, T II. p. 593.

(177) Magali Morsi, "Comment décrire l'Histoire du Maroc", in *Bulletin économique et social* du Maroc, N° double 138-139, Année 1979, pp. 134 -135.

المصالحين معنا بنوا بها ديارهم. والذي يعجبنا منكم هو أن تـأمروا قونصكـم يشـيد بها دارا ويستقر بها كغيره من القنصوات...[178] .

وكان سيدي محمد بن عبد الله يشـجع التجـارة في كـل مراسـي المغـرب. وقـد أعطـى الهولنديـين امتيـازات تجاريـة وألح عليهـم قـائلا: "فانتشروا في جميعهـا (المراسي) بأسفي وأقـديـر وسـلا وطـنـجـة والـعرايـش وتطـوان في عهــد وثيـق منـا وأمان ولا تخشوا شيئا"[179] .

---

(178) دار المخفوظات االوطنية بلاهاي، رقم الحزمة 6969 بتاريخ 12 شتنبر 1766.

(179) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، رقم الحزمة 6959 بتاريخ 23 شتنبر 1756.

الفصل الثالث

مغرب المغاربة الذين قبلوا الغزو الإيبيري ومسألة التجاوز

لقد تميزت مرحلة العصر الحديث بانطلاقة المغامرة الأوروبية المتميزة بإرادة السيطرة على العالم. وكانت الاكتشافات الجغرافية الكبرى لحظة تحول هائل في ذهنية الإنسان الأوربي الذي أصبح يشعر بالقوة والتفوق، وبدأ عليه طموح الاستحواذ وإرادته. ودخلت أساطيل أوربا أعالي البحار بفضل استعمالها تقنيات حديدة مكنتها من معاكسة الرياح. وكانت رحلة كريستوف كلومب أساس التجاوز الأوربي لباقي العالم. واعتبر هذا الرحالة نجاحه معجزة إلهية برهنت للجميع على صدق أقواله، وعبر عن ذلك في آخر المجلد الأول من مذكراته قائلا:

> فالرحلة حدث ومعجزة وبرهان رباني جاء ليؤكد ما كنت أنادي به في السابق، ولم يصدقني خلق كثير. وها أنا أسجل اليوم هذا النجاح في هذه السطور، حتى يقتنع الذين شكوا في إمكان تحقيق المشروع وتهكموا مني. أرجو ـ يا صاحب الجلالة! ـ من العلي القدير أن تكون هذه المبادرة الفريدة وهذا النجاح الذي أهديه لجلالتكم مفخرة للمسيحية والمسيحيين[180].

واعتبرت الكتابة الأوربية الرحالة والمكتشفين رموز الحداثة ومفاتيح المستقبل[181]. وكانت رحلة ماجلان أكثر واقعاً ذهنيّاً من مبادرة كريستوف كلومب، لأنها بينت بما لا مجال للشك فيه أن الكون الذي نعيش فيه محدود

(180) Christophe Colomb, *La découverte de l'Amérique*, I, Journal de bord, pp: 1492-1493.

(181) *Ibid.*, p. 7. جاءت في الحاشية التي بدأ بها الكتاب جملة تقول:
"Ceux -là (Voyageurs) qui flairent l'idée neuve au fraicheur de l'abime, ceux -là qui soufflent dans les cornes aux portes du futur" (Saint John Perse, *Exil*).

الأطراف. ويستطيع الإنسان أن ينطلق فيه من نقطة ما وأن يعود إليها بعد أن يقوم بدورة حول العالم، وكان ذلك بمثابة ثورة ثقافية.

وتغنى الشاعر البرتغالي فرناندو بسووا (Fernando Pessoa) برحلة ماجلان فخلدها في قصيدة معبرة جميلة: إذ شبه الشاعر الرحلة برقصة هزت كل أطراف الكرة الأرضية، ورقص هذه الرقصة ليل نهار جبابرة هم أبناء الكرة الأرضية الذين سعوا إلى ضم هذا الكون واحتضانه. وكان ماجلان أول بحار يحقق هذا الإنجاز، وما موته إلا رمز لهذه الإرادة في ضم الكون وتطويقه[182].

وانطلقت أساطيل البرتغال الاستكشافية من السواحل المغربية لتقوم بدورتها حول إفريقيا. وكان هدفها الأساسي هو الوصول إلى الشرق الأقصى وتجاوز الوساطة المغربية ـ الإسلامية من أجل الوصول مباشرة إلى تبر السودان وتوابل الشرق. واعتبر فاسكو دي جاما القائد الذي أزال الخوف والهلع (le capitaine de la fin)، لأن رأس الرجاء الصالح كان معروفاً في الكتابة البرتغالية برأس الرعب والهول. لقد بدأت المغامرة البرتغالية في المغرب. فما المضمون الحقيقي للغزو البرتغالي لهذا القطر؟ وهل تدخله في الثغور المغربية مجرد مرحلة من المراحل التي قطعوها وهم في طريقهم إلى المناطق الأخرى؟

أو أن مرحلة الاكتشافات كانت امتداداً لحروب الاستردادات؟ فبعد طردهم للمسلمين من الأندلس، أرادوا ملاحقتهم في القواعد الخلفية. وقد أظهر

---

(182) عنوان القصيدة:

FERNAND DE MAGELLAN

Une danse secoue la terre entière.
Qui fait cette danse, qui atterre la nuit?
Ce sont les titans, les fils de la terre
Qui dansent et dansent pour la mort d'un marin
Qui voulut circuler tout le corps de sa mère,
L'encercler premier d'entre les hommes.
Même absent, il sut enlacer
La terre entière de son etreinte.

.(Fernand Pessoa, *Mensagem, Porto*, Ed. ASA, 1991, p. 214.)

كريستوف كلومب علاقة الكشوف بحروب الاسترددات عندما خاطب الملوك الكاثوليك قائلا:

"أصحاب الجلالة! لقد استطعتم خلال هذه السنة (1492) أن تنهوا حروبكم ضد المسلمين الذين كانوا يحكمون في أوربا، أخرجتموهم من غرناطة، ورأيت الأعلام الملكية ترفرف فوق أبراج قصر الحمراء وأسوار غرناطة في الثاني من يناير 1492. وشاهدت آخر أمير مسلم وهو يغادر المدينة بعدما قبل يديكما الكريمتين... بعد ما تعرفتم تفاصيل مشروعي وأردتم أن تتحركوا أمراء مؤمنين بنشر المسيحية ومعادين للدين المحمدي ولكل الوثنيات والبدع، قررتم إرسالي لبلاد الهند وأصدرتم إليَّ الأمر بالتوجه إلى الشرق لا عن طريق البر كما كان معتادا، ولكن عن طريق الغرب عبر المحيط وهو الطريق الذي لا نعرف عنه حتى اليوم أي شيء ،لأن أحدا لم يسلكه من قبل"[183] .

وأصبح هدف البرتغال الأساسي تجاوز وساطة التجار المسلمين وضرب القواعد التي كانوا يرتكزون عليها. ففي سنة 1499 صار الملك البرتغالي حاملا لألقاب تؤكد هذه الإرادة في السيطرة، فقد بعث برسالة إلى البابا، ملقبا نفسه فيها بلقب "سيِّد غينيا والحبشة وشبه الجزيرة العربية وبلاد الفرس وبلاد الهند". وأصبحت الأساطيل البرتغالية تطارد السفن العربية من المحيط الهندي منذ الرحلة الثانية لفاسكو دي جاما سنة (1502 - 1503)[184] .

1 - الغزو الإيبيري في الكتابة المغربية

بالرغم من أهمية موضوع الغزو البرتغالي للسواحل المغربية، فإنه لم يحظ باهتمام كبير من الكتابة المعاصرة له. فالمعلومات التاريخية الواردة عنه لا تتجاوز ذكر سنوات سقوط بعض المدن وشنّ الحملات على المحتل. وكان المؤرخ الناصري يعتمد في تأريخه لغزو البرتغال على مصادر أجنبية كقوله: "ذكر منويل في تاريخه" و "رأيت في بعض تواريخ الفرنج"[185] . وقد ركزت المصادر التي عالجت

---

(183) Christophe Colomb, *La découverte de l'Amérique*, T.I, pp. 31-32.

(184) Gaston Zeller, *op. cit.*, p. 39.

(185) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، الجزء الرابع، ص. 92 و 116.

الموضوع في أبعاده الدينية، فاعتبرت الكتابة المغربية الغزو عقاباً من الله، في حين اعتبرت المصادر البرتغالية الغزو إلهاماً من الله.

كان المد الإيبري في المغرب الصدمة التي أذهلت المغاربة كما يتضح من الكتابة التي صاحبت الغزو أو تلك التي عالجته. وعبر الناصري عن الصدمة بوضوح عندما كتب:

لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده، أو طرق ثغر من ثغوره، أو الاستيلاء على شيء من سواحله. و لم يكن أهله يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه، بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم[186] .

وفي هذا الصدد نطرح سؤالاً منهجياً له ارتباط بعلاقة الكتابة بالواقع المحكي عنه: ما مدى مصداقية الخطاب لحظةً وزماناً في علاقته بالزمان التاريخي، أي بالزمان المعيش؟ فبسبب التوسع الإيبري في المغرب ظهرت كتابة عبرت عن عمق الأزمة التي كانت تنخر البلاد، وجاءت انعكاساً لذهنية متأزمة على مستوى الفرد والجماعة.

ويمكن الحديث في هذا الصدد عن ظهور كتابة تعبر عن وجود ثلاثة تيارات تعاملت مع الغزو بطرق مختلفة بحسب أصل اصحابها واقتناعاتهم: فالتيار الأول تيار معروف مألوف، لأنه ظلّ يعمل وينتج في إطار المتواتر من الثقافة العربية الإسلامية وكأن شيئاً لم يحصل؛ ونجد ضمن هذا الاتجاه معظم الفقهاء والعلماء. وحاول أصحاب التيار الثاني العودة إلى الماضي من أجل توليد الطاقة الأساسية التي تمكنهم من مواجهة ما يحصل. وعمل أصحاب هذا التيار على إبراز العوامل التي أدت بالمسلمين عموماً، وبالمغاربة على الخصوص، إلى هذه الوضعية المتأزمة. ونسج دعاة هذا الاتجاه خطابا إصلاحيّاً، وأرجعوا أسباب تأزم المسلمين إلى التشتت وضعف الإيمان والابتعاد عن الإسلام. وخير من مثل هذا التيار هو أبو عبد الله محمد الهبطي. وعنوان مؤلفه تعبير صادق: "**تنبيه العامة والخاصة على ما**

---

(186) المصدر نفسه، ص. 109.

اوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية"[187]. فالمؤلف عبارة عن رجز من ألف بيت، وهو بمثابة لوحة قيد فيها الهبطي كل الممارسات التي كان يتجاوز بها سكان الريف الحدود الشرعية. وتناول الهبطي انتقاداته للمجتمع في اتجاهين: في أمور تتعلق بالعادات، وفي أشياء غير بها المغاربة العبادات". وفي هذا الاتجاه نبه الهبطي إلى التغيير الحاصل في الشهادة:

يا أيها الحذاق والأكياسُ أما ترون ما عليه الناسُ
من فرط ما هم فيه من جهالة قد غيروا عبارة الشهادة[188]

وغير المغاربة في ركن الصيام وتخلوا عنه:

لو كان في قلوبنا إيمان لكان بالصيام يستعان [189]

ولاحظ أن الفساد قد أصاب الأركان الأخرى كالحج والزكاة[190]. وإلى جانب العبادات، أطال الكلام عن بعض الممارسات الاجتماعية التي تتعارض في رأيه مع التعاليم الإسلامية: فالوشم كان يحدث تغييرا في خلق الله:

وإن دهاك ما سمعت من كلام فأين أنت من حديث الوشام
فإن أتوا حقا بذاك الفاسق لكن يشير صورة العواتق
واحتالوا بالمكايد اللطيفة فيما يزيل عنها حال الصبية
أما لهم على الزنا من الكبود تشبهوا في مثل ذاك باليهود[191]

واستمر الهبطي في انتقاد التصرفات الاجتماعية التي أخلت بالدين. وأشار في ذلك إلى اختلاط النساء بالرجال. ولو كان يوجد بالبلاد سلطان غيور على

---

(187) مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 2808 (خ.ح)؛ وانظر كذلك ما جاء به محمد حجي في هذا "التنبيه..."، واعتبره من المؤلفات التي وضعت لينتقد بها أصحابها أوضاع المجتمع. (محمد حجي، الحركة...، الجزء الأول، ص. 31).

(188) أبو عبد الله محمد الهبطي، تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية، خ.ح، رقم 2808، ورقة 1 وجه.

(189) المصدر نفسه، ورقة 1 ظهر.

(190) المصدر نفسه، ورقة 4 وجه.

(191) المصدر نفسه، ورقة 7 وجه.

الإسلام، لغير الأمور:

لو كان سلطان يحب الإسلام لأخرج العباد من هذا الظلام[192]

واعتبر هذا المصلح عادات الزفاف خروجاً عن الإيمان، لأن القوم قد زاغوا وبدأوا يحضرون الملاهي بالجمع الكبير لم يبق منهم الصغير ولا الكبير. ولم يتوقفوا - في رأي الهبطي - عند هذا الحد، بل غيروا من الأحكام الشرعية:

لو كان أهل القطر مؤمنين ما بدلوا حكم الإله فينا[193]

ولم تبق هذه الممارسات متوقفة على العامة، بل أصابت الخاصة كذلك: فقراء وعلماء وأمراء، فاختلط الحابل بالنابل وعم الزيغ والبهتان، وانتقد مواقف الأمراء المتخاذلة بشدة، واتهمهم بالجور والاستبداد والابتعاد عن العدل. وأرجع إليهم كل أسباب الويلات التي تنخر المجتمع. "فإذا ساد الشرع على ألسن الناس، علمت أن الحق للسلطان"[194] .

إذا نظرت في ملوك العصر وما لهم من نقمة وجور

يا من في العباد صال بالجنود ولم يقف في أمورهم على حدود[194]

وكانت صرخة الهبطي تعبيراً عن اليأس الذي دب إلى قلوب أغلبية المغاربة. وأنهى كلامه يذكر أمور في الوعظ وضح من خلالها كيف تشبث العباد، عامتهم وخاصتهم، بدار الفناء وأهملوا دار البقاء:

دنياكُمْ أميرها أسيرها دنياكُمْ عزيزها حقيرها

دنياكُمْ كبيرها صغيرها دنياكُمْ غنيها فقيرها

دنياكُمْ إلى الفنا تصير دنياكُمْ زمانها قصير[195]

فإذا كان الهبطي يمثل نموذج الفقيه المصلح المعتقد أن المغاربة وصلوا إلى ما وصلوا إليه بسبب انحرافهم عن الإسلام وانسياقهم وراء اللذات، فإن الحسن بن

---

(192) المصدر نفسه، ورقة 8 ظهر.

(193) المصدر نفسه، ورقة 15 وجه.

(194) المصدر نفسه، ورقة 22 ظهر.

(195) الهبطي، تنبيه..، ورقة 26 ظهر.

محمد الوزان يمثل نموذجاً آخر. لقد تناول في كتابه "**وصف إفريقيا**" تأزم المغرب من زاوية المثقف المحنك بفضل أسفاره الدبلوماسية والتجارية. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن تجربة الأسْر عرفته بأوروبا من الداخل. وبسبب ذلك مثل الوزان نموذج العالم العارف المتشبع بثقافتين: فهو حسن وليون الذي ينتقل بسهولة بين الإسلام والمسيحية، وبين أوربا وإفريقيا. وتميز الوزان في كتابته باتخاذه المسافة عما يقول، ولجوئه إلى استحضار النموذج الأوربي عند كلامه عن المغرب والعكس بالعكس. وهو يتكلم عن أصل تسمية إفريقيا كتب ما يلي: "يسمى هذا القطر باللغة العربية إفريقيا، من الفعل فرق بمعنى فصل باللاتينية (SEPARAVIT). وهناك رأيان في أصل هذه التسمية"[196] . وتظهر طريقة تنقل الوزان من مرجعية إلى اخرى عندما يطلق كلمات لها ارتباط بتاريخ أوربا عن المغرب. فهو لا يتردد في تسمية الأعيان في المغرب بالنبلاء، وينعت المدن بالجمهوريات: "وكانت تفزة في القديم تحكم على شكل جمهورية"[197] . ويعطينا هذا الكتاب فكرة واضحة عن ذهنية مغاربة مطلع القرن السادس عشر غلب عليها طابع التمزق والتصدع والدمار الذي شمل كل مرافق الحياة في المغرب. وردد الوزان بكثرة كلمة "الخراب" ونراه يتأسف على واقع ملك فاس الذي لا يتوفر على إمكانات مادية، "لأن هذا الملك المسكين الذي يجبى إليه كل عام نحو ثلاثمائة ألف مثقال لم تتوفر لديه قط في الخزينة مائة ألف، ولا كانت أيضا لأبيه"[198] .

واعتبر كتاب الوزان المصدر الأساسي لدراسة المغرب خلال العصر الحديث، وكان منطلقاً لدراسات صارت كلاسيكية عن هذا القطر في مطلع القرن السادس عشر[199]. وما زال هذا الكتاب يشكل مادة تاريخية وثقافية تنطلق

---

(196) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**، الجزء الأول، ص. 25.

(197) المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ص. 140 - 141 و 143.

(198) المصدر نفسه، ص. 144.

(199) Jean Bodin, Louis Chenier, Louis Massignon, *Le Maroc dans les premières années du XVIè siècle, tableau géographique d'après Léon l'Africain*, Alger, 1906; Daniel Noin, *La Population rurale du Maroc*, Paris, PUF, 1970.

منها دراسات وقراءات تُستَوْحَى من شواغل معقدة راهنة. نذكر على سبيل المثال رواية الكاتب والصحفي اللبناني أمين معلوف[200] الذي اتخذ شخصية الوزان بطلاً لروايته "ليون الإفريقي". وكانت هذه القصة التي صدرت سنة 1986 تحكي عن حياة بطل موقن بالازدواجية الثقافية.

ألف الوزان "وصف إفريقيا" بطلب من البابا ليو العاشر وفي ظروف غير عادية، هي أيام النهضة حين كانت أوربا عموماً وإيطاليا على الخصوص في غليان فكري متميز. وكان جو الرحلات الاستكشافية طاغياً ومؤثراً على ذهنية الإنسان الأوربي، الذي كان شغوفاً بجمع المعطيات والكشف عن الأخبار التي تساعده على معرفة العوالم الأخرى. ففي هذا المناخ ألف الوزان كتابه المتميز. وتكمن أهمية المعلومات الواردة في مكانة الوزان وشخصيته. فهو الرحالة المحنك الذي تنقل عبر أقطار كثيرة، وكان على وعي بأهمية الرحلات لأوربا. وفي هذا الصدد ختم كتابه قائلا:

> والحاصل أن ذلك ما شاهدته ـ أنا يوحنا ليون ـ مما هو جميل وجدير بالذكر في كل إفريقيا التي جبتها من جهة إلى أخرى. وقد أثبت بعناية يوماً فيوماً كل ما رأيته يستحق الذكر ـكما شاهدته، وما لم أشاهده أخبرني به من يوثق به إخباراً صحيحاً كاملا. ثم رتبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي، وألفت منها في الأخير كتابا عندما كنت بروما في العام الميلادي 1526 في العاشر من مارس[201].

وهو الدبلوماسي الماهر والعالم المتفتح الذي استطاع بفضل تجربته أن يعيش ويغرف من حضارات وثقافات متعددة من دون أن يظهر عليه أي تمزق داخلي. ولعل الجملة التي تنهي كتاب "وصف إفريقيا" خير دليل على ذلك. "وهنا ينتهي كتاب يوحنا ليون (البعد اللاتيني) الأندلسي المولد (البعد الإسلامي) والمغربي النشأة"[202].

ويظهر مما سبق أن "وصف إفريقيا" أعطى بعدا كونياً لمغرب مطلع القرن

---

(200) Amine Maalouf, *Léon l'Africain*, Paris, 1986.

(201) حسن الوزان، وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ص.284.

(202) حسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، الجزء الثاني، ص. 284.

السادس عشر، فقدم الأوضاع المعيشة في تفاعلاتها الداخلية والخارجية دون إغفاله ظروفها التاريخية القريبة أو البعيدة.

وإلى جانب التيارين السابقين، ظهر في الكتابة المغربية المتعلقة بمغرب العصر الحديث تيار ثالث قد نسميه اصطلاحاً بالاتجاه الشعبي، لما له من تجذر في الأوساط الشعبية. ويتعلق الأمر بأدب المناقب. فهو انعكاس وتعبير تلقائي تجاه الأوضاع المتأزمة التي كانت البلاد تعيشها. وبالرجوع إلى هذه الكتابة، ندرك أنها كانت انعكاساً وإنتاجاً للصدمة التي خلخلت المجتمع المغربي منذ فترة بعيدة واشتدت حدتها بسبب الغزو الإيبيري للسواحل المغربية. لقد تعود المغاربة منذ القديم على التعامل تجارياً مع المسيحيين وألفوا تدخل الجيوش المغربية ضدهم، ولكنهم لم يعيشوا احتلال الأجانب لبلادهم و لم يكونوا مهيئين ذهنيّاً لقبول هذه الأوضاع كما ألح على ذلك الناصري:

> واعلم أن هذا المغرب الأقصى... لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة محفوظ الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين... لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده أو طرق ثغر من ثغوره... و لم يكن أهله يتوقعون ذلك[203].

لكن الاحتلال البرتغالي للسواحل كان ضربة قوية أفرزت المنعطف التاريخي الذي دخله المغرب والمتميز بالانكماش والانزواء وترك المبادرة للقوى الأوروبية التي ستعمل على استغلال مواطن الضعف لتزيد من نفوذها وتعمق من تجاوزها للمغرب.

ويمكن اعتبار رباعيات عبد الرحمن المجذوب مظهراً من مظاهر التأزم الاجتماعي المشار إليه سابقا. فالمجذوب الأسطورة والظاهرة الاجتماعية لا ينحصر في منطقة معينة أو في مدينة محددة: فأقواله وأفعاله تتخطى الحدود وتتجاوز الأزمنة. ورأت الدراسات التي اهتمت بعبد الرحمن المجذوب أن الرباعيات التي تنسب إليه ليست كلها له. واستعمل الجذب سلوكاً وكرامة اختص بها أولياء الله دون

---

(203) الناصري، الاستقصا...، الجزء الرابع، ص. 109.

فيوهم: "وغلبت عليه التسمية بالمجذوب وجرى ذلك على ألسنة الخلق واختص به دون غيره من المجذوبين إظهاراً لحقيقته الباطنية وإكراماً من الله له وإعلاماً بقوته فيه"(204).

لعل أهم كتاب في أدب المناقب لهذه الفترة هو **"دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر"** لمحمد بن عسكر الشفشاوني. لم يهتم ابن عسكر في كتابه بالجوانب السياسية إلا إذا كانت تزكي كرامة هذا الولي أو ذاك أو مكانته. واعتبر ابن عسكر مؤلفه فهرسة، فكتب يقول: "هذه فهرسة أذكر فيها جميع من لقيته بالمغرب من مشايخ وأخذت عنه رواية أو قرأت عليه علماً أو استفدت منه بركة منذ نشأت إلى تاريخ كتبه"(205).

ولجأ ابن عسكر إلى ذكر الأولياء والصالحين والمشايخ تبركا بهم وتقرباً بهم إلى الله، عملاً بقول النبي عليه السلام: "ذكر الصالحين كفارة للذنوب"، وبذكرهم تنزل الرحمة. وختم ابن عسكر بدعاء يظهر المكانة التي كان الأولياء يحظون بها: "اللهم - بجاه الصالحين عندك - اغفر لنا وارحمنا وكن لنا وكن معنا حيثما كنا وأينما توجهنا"(206). ويغلب على **"الدوحة"** سخط الأولياء على الأوضاع وعلى الحكام الوطاسيين الذين تقاعسوا وتخلوا عن واجباتهم الإسلامية، وركنوا إلى مهادنة العدو المسيحي. فهناك إشارة إلى ذلك في ترجمة محمد بن يحيى البهلولي تسجل عدم رضى هذا الشيخ عن مهادنة السلطان أحمد الوطاسي للبرتغاليين: "عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وسلطانهم صاحب برتقال، فبلغ ذلك للشيخ أبي عبد الله، فآلى على نفسه أنه لا يلقى السلطان المذكور ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان والده عيَّنه له من جزية أهل الذمة

---

(204) محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع، طبعة حجرية، فاس، بدون تاريخ، ص. 102؛ A.L. De Primare, *Sidi Abd-ER-Rahman El Majdub*, Rabat, CNRS-SMER, 1985. pp. 38-39 et 53-54.

(205) ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، الرباط، دار المغرب، 1976. ص.1.

(206) ابن عسكر، دوحة، مصدر مذكور، ص. 1 و 2.

بفاس لقوته"[207] . وأظهر ابن عسكر في مناسبات كثيرة مواقف الأولياء المزكّية للأشراف السعديين والمناهضة للوطاسيين. ونورد مثالاً على ذلك ما ذكره ابن عسكر عن موقف الغزواني من الحصار الذي فرضه محمد البرتغالي على مراكش: "فكانت حركة السلطان (فاس) المذكور وأخوه الناصر إلى مراكش، وحاصر بها السلطان أبا العباس أحمد بن محمد الشريف وأخاه أبا عبد الله محمد الشيخ"[208] . وأتى ابن عسكر بهذه القصة ليبرز كرامات الغزواني الذي دعم السعديين وساندهم بسبب عدائه للوطاسيين. وكان فشل حصار ملوك فاس لمراكش ناتجا عن بركة الإمام الغزواني الذي:

وقف الشيخ يعتبر، فجاءت كورة رصاص من مدفع (وطاسي) في صدره ثقبت قشابة صوف ووقفت على لحمه ولم تدخل فيه... ثم قبض الشيخ عليها بيده وقال هذه خاتمة ضربهم، ثم رجع إلى البلد، ثم ورد الخبر على المريني في تلك الليلة بأن أولاد عمه قد قاموا بفاس ونبذوا دعوته، فأصبح راحلاً ولم تقم لهم ولا لأهل بيته بعده قائمة. ولله الأمر من قبل ومن بعد[209] .

وانطلاقاً مما ذكر يظهر أن التيار الشعبي قد ازدادت أهميته بسبب الفراغ السياسي الذي عم المغرب على أثر الغزو الأجنبي، وملأت الزوايا هذا الفراغ فأطرت المغاربة وقادت الجهاد ضد المسيحيين وأصبح لهذا التيار دور سياسي واجتماعي مهم. فقد دعم سياسياً حركة السعديين وضايق الوطاسيين وحارب التيارات الأخرى وعاكسها، وانتبه ابن عسكر إلى الظاهرة وتحدث عنها عندما ترجم لمحمد الأندلسي نزيل مراكش، وانتبه إلى خصوصية هذا العالم الذي كان - كما يقول ابن عسكر - "مولعاً بالعلوم العقلية". وبعدما أشار ابن عسكر إلى العلوم التي اشتهر بها محمد الأندلسي، أضاف قائلا: "لكنه كان كثير الوقوع في

---

(207) المصدر نفسه، ص ص.59 - 60.

(208) المصدر نفسه، ص. 97.

(209) المصدر نفسه، ص.97؛ عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا، 1989، ص ص. 111 - 125.

الأئمة فنحا منحى ابن حزم الظاهري، وشاع ذلك عن أصحابه، فأفتى فقهاء مراكش بتضليله"[210]. ومن أجل ذلك سجن هذا العالم عدة مرات، لكن مذهبه شاع وانتشر وكثر أتباعه فاهتزت المدينة لذلك، ووقع الهرج بين الفقراء وأتباع هذا العالم. ولخص ابن عسكر ذلك بقوله: "فانتشر صيته (محمد الأندلسي) وبعد ذكره وكثر أتباعه، ووقع بينهم وبين الفقراء خطب عظيم، وانتشر بسبب ذلك شغب في العامة، وكثر التعصب، ووقعت المجاهرة بالقتال وسفك الدماء. وقد قتله العامة وصلبوه"[210].

نعود لنطرح السؤال المنهجي الذي انطلقنا منه، ونقصد: ما علاقة الخطاب التاريخي من حيث هو رواية بالواقع المحكي عنه؟ ما علاقات التيارات التي تحدثنا عنها بواقع المغرب الذي كانت تخلخل مجتمعه أزمة عميقة؟ كانت التيارات المتولّدة بمثابة ردود فعل نسجها المجتمع محاولة لصيانة هوية المغرب العربية الإسلامية التي كانت مهددة. وهي الطريقة التي رد بها وعبر بواسطتها عن رفضه للهيمنة وللتجاوز الأوربي له. فالكتابة لا تنفصل إذن عن الواقع المعيش. وكانت المحن التي عرفها المغرب بسبب الأزمات الداخلية والتحرشات الإيبيرية سبباً في إنتاج كتابة معبرة عن التمزق والتشتت الذي كان ينخر المجتمع المغربي. وأدى هذا التمزق بالمغاربة إلى الانقسام والتفرقة. وبسبب هذا الدمار وهذه العراقل عجز المغرب عن مسايرة التحولات التي عرفتها مجتمعات الضفة الشمالية للبحر المتوسط. لكن قبل أن نبحث في خصوصيات هذا الشتات المعرقل، نود أن نعرف كيف قدمت الكتابة البرتغالية حدث غزو البرتغال للسواحل المغربية؟

2 - الكتابة البرتغالية وغزو المغرب

لقد غلب البعد الديني على الكتابة البرتغالية المعاصرة لحدث غزو البرتغال للمغرب، وصوّرت انتصارات الغزاة واحتلالهم لسواحله بأنها إرادة ربانية، وبأن قرار الغزو كان قراراً إلهياً لا بشرياً. وأدّتها الانتصارات المسيحية رسالة سماوية

---

(210) ابن عسكر، دوحة الناشر...، مصدر مذكور، ص. 109.

صامت لدعم المبادرات البرتغالية وتزكيتها. فقد اعتبر زورارا احتلال مدينة سبتة نصرا للمسيح والمسيحية[211]، وحاولت الأسطوغرافية الإيبيرية عموما والبرتغالية على الخصوص أن تركز، كلما سنحت الفرصة، على الأدوار التاريخية التي أدتها شبه الجزيرة في المغرب وفي العالم. وحاول المؤرخون الإيبيريون ربط تاريخهم بمساهمة بلدانهم في حضارة أوربا منذ القديم، فتحدثوا عن شبه الجزيرة الإيبيرية واعتبروها صلة وصل بين الحضارة الإسلامية وحضارة أوربا. وأشادوا بأدوار الإيبيريين الطلائعية في الاكتشافات الجغرافية الكبرى، وألحوا في المطالبة بالوقوف عند هذه الأدوار التاريخية حتى لا ينسى هذا "الماضي المجيد" المسؤول ـ حسب رأيهم ـ عن بناء الذاكرة الأوربية، وسموا عملية التشبث هذه بـ "حق التذكر" (droit du souvenir). وجاء المؤرخون الإيبيريون بالحجج التاريخية اللازمة لمعاكسة توجهات أوربا الشمالية التي كانت تتجنب التشبث بالماضي لتراهن على الحاضر والمستقبل. وتعتمد في ذلك على مبدإ تحكيم القانون الدولي الذي هو في أساسه قانونها الذي وضعته لتصون به مصالحها في العالم.

ومن هذا المنطلق نفهم الاهتمام الذي أبدته المدرسة التاريخية الفرنسية للغزو البرتغالي للمغرب. إذ ساهم المؤرخون الفرنسيون بقدر كبير في التعريف بهذا الغزو. فما أبعاد هذا الاهتمام وما خلفياته؟ كانت التجربة البرتغالية في المغرب حاضرة في العملية الاستعمارية الفرنسية. ولم يُخفِ روبير ريكار (R. Ricard) أهمية الدروس التي تستطيع فرنسا أن تستفيدها من الوجود البرتغالي في المغرب. ونبه هذا المؤرخ الفرنسيين إلى ضرورة تأمل التجربة البرتغالية، وحذرهم من مغبة السقوط في أخطاء البرتغاليين عند حمايتهم لسكان الثغور، وبين ذلك في الحصيلة

---

(211) يمكن الرجوع إلى مصادر تاريخ المغرب التي لم تُنشَر أجزاؤها المتعلقة بشبه الجزيرة الإيبيرية؛ وكذلك إلى كتب الرحالة البرتغاليين. ونذكر على سبيل المثال:
Esmeraldo de Sito Orbis, *La Duarte Pachecoperera*, 3^e^ ed., Lisboa, MCM LXXX, V.III; Vitorino Magalhas Godinho, *Documentos sobre a Expansaa portuguesa*, Vol. I, Lisboa.

التي قدمها في بداية المجلد الخامس من المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب[212]. وكانت فرنسا توظف التاريخ كثيراً من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية في المغرب. وأشار إلى ذلك المؤرخ جرمان عياش أثناء حديثه عن المشروع الفرنسي حيث سجل مواقف المفكر الفرنسي طوماسي الذي كان يلح في مطالبة المسؤولين باستخدام سلاح العلم أساساً ممهداً للعمليات الاستعمارية. وعن هذا المؤرخ اقتبس عياش القولة الآتية: "إن العلم هو أحد هذه الأسلحة وأول سلاح ينبغي توظيفه، لأنه هو الذي سيعمل على تعبيد الأرضية التي يتعين الزحف إليها"[213]. ويظهر من خلال ما سبق وجود تراكم في التجارب الاستعمارية. ولنقترب أكثر من الأدوار التي أدَّاها الإيبيري في خنق ديناميكية المغرب وعرقلتها ومنعه هو من مسايرة التحولات في أوربا لابد، من معرفة الظروف المغربية والإيبيرية التي مهدت لعملية الغزو هذه.

3 - السياق التاريخي العام

كوّن البرتغال، بالرغم من صغر مساحته (90 ألف كلم²)، أول أمبراطورية استعمارية. وكان ذلك سبباً في انتشار البرتغاليين خلال القرن الخامس عشر في معظم انحاء العالم، بالرغم من قلة عدد سكان هذا البلد (حوالي مليون ونصف، في حين كان عدد سكان فرنسا يقدر بأربعة عشر مليوناً، وكان عدد سكان المغرب يقدَّر بحوالي أربعة ملايين نسمة). وقد عبر المؤرخ البرتغالي كودينو عن ظاهرة انتشارالبرتغاليين بتعجب مقرون بلذة واعتزاز عندما قال: "إنه حقا انتشار فوق العادة بدأ و لم يتوقف إلى يومنا هذا" (Extraordinaire dispersion jamais arretée jusqu'à nos jours)[214]. ومر المد البرتغالي - حسب هذا المؤرخ - من ثلاث مراحل:

---

(212) انظر المقدمة التي وضعها ريكار في:
S. I. H. M., 1ère Série, *Portugal*, V, pp. XII-VIII.

(213) جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، مرجع مذكور،ص ص. 31 - 32.

(214) V.M. Godinho, *L'économie de l'empire portugais au XV et XVIè siècle*, Paris, 1969, p. 18.

دورة الذهب (1436 - 1520)، ودورة التّوابل (1500 ـــ 1640) وأخيراً دورة السكر خلال القرن السابع عشر. وبعد حروب الاستردادات، نقل الإيبيريون حروبهم ضد المسلمين إلى شمال إفريقيا التي كانت القاعدة الخلفية للمجاهدين. وعمل التجار البرتغاليون ـ بدعم من عائلة افيس ـ على تحويل اتجاه الخط التجاري الذي كان يربط إفريقيا بأوربا مرورا بالمغرب، وجعلوه يمر عبر المحيط الأطلسي ليصل مباشرة إلى ليشبونة ومنها يتجه إلى باقي المناطق الأوربية. وبذلك كانت مساهمة الإيبيريين أساسية في تشييد الفضاء الاقتصادي الأطلسي البديل، وخنق الفضاء التجاري الصحراوي. وتتلخص التحركات البرتغالية خلال هذه الفترة الانتقالية في ثلاثة اتجاهات: أولا غزو المغرب؛ ثانياً اكتشاف الأراضي في العالم الجديد؛ ثالثاً التوغل باستمرار في اتجاه جنوب غرب إفريقيا نحو رأس الرجاء الصالح. وتعتبر معاهدة طوردسياس (Tordesillas) 1494 تتويجاً وتجسيداً لديناميكية هذا القرن الذي هو إسباني/ برتغالي بالأساس. وتتضمن هذه المعاهدة جانبين: الأول يتناول موضوع تجارة الذهب والعبيد في إفريقيا، وهو موضوع قديم نسبياً؛ والثاني يهتم أساسا بما قد يكتشف من أراضٍ بعد التوقيع على المعاهدة المذكورة. لقد كانت إسبانيا تتضايق من احتكار البرتغال للطرق والتجارة الإفريقية. وأدى ذلك إلى خلق توتر ومنافسة بين البلدين طيلة القرن الخامس عشر، وأساء إلى العلاقة بينهما كما تلح على ذلك مقدمة المعاهدة: "لقد نزل الاحتكار البرتغالي لطرق إفريقيا وتجارتها بثقله الكبير، فأساء للعلاقات الموجودة بين ملوك شبه الجزيرة الأيبيرية. وكان ذلك سبباً في إيقاف أواصر المودة والصداقة بين أولاد العمومة"[215]. وكانت معاهدة طوردسياس التي رعاها البابا منطلقاً جديداً وإرادة لتحسين هذه العلاقات. وعمل البابا على تقسيم المحيط الأطلسي بين الملوك الكاثوليك والملك البرتغالي جيان الثاني.

---

(215) Tratado de Tordesillas, 17 Junio 1494. Ministerio de Etucacion y ciencia, Direccion general de Archivos Bibliotecas, Madrid, 1973.

وأصل المعاهدة محفوظ في الوثائق الهندية بإشبيلية.

نجحت عائلة افيس (1384 ـــ 1580) في ربط مصير البرتغال بالمحيط الأطلسي، واستطاعت بفضل ذلك أن تتجاوز صراعاتها ضد قشتالة، فأصبح مستقبل البلاد في المحيط. وارتبطت الهوية البرتغالية بالبحر، مصدرِ أفراح الإنسان البرتغالي وأحزانه:

أيها البحر كم هي كمية الأملاح الموجودة فيك
وكم من دموع برتغالية أهرقت في أحشائك وبسببك
لأجل معرفتك واكتشافك بكت الأمهات
فكم تشفع أطفال البرتغال وطلبوا منك الرأفة والرحمة
لترد لهم آباءهم، لكنهم فعلوا ذلك دون جدوى
وكم من عروس فقدت خطيبها وبقيت بلا زوج
لكن تحملنا كل النائبات على أن نطوعك لكي تصبح
يا بحر، ملكا لنا[216] .

فالغزو البرتغالي للثغور المغربية استمرار للروح الصليبية، ودخول البرتغاليين إلى مدينة سبتة أساسٌ لتراص الهوية البرتغالية. ولم تتوقف الحروب الصليبية عند طردها للمسلمين من الأندلس، بل تجاوزت ذلك واخترقت الحدود الجغرافية الاصطلاحية لتلاحقهم في الريف الذي كان يعتبر امتداداً وتكملة إفريقية لبلاد الأندلس[217] . واعتبر المؤرخ توينبي الغزو الإيبيري للمغرب رد فعل ونتيجة طبيعية للهجومات التركية على الأراضي المسيحية في أوربا الوسطى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وقد تبنى المسيحيون خطة جديدة في حروبهم الصليبية. وحول هذه النقطة كتب المؤرخ توينبي يقول:

عندما تيقن المسيحيون من سيطرتهم على البحار، لجأوا إلى خطة تطويق الإسلام والمسلمين وتجنبوا مواجهتهم مباشرة على غرار ما قاموا به في حروبهم الصليبية السابقة والتي كانت تعود عليهم بخسائر كارثية[218].

---

(216) Fernando Pessoa, *Menassagem*, p. 218.

(217) H. Hausser, et A. Renaudet, *Le début de l'âge moderne*, Paris, PUF, 1956, p. 6.

(218) A. Toyenbe, *Le monde et l'Occident*, Paris, 1953, pp. 92-96.

لاشك في أن الحروب الإيبيريين ضد المسلمين ومحاولاتهم لتجاوز وساطة هؤلاء الاقتصادية دوراً أساسيّاً في الحيوية التي أصبحت تحرك أوربا خلال العصر الحديث. غير أن هذه العوامل وحدها لا تكفي لتفسير تحديث أوربا ومحاولات هذه الأخيرة لغزو ودعم وتعميق تجاوزها المتزايد للقارات الأخرى. وتبقى دوافع هذا التفاوت ومنطلقاته أوربية بالأساس كما ركز على ذلك لوسيان فيبر عندما قال:

كان النمو والسطو الذي ظهر على أوربا خلال فترة العصر الحديث، نتيجة لديناميكية أناس آمنوا بالعمل واشتغلوا في القرن السادس عشر ومن أجله، فكانوا غزاة الفضول الهادف إلى توسيع آفاق المعرفة. واشتهروا بطموحات وشهوات لا حدّ لها، وكان هدفهم الأعلى الكسب ثم الكسب والاستفادة منه(219) .

ويتعلق الأمر بالطبقة التي تبنت الحداثة وأرادت أن تنمو المجتمعات وعرفت أن ذلك لن يتأتى لها إلا إذا تخلت عن مبادئ الإمبراطورية الكارولنجية. وكانت هذه المبادئ تتلخص في ضرورة الاهتمام بأوربا الوسطى، أي اعتماد أوربا القارية منطلقا للنمو واتخاذ المسيحية أسلوباً للعمل وهدفاً لابد من تحقيقه، فتخلت هذه الطبقة عن المبدإ الإمبراطوري لتبنّي النزعة الفردية أسلوباً وكرامة الإنسان غايةً، ولتركب المحيط الأطلسي وتجعله فضاء اقتصادياً جديداً مجدّداً. وبفضل نجاحها في ركوب هذا المنعطف، استطاعت هذه الطبقة أن تجعل من دماغ الكون التاريخيّ دماغاً منحصراً بالأساس في أوربا التي صارت تجسد الحداثة؛ بينما يمثل سواها التأخر التاريخي: "فبقدر ما كانت مكانة أوربا تتقوى وثقافتها تزداد إشعاعاً، صارت تعتبر نفسها مركز الكون، وتحاول أن تفرض نظرتها على العالم لتراه عالما مثيرا للدهشة والغرابة"(220) . واعتبرت الإسطوغرافية الأوربية نهاية القرن الخامس عشر المرحلة التي عرفت فيها هذه القارة ميلاد الإنسان الجديد ودشنت بداية

---

(219) H. Le Febre, *Au cœur du religieux au XVI^e siècle*, Paris, Sevpen, p. 74.

(220) H. Djait, *l'Europe et l'Islam*, Paris, 1978, p. 23.

جديدة لتاريخ الإنسانية[221] . فالمد البرتغالي في السواحل المغربية ما هو في حقيقة الأمر إلا امتداد لسيرورة أوربية قديمة وإعادة اتّصال بالديناميكية الفنيقية. وكان احتلال الثغور المغربية حافزًا أساسيا لتأسيس الدولة البرتغالية لأسطولها البحري الذي سيحوب العالم الحديث[222] . وسيحاول تضييق الخناق على العالم الإسلامي وسيساهم في خلخلة بنيات كانت قابلة للتراجع.

لقد حاولت بعض الدراسات المغربية إلصاق ويلات مغرب القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر بالغزو الإيبيري. ومن دون أن نقلل من أهمية هذا العامل، فإننا لا نظن أنه يفسر كل شيء. ولذا وجب التركيز من جهة أخرى على العوامل الداخلية الكامنة وراء الخراب الذي دمر البلاد. لقد انتبه محمد القبلي إلى خطورة ربط ويلات البلاد بالعوامل الخارجية وحدها، ونبه الباحثين في تاريخ المغرب إلى ضرورة التراجع عن التقسيمات التي تعتمد الأحداث العسكرية، لأنها تغيب حقائق وتبعد الاستمرارية وتقسم تاريخ المغرب إلى عصور تكاد تكون مستقلة عن بعضها كل الاستقلال[223] . وشكك محمد القبلي في صلاحية هذا التقسيم، وأشار إلى وجود قضايا كثيرة ما زالت غامضة في تاريخ المغرب، ويتطلب البحث فيها مقاربة مغايرة:

> ومن بين النقط الغامضة الكثيرة في تاريخ المغرب قضية وصول الشرفاء، والشرفاء السعديين بالضبط، دون غيرهم من شرفاء المغرب إلى الحكم في منتصف القرن

---

(221) C. Delmas, *Histoire de la civilisation européenne. op. cit.*, p. 56; R. Mousnier, *Les XVIè et XVIIè siècles. Les progrés de la civilisation européenne et le declin de l'Orient 1492- 1715*, Paris, PUF, 1965.

(222) A. D. Farinhas, *Historia de Mazagao durante a periodo de Felipino*, Lisboa, 1976, p. 6.

(223) محمد القبلي، "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط**، العددان 3 و 4، السنة 1978، ص ص. 7 - 8. وقد تساءل جاك بيرك بالطريقة نفسها عن الموضوع نفسه: أسباب وصول الأشراف السعديين إلى السلطة دون غيرهم (انظر: J. Berque, *Uléma. op. cit.*, pp. 40-41.)

العاشر الهجري. ومما يؤكد غموض هذه النقطة أن الدراسات التحديدية التي أشرنا إليها آنفاً لا تكاد تختلف عن الدراسات التقليدية في تفسيرها لهذه الظاهرة، فتردها أساساً إلى الغزو المسيحي للشواطئ الجنوبية المغربية[223].

وللعوامل الداخلية دور أساسي في الدمار الذي أصاب المغرب "عندما أشرفت (الدولة) على الهرم، وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو ومطالبته في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك"[224]. وألح محمد حجي على الظاهرة نفسها بقوله:

> فالدول القائمة فيه شاخت وأخذ زمام الأمور يفلت من يدها، تاركاً المجال فسيحاً للفتن الداخلية، والباب مفتوحاً للهجمات الخارجية. وزاد من سوء حظ هذه البلاد أنها تردت في الدرك السحيق في وقت كان فيه الغرب المسيحي، لا سيما إسبانيا والبرتغال تعيش نهضة عظيمة[225].

والملاحظ على المرينيين أنهم أهملوا الأندلس، واهتموا أساساً بضمان أمن المغرب لأنهم توهموا أن مستقبلهم السياسي رهين بواقع المغرب لا خارجه. ويعتبر احتلال الثغور المغربية نتيجة لتخلي المغاربة عن الأندلس. ودشن هذا الاحتلال بداية انطواء المغرب على نفسه وقبوله للضربات المسيحية الناهضة. ورأى محمد القبلي في تدمير قشتالة لمدينة تطوان سنة 1399 وأسرها لنصف سكان هذه المدينة وفي احتلال البرتغال سنة 1415 لمدينة سبتة "المؤشرات الأولى للتفاوت التاريخي بين الجنوب والشمال"[226]. فملامح الأزمة التي كان المغرب يعاني منها كانت واضحة، وانتبه إليها ابن خلدون وتأثر بها وكانت مساهمتها بارزة في بلورة أطروحته المتشائمة عن الدولة العربية الإسلامية. وكانت ملاحظات الوزان عن أسباب دمار المغرب نيّرة: فقد وقف في مناسبات كثيرة عند الأدوار السلبية التي أدّاها الأعراب في هذا الدمار وهو يتحدث عن مدينة أزميز. كتب يقول:

---

(224) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، الجزء 4، ص. 109.

(225) محمد حجي، الحركة...، مرجع مذكور، الجزء الأول ، ص. 37.

(226) Kably, *Societé...*, *op. cit.*, p. 116.

وتمتد تحت هذه المدينة (أمزميز) كذلك سهول كبيرة تتصل بمراكش على مسافة ثمانين ميلا. ويأتي بها تمح جيد غليظ الحب لم أر قط أحسن منه، ودقيقه في غاية الجودة. لكن الأعراب يثقلون كاهل هذه المدينة بالأتاوات[227].

فكل المؤشرات كانت تظهر ضعف المخزن وانهيار الاقتصاد بسبب الفراغ السياسي الذي عرفه مغرب مطلع القرن السادس عشر. ولاحظ القبلي أن النظام المريني/ الوطاسي قد نشأ انطلاقاً من التمزق والتشتت، وبالتالي لم يستطع أن يقوم بخلق التراص الضروري وأن الانقسام كان مصاحباً له[228].

ودخل المغرب منذ وفاة أبي عنان مرحلة الانحطاط، واستمر هذا الفتور والتراجع مدة تزيد على قرنين، ولم يعرف انتعاشا موقتاً وسطحيّاً إلاّ بعد معركة وادي المخازن (سنة 1578م) زمن أحمد المنصور الذهبي. لكن فور وفاة هذا السلطان، بل في الفترة الأخيرة من حياته، دخلت البلاد انهياراً أصعب انتهى بإبعاد السعديين عن السلطة وحل محلهم الأشراف العلويون. فما الأسباب التي جعلت من هذه المرحلة (1358 م – 1578 م) مرحلة دمار وتراجع بشهادة الجميع؟ لقد برزت ملامح الانحطاط على كل المستويات: أصاب المخزن المريني/ الوطاسي الإفلاس، فتنمَّرت الأعراب وصارت سيدة الموقف في مناطق كثيرة من المغرب، وتراجعت الفلاحة وتوقفت التجارة، وعم الانزواء وأفرغت البوادي وانغلقت الجبال، وقويت شوكة الأجانب، وأصبح الكافر محتلا للأرض المغربية، وهو أمر لم يتعوده المغاربة الذين تحملوا على مر العصور مسؤولية نشر الإسلام في الأندلس وعملوا على صيانته فيها، وكانوا بمثابة قواعده الخلفية ودعامته الأساسية. ولم يتقبل المغاربة ضياع الجنة المفقودة واعتبروا الحدث كارثة وفاجعة حلت بالإسلام وبالمسلمين، وفهموا أن سقوط الأندلس ما هو إلا البداية وأن دخول المسيحيين إلى

---

(227) الوزان، وصف إفريقيا...، مرجع مذكور، الجزء الأول، ص. 99.

(228) "Né dans le partage, il aurait été incapable de cohésion durable par soi même... On l'aurait cru condamné à se répandre pour eviter de disparaitre". (Kably, *Société...*, *op. cit.*, pp. 216- 217).

السواحل المغربية امتداد واستمرار لما حصل على أثر الصدمة الأندلسية. وترجع هذه النكبات إلى تراخي المسلمين وتخلّيهم عن مسؤولية الجهاد الهجوميّ وعدم مطالبتهم "العدو في أرضه وبلاده، " أي قبول المسلمين بالجهاد الدفاعي وتركهم المبادرة للكافر، وتخليهم عن القيم التي شكلت قوة الإسلام والمسلمين. وصرخ ابن يجبش التازي مناديّاً نخوة الرجال الشجعان، أصحاب الهمم العالية، ليتخلوا عن دار الزوال ويتشبثوا بإرادة لقاء ربهم في دار الخلود وأن يعملوا مثل سابقيهم:

فما العيش بعد الذل إلا سفاهة ... وضعف يقين عند أهل بصيرة!
فما حال من أضحى أسيراً مكبّلاً ... حقيراً فقيراً في هوان وشقوة
وأسلافكم لم تأل عن مستغيثها ... على نهجهم فامضوا بصدق عزيمة
وكم من جيوش أوردوها حتوفها ... وكم فرقوا في دهرهم من كتيبة
وكم وصلوا من ذمة لمن انتهى ... إليهم كما يحكى عن أهل جزيرة[229]

فصار المغرب وكأنه يهب نفسه للغزاة الأجانب. وتزعم الأمير هنري الملاح أمور البحر في البرتغال، واعتبرت الدولة في هذه البلاد أن المجد الحقيقي والفخر الأصيل يبقى مرتبطا بالأعمال البحرية. وعمل الأمير هنري كل ما في وسعه لمضايقة المسلمين وملاحقتهم، وتبنى مشروع تجاوز الخالدات ورأس بوجدور الذي كان يشكل الحاجز النفسي للملاحة البرتغالية والعتبة التي يجب تجاوزها. واعتبر الشاعرُ بسّوا الملاح هنري الأمبراطور الوحيد الذي استطاع حقيقة أن يمسك الكرة الأرضية بين يديه[230].

وبقدر ما كان المغرب يتراجع وينحط، كان الغزاة الإيبيريون يكشفون عن نواياهم وأطماعهم الاستعمارية وإرادتهم طمس معالم الهوية المغربية. وكان حلمهم في غزو فاس رمز للحضارة الإسلامية وإشعاعها وارداً، كما يتبين من الرسالة التي

(229) البوخصيبي، أضواء على ابن يجبش التازي...، مرجع مذكور، ص ص. 147 - 148.

(230) " Unique empereur, véritablement, qui tienne en sa main le globe/ monde ".
(F. Pessoa, *Manassagem*, *op. cit.*, p. 190).

بعث بها دييكَو دي كَوفيا (Diego de Gouvea) - وهو راهب برتغالي كـان مستقرا في باريـز — إلى ملكه جـيان الثـالث في 18 شـتنبر 1527. أوضـح هـذا الراهـب في رسالته للملك أنه كـان يحلـم بتحقيـق ثلاثـة أمـور اعتبرهـا أساسـية. وقـد جـاء في الرسالة:

"لقد حقق الله لي من بين ثلاثة أمور كـانت تشـغل بـالي وتشـكل أغلـى مـا تمنيـت تحقيقه في هذا العالم: أن اكون دكتوراً في الشؤون الدينية في مدينة باريز، وأن أعيش حتى أرى تأسيس مؤسسة دينية برتغالية في هذه المدينة، و لم يبق لي إلا تحقيق رغبـة واحـدة هـي أن أزاول التبشـير بالمسيحية وأن أقـوم باحتفـال دينـي وأن أصلـي في مسجد فاس. وأرجو الله أن يحقق لي ذلك على يدك"(231).

وهكذا يكون ثقل الوجود الأجنبـي سـبباً ونتيجـة في المحـن التـي كـانت تزعزع المغـرب وتسـاهم في إجهـاض المؤهـلات المادية عـن طريـق القتـل والنهـب والهجمات التـي كان الأجانب الغزاة يشنونها علـى المنـاطق المجـاورة للثغـور التـي احتلوها. وكان ذلك من أهم أسباب انكماش المغرب وانزوائه. والأخطر مـن هـذا أن الغزو الأجنبي قد فتت البنـى الاجتماعيـة ومزقهـا وأصـاب الذّهنيـة المغربيـة في العمق، فضاعت قيـم وبـرزت أخـرى، فتعـارضت الآراء والمواقـف ووقـع انكسـار اجتماعي عميق، وظهرت بسبب الغزو البرتغالي أو نتيجة له اتجاهات متناقضة: اتجاه رفـض الاحتـلال وحاربـه معتمـداً في ذلـك علـى المؤهـلات الداخليـة، واتجاه قبـل بالاحتلال ورأى في الغزاة خلاص المغـرب مـن الأزمـات ورعايـة المصـالح. فكيـف حصل ذلك وما خصوصيات كل من هذين الاتجاهين وأبعادُه؟

4 - مغرب مغاربة الاستسلام

حـاولت فئـات مغربيـة الاسـتفادة مـن وجـود الأجنبـي علـى السـواحل، فصارت تطمع في الجـاه والسـلطة وأرادت أن تصـل إلى ذلـك عـن طريـق تعاملهـا

---

(231) Marcel Bataillon, *Le rêve de la conquête de Fès et le sentiment impérial portugais au XVIè s.*, Mélange dédié à David Lopez et P. Cenival, *op. cit.*, p. 33.

ومساندتها للغزو والغزاة. وكسبت بذلك أرباحاً عن طريق ترويجها وتنشيطها للمبادلات التجارية. فهل ظاهرة التعامل مع الأجنبي وقبول الخضوع له حدث عارض أو سلوك مألوف في تاريخ المغرب؟ يبدو أن الظاهرة كانت معتادة في الأندلس وربما انتقلت منها إلى المغرب لتتجذر وتتخذ أبعادها المعروفة وتكون عادة مرتبطة بالأزمات والفتن والصراعات على السلطة. والأمثلة كثيرة نذكر منها استصراخ محمد المتوكل بالبرتغال ضد عميه عبد الملك وأحمد المنصور، ولجوء المامون بن أحمد المنصور إلى إسبانيا ضد أخويه أبي فارس وزيدان. وقد ناقش علماء فاس المسألة عندما راسلهم محمد المتوكل ليبرر موقفه قائلا لهم: "ما استصرخت بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين"[232] . وأجابوه بالحجج أنهم تخلوا عنه، لأنه لم يف بالتزاماته، فكان يفر ويترك الرعايا وحدهم؛ وفعلوا ذلك "قبل التحزب مع عدو الدين... بأن اتفقت معهم... وأعطيتهم بلاد الإسلام... ثم لم تمالك أن القيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم"[232]. وأورد العلماء الحجج الكافية لتكفير الأمير. ويظهر أن مرد الاستصراخ بالنصارى كان بالأساس عملاً سياسيّاً، وكان يلجأ إليه أيام الشدة، وهو مؤشر أساسي لتجاوز أوربا للمغرب. ففي السابق كان أمراء الأندلس يستنجدون بالمرابطين والموحدين؛ وأما اليوم، فقد حصل العكس: إذ أصبح الأمراء المغاربة يلجأون إلى المسيحيين طلباً للاستغاثة، لأن المبادرة أصبحت لأوربا. وقد زاد هذا السلوك من ضعف المغرب، لأنه تسبب في تصدع بنياته الاجتماعية. وعلى العكس من ذلك، دعم البرتغال وجعله قويّاً متراص الهوية. وأشار محمد القبلي إلى هذه الظاهرة بقوله:

---

(232) المثير في الرسالة استعمال العلماء أمثلة من تاريخ الأندلس. وفي هذا ما يؤكد أن لجوء أمير المغرب إلى الاستصراخ بالنصارى وارد ومأخوذ من تجارب أمراء الأندلس. انظر: عباس بن إبراهيم المراكشي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، فاس، المطبعة الجديدة، 1938، الجزء 4، ص ص. 173 - 177؛ وانظر كذلك: عبد المجيد القدوري، **ابن أبي محلي ورحلته...**، مرجع مذكور، ص ص. 25 - 30.

تسببت الانتصارات الإيبيرية في المغرب على المدى البعيد في خلق عداءات بين المغاربة، فظهرت فيه توترات بين الفئات المسيطرة والفئات المنكمشة على نفسها، وبين المغاربة الذين قبلوا بالحماية البرتغالية أو المذعنين للتدخل الإيبيري والمغاربة الذين قاوموا هذا الاحتلال وناهضوه(233).

لكن كيف حصل ذلك للبرتغال؟

لقد نهج البرتغاليون في احتلالهم لسواحل المغرب سياسة المراحل: فكان دخولهم إلى الثغور الشمالية مباشراً وبالقوة منذ انطلاقته سنة 1415 عند احتلال سبتة إلى سنة 1486. وتطلبت هذه المرحلة منهم تضحيات كبيرة، كما أكد ذلك أحمد بوشرب في قوله:

وتطلبت منه (البرتغال) مجهوداً ضخماً... وتم الاحتلال على الطريقة التقليدية بأساطيل وجيوش، مما يجعله شبيها بحروب القرون الوسطى ومخالفا للروح الحقيقية التي صبغت التوسع البرتغالي في إفريقيا(234).

وأما المرحلة الثانية للتدخل البرتغالي والتي همت المناطق الجنوبية من المغرب (1486 م - 1515 م)، فقد استعمل فيها البرتغاليون أسلوباً جديداً في الغزو، وهو أنهم تخلوا عن استعمال القوة والقهر العسكري لصالح العمل الدبلوماسي والسياسي. كيف ولماذا لجأوا إلى هذا الأسلوب؟ يبدو أن لتجربتهم الاستعمارية في المغرب دوراً في ذلك(235). وكانوا من جهة ثانية مطلعين على واقع المغرب الممزق والمنقسم على نفسه. وكان لعدم توفر المغاربة على الحماية بسبب الفراغ

---

(233) Kably, *Société...*, *op. cit.*, p. 166.

(234) أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، مرجع مذكور، ص. 161 .

(235) دار نقاش ساخن بعد مرحلة الاكتشافات الكبرى، وجاء نتيجة لسوء معاملة الغزاة لأهالي الأراضي المكتشفة، ولا سيما في العالم الجديد. وبرز على أثر هذا النقاش اتجاهان أساسيان حاول كل منهما حسب اقتناعاته تحديد طبيعة العلاقات الدولية الجديدة. وهذان الاتجاهان هما: اتجاه هولندي، واتجاه إسباني تزعمه فرانسيسكو فيكتوريا (Francisco Victoria). دافع هذا المفكر عن المبدإ الاستعماري بعدما قننه بشروط: فميز بين الحروب العادلة والمشروعة والحروب غير المشروعة. وللمزيد من المعلومات، انظر:
Paul Reuter, *Institutions internationales*, Paris, PUF, 1969, p. 23.

السياسي دور في سعي المغاربة الموجودين في السواحل إلى طلب الحماية والأمن من البرتغاليين. وقد أشار مارمول إلى أهمية الحاميات البرتغالية الموجودة في السواحل المغربية وقوتها، ولاحظ أن الملك البرتغالي كان يحظى في المغرب بتقدير الموالين له:

وكان مانويل وحده مثارا للخوف، وبات جيشه يضم، زيادة على الوحدات المسيحية، ستة عشر ألف فارس وأكثر من مائة ألف من المشاة، كلهم من العناصر العربية أو البربرية. كانوا يخوضون تحت لوائه القتال ضد أعدائه العرب[236].

نود الوقوف عند ظاهرة قبول مغاربة السواحل في كل من دكالة وعبدة وسوس حماية البرتغاليين والتعامل معهم لنبرز الأدوار التي لعبها هذا الاستسلام وقبول الاحتلال في ترسيخ الاستعمار وتفرقة المغاربة. وأدى ذلك إلى تفتيت الجهود وضرب الطاقات ونهبها وحرمان المغرب من مواكبة التحولات التي كان العالم يعرفها. فالمعاهدات والاتفاقيات التي عقدها البرتغال مع سكان بعض المدن تظهر عدم التكافؤ الموجود بين الطرفين: فالبرتغال دولة ذات كيان سياسي واضح المعالم ومعترف به محلياً ودولياً. وأما الطرف الثاني المتعاقد، فإنه غير محدد قانونياً (تتحدث المعاهدات عن أهل مدينة أو شيوخ قبيلة). فالأهداف متباينة بين الطرفين. فإذا كان الملك البرتغالي يريد السيطرة، فإن سكان الثغور المتعاقدة كانوا يبحثون عن الأمن والاطمئنان ويريدون الابتعاد عن الفتن الناتجة عن التسيُّب العام الذي كان يزعزع الأوضاع العامة. وانطلاقا من هذا، نستطيع أن نقول بأن المعاهدات كانت في أساسها لصالح الغزاة، لأن ميزان القوى كان في جانبهم. فما أهم بنود هذه المعاهدات؟ وما طبيعة الخطاب الذي حررت به؟

وقع كل من أهل أسفي معاهدتهم مع الملك عمانويل الأول سنة 1481 وجددوها معه في أكتوبر 1488. وأما أهل أزمور، فقد وقعوها مع الملك عام 1486؛ في حين وقع أهل ماسة المعاهدة سنة 1497[237].

---

(236) مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، المعارف، 1984، ص. 450.

(237) يمكن الرجوع إلى الاتفاقيات في:

S. I. H. M. 1èr serie *Portugal*, T. 1; Safi, p. 179-182; Azemmour, pp. 9-10; Massa, p. 233.

من الناحية الشكلية، يلاحظ قارئ هذه المعاهدات كثرة الأخطاء والألفاظ العامية. فلماذا هذه الركاكة في الأسلوب؟ وهل يرجع ذلك إلى عدم وجود علماء في الثغور بسبب سقوطها في يد الأجانب وتفضيل هؤلاء الرحيل عنها؟ أو أن المعاهدات كتبت أصلا باللغة البرتغالية وأن ترجمتها كانت سيئة؟ سعت كل المعاهدات إلى إظهار ولاء أهل المدن والقبائل التي قبلت بالحماية البرتغالية. واستعملت كلمات معبرة لتبيان هذا الولاء وهذا الاستسلام "فنحن خدامك بل عبيدك الساكنين تحت علامك، وطاعة الله وطاعتك في بلدتك ءاسفي...". ونقرأ كذلك: "فنحن يا مولانا اخترناك ورضيناك، إلخ... وأصبحنا كالغنم التي تحتاج إلى راعي (كذا) وإلا هلكت"[238] . وتكلمت المعاهدات عن الملك البرتغالي بكل إجلال: فهو الفاضل، والوفي، وهو أحسن النصرانية وأكثرها عدلاً ووفاء، وهو مأوى للملهوف وركن للغريب[239] ، وهو البطل الشديد والفارس الصنديد وحازم الروم. وأما أهل أزمور، فهم الخدام الأوفياء الذين يتذللون ويقبلون له اليدين والرجلين ويهبون له النفس والنفيس[240] . واتفقوا جميعاً على قبول الصلح واختاروا أن يكون (لهم) السلطان حبيباً ومولى، والتزم أهل أزمور للملك بأداء الإتاوات، وبالخضوع لأوامره، وبأن يسهلوا له ولرعاياه المتاجرة في مدينتهم: "وكذلك انتهى وفاقنا ورضينا وطاب على نفسنا وهان علينا أن جميع ما يأتينا من الأجفان من عندكم بأنواع تجارتكم وعروضكم وكذلك فيما يبيعون ويشترون عندنا ويطلعون لعندكم أن لا مغرم عليهم ولا عادة معفيين من جميع الملازم والمغارم"[241] . مقابل هذه الالتزامات، كان المحميون المغاربة يرغبون في أن يكونوا رعايا الملك البرتغالي. وعلى هذا الأساس يجب معاملتهم، شأنهم في ذلك شأن كل البرتغاليين: "وإن لحقت لأحد منا إذاية أو عيبا (كذا) على أي وجه كان في بر أو

(238) *S. I. H. M., Portugal*, T.1. *op. cit.*, p. 179.

(239) *Ibid.*, p. 9.

(240) *Ibid.*, pp. 10-11.

(241) *Ibid.*, p 11.

بحر أو في طاعتهم أن تعملوا... حسب ما تعملون مع أهل بلدكم ونكون من جملتهم محسوبين عليكم"[242] .

وتتشابه بنود هذه المعاهدة مع تلك التي جاءت في المعاهدات الأخرى.وظهرت مؤشرات جديدة في معاهدة أهل ماسة مع الملك البرتغالي. فأشارت عبارات وردت في هذه الأخيرة إلى أن السكان أصبحوا عرضة للتهكم بسبب دخولهم تحت الحماية البرتغالية: "ورسلنا لكم جملة من الكتب بعد أن صرنا ضحكة في بلاد المسلمين فقالوا هؤلاء زعموا أنهم تحت أمان النصراني"[243] . وعادت الرسالة لتؤكد من جديد أن أهل ماسة صاروا عرضة للتهكم و لم يستفيدوا كثيرا من الحماية البرتغالية: "فصرنا ضحكة ما صحت لنا فائدة بخدمتيك"[244] . فبالرغم من الامتيازات الكثيرة التي خص بها سكان ماسة البرتغاليين، فإن استفادتهم من الحماية ظلت محدودة. ويبدو أن المعاهدات المذكورة كانت إرادة وتعبيراً جماعياً كما سنرى. وكانت تسعى من جهة أخرى إلى الدعم المقوّي لطموحات فردية كانت غايتها الوصول إلى الزعامة، ومن أهمها أبو زكريا يحيى بن محمد أوتعففت. لا نتوفر حتى الآن على دراسة معمقة عن هذه الشخصية ولا عن أبعادها السياسية الحقيقية؛ وما يوجد مجرد معلومات متفرقة هنا وهناك تبقى دائماً غير كافية: فمن هو أبو زكريا يحيى بن محمد أوتعففت؟ كيف ظهر على مسرح الأحداث؟ هل كانت له طموحات سياسية تتجاوز المناطق الساحلية أولا؟

لا تستقر شخصية أوتعففت في الوثائق على حال. وتظهره في مستويات مختلفة: فهو الخادم الوفي والخنوع المستعد لبذل الغالي والرخيص وفاء للعرش البرتغالي لا يريد إلا دوام العز والنصر لهذا الملك[245] : e en espero em Deos e na Vossa victoria. وحاول أوتعففت أن يبني ويصون شخصيته أمام الملك البرتغالي.

---

(242) *S. I. H. M.* 1ère série, *Portugal.* T. 2., *op. cit.*, p. 13.

(243) *Ibid.*, pp. 235-236.

(244) *Ibid.*

(245) *Ibid.*, pp. 100-105.

وأشد ما كان يخشاه هي الإشاعات التي كان أعداؤه وحساده يحوكونها ويروجونها ضده: "بعدما كتبت للمقام وأن نعلمك بهذا الغدر الذي بقي يشع علي في خدمة مولنا"[245]. ويلجأ أوتعففت إلى القسم لينفي كل ما نسب له من خيانة للملك البرتغالي وسيده وليظهر لمولاه أنه يفضل أن يموت في خدمته على أن يعيش وتروّج عنه إشاعات الغدر: "والله ما شوشني موت إذا مت في خدمتك... أحسن لي ولا نعش ونسمع على الغدر"[246].

ويظهر أوتعففت في وثائق أخرى في مستوى القائد العسكري الذي يستطيع إنجاز عمليات عسكرية ضد القبائل وضد الأعراب. ويقوم بهذه الحملات لتأديب الأعداء أو لجمع الإتاوات للملك البرتغالي. وتظهره الوثائق أحيانا أخرى مغامراً شارك كثيراً في صنع الأحداث التي عرفتها أسفي والمناطق المجاورة لها. وكان من المتمردين على أميرها عبد الرحمن كما أشار إلى ذلك الوزان: "وفي شبابي كانت أسفي خاضعة لأميرها الشجاع المسمى عبد الرحمان... نشر الأمن في المدينة واحتفظ برآستها مدة طويلة"[247]. ويسوق الوزان حكاية أظهر فيها وجود عصابات في هذه المدينة وبين كيف عشق رئيس إحدى هذه العصابات - وهو - علي بن وشيمن - بنت أمير المدينة عبد الرحمان، وكيف خاف العاشق من أمير المدينة فباح بسرّه لأبي زكريا يحمد أوتعففت الذي كان رئيسا بدوره لجماعة من المقاتلين. واستمر الوزان في حكي القضية إلى أن انتهت بحدوث انقلاب عسكري تزعمه كل من علي بن وشيمن و أوتعففت:

دخل الشابان ومن معهما من الرجال إلى المسجد... واقتربوا من الملك... تقدم أحد المتآمرين أمام الملك (يحيى أوتعففت) وبقي الآخر - وهو علي - خلفه وطعنه في ظهره بخنجره، في حين أغمد الثاني سيفه في جسمه. حدثت ضجة عظيمة... فخرج الناس من المسجد و لم يبق فيه سوى المتآمرين"[247].

وذكر الوزان أنه سمع من علي بن وشيمن أن المتآمرين خطبا في الناس وبينا

---

(246) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal.*, T. 2, *op. cit.*, p. 135.

(247) الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، الجزء الأول، ص ص. 116 - 117.

لماذا قتلا الأمير وأضاف الوزان قائلا: "سكنت روعة الناس بسهولة ورضوا بأن تكون الإمارة في يد هذين الرجلين[247].

وقد صدرت في حق شخصية أبي زكريا يحيى أوتعففت مواقف برتغالية متناقضة: فرأى فيه البعض الخادم المخلص والوفي، واعتبره آخرون المتمرد والطموح الغادر الخائن. وتُظهر الأحداث المرتبطة به أنه كان ذا شخصية معقدة وذات طموحات سياسية بارزة، إذ كان هدفه الأساسي هو الانفراد بالحكم. فهل استطاع أوتعففت تجاوز الإطار الإقليمي الذي كان ينتمي إليه أو أنه بقي رهين العقلية المحلية؟ فالمراسيم والقرارات التي كانت تصدر عنه في المناطق التي كانت خاضعة له توضح تجذّر شخصيته في الإقليم الذي كبر فيه، وتشير إلى وجود رغبة أكيدة عند أوتعففت في توسيع مجال نفوذه. وبالرجوع إلى وثيقة برتغالية مؤرخة بتاريخ 25 يونيو 1512، نلاحظ أنه كان لا يتردد في استعمال الألقاب السلطانية في مراسلاته فنقرأ في الوثيقة العبارات التالية: "بإذن من له الأمر والأحكام السلطانية بمدينة عاسفي، الشيخ الأجل الأفضل، الأكمل الأعز الأرفع الأجمل المؤيد المنصور أبو زكرياء يحيى محمد"[248] . كما أن الوثيقة تتحدث عن دولة أوتعففت: "وافسح لنا في دولته"[248]. وحاول أوتعففت أن يضع أحكاماً تكون جاهزة وملائمة قصد ضبط وتنظيم علاقات جهازه بالقبائل أو علاقات القبائل فيما بينها أو تلك التي توجد بين أفراد القبيلة الواحدة. وكانت هذه التنظيمات مستوحاة من الشرع أو من أعراف القبائل. ونقرأ مثالاً على ذلك: "جعل على من قدر الله عليه بقتل أخ مسلم... فإن كان القتل قتل عمد، يحكم فيه بما قال الله تبارك وتعلى في كتابه العزيز ﴿وكتبا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين﴾. ومن جرح أخاه المسلم ديته وقيتين أو عشرون دينارا يعطيها للمجروح"[248]. وهكذا يكون

(247) الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، الجزء الأول، ص ص. 116 ـ 117.

(248) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal*, T. 1, *op. cit.*, p. 316.

(248) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal*, T. II, *op. cit.*, pp. 67-69.

أوتعففت مرتبطا بالشرع وبالعرف في سنه للقوانين التي أرادها وتنظيما في تسييره لسكان المدن والقبائل التي كانت تخضع لحكمه.

ورأى أعداؤه وحساده، وبالخصوص بعض الحكام البرتغاليين، في هذه المراسيم والأعراف التنظيمية مؤشرا من المؤشرات التي تفضح نوايا أوتعففت الخفية والتي تتجسد ـ حسب دعاة هذا الطرح ـ في الغدر والخيانة للبرتغال وللعرش البرتغالي. لقد تعود أوتعففت أن يتصرف في مناطق نفوذه باسم الملك البرتغالي. وكانت تحركاته تتجاوز حدود الأقاليم الخاضعة له لتشمل مناطق كانت تدخل في نفوذ سكان فاس أو أمير مراكش. فقد بعث أوتعففت رسالة إلى ملك البرتغال عمانويل الأول بتاريخ 28 مارس 1517[249]، وأخبره فيها بما كان يحصل. وذكر له في الرسالة أنه غادر أسفي في اتجاه أزمور بعدما علم بنهاية موسم الزرع، وكان هدف الحركة هو جمع الإتاوات وأخذها من القبائل. وذكّر أوتعففت الملك عمانويل الأول بأنه لن يجمع الحبوب، لأن الموسم ليس بموسمها. وتابع أوتعففت رحلته عبر أم الربيع حيث التقى بقبائل الشاوية، وكانت له لقاءات مع شيوخ هذه القبائل وأعيانها وعاهدوه على أنهم سيبقون على طاعته وأنهم لن يسلموا أراضيهم لسلطان فاس. وأخبروه بأن قبائل الشاوية تعتمد في صمودها ضد السلطان على دعم قبائل دكالة ومساعدتها. وأثناء هذه الرحلة علم يحيى أوتعففت بخبر هجوم أمير مراكش مولاي محمد على قبائل دكالة، فقطع السفر وعاد إلى دكالة بحثاً عن جيوش مراكش. ولـمّا لم يجدها في دكالة، لاحقها إلى مشارف مراكش. واستطاع يحيى أوتعففت أن ينتصر على أمير مراكش وعلى أولاد عمران الموالين لهذا الأمير[250].

من خلال ما سبق كان يحيى أوتعففت شخصية متعددة الأدوار: فهو يظهر بمظهر القائد العسكري، والوسيط الأساسي بين الملك البرتغالي والقبائل وأهل المدن التابعة له. وبسبب هذا الدور، أراد أوتعففت تجاوز الحكام البرتغاليين

---

(249) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal*, T. II, *op. cit.*, pp. 67-69.

(250) *Ibid.*, pp. 70-72 et 76-77.

المسؤولين عن المدن الساحلية. وصار يراسل ملكهم مباشرة ليخبره بما يقع في المنطقة. وكان أوتعففت يغتنم فرصة المراسلة ليشرح للملك عمانويل الأول الأسباب والدوافع التي تفسر عداء حاكم أسفي له، واتهم هذا الحاكم بعدم الكفاءة وبعدم القدرة على فهم مصالح البرتغال في المغرب، وبأن القبائل لا تتوقف عن رفع الشكاوى ضده بسبب ما لحقها منه من أضرار:

وإن كتبت بعد لطيف (لضيفي أي للسلطان) مع الخادم الديل (الذي لي) بالمسيل الذي (بالأمور التي حصلت) جرّ بين وبين القبطن ولوجهي (لو تعلق الأمر بي لصبرت) ما نحب نكتبهم حسب لي أن نقدر نصبر... ولكن كثر الشكوات من العرب... يرسل مولي وحد الرجل الذي نفعت ويشف بعين[251].

و لم يكن يحيى أوتعففت الوحيد الذي اعتمدت عليه البرتغال في تسخير القبائل المغربية، بل أمثاله كثيرون. ومن بينهم نذكر القائد مالك بن داوود الذي أدّى الأدوار نفسها التي أدّاها أوتعففت في منطقة سوس، وكان القائد مالك يقوم بهجمات عسكرية لمباغتة القبائل المجاورة لأكَدير، وينجز هذه الحملات بتنسيق وبتعاون مع الحامية البرتغالية. وكان مالك يهاجم القوافل التجارية الآتية من الجنوب أو من الشمال قصد الاستيلاء عليها، وكانت تلك الهجومات تلحق أضرارا جسيمة بالتجار وبالتجارة، وتضرب في العمق الأمن وبالتالي كل المنظومة التجارية الصحراوية[252].

واحتفظت الوثائق والمصادر بنماذج كثيرة من المغاربة الذين دعموا الأجانب وتعاملوا معهم لضرب مؤهلات البلاد وتكسيرها. وكان بعض هؤلاء يفتخر بالهجمات والنهب الذي كان يسلط على المغرب أو ما كانوا يسمونه ببلاد المسلمين. وهذا عبد الرحمان بن حدو يخاطب الملك البرتغالي بيأس شديد ويذكره بالخدمات التي قدمها لهذا العرش وقام بها ضد القبائل المغربية:

فنكون اليوم وقفنا في بلاد المسلمين حيث أردت حتى بلغناها ولا بلغنا أمرك وضاع حالنا من المال والحلة والخيل والرجال وانقطع عنا كلامك وكتابك. ونعلمك أن

---

(251) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal*, T. II, *op. cit.*, pp. 154 -155.

(252) *Ibid.*, pp. 128 - 137.

اليوم الذي بلغنا أخينا فارس من عندك حركنا للحوز وأكلنا ثلاثين دوارا بمالها ونسائها... وفزنا بالخصلة وكتبنا لك نبشروك... وكان هذا قبل يناير 1517[253] .

فمن خلال نماذج المغاربة المتعاملين مع البرتغال يتضح أن الاحتلال الأجنبي قد ساهم في خلق ديناميكية جديدة تمثلت في نخر المجتمع المغربي من داخله عن طريق تسليط عناصر على أخرى، وأدى هذا التقاتل إلى انكسار عميق. ورأى المتعاملون مع البرتغاليين في الغزو الفرصة التي تمكنهم من الوصول إلى السلطة وإدراك الجاه، وساهم هؤلاء بعملهم هذا في تعميق الفتور والتراجع والانحطاط الذي تسرب إلى البلاد فأصاب الذهنية المغربية وجعلها تتجه إلى الله بحثاً عن الفرج الرباني. ويظهر أن أسلوب الحماية الذي تبنته البرتغال كان أخطر خرابا من الغزو العسكري، لأنه دمر الذات المغربية من داخلها. وباستقراء معطيات هذا الخراب، نخرج بالملاحظات التالية:

1 - ركزت الوثائق والمراسلات المتعلقة بموضوع الحماية على أن المبادرة في طلبها كانت تأتي دائماً من الأعيان ومن شيوخ القبائل كما توضح ذلك لوائح أسماء الموقعين التي تذيَّلُ بها المعاهدات؛

2 - والملاحظة الثانية قانونية/ شرعية. فعن طريق قبول مبدإ الحماية البرتغالية، يكون الأعيان قد سنوا ظاهرة خروج بعض المغاربة عن الشرع وعن الأعراف المغربية، وقبلوا بالانصياع للقانون الأجنبي ليكون لهم "مأوى" ويكون الملك البرتغالي الحامي لهذا القانون "العين الباصرة" لسكان المدن المحمية. وفي هذا الموقف مس بهيبة المغرب[254] .

3 - وفي مقابل خنوع الأعيان واستسلامهم واستعطافهم للعرش البرتغالي، يظهر هذا الملك التعالي المفرط عنهم ويخاصمهم لأبسط الأمور. وبقدر ما يزداد توسل أعيان المغرب، يزداد تكبر الملوك. ففي إحدى المراسلات خاطبهم الملك قائلا:

---

(253) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal*, T. II, *op. cit.*, p. 283.

(254) *Ibid.*, pp. 10-12.

وأشرتم في كتابكم بجميع المحبة والنصيحة إلينا... وتوسلتم بالقرب إلينا واحبهم لدينا... فلكم الأمان التام والخير العام وأنتم تحت حفظنا ورعايتنا... فاستعملوا من اليوم لقدام الصدق والوفاء والنصيحة في خدمتنا... وما قلتم كانت عندكم هدية تصرفوها إلينا ورجال من أخياركم... فاعملوا في ذلك ما يسركم ويعجبكم[255].

وتلح كل المراسلات التي وجهها المغاربة المحميون أو الراغبون في الدخول تحت حماية العرش البرتغالي على استعدادهم لأن يكونوا رعايا العرش البرتغالي وخدّامه، ويتكلمون عن المغرب والمغاربة وكأنهم أجانب عنهم. فنراهم يكثرون من استعمال عبارتي "بلاد المسلمين" و "العرب". ولاشك في أن لهذه الممارسات دوراً كبيراً في إضعاف المؤسسات المخزنية المرينية الوطاسية وفي ضرب الجبهة الداخلية، ولاسيما أن الخضوع للبرتغال كان مصحوباً بالإرشادات التي قدمها له المغاربة المتعاونون الذين أفصحوا له عن عيوب المغرب والمغاربة ونقط ضعفهم[256].

4 - ولجأ بعض المغاربة إلى التعامل مع الأجنبي طلباً للمصلحة، فطالبوا العرش البرتغالي بأن يضمن لهم الأمن والأمان، وأن يعتبرهم من رعاياه ويسمح لهم بالمتاجرة برّاً وبحراً وفي كل البقاع التابعة للبرتغال:

والذي نحن نطلب منكم أن تعرّفوا بهذا (دخولهم في حمايته) أهل بلادكم وملككم، ولقيادكم وكباركم وجماهركم... وقباطين البحور وجميع من هو تحت إمرتكم ومنقاد لحكمكم وريسا بحركم وأحفانكم حربيين كانوا أو تاجرين إن حدث أنهم يتلاقون معنا أو مع أحد منا في أي موضع كان من بر أو بحر أن لا يصلونا بإذاية لا مضرة لا في مالنا ولا في أنفسنا. وإن وجدونا في البحر أن يتركونا نتمّوا أسفارنا أن يدعونا لجانبكم حسب ما يرعون لأهل طاعتكم وكذلك أن جميع من شاء من هل مدينتنا إن حسب يمشي لبلادكم تاجرا أو جاهلا أو وزيرا أن يكون محفوظا مأمونا[257].

كانت استفادة الإيبيريين من سواحل المغرب كثيرة متنوعة: ففي المغرب

---

(255) S. I. H. M., 1ère série, *Portugal*, T. II, *op. cit.*, pp. 96-97.

(256) الأمثلة كثيرة (*Ibid.*, p. 67, 70, 75, 89).

(257) S. I. H. M., 1ère série, *Portugal*, T. I, *op. cit.*, p. 13.

اكتسبت البرتغال أسطولها[258] . وفي المغرب حصلت هذه الأساطيل على التداريب اللاّزمة قبل أن تنطلق في اكتشافاتها الجغرافية:

كان احتلال سبتة أساس التحولات التي سيعرفها البرتغال، إذ أصبحت المدينة ركزا لجمع المعلومات الضرورية لمعرفة طبيعة ما يقع داخل القارة الإفريقية وكل ما حتاجه البرتغاليون عن الطرق الصحراوية. وفي سبتة عرفت المدرسة العسكرية لبرتغالية أهم التغيرات، لأنها كانت المركز والقاعدة التي تكونت فيها الأطر لبرتغالية التي جابت الشرق وأوربا[259] .

وكانت حماية البرتغال لسكان الثغور المحتلة والمناطق المجاورة لها مرجعاً أساسيّاً لفرنسا في سياستها الاستعمارية في المغرب. ونبه بعض مؤرخي الفترة الاستعمارية فرنسا إلى ضرورة دراسة التجربة البرتغالية ومحاولة تجاوز أخطاء البرتغاليين في المغرب.

وإذا كانت الدول الاستعمارية الأوربية تستفيد من التجارب السابقة، فإننا ما زلنا نجهل الكثير عن الديناميكية التي انبعثت في المجتمع المغربي من جراء هذا الغزو: فما أهداف المغاربة الذين تعاملوا مع البرتغاليين؟ وهل كان تعاملهم ناتجاً عن الظروف المتأزمة التي كان المغرب يعيشها أو أن العملية كانت أبعد وأعمق من ذلك؟ تبدو ظاهرة القبول بالحماية في الوهلة الأولى مجرد تصرف يائس ناتج عن الفتن التي كانت مشتعلة في جميع أطراف المغرب. لكن المتمعن في هذه الظاهرة يجد نفسه أمام أسئلة ذات أبعاد أخرى: ألم تكن لهؤلاء المغامرين، وخصوصاً منهم أوتعففت، نيَّات أخرى؟ ألم يكن يبحث عن تحقيق مشروع ذي طبيعة بربرية؟ يصعب، في الوقت الراهن، الإجابة على هذه الأسئلة. غير أنها تبقى مشروعة ويمكن اتخاذها فرضيّات لأعمال لاحقة. فالواضح أن أبا زكرياء أوتعففت كان يحلم

---

(258) انظر هامش 219.

(259) Dr. Antonio Borges Coelho, "Lagos e os Discobrimentos", in *Cadernos Istoricos i Comissao Municipal Dos Descorimentos*, Vilareal, 1991, p. 13. De Ceuta chegam in formacoes preciosas do interior de Africa das suas rotas internas e Ceuta vai transformar-se na grande escola militar dos quadros portugueses na Europano oriente.

بالسلطنة "بإذن من له الأمر والأحكام السلطانية لمدينة ءاسَفِ"[260] . وما الإشاعات التي كانت تروج ضده وتدور في معظمها حول رغبته في الانفراد بالحكم وبالزعامة إلا تأكيد لفرضية مفادها أن أوتعففت كان يستعمل البرتغاليين ويخدمهم من أجل أن يكسب ثقتهم قبل الإعلان عن مشروعه. ونجد ما يؤكد هذا في الرسالة التي بعث بها أحمد ازدور وعبد العزيز بلقاسم إلى ملك البرتغال ليخبراه بنوايا أوتعففت الانتقامية غير المعلنة: "سأله (أوتعففت) فقير: لماذا تخدم المسيحيين؟ فأجابه: إني أقوم بذلك لأكسب ثقتهم قبل الانتقام منهم"[261] . وكان الحكام البرتغاليون ينعتونه بالغدر والخيانة للبرتغال. ولاشك في أن هؤلاء كانوا يغارون من أوتعففت ويحسدونه لما كان له من مقام عند ملكهم كما توضح ذلك الرسالة التي بعث بها الحاكم نونو فرنانديس أطايد إلى الملك عمانويل الأول سنة 1514[262] .

قد تبدو تصرفات أبي زكرياء يحيى بن محمد أوتعففت متناقضة: فهو الخادم الخنوع المستسلم أمام الملك البرتغالي، وهو القائد السياسي المبرز والمنافس للحكام البرتغاليين في الثغور المغربية، وهو الأمير الآمر الناهي أمام سكان هذه المدن وأمام القبائل. فما خصوصيات تجربة أوتعففت؟ يمكننا القول، ولو دون جزم، إن حركة هذا الأمير كانت تتعارض في العمق مع تجربة الأشراف السعديين: فمن الناحية الجغرافية، انطلقت حركة هؤلاء من سوس التي كانت منطقة ذات شحنة تاريخية أساسية. ومن الناحية الاقتصادية، كانت سوس ملتقى الطرق الصحراوية المألوفة تاريخياً. واعتمد الأشراف اجتماعيا وسياسيا، استراتيجية الجهاد ضد البرتغاليين. وأما تجربة أبي زكرياء يحيى بن محمد أوتعففت، فقد انطلقت من الساحل الأطلسي، ومن أسفي بالذات الذي كان يعتبر ميناء مراكش. فهل تدخل هذه التجربة في إطار محاولة إشراك المغرب في بناء الفضاء الأطلسي تحت تأثير احتكاك أوتعففت وأهل أسفي بالمبادرات البرتغالية في هذا المحيط؟ ولعل فشل هذه

---

(260) *S. I. H. M.*, 1ère série, *Portugal*, T. 1, *op. cit.*, p. 326.

(261) *Ibid.*, p. 382 et 385.

(262) *Ibid.*, p. 660.

التجربة يرجع إلى منطق الاستراتيجية المعتمدة فيها. فقد اعتمد أوتعففت على الدعم البرتغالي من أجل الانفراد بالحكم وتوحيد البلاد، وكان فشل مشروعه ناتجاً عن استراتيجية الخلط التي تبناها. فباعتماده على الأجانب لمحاربة القوى الداخلية المعادية له يكون قد انفصل وابتعد عن القواعد والبنى الاجتماعية التي كانت سبباً في فشل محاولاته ــ والظاهرة معروفة في تاريخ المغرب: إذ لم تنجح المحاولات السياسية التي كانت تلجأ إلى الأجانب من أجل أخذ السلطة. فإذا فشل أوتعففت، فذلك لأن حركته كانت تحمل في طياتها أسباب فشلها. فعلى العكس من ذلك، برزت حركة الأشراف السعديين وتقوت، لأنها اتخذت الجهاد ضد المسيحيين والمتعاملين معهم خطة، وحاولت الانطلاق في جذورها من القواعد الاجتماعية واستطاع الأشراف أن يحققوا مشروعهم الرامي إلى الانفراد بالحكم وتوحيد المغرب. وقد تحقق لهم ذلك بدعم ومساندة من الزوايا. وربما كان في هذا الدعم المشروط بوادر انكسارات اجتماعية من نوع جديد وملامح لديناميكية ستكون على المدى البعيد مصدرا للقلق والتوتر وسببا في الانحطاط والتراجع.

الفصل الرابع

مغرب مغاربة الصمود والمقاومة: الزوايا والتجاوز

كان المغاربة الذين قبلوا بالحماية الأجنبية والتعامل مع العدو يعتقدون أن في ذلك خلاصهم من الفتن والمرج الذي كان يزعزع المغرب، وحاول هؤلاء ربط مصيرهم بالغزاة، وظنوا أن تدخل القوى الأجنبية سيعيد الأمن والأمان؛ فارتبطوا بالمسيحيين، لأنهم يئسوا من فعالية الأجهزة المغربية؛ واعتقدوا أن مستقبل البلاد وازدهارها أصبح رهينا بتبني المغاربة التجارب الأوربية، لأن في هذا التقليد إرادة المسايرة ورغبة في ملاحقة المتجاوز. وكان تحرك المغاربة الذين قبلوا هذا الموقف وتبنوه إرادة للمحافظة على مصالحهم وتنشيط المبادلات التجارية مع المسيحيين؛ ولهذه الأسباب قبلوا أن يكونوا رعايا الملوك الإيبيريين، لأن في ذلك ضمانا لدخولهم الفضاء الاقتصادي الأطلسي الذي تحتكر تشييده الأساطيل البرتغالية الإسبانية. وقد أشار المغاربة الطامعون في الدخول إلى هذا الفضاء، إلى ذلك في المعاهدات التي وقعوها مع الملك البرتغالي، ولمح إلى ذلك الحسن الوزان(263) . ولا نريد إصدار حكم قيمة على ذوي هذا الاتجاه، فالمهم أن أصحابه تحركوا في هذا الإطار معتقدين أنه بالإمكان إخراج البلاد من الضجع الذي كان يهزها عن طريق التعامل مع الغازي. ولهذا السبب، ظلت محاولاتهم على الهامش، ولم تتجذر في

(263) يمكن الرجوع إلى الفصل السابق، هامش 257؛ وإلى: الحسن الوزان، وصف إفريقيا...، مصدر مذكور، الجزء الأول، ص ص. 117 ـ 120؛ انظر كذلك:
S. I. H. M., 1ère série, *Portugal*, T. 1, *op. cit.*, p. 13.

المجتمع. فأغلبية المغاربة لم تقتنع بهذا الطرح، بل عارضته وحاربته بكل قواها، ورأت في القبول به وبالتعامل مع الأجنبي دمار البلاد وهلاك العباد.

وإلى جانب هذا الاتجاه، ومعاكسة له برز اتجاه معارض للتعامل مع الأجانب. وشمل جميع مناطق المغرب وانخرطت فيه جل الشرائح الاجتماعية. وتبنى أصحاب هذا الموقف الصمود والمقاومة والدفاع عن المغرب والمغاربة ضد الهجمات المسيحية التي هي استمرار للحروب الصليبية وامتداد لحروب الاستردادات. فإرادة المسيحيين واضحة: ملاحقة المسلمين وضرب قواعدهم الخلفية التي شكلت القواعد التي كانت تنطلق منها الجيوش الجهادية في الأندلس منذ القديم:

تميز مصب أبي رقراق منذ القديم بأهمية بالغة... وازدادت هذه الأهمية بعد أن أصبحت الأندلس تابعة للمغرب منذ أواخر القرن الخامس (11م) فغدا هذا الميناء منطلق الجيوش المغربية العابرة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية كما سنرى. وبلغ المصب أوجه أواخر القرن التاسع(15م) بعد الكشوف الجغرافية وحلول المحيط الأطلنتي من الناحية الاستراتيجية محل البحر المتوسط...(264).

واستطاع هذا التيار أن يجمع حوله كل القوى التي كانت ترى في الغزو المسيحي خطرا على الهوية المغربية وانخرط الجميع فيه، ونجح دعاته في تأطير المغاربة وملء الفراغ السياسي الناتج عن ضعف الوطاسيين وتنمر المسيحيين. وقد أشار الوزان إلى الضعف الذي وصل إليه ملوك فاس الوطاسيين "فدخلهم جد ضئيل ونصف الدخل الضريبي يكون عينيا"(265). وبدا للعيان ضعف الوطاسيين الذين أصبحوا عاجزين على بسط نفوذهم على كل التراب المغربي كما أشار مارمول إلى هذا الضعف قائلا: "كان في المغرب، في هذه الفترة من الزمان عدة أمراء، يتقاسمون السيادة ذلك ما جعل الكثير من الحواضر تنفرد باستقلالها، و لم يكن حينئذ

---

(264) محمد حجي، **جولات تاريخية**، مرجع مذكور، ج 2، ص ص. 503 - 508.
اهتم المغاربة بالجهاد إلى درجة أنه كان سببا في تأسيس المدن (ظاهرة الجهاد تأسيس سلا والرباط).

(265) الوزان، **وصف إفريقيا**، مصدر مذكور، ج 1، ص. 223؛ عبد اللطيف الشاذلي، **التصوف والمجتمع**، ص ص. 257 -261.

لملوك بني وطاس ما يلزم من السلطة لبسط نفوذهم على مجموع تراب موريطانيا الطنجية"[266] .

في هذا الجوّ من الانحطاط والتمزق برزت الزوايا قوىً سياسية واقتصادية ـ اجتماعية أخذت على عاتقها مسؤولية ملء الفراغ السياسي وعملت على تأطير المجتمع وتزعمت حركة الصمود والجهاد ضد الغزاة الأجانب. وحاربت كل المتعاملين معهم، معتبرة ذلك من أوجب الواجبات:

ولما نزل بأهل المغاربة الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين تباروا في جهاده وقتاله... فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابا[267] .

وانتشر نفوذ الزوايا وتعاليمها في جميع أنحاء المغرب وعملت على التأقلم والتكيف مع عادات وأعراف المناطق التي كانت تنبت فيها حتى لا تبقى دخيلة عليها. ولعل اكتساح الزوايا للمرافق الاجتماعية يطرح مجموعة من التساؤلات لعل أهمها هو: كيف ولماذا نجحت هذه القوى في تأطير المجتمع وملء الفراغ السياسي؟ ثم إذا كانت محاولاتها ناجحة، فكيف يمكن أن نرى فيها سببا من أسباب الفتور الذي أصاب المغرب؟ وأين تكمن المسؤولية التي تتحملها هذه القوى على أساس أنها شكلت عرقلة من العراقل التي حالت ـ على المستوى البعيد ـ دون إقلاع المغرب وتخلفه عن مسايرة أوربا؟ لكن قبل محاولة الإجابة على هذه التساؤلات نود ضبط مضامين المصطلحات.

1 - مصطلحات ومفاهيم

ما يسترعي اهتمام الدارس لظاهرة الزوايا هو ارتباط ظهورها وازدياد نشاطها بواقع حالة التوتر والحروب التي سادت علاقات الإسلام بالمسيحية سواء في المشرق أو في المغرب. فالصلاح والولاية سلوك إنساني لا يختص به مجتمع دون غيره أو ثقافة دون أخرى، ولكنه تصرف إنساني وجد في كل الديانات وفي كل

(266) مارمول كربخال، إفريقيا...، مرجع مذكور، ج 1، ص. 450.

(267) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 4، ص. 111.

الثقافات. ونجد أحيانا في الولي الواحد تراكمات لثقافات وأديان مختلفة: "عن طريق الأماكن المقدسة قد نكتشف وليا صالحا مسلما قد حل محل وليّ صالح مسيحي وربما شغر هذا الأخير بدوره مكان ولي صالح وثني"[268]. وألحت الإسطوغرافية الأوروبية[269] على أهمية الأدوار التي أدّاها الأولياء خلال الحملات الصليبية. وأثرت هذه الحروب في ذهنية الفرد والجماعة سواء في هذه الثقافة أو في تلك. وكان أثرها بليغا في الإنسان العادي العامي:

كان إيمان الإنسان العادي فطريا لكنه حميمي وجدي وذو أهداف سياسية ودينية. وكانت الحملة الصليبية حج الإنسان العامي ورحلته إلى القدس من أجل زيارة مسقط رأس عيسى ابن الله. وكانت الرحلة إلى الأماكن المقدسة تعبيرا تلقائيا من المؤمن عن رغبته الصادقة في الاستشهاد أو العودة من الأماكن المقدسة إلى لأولاد والعائلة مشحونا ببركة الزيارة وأجرها[270].

وشكلت الولاية والصلاح للإنسان الشعبي الدرع الواقي والحصانة السيكولوجية التي كان يستعين بها في مجابهته لقساوة الحياة اليومية. فالقصص والخرافات والحكايات العجيبة التي كانت ترافق كرامات الأولياء ومعجزاتهم اعتقاد سائد في عالم الرجل العامي[271].

واستمرت الحروب الصليبية حافزاً أساسيّاً لإنجاز مشاريع أوربا ومبادراتها. فرحلة كريستوف كلومب واكتشافه للعالم الجديد عمل يدخل ضمن مشروع تطويق الإسلام كما وضح كلومب ذلك بنفسه:

صرح كريستوف كلومب يوم خروجه من إسبانيا أنه يريد اكتشاف طريق جديد يمكنه من الوصول إلى الهند. وأوضح أن عمله هذا ما هو إلا محاولة يقوم بها من حل تحقيق حلم صليبي قديم كان يتلخص في محاصرة الإسلام وتطويقه وأخذ

---

(268) Emile Dermen Ghem, *Le Culte des Saints dans l'Islam du Maghreb*, Paris, Gallimard, 1954, p. 34.

(269) يمكن الرجوع إلى العدد الهائل من أولياء أوربا وصلحائها خلال العصر الوسيط. وقد خلدتهم كتب المناقب وأعمال الرسامين والنحاتين.

(270) F. Heer, *L'univers du Moyen Age...*, *op. cit.*, pp. 139-140.

(271) جون هرمان، تكوين العقل الحديث...، ج 1، ص ص. 69 - 77.

للمسلمين بين كفي كماشة شرقاً وغرباً. وصاح قائلا: إنه باستطاعة إسبانيا اليوم أن حرر القدس من يد الكفار[272].

ودعمت الكنيسة الهجمات المسيحية على الثغور المغربية. ورفعت البابوية شعار "حاربوا الإسلام أينما كان". ولما دخل الجيش البرتغالي إلى أزمور، راسل ملك البرتغال البابا وأهدى له هذا الانتصار واعتبره انتصارا للمسيحية، لأن مصلحتها هي ضرب المسلمين أينما حلوا وارتحلوا. وكان طرد المسلمين من الأندلس وملاحقة المسيحيين لهم في المغرب من الأسباب المباشرة التي ساهمت في ظهور الزوايا بصفتها قوى سياسية واجتماعية خلال القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. وأطرت هذه المؤسسات المغاربة، ودافعت عن البلاد وأنقذت المغرب من فقدان هويته، وجنبت المغاربة ما حصل للهنود السكان الأصليين للعالم الجديد.

والكل يعلم أن البرتغاليين مع كل ما بذلوه من جهود وتضحيات لم يستطيعوا أن ينفذوا مخططهم العنصري الجهنمي في الاستحواذ على بلادنا ومحو الإسلام منها تطبيقا لمقررات مؤتمر طورديزيّاس (Tordesillas) الذي قسم فيه البابا شمال إفريقيا على الدولتين الكاثوليكيتين جاعلا المغرب للبرتغال، والجزائر وتونس لإسبانيا[273].

وعلى أساس هذه الأدوار التي أدّتها هذه المؤسسات قد نتساءل: ما الخصائص التي ميزت هذه الزوايا؟ وكيف تم لها ذلك، وفي أية ظروف؟

يستدعي الكلام عن الزوايا الوقوف عند المصطلحات المرتبطة بها: الرباط والولاية والكرامة. ونلاحظ أن هذه المصطلحات تندرج ضمن حقلين في دلالة المقدّس: فبعضها يحيل على المجال كالزاوية والرباط، والمصطلحات الأخرى تحيل على التعبد والعبادة وتشترك المصطلحات كلها في كونها ترتبط بالإنسان بما هو وحدة: فهو الخلية والمقياس لكل المنطلقات. فالإيمان مسألة فردية قبل أن تكون جماعية، والعبادة سلاح يسخره المؤمن لمحاربة الشهوات، وزاد يتقرب به إلى الخالق. فتزداد تقوى الإنسان أيام الشدة والمحن والقساوة واليأس. وتنشأ حركات سياسية

---

(272) F. Heer, *L'univers...*, pp. 163 - 164.

(273) محمد حجي، جولات...، مرجع مذكور، ج 2، ص. 559.

واجتماعية بسبب القلق والحرمان. وتغذي المحن التي تصيب الفرد والجماعة ظاهرة الزهد والانزواء التي يعيشها الفرد قبل الجماعة. والملاحظ أن الأزمات التي عرفها المغرب خلال القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر كانت من العوامل الأساسية التي أدّت إلى ارتباط المغاربة وتشبّثهم بمؤسسات المقدس: الزاوية والرباط والولاية. وبالرجوع إلى هذه المصطلحات نلاحظ أن المعاني المتضمنة فيها تنطلق من الفرد لتنتهي في الجماعة وإليها: فعندما ينزوي الولي في ركن ليعبد ويتأمل، فإنه يقوم بذلك من أجل خلاص نفسه بصفته فرداً. ويصبح هذا الولي قبلة الزوار، فتلتف حوله الجماعة قصد التبرك من صلاحه، بل تتخذه رمزاً ومنطلقاً لحركة الْتِفاف جماعي يكون هدفها الأساسي الاحتماء من أجل تحمل الصعاب وتجاوز أيام الشدة والمحن. فكيف تتم عملية المرور مما هو فردي إلى ما هو اجتماعي؟ وما الزاوية حقيقة؟

ترى بعض المصادر أن الكلمة أعجمية. يقول ابن مرزوق: "وهذه الزوايا هي التي يطلق عليها في المشرق الرُّبط والخوانق والخانقات... وهو لفظ عجمي والرباط في اصطلاح الفقراء عبارة عن الموضع الذي يلتزم فيه للعبادة"[(274)] . وأعطى الحسن اليوسي تعريفاً يوحي للقارئ بوجود جدل ونقاش بين هذا الفقيه الذي لا يخفي تعاطفه مع الزاوية الدلائية وعلماء لم يفصح عن أسمائهم، وفي هذا الصدد كتب اليوسي يقول: "وليعلموا أن الزاوية لا حقيقة لها شرعاً ولا ذكر لها، وإنما لفظة محدثة"[(275)] . وتبنت دراسات معاصرة تعريفات مماثلة مؤكدة أعجمية المصطلح، فرأى دوزي في معجمه أن الكلمة اقتباس عربي عن الإغريق[(276)]. وأشار محمد حجي إلى تأخر ظهور الزوايا في المغرب قائلا: "ولم تعرف الزاوية في المغرب

(274) ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، مخ.، خ. ع.، ق III، الباب الثاني والأربعون.

(275) فاطمة خليل القبلي، رسائل أبي علي الحسن اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981، ج 2، ص ص. 371 - 372.

(276) "Proprement angle..., cellule, car les Arabes, en empruntant aux grecs la vie monastique, ont donné, à leur exemple le nom d'angle à une cellule". (R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, Leyde, Paris, 1881, Reproduction Librairie du Liban, Beyrouth, 1968, p. 615).

إلا بعد القرن الخامس الهجري"[277]. ولاحظ وجود مؤسسات اجتماعية كانت تعرف "بدار الكرامة" زمن الموحدين، و "بدار الضيوف" أيام المرينيين[277]. ولا تدرك وظائف الزوايا إلا إذا وضعت في سياقها التاريخي: فهي ليست مجرد مجال للعبادة واحتباس النفس، وإنما تتعداه لتصبح مركزاً للمرابطة والجهاد قبل أن تصبح مؤسسة اجتماعية وسياسية. وقد انتبه اليوسي إلى وظائف الزوايا المركبة، ورأى فيها المؤسسة التي يجد فيها المؤمن خلاص نفسه، وتجد فيها الجماعة فرصة التلاحم. فيقول عنها:

> ومعناها (الزاوية) مركب من أمرين إحداهما التفرغ لعبادة الله، ويكون ذلك بالهروب من التشاغل بالدنيا وأسباب المعاش، والانكماش في خلوة أو في ركن بيت أو في مسجد للاشتغال بذكر الله والإقبال عليه، وبهذا - والله أعلم - سميت زاوية لأن الركن يسمى زاوية[278].

فعلى هذا المستوى تكون الزاوية مجالاً مقدساً يستعمله الإنسان المومن لينقذ نفسه. ويبقى الأهم في الموضوع انتقال هذه الزاوية من وظيفتها الميكرو ـ اجتماعية المرتبطة بالفرد كخلية لتصبح قوة رمزية ذات حيوية اجتماعية وتدخل ضمن الماكرو - اجتماعي لتصبح حركة جماعية واقتصادية وسياسية. وعوض أن تبقى مرتبطة بآهات الفرد وقلقه، تصبح منشغلة بمشاكل المجتمع كله ومتاعبه، ولذا تعمل على تأطيره. ورأى ابن مرزوق في هذه الميزة خصوصية من خصوصيات الزوايا في المغرب: "قلت: والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين"[279]. نظراً لشدة الجفاف وكثرة الأزمات والفتن، وانتشار الأوبئة والمجاعات في جميع أنحاء المغرب في مطلع القرن السادس عشر، عم الخوف واليأس قلوب الناس، ومات خلق كثير بسبب الجوع والهرج، وصار الآباء والأزواج يسلمون أبناءهم وأفراد عائلتهم خوفاً عليهم من الهلاك كما

---

(277) محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط، المطبعة الوطنية، 1964، ص.25.

(278) فاطمة خليل القبلي، رسائل أبي علي...، ص ص. 371 - 372.

(279) ابن مرزوق، المسند، مصدر مذكور، الباب الثاني والأربعون.

أشار إلى ذلك شاهد عيان برتغالي عندما قال: "وكان عدد كبير من مسلمي أزمور يفضلون بيع أنفسهم للتجار البرتغاليين (عام مجاعة 1512) وكان يسهر على عملية البيع الآباء والإخوان"(280). وبسبب هذا الواقع المتأزم، تكاثر عدد الزوايا وازداد عدد المريدين والخدام بها، وتقوى نفوذها، وصار الشيوخ يطمحون إلى أداء أدوار سياسية حاسمة. وكانت الزوايا دار الأمن والخلاص والفرج، وتكفي مناداة الولي القطب لتتبدد الأهوال:

إن كنت في هم وضيق وشدة   فناد للشرق ياغوث الندا

فإنه المرء المرجى دفعه   لسطوة الدهر وصدمة العدا(281)

2 - الزوايا وتجذرها الاجتماعي

بدأت الزوايا تتحرك بصفتها مؤسسات دينية واجتماعية واقتصادية قبل أن تظهر طموحاتها السياسية. وانتشرت هذه المؤسسات في كل أرجاء المغرب. والملاحظ أن الزوايا قد اضطلعت بوظائف مختلفة، واختلف الأولياء في سلوكهم. ونعطي هنا نماذج وعينات معبرة لأصناف الأولياء والولاية. لكن قبل ذلك، نود تحديد مضمون الولاية. فإذا كانت الزاوية هي مجال المقدس وفضاؤه، كما يتبين من دعم الشيخ الغزواني لاستقرار الولي عبد الله بن حسين الأمغاري في قرية تامصلوحت التي توجد في منطقة قاسية متعطشة لا ماء بها ولا أنيس. مع ذلك وربما من أجله، خاطب الإمام الغزواني الولي عبد الله بن حسين قائلا: "يا عبد الله هذا موضعك وإن الله يحيي عمرانه على يدك"(282). فالمجال الذي تنبت فيه الزاوية أساسي، لكن إنعاش المنطقة وإحياءها يكون على يد الولي. فالولاية حركة يتجسد فيها المقدّس ويتقوى. والولاية من الموالاة، والولي هو مَنْ تَوَلّى الله أمره، وهو من

(280) B. Rosenberger et H. Triki, "Famines et épidémies au Maroc aux XVIè et XVIIè siècles", *Hésperis - Tamuda*, Vol. XV, Fasc. Unique, 1974, p. 94.

(281) أبو علي الحسن المعاني، **الروض اليانع الفائح في مناقب أبي عبد الله محمد المدعو بالصالح**، مخ.، خ.ع.، د 1835، ص. 54.

(282) ابن عسكر، دوحة الناشر...، مصدر مذكور، ص. 77.

تفانى في عبادة الله وطاعته على التوالي دون أن تتخلل هذه الطاعة معصية. والولاية مشروطة بالاستقامة، والولاية هداية. وقد عرف المغرب أيام الشدة عدداً هائلاً من الأولياء كما يتبين من كتب المناقب التي تعود إلى المرحلة. وسوف نقف عند نماذج معبرة. فقد ظهرت طبقة من أولياء لا يشتغلون بمكسب ومالهم حرفة غير عبادة الله ومن بينهم:

> الشيخ الولي صاحب البركة الظاهرة والخوارق الباهرة أبو عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي نزيل مكناسة... متواضعاً زاهداً متقشفاً كثير الخشية لا يفتر عن ذكر الله، يطعم الطعام ويكفل الضعفاء والأيتام... وله موضع بزاويته يلازم الجلوس فيه فلا يُرى قائماً إلا إلى الصلاة لا يرى له سبب ولا حرائة، وترد زاويته الوفود في كل يوم وليلة[282].

ووجدت طبقة أخرى من الأولياء "هم قوم لا يخرجهم الله عن الخلق، يكونون بين الناس"[283]. كان هؤلاء يشتغلون بما يشتغل به الناس من سائر الحرف والمكاسب وكانوا يأكلون من كدهم:

> ومنهم شيخ المشايخ أبو محمد عبد الله بن عجال الغزواني... كان الشيخ رضي الله عنه دأبه الحركة في أسباب الحرائة، واستخراج المياه، وكانت الدنيا لا تنحبح على يده، وطعامه المأكول بزاويته لا يزيد على الماء والملح وشيئاً ساذجاً، وكل ما يأتيه من أسباب الدنيا يدفعه لذوي الحاجات. وشأنه ملازمة الذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وخلق المئات من المشايخ[284].

وإلى جانب هذين الصنفين ظهرت طبقة سخرت زاويتها لاكتساب الجاه والشهرة، وكانت تعامل الناس على قدر مراكزهم الاجتماعية وربما حسب عطاءاتهم المادية. واشتهرت في ذلك زاوية أبي عمر القسطلي الأندلسي نزيل مراكش. وعن هذه الظاهرة قال ابن عسكر:

---

(282) المصدر نفسه، ص. 77.

(283) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية، 1982، ص. 20.

(284) ابن عسكر، مصدر مذكور، ص ص. 96 - 98.

ومنهم الشيخ الفاضل أبو عمر المراكشي... وللناس في شأنه اضطراب... وكانت له همة رفيعة في إطعام الطعام. فلا يدخل أحد زاويته إلا بادر الخدام له بإحضار الطعام على قدر طبقته: فسائر الناس يأكلون خبز الشعير وما وجد من الفاكهة معها، وفي الصبح الدشيش وفي المساء الكسكس؛ ومن هو أعلى مرتبة يأكل خبز البر وخلاصة التمر والعسل واللحم والثريد والدجاج؛ ومن هو أعلى قدرا من الطبقتين يقربون له الحسو المتخذ من لباب الخبز الخالص، وفصوص البيض مفوها بالقرفة والزعفران ولحم الضأن المطبوخ بالمرق واللفت والسلحم وأنواع الفواكه التي لا توجد إلا في خزائن الملوك... ومن يتأمل ذلك يعلم أنه لا يقدر أحد على تلك الكفاية إلا من ينفق عليها بيوت الأموال أو تكون له مادة ملكوتية[285].

ولقد أشار ابن عسكر إلى الجدل الذي كان يصاحب هذا الشيخ الذي كان يدعي أنه صاحب الوقت، ولم يجرؤ ابن عسكر على اتخاذ موقف مما يقال عن أبي عمر القسطلي واكتفى بالقول: "ولقيته مرارا وسمعت كلامه وكنت نكل أمره إلى الله تعالى ولا نتعرض لرد ولا إلى قبول"[286]. على عكس الحوات الذي أوضح أن القسطلي كان يزعج الملوك: "وكانت الملوك تتشوش من قوله أنا صاحب الوقت وأنا سلطان مع شهرته وبعد صيته"[287]. ويدفعنا هذا الجدل إلى الوقوف عند الأدوار والطموحات السياسية التي ظهرت عند الأولياء. فكيف حصل ذلك؟

3 - طموحات الزوايا السياسية

كان من نتائج الاحتلال الأجنبي الإيبيري للثغور المغربية وعجز السلطات الحاكمة آنذاك، وخاصة الوطاسيين، عن مواجهة الأحداث قيام الأئمة والمشايخ. وعمل السكان على بذل الغالي والرخيص للدفاع عن البلاد وإعلاء كلمة الإسلام. وكانوا يستنكرون ضعف الحكام وتخاذلهم ومهادنتهم أحيانا للعدو، وبذلك تقوّى نفوذ الزوايا السياسي. وتزخر كتب المناقب بالأمثلة على ذلك. فمن خلال ترجمة

---

(285) المصدر نفسه، ص. 108.

(286) المصدر نفسه.

(287) سليمان بن محمد العلمي الحوات، البدور الضاوية، في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية، مخ.، خ. ع.، د 261، ص. 32 - 33.

ابن عسكر للشيخ عبد الله الورياغلي هناك إشارة إلى مشاركة هذا الولي في عملية الجهاد في طنجة وأصيلا، وقام بالدّور نفسه الشيخ محمد بن يحيى البهلولي الذي لازم باب الجهاد وألف فيه أشعاراً وقصائد. وتذكر الـ "دوحة..." مشاركة الولي علي بن عثمان الشاوي في الجهاد إلى جانب الحكام واستشهاده فيه في وقعة الحدمر التي كانت في حدود الأربعين بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسي على مقربة من أصيلا سنة 1533[288] . والأمثلة كثيرة في موضوع مشاركة الأولياء في الجهاد ضد الإيبيريين وما ترتب على ذلك من تقوية لمكانتهم السياسية وبداية منافستهم للوطاسيين. ولقد أصبح هؤلاء يتخوفون من حركة الزوايا التي أصبحت تشكل قوة سياسية وبشرية قادرة على تنظيم المجتمع وتسييره. وتبقى تجربة الإمام الجزولي وعلاقاته بالوطاسيين أحسن مثال يوضح المكانة التي أصبحت تحتلها الزوايا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر حيث انتشرت طريقة هذا الإمام وأصبحت أهم الزوايا في المغرب تتفرع عنها. وفي هذا الصدد كتب ابن أبي محلي يقول: "فالجزولي إذاً شيخ العصابة بالمغرب وإمام الأئمة بالشهادة والغيب وإليه تنتهي الطريقة المثلى الحنيفة البيضا وهي طريق الهمة... وهي الشاذلية"[289] . وصار له من المريدين ما يزيد على الآلاف: "ولقد ورد عليه من طالب القرب... خلق كثير حتى اجتمع من المريدين بين يديه رحمة الله عليه اثنا عشر ألفا وستمائة وخمسة وستون كلهم ممن نال منه خيرا جزيلاً على قدر مراتبهم وقربهم منه"[290] . وتنقل محمد بن سليمان الجزولي بين تيط وفاس وأسفي إلى أن توفي بأفوغال بالقرب من رجراجة. وفاقت شهرته الآفاق وانتشرت طريقته عبر أتباعه في المغرب وخارجه. وكان كتابه "دلائل الخيرات" يوجد عند كل مغربي، وكان يظن أن حمله يفرج الكرب ويسهل قضاء الحاجات: "قال لي بعض الفقهاء

---

(288) يمكن الرجوع في هذه النقطة إلى ابن عسكر، مصدر مذكور، ص.ص. 30، 34 - 59.

(289) أحمد بن عبد الله بن أبي محلي، الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت، مخطوط.، خ. ج.، رقم. 4442، ص.1.

(290) محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، الحجر بفاس، عام 1906، ص. 9.

إن مما جرب لقضاء الحوائج وتفريج الكرب قراءة "دلائل الخيرات" أربعين مرة. ويجتهد القارئ أن يكمل هذا العدد قبل تمام الأربعين يوماً؛ فإن الحاجة تقضي كائنة ما كانت"[291].

ولقد أثير جدل حول وفاة الإمام الجزولي: أشارت المصادر أنه مات مسموماً. وقال الشيخ أبو العباس بابا في "نيل الابتهاج": "... إنه مات مسموما في الركعة الأولى من صلاة الصبح سادس عشر ربيع الأول سبعين وثمانمائة. انتهى"[292]. ويرجع هذا الاضطراب في موت الإمام الجزولي إلى المواقف التي اتخذها من الوطاسيين. فربما أدرك هذا الولي عجز هؤلاء الحكام عن توحيد البلاد وقيامهم بالجهاد؛ ولربما مات الجزولي مسموماً من طرف مشايخ كانوا منافسين له وكانوا يرون فيه وفي قوة أتباعه خطراً على مصالحهم[293]. وتعزز هذا الطرح المواقف التي اتخذتها الحركة الجزولية في الجهاد ودعمها المطلق للأشراف السعديين: "تكاثر عدد الزوايا في بداية هذه الفترة بتكاثر عدد شيوخ الصوفية الشاذلية وخاصة الجزولية الذين كانوا يعتبرون الأنصار الطبيعيين للدولة الناشئة"[294]

وقد نتساءل عن الأسباب التي جعلت الأشراف السعديين ينقلون جثمان الإمام الجزولي من أفغال إلى مراكش سنة 1525: هل قاموا بذلك اعترافا منهم للمساندة التي تلقوها من أتباع الجزولي سواء في سوس أو في جهادهم ضد البرتغاليين في دكالة وعبدة أو أثناء دخولهم مراكش؟ أو أن الأمراء السعديين نقلوا جثمان الإمام الجزولي خوفاً من سمعته ومكانته التي قد تُتَّخَذُ حركةً سياسية ضدهم كما أشار إلى ذلك صاحب "ممتع الأسماع" عندما تحدث عن أحد أتباع الجزولي عمرو المغيطي الذي قام ضد من أسماهم بأعداء الإمام:

---

(291) المصدر نفسه، ص. 9.

(292) المصدر نفسه والصفحة نفسها؛ الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، هوداس انجى، 1888، ص. 18.

(293) Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, Paris, Hachette, 1967, pp. 172-173.

(294) محمد حجي، جولات تاريخية...، مرجع مذكور، ج 2، ص. 515.

وكان افتتاح أمره أن قام مستنصرا للشيخ في الذين سموه إذ سمه بعض الفقهاء و لم يزل بهم حتى قتلهم ثم صار يدعو الناس إلى إقامة الصلاة ويقاتلهم عليها... ويذكر أن عَمْراً المذكور جعل الشيخ رضي الله عنه في تابوت وصار يقاتل به فكان ينصر به حيثما توجه وأنه بقي على ذلك عشرين سنة... وان ذلك كان الحامل على نقل من نقله إلى مراكش خوفا أن يثور أحد هنالك أيضا فيخرجه من قبره ويقاتلهم به فدفنوه عندهم ليأمنوا ما يتخوفون من ذلك[295].

ويرجع تخوف الأشراف من الزوايا إلى دعم هذه الأخيرة اللامشروط لحركتهم. وبفضل هذا الدعم استطاع السعديون الوصول إلى الحكم.

انطلقت حركة الأشراف من الجنوب وكانت منطقة سوس وأقصى جنوب المغرب مهد انطلاق الحركات الصوفية منذ القديم: "والحركة الصوفية رغم رسوخها في أغلب المناطق كانت متغلغلة بالجنوب بصفة خاصة"[296]. ففي الجنوب برزت حركة المرابطين والموحدين، وفي الجنوب استقر الأشراف، فهل لهذا التجذر علاقة بالطرق التجارية الصحراوية؟ أو أن المنطقة شكلت على الدوام الدرع الواقي للمغاربة من الأخطار الأجنبية؟[297]

كانت منطقة سوس صلة وصل أساسية في مبادلات المغرب التجارية مع السودان وازدادت أهميتها مع وصول البرتغاليين إلى سواحل المنطقة؛ وقد عرفت هذه الأقاليم ازدهاراً اقتصادياً مهما بالمقارنة مع باقي أقاليم المغرب بسبب هذه الظروف. وأشار حسن الوزان إلى هذه الوضعية عندما تحدث عن مدينة تيدسي، فقال إنها:

كبيرة تحتوي على أربعة آلاف كانون... وهذه البلاد منتجة خصبة، تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة. وفيها أناس يتجرون مع بلاد

---

(295) محمد المهدي الفاسي، ممتع الأسماع...، مصدر مذكور، ص. 11.

(296) محمد القبلي، "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد 3 ـ 4، سنة 1978، ص. 58.

(297) J. Berque, *l'Intérieur du Maghreb XV-XVII^e siècle*, Paris, Gallimard, 1978, pp. 424 - 425.

السودان. يعيش سكان تيدسي في سلام، وهم مهذبون مستقيمون، لهم نظام جمهوري حيث يحكم البلاد ستة أشخاص يختارون بالقرعة، ويعوضون بآخرين كل ستة أشهر... وفيها عدد كثير من الصناع اليهود كصباغين وحدادين[298] .

فالمنطقة مؤهلة ماديا لتنطلق منها حركة الأشراف. إذ وصلت إلى مستوى اقتصادي متميز حيث أصبحت تنتج مواد فلاحية أساسية للصناعة: النيلة وقصب السكر وفيها رواج تجاري مثير. ومن أجل حماية كل هذا، فإنها كانت في حاجة إلى الأمن والاستقرار بالرجوع إلى ألواح سوس، وهي "قوانين صارمة مؤسسة على العقوبة بالمال في حق كل من صدرت منه مخالفة تمس شرف الغير أو ماله أو بدنه أو تقلق الأمن العام"[299] . وتعتبر هذه الأعراف محاولة لمسايرة خصوصيات المنطقة. ولا ننسى أن زاوية تيدسي كانت المكان الذي بايع فيه شيوخ زوايا سوس ورؤساء المصامدة وعامة السوسيين محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله سنة 916 هـ/ 1510 م[300] ، واختاروه ليقوم بأمرهم الذي صار مهددا بأخطار متنوعة. وكان أعيان سوس قد لجأوا إلى كل من محمد بن مبارك والشيخ بركات بن محمد فعرضوا عليهما الإمارة، لكن الشيخين رفضا، وأشارا على أهل سوس بعرضها على القائم، وامتثلوا لهذا القرار لأنهم كانوا في حاجة إلى سلطة قادرة على إصلاح البلاد بعدما فسدت. وإلى هذا الفساد أشار ابن عسكر في ترجمته للشيخ عبد الله بن عمر المضغري حينما قال عن سوس:

حدثني ولده (يقصد ولد الشيخ) قال: لما أقبل والدي من بلاد السوس إلى سجلماسة سأله بعض أصحابه بأن قال له: كيف تركت بلاد السوس يا سيدي؟ قال: تركت العامة أقبح المساري، والفقهاء يفتون بأضعف الفتاوي، والأمراء يتساقطون في أعظم المهاوي[301].

---

(298) حسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج 1، ص ص. 94 ـ 95. وتكلم في هذا الموضوع نفسه عندما قام ناحية جزولة، ص ص. 114 ـ 115.

(299) محمد حجي، الحركة...، مرجع مذكور، ج 1، ص. 298.

(300) المرجع نفسه، ص ص. 42 ـ 43.

(301) ابن عسكر، دوحة...، مصدر مذكور، ص ص. 87 ـ 88.

وربما كان ذلك بسبب غنى المنطقة واستقلالها عن سلاطين فاس وتزايد الأخطار المسيحية والتطاحنات الداخلية صارت تعيش اضطرابات وانعدام الأمن "حتى أظلم الجو واستحكمت شوكة الروم وبقي المسلمون في أمر مريج لعدم أمير يجتمعون عليه وتجتمع به كلمة الإسلام"[302] . ولهذه الأسباب اجتمع أمر أهل سوس على الانقياد وراء أشراف تاكمادارت. ويبقى السؤال مطروحاً ما الدوافع التي جعلت الزوايا والسوسيين يختارون هؤلاء دون غيرهم؟ وهل المسألة كانت مرتبطة حقا بظروف قوى اجتماعية كانت تريد أن توصل إلى الحكم قوى سياسية منبثقة من البادية لمعاكسة هيمنة الحاضرة؟ لقد تبنى محمد القبلي هذا الطرح، وحاول أن يبرز العوامل العميقة في تشابكاتها الاجتماعية والاقتصادية. وبعدما وضعها في إطارها الإقليمي والمتوسطي وفي سياقها التاريخي، خلص إلى القول بأن الواقع الجديد صار يحتم وجود قوى جديدة غير مورطة سياسياً، ووضع الفرضية التي اعتمدها في شكل تساؤل: "فلماذا لا تحاول هذه البوادي أن تعبئ نفسها لحسابها الخاص بدون إشراف دولة"[303] . والشرط الأساسي أن يبحث عن "أشراف لا ماضي لهم"[303] يحملون إلى الحكم لمواجهة دولة عاجزة لا تستند في مشروعيتها إلا على الأشراف المدجنين وعلى بعض الفقهاء. وأنهى محمد القبلي تحليله في صيغة غير يقينية فقال:"ويبدو أن الصوفية قد اختاروا هذا الاتجاه لإدانة الدولة .. لفائها الأشراف، فأعطوا فرصة استحقاق الحكم عن طريق الجهاد لشرفاء غير الأدارسة"[303]. والمثير في هذا الطرح أنه يصوِّر السعديين وكأنهم أداة تسخرها الزوايا كما تريد، في حين أن حركتهم انطلقت بدورها من زاوية تاكمادازت التي كانت تتميز عن بقية الزوايا بكونها من سلالة الرسول. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن الأشراف السعديين قد فرضوا أنفسهم بحيويتهم العسكرية. وكان للبعد الرمزي دور أساسي في نجاح حركة هؤلاء. ومن هنا نفهم الدعم الذي قدمته الزوايا لهم، لأن التحديات

(302) الإفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، هوداس انجي، 1888، ص ص. 10 - 11.

(303) محمد القبلي، "مساهمة..."، مجلة كلية الآداب بالرباط، مرجع مذكور، ص ص. 58 - 59.

التي كانت تفرض نفسها على المغاربة تقتضي وجود سلطة مركزيــة قويــة. وعلى هذا الأساس بنى الأشراف دولتهم:

التي لم تكن - شأنها شأن دولة العلويين فيما بعد — دولة دينية (وهذا لا يعني أن المجتمع المغربي لم يكن مجتمعا متديناً)، بل كانت هيكلا وجهازا ممركزا لكل السلط، وكان ذلك بمثابة رد فعل ملموس على تحديات الضفة الشمالية للبحر المتوسط[304] .

واستفاد الأشراف في تحقيق أهدافهم مــن استعمالهم للأسلحة النارية التـي تصل إليهم عن طريق تجارة التهريب التـي يمارسها التجار الإنجليز برعاية من دولتهم التي تلجأ إلى كل السبل لكسر شوكة الاحتكار البرتغالي للتجارة مع إفريقيا[305] .

ويتضح من خلال ما سبق أن قيام الدولـة السعدية فرضته ظرفيـة وسياق تاريخي، وحتمته حيوية مجتمع أصبح في حاجة إلى سلطة مركزيــة قـادرة علـى رفـع التحديات. فدعمت حركة الأشراف الزوايا وحاولت هذه الأخيرة أن تستخدمهم لصيانة مصالحها ولمعاكسة المواقف الفكرية المعادية لها.

4 - نكبة الونشريسي والزقاق ودلالاتها

لماذا وقـف محمـد الشيخ موقـف المنتقـم مـن الونشريسـي والزقّـاق وعلي حرزوز؟ تعتبر نكبة هؤلاء العلماء استمرارا لصراع إيديولوجي وطاسي — سـعدي؛ وتميز هذا الصراع بتزكية العلماء لبني وطـاس ومسـاندة الأوليـاء للأشـراف. فـأبو حامد عبد الواحد بن أحمـد بـن يحيـى الونشريسـي نشـأ بتلمسـان وعـرف بمواقفه المستقلة عن السلطة، لأنه كان "قـوالا للحـق"[306] . ورحـل عـن تلمسـان إلى فـاس خوفاً على نفسه من أميرها وانسجم بسهولة في جو فاس العلمي. وشهدت المصادر بمتانة علمه وتكوينه. وكان أعجوبة عصره. تقلد رياسـة الخطـط الثـلاث في فـاس:

---

(304) J. Berque, *Ulémas, op. cit.*, p. 37-38.

(305) Laroui, *Histoire du Maghreb*, p. 231.

(306) أبو العباس بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب...، أخرجه محمد حجي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، ج 1، ص. ب.

القضاء والفتوى والتدريس. وكان من العلماء المجتهدين، وعرف بالرزانة وحسن التدبير. ولقد لعب دورا أساسياً يوم إبرام الصلح بين السعديين والوطاسيين، وهو الذي حرر الصلح وتوفق في ذلك بشهادة الحاضرين: "نسج (الونشريسي) الصلح على منوال عجيب، واخترع لذلك أسلوباً بديعاً"[307] . وكانت مواقفه من الأحداث السياسية واضحة: فهو لا يتردد في انتقاد تصرفات الأمير الوطاسي كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وكان رأيه مسموعاً عند هذا الأخير[308]. وكانت ببيعته لازمة للأشراف إن أرادوا دخول فاس. وقد كاتب محمد الشيخ أهل فاس قائلا: إن دخلت فاس صلحا ملأتها عدلا وإن دخلتها عنوة ملأتها. قتلا وأجابه الونشريسي بأبيات قاسية نعت فيها محمد الشيخ بالكذب:

كذبت ـ وبيت الله ـ لا تحسن العدلا   ولاخصلك المولى بفضل وأولى
وما أنت إلا مسرف ومعاند   تمثل للجهال ما سمة المعلى[309]

وحاول محمد الشيخ استمالة هذا العالم لقضيته، لكنه أبى لأن بيعة الوطاسيين في عنقه ولا يحق له خلعها نظرا لعدم وجود أي مبرر شرعي. وعلى أثر مواقف الونشريسي المعادية للشريف، أمر هذا الأخير باغتياله مثلما فعل في حق أبي محمد بن عبد الوهاب الزقاق الذي اشتهر بالعلم وكان بمثابة خزانة عظيمة. تولى الزقاق خطة القضاء والفتوى بفاس بعد وفاة الونشريسي، وكانت له مواقف معادية للسعديين واتهمه محمد الشيخ بمناصرة الوطاسيين وميله لأبي حسون، ولذلك أمر بقتله. وذكرت المصادر قتله البشع وركزت على رباطة جأشه أمام الموت. وعرف خطيب مكناسة الفقيه أبو الحسن علي حرزوز المكناسي المصير نفسه، لأنه كان يخطب في الناس ويحرضهم على عدم الخضوع للأشراف. ومما كان يقول: "جاءكم من سوس الأقصى البعاد. وإذا تولى، سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ـ والله لا يحب الفساد؛ وإذا قيل له اتق الله، أخذته العزة بالإثم. فحسبه

---

(307) الافراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص. 21.
(308) ابن عسكر، دوحة...، مصدر مذكور، ص. 53.
(309) الافراني، نزهة..، مصدر مذكور، ص. 33.

جهنم ولبئس المهاد"[310] . فمن خلال هذه النماذج العالمة نلاحظ المواقف الصارمة التي اتخذها هؤلاء ضد الأشراف وتحدثوا عن عدم شرعيتهم في الحكم. فلماذا صدرت من هؤلاء العلماء هذه المواقف؟ هل كانوا يعاضدون الوطاسيين أو أنهم كانوا يناهضون تنمر الأولياء وأصحاب الكرامات وفاقدي العلم؟

وعلى عكس هؤلاء العلماء كانت مواقف الأولياء: معادية للوطاسيين مدعمة للسعديين. والأمثلة كثيرة: فمواقف الشيخ الغزواني واضحة سواء أثناء وجوده في فاس أو في مراكش بعد استقراره فيها. وقد صرح هذا الولي وهو فوق قنطرة الصباغين قائلا للوطاسيين: "اخرجوا يا بني مرين! والله ما نترككم بلدنا"[311] . وقصة أبي الروابن في هذا الموضوع مشهورة: إذ لَمَّا حاصر محمد الشيخ فاس، صاح فيه هذا الولي "اشتر مني فاس!" ولم يهتم محمد الشيخ بالموضوع. لكن لما طال الحصار، نصحه ابنه الأمير عبد القادر بأن يشتري المدينة من الولي الصالح المعروف بكراماته. ولما أعطى محمد الشيخ أبا الروابن خمسمائة دينار، قال له: "بعد تمام السنة"[312] . ونلاحظ أن الغلبة قد عادت لهذا الولي في حديثه مع الزقاق. ولعل القصة التي أوردها ابن عسكر تدخل ضمن الدلالات الرمزية التي تخفي الصراع الفكري والمنطلقات الإيديولوجية لكل من الوطاسيين ومن ورائهم القواعد المكونة للحواضر كفاس ومكناس، والسعديين ودعاماتهم البدوية التي كانت تتجسد في الزوايا. ألا نجد في هذا التعارض شرخاً عميقاً في المجتمع المغربي برمته، هذا الشرخ الذي كان سبباً في التفاوت الحاصل بين العالم والعامي، والحاضرة والبادية ؟ ألم تكن الزوايا عنصراً من عناصر تعميق هذا التفاوت وعرقلة من العراقل التي حالت دون مسايرة المغرب للتحولات التي كانت تعرفها الضفة الشمالية للبحر المتوسط ؟

---

(310) المصدر نفسه، ص. 32.

(311) ابن عسكر، دوحة...، مصدر مذكور، ص ص. 96 - 98.

(312) المصدر نفسه، ص ص. 79 - 80.

5 - الزوايا ومسألة التجاوز

لقد أدّت الزوايا أدواراً اجتماعية واقتصادية وسياسية في مغرب القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (16 ـ 17 م). فكيف يمكن اعتبارها عنصراً من عناصر الفتور والانحطاط الذي أصاب مغرب العصر الحديث ومنعه من مسايرة أوربا وملاحقتها؟ سننطلق في تحليلنا للموضوع من فرضية مفادها أن الزوايا شكلت في المغرب قوة حيوية أطرت المغاربة وملأت الفراغ السياسي، فتحملت الصعاب وقادت الجهاد ودعمت وصول الأشراف إلى الحكم. وبفضل هذه المعطيات حاولت فرض وصايتها على السلاطين، وكان هؤلاء يدينون لها بالاعتراف. ويزداد إلحاح الزوايا وتدخلها عندما تكون السلطنة في موقف ضعف، كما يتضح ذلك من خلال النقاش الذي دار بين زيدان بن أحمد المنصور الذهبي ويحيى الحاحي شيخ زاوية زداغة بجبل درن شمال تارودانت. وعرف أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي بالعلم والصلاح؛ وقد درس بفاس. ولما عاد إلى الجبل، تولى أمر الزاوية في مطلع القرن السابع عشر (1603 - 1604). وكان اهتمامه في البداية منصبّاً على الأمور الدينية، لكن احتداد أزمة مطلع القرن جعلته يتعلق بالرياسة ويهتم بها، ولا سيما بعد مساعدته للأمير زيدان وقضائه على طموحات ابن أبي محلي[313] . لكن دعم الحاحي لزيدان تحول إلى تطاول بعدما كان مماطلاً، لأن الحاحي كان قد تباطأ في الخروج من مراكش بعدما قضى على ابن أبي محلي؛ مما جعل زيدان يراسله في الموضوع قائلا له: "أما بعد؛ فإن كنت إنما جئت لنصرتي وكف يد ذلك الثائر عني، فقد أبلغت المراد، وشفيت الفؤاد؛ وإن كنت إنما رمت أن تجر النار لقرصك، وتجعل الملك من قنصك، فأقر الله عينك به"[314].

وكان الحاحي يبالغ في الضغط على الأمير زيدان. وقد انتبه الناصري إلى

---

(313) ولربما كانت ثورة ابن أبي محلي هي التي جعلت الحاحي يهتم بالسلطة. فهما يتعارفان وقد درسا في فاس على الشيوخ أنفسهم، وسكنا بيتا واحدا وكانت بينهما مراسلات. (انظر عبد المجيد القدوري، **ابن أبي محلي ورحلته...**، مرجع مذكور، ص. 65).

(314) محمد حجي، **الزاوية الدلائية...**، مرجع مذكور، ص. 137.

ذلك واستعمل كلمات معبرة: "وكان يراسل السلطان زيدان، ويكثر عليه ويجبر عليه من استحار به ويروم إلى مناصحته... وكان زيدان يتحمل منه أمراً عظيماً"[315] . وكان الحاحي يعلم ذلك بسبب الدعم الذي قدمه لهذا الأمير، وانطلاقا من مبدإ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتماداً على معاهدة أبرمها مع السلطان.

وقد تضايق السلاطين الأشراف من مراقبة شيوخ الزوايا ومزاحمتهم لهم في تسيير أمور المغرب. ويظهر أن تدخلهم هذا كان في تزايد من جيل لآخر. وكان نفوذ الزوايا يختلف باختلاف قوة السلاطين ومكانتهم وشخصيتهم، لكن الجيل الأول كان ـ على العموم ـ مدعماً ومسانداً لحركة السعديين سواء في أقا أو في تيدسي أو في المناطق الأخرى. وكان الأشراف يظهرون للزوايا الاعتراف والامتنان. ومع الجيل الثاني بدأت مؤشرات التوتر تلوح بين الطرفين وبدأت ملامح الغلبة تميل لصالح السلاطين، ولكن الأزمة التي تلت وفاة أحمد المنصور أعطت الفرصة للجيل الثالث، فأصبح يتدخل من جديد صراحة في أمور الدولة المنهارة على غرار ما رأيناه مع زيدان.

فمن مرحلة التعاضد بين شيوخ الزوايا والأمراء السعديين الأوائل انتُقِلَ إلى مرحلة الاصطدام. فالشيخ الغزواني يقول: "أيا يا سلطنة إلى مراكش"[316] . وهذا السملالي يستقبل الغالب ويصيح في الناس ويطالبهم بالانقياد: "يا عرب، يا بربر، يا سهل، يا جبل! أطيعوا السلطان مولاي عبد الله ولا تختلفوا عليه!"[317] . وفي المقابل، كانت أوامر السلاطين تحمي مصالح الزوايا وتضمنها كما يتبين ذلك من ظهير صدر عن عبد الله لصالح زاوية الشيخ عبد الله بن حسين

---

(315) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 6، ص. 37.

(316) أبو المحاسن الفاسي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، فاس، 1906، ص ص. 212 ـ 213.

(317) الناصري الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 5، ص. 47

بتامصلوحت[318] . غير أن مرحلة التعاضد ستفتح المجال لمرحلة الفتور ثم المواجهة بين الطرفين. فما الأسباب الكامنة وراء هذا الاصطدام الذي لن ينتهي إلاّ بنهاية السعديين وانفراد أولاد المولى علي الشريف بالسلطة؟

لقد احتد الصراع لما أرادت الدولة الشريفة مس مصالح الزوايا. وقد عرف محمد الشيخ بصرامته في التسيير، وأراد أن يبني دولة ذات هيبة ومؤسسات متينة لمواجهة الأخطار الخارجية: "لما تغلب (محمد الشيخ) على بلاد المغرب ودانت له حواضره وبواديه، تاقت همته العالية إلى بلاد المشرق"[319] . وكان هذا السلطان يرى في الزوايا العنصر المعرقل لتطبيق سياسته بسبب المواقف المؤيدة التي اتخذتها من الأشراف زمن وصولهم إلى السلطة. ولأجل هذه المساندة، كان الأمراء يخافون على ملكهم من الشيوخ: "وفي سنة ثمان وخمسين، أمر (محمد الشيخ) بامتحان أرباب الزوايا المتصدرين للمشيخة خوفاً على الملك؛ لأنه دخله من بابهم. فامتحن جماعة سيدي عبد الله الكوش، فأخلى زاويته بمراكش وأمر برحيله لفاس"[320] . ولجأ عبد الله الغالب إلى قتل أبي عبد الله الأندلسي لطعنه في أئمة المذاهب والتفت من حوله العامة واشتعلت الفتنة: "وقعت فتنة عظيمة بمراكش بسببه إلى أن قتل وصلب على باب داره... سنة ثمانين وتسعمائة"[321] . وانعكست هذه الأوضاع المتوترة على علاقات السلطتين السياسية والدينية، وتضايق الأشراف من مضايقات الزوايا.

ولعل أهم عامل في اصطدام الزوايا بالجهاز السعدي هو لجوء هؤلاء -زمن محمد الشيخ- إلى إحداث ضريبة النائبة ومحاولته فرضها على جميع المغاربة بمن فيهم شيوخ الزوايا الذين رفضوها، فعملوا كل ما في وسعهم لمناهضتها.

---

(318) انظر مجموعة ظهائر لهذه الزاوية في:

Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, Rabat, 1977, Tome 2, p. 6.

(319) الإفراني، نزهة الحادي...، مصدر مذكور، ص. 42.

(320) المصدر نفسه، ص. 41.

(321) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 5، ص. 55.

ومعارضة العلماء للضرائب الجديدة أمر قديم. فقد انتقد حسن الوزان بدوره الملوك الوطاسيين الذين فرضوا ضرائب غير شرعية وكانوا ينهبون المسلمين ويفقرونهم على حد قوله:

واعلم أنه يحرم في الشريعة على الأمراء أن يجبوا ضريبة غير الزكاة المفروضة... ولكن منذ اختفاء شيوخ الإسلام، اتخذ الملوك ـ كما قلنا ـ تدابير جبرية... أضافوا ضرائب جديدة... ونتج عن هذا الحال أنه لم يعد هناك رجل عالم شريف يقبل أن يقيم علاقة عائلية مع الملوك المزمنين أو يأكل معهم على نفس المائدة... وتعتبر أموال أولئك الحكام أحقر مما لو كانت مسروقة[322].

وقد فرض محمد الشيخ النائبة على الجميع "ولم ينزه عنها شريفا مشروفاً حتى أرباب الزوايا المنتسبين"[323]. والكل يعلم أن ممتلكات الزوايا ومصالحها كانت كبيرة، وأنها كانت تستفيد دون مقابل من أتعاب الخدام والأتباع ومن كافة المجاورين وكان السلاطين يصدرون أوامرهم لحماية هذه الأملاك بظهائر وتوقيرات:

عن أمر عبد الله المجاهد... الشريف الحسني... تصرف على المرابط أبي عثمان سعيد بن أحمد بن عبد الله بن حسين جميع العين... صرف إنعام وإكرام وإقطاع تمليك على توالي الليالي والأيام ومرور الشهور والأعوام على أن يحييها ويعمر أرضها المعروفة رغبة منا في إحياء البلاد ومنفعة العباد... استعدادا ليوم الميعاد[324].

وكان الملوك يلتزمون بالظهائر التي تصدر عن أسلافهم.

وحاول محمد الشيخ أن يضمن للزوايا التي ظلت ملتزمة بعدم التدخل في أمور الدولة كل الامتيازات، كما يظهر ذلك من ظهير صادر عن هذا السلطان يعظم فيه الشيخ سعيد بن أحمد الدلائي:

عن أمر... محمد الشيخ... أنا جددنا... ونلتزم تبجيله وإيثاره... سيدي سعيد بن أحمد الدلائي... تجديداً تامّاً له خاصاً ولإخوانه عامّاً على ما بأيديهم من ظهائر

---

(322) الحسن الوزان، وصف إفريقيا...، مصدر مذكور، ج 1، ص. 223.

(323) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 5، ص ص. 30 - 31.

(324) Paul Pascon, *le Haouz de Marrakech*, Tome 2, p. 6 et 71.

أسلافنا الكرام... المتضمنة لشرفهم وتوقيرهم واحترامهم ومحاشاتهم من سائر كلائفنا ووظائفنا المعهودة لغيرهم[325].

وطالبهم محمد الشيخ في مقابل هذه الامتيازات قائلا: "فعليكم المسكنة والوقوف على ما تعود منفعته ومصلحته لدارنا العلية بالله"[325]. فبعدما تعودت الزوايا الامتيازات، صار من الصعب عليها قبول التخلي عنها. ومن أجل هذا ظهر التوتر بين الزوايا والأشراف على عهد محمد الشيخ وعبد الله الغالب. لكن لجوء محمد المتوكل إلى الأجنبي وعودة الأخطار البرتغالية، أعادت الالتحام من جديد بين القوتين. وكانت ملحمة وادي المخازن الحدث الذي أبعد شبح الاصطدام، لأن الزوايا استرجعت مكانتها وامتيازاتها. وصارت الدولة، زمن أحمد المنصور، تتوفر على إمكانات وتطمح إلى أن تؤدي أدواراً سياسية ذات أبعاد عالمية. ولأجل هذا، فتر التوتر، ولا سيما أن الدولة استطاعت أن تبني الهيبة، فلم تجرؤ الزوايا على معاكسة سياسة أحمد المنصور الذهبي؛ غير أن حكم هذا الأخير كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة: فما أن مات هذا السلطان حتى عمت الفتنة، وساد التمزق، واستعادت الزوايا مكانتها، وصارت تشارك في هذا التمزق، وتعمل على نخر كيان الجسم المغربي، شأنها شأن القوى الأخرى. ويمكن القول إن تجارب الزوايا السياسية قد مرت منذ مطلع القرن السابع عشر حتى انهيار الدولة السعدية من مرحلتين:

1) صادفت المرحلة الأولى السنوات التي تلت وفاة أحمد المنصور، فبرزت خلال هذه الفترة حركات سريعة وكانت نتائجها محدودة. ويمكن الوقوف عند تجربة ابن أبي محلي الذي استغل حدث تسليم المامون العرائش لإسبانيا ليعلن ثورته. وكانت تجربته محدودة زمنيًا. وقد انتهت بتدخل أبي زكريا يحيى الحاحي ضده بطلب من الأمير زيدان. ولم يكن الحاحي مهتما في البداية بالسلطنة، لكن دخوله لمراكش جعله يفكر جدّياً في الأمر ولم يعلن عنه في العاصمة نظراً لضغط أتباعه، لكن بعدما

(325) محمد حجي، الزاوية الدلائية...، مرجع مذكور، ص. 269.

عاد إلى زاويته أعلن ثورته على زيدان واحتل تارودانت[326].

2) وعلى عكس هذه المرحلة، ستطول المرحلة الثانية ولن تنتهي إلا بنهاية السعديين وبانفراد الأشراف العلويين بالسلطنة، وذلك بعدما قضوا على كل منافسيهم. لقد عرف المغرب خلال النصف الأول من القرن السابع عشر أحداثاً كثيفة وعاش تجارب سياسية متعددة. وهكذا ظهرت حركات سياسية اعتمدت مبدأ المشروعية عن طريق اتخاذ أسلوب البيعة وبرزت حركات اعتمدت الزاوية منطلقاً كحركة الدلائيين والسملاليين. كما ظهرت حركة اعتمدت القبيلة من أجل الوصول إلى الحكم كقبيلة الشبانات، واستقلت مدن وأعلنت سلا عن نظامها الجمهوري الموريسكي. وباسم الجهاد، انطلقت حركة ابن أبي محلي، والعياشي بعده. وكانت حركة غيلان تجربة عسكرية. وبالرغم من ذلك، استطاع العلويون التغلب على منافسيهم لينفردوا بالحكم.

فمن خلال ما سبق، يبدو واضحا أن الزوايا التي أوصلت السعديين إلى الحكم هي التي كانت وراء انهيار حركتهم. وبالرغم من محاولات الأشراف السعديين التخلص من وصاية الشيوخ، فإنهم لم يستطيعوا ذلك، نظرا لتجذر نفوذ هؤلاء ليس في البلاد كلها فقط، بل لأنهم كانوا يتحكمون في ذهنية العامة ويوجهونهم كما شاءوا. وبفضل هذا، كانت الزوايا تعوق كل محاولات التغيير التي تتعارض مع مصالحها.

لقد انتشرت الزوايا في جميع أنحاء المغرب خلال القرن العاشر الهجري (16م)، وصارت العامة تعتقد اعتقاداً مطلقاً في كرامات الأولياء. فما المدلول الذي تتضمنه الكرامة؟ وما العوامل التي جعلت العامة تنساق وراء هذه الطوائف؟ وما المؤشرات التي تجعل من انتشار ظاهرة الأولياء عنصراً من عناصر الانحطاط في المغرب؟

فالكرامة لفظا هي التكريم والإكرام:

---

(326) المرجع نفسه، ص ص. 131 - 150؛ عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي...، مرجع مذكور، ص ص. 21 - 67.

وأما حقيقتها، فهي كل فعل خارق للعادة ظهر على يدي عبد ظاهر الصلاح في دينه، متمسك بطاعة الله في أحواله، مستقيم الطريقة في تصرفاته، إذ قد حصل الإجماع على أن الكرامة لا تحصل إلا على يد متمسك بطاعة الله تخصيصاً له وتفضيلاً. كما أجمعوا أنها لا تظهر على يدي فاسق[327] .

فالكرامة طاقة وقوة ربانية قال العلماء بوجودها على أساس صلاح صفي صادق. ورأى الباحثون المعاصرون في الكرامة دلالة ورمزاً لإعادة توازن بيئي أو اجتماعي يكون منكسراً. وكتب محمد مفتاح يقول في هذا الصدد: " ترمز (الكرامة) إلى كل وضع يختل فيه توازن القوى ويحتاج إلى توازن لئلاّ تختل نواميس الكون والمجتمع"[328] . ويشبه الولي الصادق في المنظور الإسلامي بالنبي مع وجود اختلاف بيِّن، لأن "من شرط الولي أن يكون محفوظاً كما من شرط النبي أن يكون معصوماً. فكل من كان للشرع عليه اعتراض منه، فليس بولي؛ بل هو مغرور مخادع"[329] . ومن هذا المنظور يكون الولي مندمجاً في الشرع لا مخالفاً له. هكذا تحدث العلماء وحددوا نظريّاً الولاية والكرامة؛ لكن واقع الأولياء يختلف في الممارسات الاجتماعية: فقد حاد هؤلاء عن الحدود الشرعية حرياً وراء المصالح الدنيوية. ورأى الفقهاء في أعمالهم بدعاً قبيحة:

قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها منذ أعصار متطاولة ــ لا سيما في المائة العاشرة وما بعدها ـ بدعة قبيحة، وهي اجتماع طائفة من العامة على شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم ممن يشار إليه بالولاية والخصوصية... بحيث يرتسم في خيال حلهم أن كل المشايخ أو جلهم دونه من المنزلة عند الله تعالى ويقولون نحن أتباع سيدي فلان وخدام الدار الفلانية، لا يحولون عن ذلك خلفاً عن سلف... وإذا ذكر لهم شيخ آخر أو دعوا إليه، حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر... فصار الأمر

---

(327) أبو العباس العزفي، دعامة اليقين في زعامة المتقين، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، مكتبة خدمة الكتاب، 1995، ص. 23.

(328) محمد مفتاح، "السياسة الحيوانية: قراءة في كرامات أبي يعزى"، في التاريخ واللسانيات: النص ومستويات التأويل، الرباط، منشورات كلية الآداب، 1992، ص. 74.

(329) الولالي، مباحث الأنوار في أخبار الأخيار، مخطوط، خ. ع.، 2305 ك، ص. 17 و 19.

عصبيا وصارت الأمة بذلك طوائف قدداً. ففي كل بلد أو قرية عدة طوائف...[330]

ويتضح من خلال قولة الناصري استعداد العامة الذهني لقبول كل شـيء، ولو كان ذلك يخالف الشريعة والعقل. فإذا اعتقدت العامة في ولي، فإنها تتشبث به ولا تحيد عن تعاليمه. وقد استعمل الناصري عبـارة " بحيـث يرتبسـم خيـال جلهـم" وكأنه يريد أن يلح على الأدوار التي يؤديها الأولياء في نحت مخيلة العامة. فإذا وقع ذلك، فإن الأمر يكون وبالاً على المجتمع لعدم قـدرة العامـة علـى التبصـر والتعقـل. وبسبب الأولياء تجذر التعصب، وكان ذلك مـن أسـباب انحـدار الأمـة وتمزقهـا إلى طوائـف، مـع العلـم أن الإسـلام قـد جـاء ليوحـد. وسـبق للـوزان أن انتقـد هـــذه الممارسات بشدة سواء في المغرب أو خارجه، ورأى فيها عوامل كانت تعمق فتـور العالم الإسلامي: "فمن الناس من يعتقـدون اعتقـاداً جازمـاً أن بإمكـان الإنسـان أن يكتسب طبيعة الملائكة بالأعمال الصالحة والورع ويزعمون أنهـم يطهـرون الـروح والقلب لدرجة تمنعهم من اقتراف الذنوب"[331] . لقد استعمل الوزان في حق العامـة الاعتقاد الجـازم، وهـو اعتقـاد مطلـق لا يـترك المجـال للعقـل والتّبصّـر؛ وباستطاعة الأوليـاء أن يسـتغلوا سـذاجة العامـة ليتصرفـوا في الأمـاكن العامـة كمـا تتصـرف الحيوانات والناس تفرح وتعمل على اكتساب بركة الولي الصالح. وقد أورد الـوزان مثالاً أوضح من خلاله الفواحش التـي كانت ترتكب باسم الولاية، وروى الحـدث الذي شاهده فقال:

"ولقد شـاهدت بعينـي رأسي في سـاحة... أحد هؤلاء الأشخاص يستحوذ على امرأة شابة في غاية الجمال كانت قد خرجـت مـن الحمـام، فأضجعهـا في وسـط السـاحة وواقعها. و لم يكد يقوم عنها حتى أسرع الناس إليها يتمسحون بثيابهـا وكأنهـا أداة نسك وعبادة لما لمسها رجل صالح... ولما بلغ الخبر إلى الزوج، اعتبره نعمـة عظيمـة، وحمد الله على ذلك وأقام وليمة وأفراحاً كثيرة على ما أصابه مـن خـير. ولقـد هـم القضاة والفقهاء بمعاقبة هذا الدنيء بكل وسائل، لكن العامة كادت أن تفتـك بهـم، لأنه... يتمتع كل واحد من هؤلاء القوم بإجلال كبير عند الجمهور[332] .

---

(330) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 1، ص ص. 142 ـ 143.

(331) الوزان، وصف إفريقيا...، مصدر مذكور ج 1، ص. 210.

(332) المصدر نفسه، ج 1، ص. 211.

وكان سبب هذا الاعتقاد الأعمى في كرامات الأولياء ناتجاً عن الجهل والخوف. وأشار الناصري إلى ذلك قائلا: "ولا تجد في هذه المجامع الشيطانية غالباً إلا من بلغ الغاية في الجفاء والجهل"[333].

والملاحظ أن الأمية متفشية والثقافة محصورة في قلة قليلة. وكان الناس على اتصال مباشر بالطبيعة، مع العلم بأن أسراراً كثيرة تغيب عنهم. وكانت الظروف التي يعيشها المغاربة صعبة من جراء الأوبئة والجفاف والمجاعاتوالهجمات الأجنبية. ورأى الناس في هذه المحن عقابا من الله وتشبثوا بالزوايا وآمنوا بكرامات الأولياء ورأوا فيها بصيص أمل. وجاءت كرامات الأولياء معبرة عن مشاغل العصر: فهذا الشيخ عبد الله بن حسين يشفي المرأة العاقر التي تأكل من طعام مسته يد هذا الولي. ولهذه الكرامة، على ما يظهر، ارتباط بالدمار الديمغرافي الذي كان يعاني منه المغرب وقتها. فلا عجب أن تظهر كرامات ذات صلة بالعقر عند أولياء كثيرين. وكان هذا الولي يبعد الطيور المؤذية للزرع، وما زالت هذه العادة منتشرة إلى اليوم. ومن الأمور التي كانت تشغل المغاربة وتحول دون ازدهار التجارة والأسفار كثرة قطاع الطرق وهجومات الأعراب. ولأجل هذه الوضعية برز أولياء كانوا بمثابة حماة الطرق: فالوليّ محمد الزيتوني كان من هؤلاء؛ وبمجرد ما كان يرمي التراب بيديه في السماء، فإنه يتحول إلى نحل يهاجم الأعراب ويلسعهم. واتهم رجل مجهول بالتجسس للبرتغال، لكن الأمر سرعانَ ما انكشف وتبين أن الرجل كان ولياً تجسدت كرامته في خروجه ليلاً؛ وعندما يكون الكل نائماً، يرتدي ملابسه الحربية ويتوجه إلى السواحل ولا يعود إلا في الصباح[334]. ويتبين أن الكرامات كانت تتدخل عندما يظهر عجز الإنسان المغربي ومؤسسات البلاد عن حل مشاكل مستعصية. ووجدت العامة في الكرامات طريقة لتجاوز الأمور المستعصية واستغل الأولياء الفرصة وقوّوا مكانتهم وسخروا العامة لحماية مصالحهم ومواجهة خصومهم، وحاولوا تغيير التعاليم الإسلامية كاختلاقهم لمفهوم حج المسكين:

(333) الناصري، الاستقصا، مصدر مذكور، ج 1، ص. 145.

(334) ابن عسكر، دوحة الناشر...، مصدر مذكور، ص. 42 - 43، 71.

"ومن بدعهم الشنيعة محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة... ومن مناكرهم الجديرة بالتغيير اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش، ويسمونه حج المسكين"(335).

واستمرت هذه الممارسات وانتشرت بالرغم من معارضة الفقهاء لها. وكان الولي المخادع يتظاهر بالورع والزهد ويبين كرهه للدنيا وللملك، لكنه سرعان ما يغير موقفه:

وها هنا مكيدة أيضاً، وهي أن الفقير المتزهد قد يبغض الملوك وأبناء الدنيا ويمقتهم... توهما أنه أبغضهم لله... وهو كذاب، وإنما أبغضهم لاقتناصهم الدنيا عنه واختصاصهم بها دونه... ودليل ذلك منه أنه متى أكرمه الواحد منهم وأعطاه الدنيا، أحبه وأثنى عليه(336).

وكان الأولياء وأتباعهم يتسترون وراء العادات ليستنزفوا الناس قهراً، "وصورة ذلك أنكم إذا نهضتم إلى الزيارة تتقدمون إلى كل من ينتسب نسبتكم، فتقولون له أعطنا حقك عن الزيارة، وتلقون عليه باب داره ليخرج أو تطرقونه في حانوته، وربما رأى منكم شدة، فاستسلف ما يعطيكم"(337).

من خلال ما سبق، نلاحظ كيف تغيرت الولاية مفهوماً وممارسةً: فمن الولي الصالح التقي النقي المتفاني في عبادة الله استعداداً ليوم الميعاد، إلى الولي الذي أنتجته الأحداث التاريخية. لقد برز هذا الأخير لا كما سعت الكتابة الفقهية إلى تقديمه نظرياً، بل برز إنساناً تاريخيّاً. وبعبارة أخرى، حاولنا أن نقدم هذا الولي كما كان حقيقة وكما أرادته العامة لا كما عرّف به العلماء؛ فجاء انعكاساً لواقع المغرب المتأزم. ذاع صيت الأولياء بسبب تغلغل الزوايا في جل أنحاء المغرب، واستطاعت هذه الأخيرة أن تحقق ذلك لأنها عرفت كيف تندمج وتتكيف مع أوضاع المناطق التي نبتت فيها ومع معطيات هذه المناطق؛ وتقوّت، لأنها كانت

(335) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 1، ص. 145.

(336) أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، رسائل أبي علي الحسن اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، البيضاء، دار الثقافة، 1981، ج 2، ص. 357.

(337) المصدر نفسه، ج 2، ص ص. 389 - 390.

قريبة من مشاكل الناس ومتاعبهم ومسايرةً لذهنيتهم. وحلت محل المخزن وسيطرت على العامة وسخرتها، فوظفتها لخدمة مصالحها ومحاربة أعدائها. لقد شكلت الزوايا خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين قوة سياسية استطاعت أن تعارض المحاولات السياسية التي كانت تهدف إلى خلق شروط جديدة لتشييد مغرب قادر على رفع تحديات العصر الحديث.

كان المغرب يعيش تحت تأثير شعوذة الأولياء في وقت كانت فيه أوربا تعيش قفزة نوعية وتعمل على خلق إنسان النهضة المتكامل القادر على مواجهة كل التحديات. ونلمس ذلك من خلال ما كتبه بيكو في كتابه "**خطبة في كرامة الإنسان**":

إيه يا آدم! نحن لم نعطك مقراً ثابتاً أو صورة ثابتة لهيئتك، وما أعطيناك هبة خاصة بك وحدك، وما فعلنا ذلك إلا لنجعلك تختار لنفسك ما شئت من مقر وهيئة وهبات... ولذا فإنك أنت الذي تحدد طبيعة ذاتك بواسطة تلك الإرادة الحرة التي أسلمناك إليها. ولقد وضعتك في وسط العالم لكي تتمكن من أن تشرف على جميع ما فيه بأفضل شكل مناسب لك[338].

لقد أصبح إنسان النهضة حراً طليقاً بفضل التربية الجديدة، وحاول رحالات النهضة النيرين محاربة الخرافات والطقوس التي تكبل طاقات الإنسان الجديد. لقد طالب المفكر رابلي (Rabelais) الناس بالهروب من مدعي الإيمان المخادعين من "أولئك... الماكرين والقديسين المزورين الوقوري الهيئة، مدعي الإيمان الإخوان الخشنين الرهبان الذين يلبسون النعال، ومن كان في شاكلتهم من الناس الذين يتنكرون كلابسي التقاليع ليخدعوا العالم... اهرب من هؤلاء الرجال... إنك إن فعلت، فستجد نفسك أفضل حالاً"[339]. ففي هذا الوقت الذي كانت فيه أوربا تتحرك وتتجدد وتناقش أسباب ارتفاع الأسعار في السوق وتطالب باعتماد التجربة من أجل السيطرة على الطبيعة، كان المغاربة يعتمدون كرامات

(338) جون هرمان، **تكوين العقل...**، مرجع مذكور، ج 1، ص. 212.

(339) **المرجع نفسه**، ج 1، ص. 217.

الأولياء من أجل فك مشاكل كانت تعترضهم. وكانت الزوايا تكرس تلك الاعتقادات وترسخها في ذهنية العامة. وانساقت هذه الأخيرة وتشبثت بالغيبيات، محاولة الهروب من مواجهة تحديات العصر. وهكذا ساهمت الزوايا في إبعاد المغرب عن مسايرة أوربا وبقيت هذه الأخيرة وحدها تتخذ المبادرة وتفرض نظرتها وتصورها للعالم لتبني مصالحها على حساب الآخرين. وتمّ لها ذلك، بالرغم من محاولات التحديث الخجولة التي حاول أن يقوم بها بعض سلاطين المغرب. فمن هم هؤلاء السلاطين الذين قاموا بتلك المبادرة؟ وبماذا تميزت تجاربهم؟ وعلى أي أساس قامت؟ وما كان مآلها؟

القسم الثاني

التحديث كممارسة سلطانية

نماذج وآفاق

الفصل الأول

التحديث بين الفقيه والسياسي

1 - ملاحظات عامة

لا تنشأ فكرة التقدم بالصدفة، بل تكون متجذرة في المحيط المادي الذي يكون مسؤولاً عن ترجمتها إلى واقع. من هنا تطرح علاقة الفكر بالواقع المادي. فكيف ترجمت المجتمعات أفكارها إلى الملموس؟ كيف تعاملت النخبة العالمة مع واقعها المتغير؟ فالتقدم هو الوعي والقدرة على تحقيق الفكرة وترجمتها إلى التطبيق. وقد دار نقاش كبير حول هذه النقطة من أجل الوصول إلى التمييز بين مفهومي الاختراع (l'invention) والتجديد (l'innovation). فالابتكار حدث علمي مهم قد يساعد على اكتشاف مبدإ جديد يضاف ويغني الحقل المعرفي الموجود؛ إلا أنه لا يسعى إلى تحقيق مكاسب اقتصادية. وعلى العكس من ذلك، يكتسي التجديد طابع الاستعمال وتكون له وظيفة تطبيقية. ويعتمد التجديد على التراكمات المعرفية السابقة. وقد أشار صاحب "تاريخ التقنيات" إلى الظاهرة عندما قال:

> يكون التجديد كامل الاستقلالية عن الاختراع. ويعود ذلك الاستقلال إلى الظروف وللملابسات التي تم فيها كل من الاختراع والتجديد. ففي الغالب لا يتحققان على يد الأفراد أنفسهم ولا تحركهما الأهداف نفسها ولا يرتبطان بالعوامل الاجتماعية والعقلية نفسها. فإذا كان الابتكار لا يهتم بالضرورة بالبعد المادي، فإن التجديد كثيراً ما يكون على العكس من ذلك شديد الاهتمام والتعلق بالبحث عن المنفعة[1].

(1) B. Gille, *Histoire des techniques, op. cit.*, pp. 1033 - 1034.

ويستطيع المفكر، على عكس الإنسان العادي، أن ينتبه ويفطن إلى الإنجازات وإلى النمو الاقتصادي الذي يحققه المجتمع الذي يعيش فيه.

لقد عاشت أوربا فكرة النمو والتقدم واستوعب علماؤها بالتدريج مغزى التحولات التي صاحبت التجديد والابتكار عبر العصور التاريخية[2]، وإن كان بعضهم لم يتردد في معارضة التقدم والتغيير؛ لأنهم ظلوا متشبثين بالموروث، وإن كانوا يسبحون ضد التيارات المبدعة والمجددة. واستطاعت أوربا أن تتجاوز غيرها، لأنها ربطت الفكر بالتطبيق وتبنت العلم العملي. وتحقق لها ذلك "عندما وجد الإنسان الأوربي - على حدّ قول ب. جيل - الانسجام الضروري داخل عالم الأخلاق، واستطاع بالجهد والكدّ أن يخضع الطبيعة. فتجاوز بفضل ذلك المقولات القديمة التي كانت تربط سعادة الكون بالعناية الربانية وتسلح بإرادة السيطرة على العالم المادي من أجل توجيهه وفق منفعته ومصالحه[3].

وترتبط عملية التجديد بتقدم العلم الهادف إلى تلبية مطالب رجال الصناعة والملاحة والحرب، لأن النشاط العلمي يساعد على النمو المادي كما أن الاحتياج والضرورة يدعمان الحركة العلمية: "ساهمت حركة النهضة في خلق قفزة كيفية في أوربا التي استطاعت أن تغزو المجال وأن تغامر في أعالي البحار. وتسببت هذه المعطيات في تفجير الذهنيات وكانت الأساس الذي انطلق منه انشغال مهندسي أوربا وتقنييها ومن ورائهم عدة سلط أخرى"[4]. وشاركت في هذه "الثورة الثقافية" كل القوى الحية والنيرة. وأدى تظافر الجهود إلى بلورة مشروع تكامل بالتدريج وفق ظروف متميزة كانت بمثابة منعطفات في سيرورة أوربا (عصر النهضة - عصر الأنوار). ففي هذا المناخ الاجتماعي والاقتصادي، عرفت الطبقة البورجوازية كيف تسخر الطاقات الجديدة لضرب العراقيل المحافظة والمعارضة لمشروعها. وكانت توجه الأمراء وتستخدمهم لتحقيق مصالحها المادية والفكرية

---

(2) *Ibid.*, pp. 1241 à 1249.

(3) B. Gille, *Histoire des techniques, op. cit.*, pp. 334 -335.

(4) *Ibid.*, p. 652.

وتقويتها. وتحقق لها ذلك، لأنها قدمت مشروعها وغاياتها وكأنها غايات يهدف إليها الجميع.

فإذا كانت أوربا قد انطلقت، فلأنها عرفت كيف تستعمل الفكر وتسخره لتحقيق مكتسباتها المادية. فما الحالة التي كان عليها المغرب خلال العصر الحديث؟ وما الأبعاد الفكرية التي تبناها بعض سلاطين المغرب الذين حاولوا تحديث المغرب؟ وما المواقف التي تبناها العلماء من هذه المحاولات الرسمية في التحديث؟ وبعبارة أخرى ما علاقة السياسي بالفكري في المغرب؟ ما المواقف التي اتخذها العلماء الذين كانوا يعملون خارج الجهاز المخزني من محاولات أحمد المنصور أو من محاولات محمد بن عبد الله؟ وهل كانت مواقفهم تتشابه مع تلك التي تبناها العلماء الذين كانوا داخل النسق المخزني؟ وهل باستطاعة هؤلاء العلماء أن يستوعبوا ويهضموا أدوات تجديد وتحديث دخيلة على مجتمعهم، هذه المجتمعات التي كانت تعيش انحطاطاً وعطباً عبر عنه بمرارة كل من ابن خلدون وحسن الوزان فأشارا إلى الفتور والتراجع والدمار وكل الويلات التي كانت تسود المجتمع المغربي. فكيف تقبل الفقيه محاولات السلاطين ؟ وكيف تعامل معها ومن خلالها؟

2 - المواقف النظرية من مسألة التحديث

يقتضي التحديد أن يكون المجتمع مؤهلا ومستعداً لقبوله وهضمه. ويتسرب هذا التغيير داخل البنى الاجتماعية ببطء وتدرّج بواسطة العناصر المقتنعة به والقادرة على استيعابه. وتكون طبقة العلماء مؤهلة أكثر من غيرها لذلك، لأنها تتحمل مسؤولية تمرير كل جديد في المجتمع الذي ينتمون إليه والذي يضع الثقة الكاملة فيهم؛ لأنه يتخذهم رموزاً ويجعلهم قدوة ويقبل بتأطيرهم فيقبل ما يسمحون به، ويرفض ما ينهون عنه. واكتسب علماء الإسلام هذه الحظوة بسبب تداخل السلطة الدينية والسلطة السياسية. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف ترجمت هذه المعطيات على أرض الواقع؟ وما السلط التي كانت تخولها المجتمعات الإسلامية لعلمائها؟ وما طبيعة العلاقات التي كانت تربط هؤلاء بالسلطة السياسية

في مغرب العصر الحديث؟ وما المواقف التي تبناها علماء المغرب وسلاطينه خلال هذه المرحلة من مسألة التحديث والتجاوز؟

فالعالم هو الذي يعلم بالشيء وهو القائم بأحكام الله. وصنف ابن أبي محلي العلماء على النحو التالي: الفقهاء وهم حراس الشريعة، والمتكلم وهو العالم بحكمة الله وسيف الله على الزنادقة، والمتصوف وهو المشاهد بعين اليقين. وإذا كان المتكلم هو راعي الإيمان، والمتصوف هو راعي الإحسان، فإن الصالح "المطلق - في رأي ابن أبي محلي - هو الذي تفقه وتصوف". فالفقيه هو الضرع، والمتكلم هو اللبن، والمتصوف هو الزبد[5].

فالفقه هو العلم بالشيء ويعني شرعاً العلم بالأحكام. وقد قيل الفقه هو معرفة النفس ما لها وما عليها سواء تعلق الأمر بالعبادات أو بالمعاملات. ولأجل هذا اكتسب الفقه مكانة هامة، لأنه كان يتدخل في حياة المسلمين وممتلكاتهم. وانطلاقاً من ذلك صار الفقيه على حد قول الحجوي:

> هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، بل كان معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم أمورهم في الدنيا... والملك والدين توأمان: فالدين أصل، والسلطان حارس. وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع. ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان، وطريق الضبط في فصل الخصومات بالفقه[6].

فالفقه إذن آلة يستعملها صاحب الدولة ويستعين بها على أمره إلى جانب استعماله للسيف[7].

---

(5) للمزيد يمكن الرجوع إلى، ابن أبي محلي في:
مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدارس نفوس السفلة المنخدعة، مخطوط، خ. ع.، عدد ك 192، ص ص. 2 - 3.، **سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق**، مخطوط، خ. ح.، عدد 4733، ص ص. 34 - 37، 63.

(6) محمد بن الحسن الحجوي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**،دار التراث، القاهرة، 1396، ج. 1، ص ص. 4 - 5.

(7) ابن خلدون، **المقدمة**، مصدر مذكور، ص. 228.

يبدو من خلال ما سبق وجود نوع من التقسيم في العمل داخل المجتمعات الإسلامية: يسوس السلطان البلاد ويعتمد في ذلك على العلماء. وبسبب هذا التداخل والترابط بين القوتين نشأت علاقات انبنت بين الطرفين على مراعاة اختصاص ومصالح الجميع: السلاطين - العلماء والعامة. ويستمد العلماء سلطتهم من القرآن والسنة. فهم حراس الشريعة والساهرون على صيانة حدود الله، وهم المدافعون عن المظلومين لأنهم ورثة الأنبياء، وعلمهم قوة وإلهام رباني، وهبهم الله هذه الصفات ليحملهم مسؤوليات ووظائف أساسية تتلخص في مراقبتهم للسلاطين وحثهم على الالتزام بتطبيق الشرع والمحافظة على حقوق الله. ويلجأون إلى تحقيق ذلك عن طريق استخدام مبدإ بذل النصيحة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وازدادت سلطة العلماء بفضل التفاف العامة حولهم، والسماع لهم والأخذ بأقوالهم: "إذ العامة - كما يقول ابن أبي محلي - من كل أمة بالمشاهدة إنما هم مقلدون فقط لعلمائهم وعقلائهم، يضلون بضلالهم ويهتدون بهديهم اعتقاد ينقض لا عن دليل يرتفض مع المعتقد ولا ينقبض"[8]. وأما الأمير، فإنه سيف الله فوق الأرض، مطالب بتطبيق العدل، اعتمادا على الشرع باستشارة العلماء. ورهان القوة بين هؤلاء والسلاطين وارد، ما دامت إرادة الطرفين وغايتهما المعلنة أو المخفية تصبّ في اتجاه السيطرة على العامة[9]. لقد فصل العلماء في مسؤوليات الأمير، وحاولوا خلق "الأمير النموذج". وحتّى نزداد اقتراباً، نقف عند ما خطه محمد بن عبد الكريم المغيلي في مؤلفه "الإمارة" عن شروط الأمير المسلم وصفاته. لقد انطلق المغيلي من مسلمة مفادها "أن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسوله"[10]. وحدد شروطها في ثمانية أبواب، الغاية منها التقرب إلى الله: "ليكن عملك كله لوجه الله، وذكر نفسك أنك واحد من خلق الله. فليكن طمعك كله في الله وخوفك كله من الله، وهمك كله في مصالح خلق الله. ما ولاك الله عليهم لتكون سيدهم ومولاهم،

(8) ابن أبي محلي، سلسبيل...، مصدر مذكور، ص. 41.
(9) عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي ورحلته الإصليت...، مرجع مذكور، ص ص. 28-29.
(10) محمد بن عبد الكريم المغيلي، الإمارة، مخ.، خ. ع.، ك 3169.

وإنما ولاك عليهم لتصلح دينهم ودنياهم"[11].

وخصص المؤلف الباب الثاني من كتابه للصفات التي يجب على الأمير أن يتحلى بها أمام رعيته سواء تعلق الأمر بالسلوك أو بالهندام. ومن الأمور التي أكدها واعتبرها أساسية للأمير الناجح: الهيبة وحثه على الاستعانة في الأمر على خيار القوم:

إذا قرب السلطان أخيار قومه وأعرض عن أشرارهم، فهو صالح؛ وإن قرب السلطان أشرار قومه وأعرض عن أخيارهم، فهو طالح... وبالجملة، حال الرعية وحال السلطان كفتان. فتصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان. ورأس كل بلية أن يحتجب السلطان عن الرعية[12].

واهتم المغيلي في الباب الثالث من مؤلفه بطرق تنظيم الأمير لشؤون المملكة وترتيبها. ولاحظ أن حسن التسيير يقتضي اختيار أحسن الخدام وأجود الكتاب والوزراء.

ونبه الأمير في الباب الرابع على اتخاذ الاحتياط والحذر: "وعلى الأمير أن يظهر القوة والجلد والزهد في الصاحب والولد..."[13]. ونصحه بكتمان السر: "واكتم سرك عن غيرك حتى تتمكن من أمرك"[13]. وعلى الأمير أن يكون حازماً في أعماله وأقواله، وأن يكون ضابطاً لأمور خدامه وعماله، وأن يسهر على مصالح رعيته في الحاضرة والبادية. كما أكد المغيلي أن ضمان استمرار الإمارة ينبني على العدل والإحسان وأنها تقوم على أموال الحلال. فعلى الأمير ألاّ يأخذها إلا من حيث أباحها الله، وأن يصرْفها فيما شرعه الله؛ ولابدَّ له من أن يحكم بما أنزل الله. إن ملاحظات المغيلي وأقواله تدخل في باب بذل النصيحة لراعي الأمة، وتندرج ضمن منطق إسلامي معروف، وتتميز بكونها تخاطب الأمير والراعي النموذج وتحدد صفاته وأفعاله كما يجب أن تكون، لا كما هي موجودة على أرض الواقع.

---

(11) المصدر نفسه، ص. 3.

(12) المصدر نفسه.

(13) المصدر نفسه، ص. 4.

وتشكل مراسلات الفقيه اليوسي مع السلطان المولى إسماعيل أهم ما يمكن اعتماده لفهم علاقة العلماء بالسلاطين خلال العصر الحديث. فقد عرف هذا الملك بالحزم والعزم والصرامة، وكانت له إرادة حقيقية في خلق دولة ذات جلال وهيبة. وكان مؤمناً بضرورة تعاون الجهاز المخزني مع العلماء، لأن شرعية السلطة تستمد من سلطة هؤلاء وهم بمثابة المنار الذي يهتدي به. فقد خاطب السلطان علماء الشرق بقوله:

فأنتم معشر العلماء سادتنا المقلّدون والقدوة المقدمون المعتمدون. فبعلومكم توضح المشكلات وتزاح الشبهات المعضلات... فأنتم القضاة ونحن المنفذون. العلم والخلافة أخوان متساويان في التقدير كراكبتي البعير. والعلماء يحتاجون إلى الخلافة، والخلافة تحتاج إلى العلماء. لا غنى لأحدهما عن الآخر[14].

ولم يكن الفقيه اليوسي عالماً عادياً، بل هو بطل الثقافة الهامشية، على حد قول جاك بيرك، ذلك الهامش الذي كان يجسد في العمق جوهر الثقافة المغربية[15]. وكان لهذا العالم صيت متميز بسبب غزارة علمه ومواقفه الشجاعة. فقد عرف بصراحة أقواله، إذ لم يتردد في قول كلمة حق في السلطان وفي المجتمع. والحق عند اليوسي هو الحق الشرعي. يقول:

ولاشك أن السلطان ـ أيده الله ـ عارف بالحق، قادر على قول الحق. ولابد أن يعلم أن الحق بالشرع يعرف، لا بالعقل. وقد حكّم قوم العقول فضلوا وأضلوا. نعوذ بالله ونعيذ به سيدنا من مذاهبهم. ويعرف الحق الإلهي بالكتاب وبالسنة وإجماع الأمة وقياس الأئمة[16].

والعالم الحق الذي يتحدث عنه اليوسي هو الذي ينزوي لاقتناء العلم والمعرفة، وهو الذي يضع نفسه رهن إشارة طلب العلم، لا ذاك الذي سعى إلى صحبة الكبار لأن مخالطة هؤلاء مضيعة للوقت. وفي هذا الصدد، كتب اليوسي مخاطباً المولى إسماعيل:

والذي يجب إعلام السلطان به نصحا لينصح به نفسه وغيره من المؤمنين أن أكثر انتفاع الطلبة وأهل المسائل من العامة والخاصة إنما هو من المنقبض الجالس في داره

---

(14) المولى عبد الحفيظ، داء العطب...، مصدر مذكور، ص. 49.

(15) J. Berque, *Ulémas, op. cit.*, p. 342.

(16) فاطمة القبلي، رسائل أبي علي اليوسي، مصدر مذكور، ج.1، ص. 134.

أو في بيت من بيوت الله. فحيثما جاء متعلم أو سائل، وجده... والمخالط بخلاف هذا كله، فإن أكثر أوقاته تذهب في الطلوع والهبوط[16].

فالاقتراب من الملوك ممكن في رأي اليوسي والعالم الحقيقي من لا يتردد في قول الحق في صحبة الملوك، وأضاف أن مثل هذا العالم "أغر من الكبريت الأحمر"[17].

والموقف الإسلامي من السلطة واضح. فالخليفة إنسان غير معصوم ولا يحق له اعتقاد عكس ذلك، وهو ملزم بطلب الاستشارة من العلماء في أمور دين الأمة ودنياها. وتستمر طاعته، ما دامت أوامره توافق الشرع وتسايره. والعلماء له بالمرصاد متى زاغ عن النهج الإسلامي إذ يقومونه بالنصيحة. وإذا لم يأخذ بها، "وجب عليهم أن يستبدلوه بغيره ما لم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه"[18].

لقد بين اليوسي حقوق الناس على السلطان، ولاحظ أنها كثيرة واقتصر في خطابه للمولى إسماعيل على ذكر ثلاثة اعتبرها أساسية: جمع المال من حق وتفريقه في حق، وإقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وأخيراً الانتصاف من الظالم للمظلوم. ولاحظ اليوسي أن هذه الحقوق كلها ضائعة في المغرب على عهد المولى إسماعيل: "وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا، فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو بالغفلة. فإن تنبه وفعل، فقد فاز؛ وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة. وإلا فقد أدينا الذي علينا[19]. والملاحظ أن اليوسي كان يخاطب المولى إسماعيل، سواء في "**الرسالة الكبرى**" أو "**الرسالة الصغرى**" اعتماداً على مبدإ "الدين النصيحة" و "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وكان ينطلق من كونه عالماً مسؤولاً ملزماً أمام خالقه وأمام الأمة بحراسة الحدود الشرعية. فالمنطق الذي كان يحركه كان منطقاً إسلامياً. ولم يكن يكترث بالمنطق السياسي

---

(17) فاطمة القبلي، رسائل أبي علي اليوسي، مصدر مذكور، ج.1، ص ص. 153 - 154.

(18) محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، جمعها وقدمها محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1972، ص. 287.

(19) فاطمة القبلي، رسائل أبي علي اليوسي، مصدر مذكور، ج.1، ص. 238.

الذي كان يعتمده المولى إسماعيل من أجل تدبير أمور الناس وتنظيمها انطلاقاً مما كانت تفرضه الظروف ويحتمه الواقع. وموقف اليوسي هذا هو الموقف الذي نجده عند معظم الفقهاء الذين بقوا خارج الجهاز المخزني، وظلوا متمسكين بإرادة الابتعاد عن ارتكاب كل ما من شأنه أن يلطخ إيمانهم أو يبعدهم عن دينهم. وكانت مواقفهم مختلفة عن تلك التي تبناها الكتاب، ونقصد بالكتاب كل أولئك الذين دخلوا في خدمة السلاطين، فتعرفوا الجهاز المخزني بفضل ذلك ، لأنهم كانوا يشاركون في ترتيب البلاد الداخلية والخارجية وتنظيمها. وبسبب خدمتهم للمخزن وتعرفهم إياه من الداخل، تبنوا مواقف مختلفة في منطقها وأسلوبها عن تلك التي عرف بها العلماء الذين بقوا خارج الجهاز. ومن الكتاب المشهورين يمكن الإشارة إلى الفشتالي والزياني والناصري.

كان عبد العزيز الفشتالي وزير القلم عند أحمد المنصور السعدي ينسج خطاباً متفهماً ومدعماً لقرارات السلطان، وتعوّد الكلام عن المخزن، مثله مثل الكتاب الآخرين تجسيداً للسلطان. وكان خطاب الكتاب خطاباً تبريريّاً ومتفهماً لقرارات السلاطين وممارساتهم، لأنهم كانوا يضعون هذه الممارسات داخل إطارها السياسي الذي كان يؤثر فيها وتؤثر فيه. واستعمل هؤلاء الكتاب الإسلام وتعاليمه قاعدةً خلفية وعنصراً من العناصر الثابتة من أجل تفسير الأحداث الطارئة وتبريرها أو تأويلها تأويلاً يساير السياسات المتبعة ويزكيها. لذلك كانت خطاباتهم تمجيدية تتخذ السلطان منطلقاً ومركزاً لكل القرارات. وتشكل الأحداث والعناصر الأخرى الواردة في الخطاب الديكور والإخراج اللاّزمين لإبراز الذات المطلقة، ذات السلطان، مركز الكون، الآمر الناهي.

والفقهاء حراس الشريعة قد تشبثوا بالقرآن والسنة وإجماع العلماء وقاسوا عليها تحركات السلاطين وتصرفاتهم فقبلوا منهم ما كان يدخل في حدود الله، ورفضوا منهم غير ذلك. ولم يكن هؤلاء ليأخذوا بالمنطق السياسي المتغير. ولأجل ذلك، دخلوا في مواجهة ذوي الأمر، ومنهم عبد السلام جسوس والفقيه اليوسي. يقول اليوسي:

فيعلم سيدنا أن الأرض ومن فيها ملك الله تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيده ابتلاء وامتحاناً. فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح، فهو خليفة الله في أرضه وظل الله على عباده... وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والفساد، فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق[20].

وعلى عكس موقف هؤلاء الفقهاء، تبنى الكتاب مواقف مغايرة في مضمونها، وإن كانت تتشابه في شكلها مع مواقف الفقهاء. لقد تعود الكتاب استعمال الشرع وكانوا يرجعون للقرآن والسنة ليقتبسوا الحجج والتبريرات التي تمكنهم من وضع السلطان وسط الكون وفوق كل الشبهات وليروا شرعا كل تحركاته وممارساته. يقول القشتالي: "وأمير المؤمنين ... هو اليوم إمام الجماعة وإنسان حَدَقه الإسلام... والخلافة المخصوص بتراث الرسالة... ومالك إمرة المسلمين بحكم الولاء والكفالة سنام هذه الدولة الحسنية وذروة عزها"[21]. فإذا كان اليوسي ينطلق من الشرع ليحدد مسؤوليات الأمير ويضعه في مستوى عباد الله، فإن الفشتالي كان يستخدم الشرع ليمجد السلطان ويجعله فوق البشر. وكلمات اليوسي كلمات موزونة واضحة؛ أما كلمات الفشتالي، فكلمات مغالطة: "فيوم بويع المنصور كان يوم فتح، حَضَرَتْه ملائكة الرحمن. وان ولايته سبقت برؤية الرسول"[22].

ويرجع تباين المواقف بين السياسي والفقيه إلى الفهم الذي يعطيه كل منهما للدولة. فالفقيه يرى في قوة الدولة وعظمتها تقوية للإسلام. فدواليب الدولة وضعت فوق منطلقات إسلامية من أجل حماية الحدود التي أقامها الله لعباده. ويرى السياسي في قوة الدولة وأبهتها قوة السلطان وعظمته. ويستعمل هذا الأخير أجهزتها ويسخرها لضمان سلطته وصيانة سيطرته على الرعية، لأن الدولة في منطق رجل السلطة لا تنفصل عن ذات السلطان. ولكي نزداد اقتراباً من هذا التباين الحاصل في منطق الفقيه والسياسي، نقف عند أحداث تاريخية عالجها كل

---

(20) المصدر نفسه، ج.1، ص ص. 237 ـ 238.

(21) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا... ، مصدر مذكور، ص. 25.

(22) المصدر نفسه، ص. 27.

منهما انطلاقا مـن اقتناعـات خاصـة بـه. وهكـذا تعلـق الفقيـه وتشـبث في مواقفـه بمرجعية الدولة الإسلامية، في حـين ركـز السـلطان مركزيـة الدولـة الحديثـة داخـل محيطها الداخلي وفق ظروفها الدولية. والأحداث التـي نود مقاربتها من هذا المنظور هي حملة المنصور الذهبـي على السودان، ومسألة الجباية وتمليـك العبيـد على عهـد المولى إسماعيل.

3 - الفقيه والسياسي على أرض الواقع

شكل غزو السودان حدثاً بارزاً، وكان أهم إنجازات أحمد المنصور الذهبـي في نهايـة القـرن السـادس عشـر. وكـان للحملـة أثـر بليـغ علـى الذهنيـــة المغربيـــة والسودانية. واتخذ هذا الغزو منطلقا ومرتعاً لنظريات وفرضيات سواء في المغرب أو في السودان أو في مناطق أخرى. وشكل الأسـاس الـذي طبـع في العمـق العلاقـات المغربية مع البلدان الواقعة جنوب الصحراء. وقد ضخمت الكتابة الأوربيـــة الحـدث وهولته وربطت كل ويلات هذه الأصقاع بحملة المنصور الذهبـي. وظهرت بسبب ذلـك مواقـف متباينـة بـين الأطـراف المعنيـة، لأن هـذه الأخـيرة كـانت تنطلـق في تحليلاتها للحملة من فرضيـات وأطروحـات متعارضـة ومشـحونة بمواقـف مسـبقة. وهكذا قدمت كتابة الأفارقة السود الغزو من زاويـة وطنيـة حيـث شـبه سيسـوكو الحدث بقنبلة هيروشيما[23]، وربط كل ويلات السودان الغربي بهذا الهجـوم. وأمـا المؤرخ كيزربو، فقد رأى في هذه الحملة إرادة المنصـور الذهبـي تدعيـم انتصـارات معركة وادي المخازن وتحقيق طموحاته السياسية التوسعية الهادفة إلى توطيـد نفـوذه في هذه الأصقاع[24]. وأما ميشيل أبطبول، فقد ركز في تحليله لأهداف الحملة علـى أبعادها الاقتصادية. يقول هذا المؤرخ:

---

(23) Cissoko, *Histoire de l'Afrique Occidentale, Moyen Age et temps modernes*, Présence Africaine, 1966, p. 192.

(24) J.Kizerbo, *Histoire de l'Afrique noire d'hier à demain* ,Hatier, Paris, 1972, pp. 196 - 197.

يبدو أن أحمد المنصور كان منشغلاً جداً بانهيار إنتاج السكر بسبب تراجع مساحة قصبه ومعاصره. فقرر الرفع من المساحة المزروعة وكانت العملية في حاجة إلى اليد العاملة ... وحتى يتسنى له ذلك، نظم حملته على السودان من أجل جلب العبيد والتبر"[25].

ولن نقف في هذه المحاولة عند مناقشة مواقف المؤرخين السود من الحملة ولا عند تلك التي رد بها عليهم المؤرخون المغاربة. لقد استغل الأفارقة والغربيون الحملة لضرب المغرب ومهاجمة المغاربة، ومن خلال هؤلاء هاجموا الإسلام ديناً وحضارةً. ولكننا سنقدم قراءة لحملة السودان انطلاقاً من التعارض الذي ظهر بسببها بين منطق الفقيه ومنطق السياسي.

وسننطلق ـ قصد الوصول إلى ذلك ـ من الأسئلة التالية: ما المواقف التي اتخذها الفقهاء من الحملة؟ وما الدوافع التي جعلت بعضهم يعارض القرار السلطانيّ وينتقده؟ لقد اعتبر عبد الله العروي غزو السودان أهم فكرة جاء بها المنصور حينما قال: "كان غزو السودان أهم حدث تميز به حكم المنصور وقد قام هذا السلطان بهذه الحملة بالرغم من معارضة العلماء لها"[26]. لن نقف عند أسباب الحملة، لأنها نوقشت بما فيه الكفاية[27] ولكن سنعمل على قراءتها من زاوية تعارض منطق القرار السياسي مع منطق الموقف الشرعي. وسنعتمد في تحقيق ذلك على استشارة أحمد المنصور للملإ عندما قرر القيام بهذا الغزو وجاءت المشورة على حد قول الفشتالي "امتثالاً لما أمر الله به ورسوله"[28]. وقد ركز الفشتالي في صياغته لهذه الاستشارة على البعد الشكلي فيها، واستعمل كل مهاراته الأدبية ليقدم القرار السلطاني مدعماً بحجج دينية حتى يجعل القرار السياسي موافقاً للشرع، وغير متعارض معه شكلاً. وأبعد من جهة أخرى العناصر والأبعاد التي كانت قادرة

---

(25) M. Abitbol, *Tombouctou et les ARMA*, Maisonneuve Larose, Paris, 1979, p. 40 à 47 et surtout 43.

(26) A. Laroui, *Histoire du Maghreb*..., p, 240.

(27) يمكن الرجوع إلى: المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء في بداية العصر الحديث، الدار البيضاء، 1995.

(28) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا...، مصدر مذكور، ص. 126.

على عرقلة مشروع المنصور السياسي. إلا أن الفشتالي أغفل اعتراضات الفقهاء التي كانت تقول بعدم شرعية الحملة، إذ كيف يعقل أن يقوم بلد مسلم بغزو بلد مسلم آخر؟ وكيف يعقل أن تهاجم جيوش المنصور المسلمة مسلمي السودان، وتتجاهل أو تغفل الثغور المغربية التي يحتلها العدو الكافر؟ وكان المؤرخ المجهول صريح الموقف واعتبر غزو هذه الأصقاع الإسلامية عاراً وجعله في صحيفة أولي الأمر: السلطان وأعوانه والمتفقهة الذين قبلوا بالغزو. "وكل ذلك في صحيفة رئيسهم وسلطانهم وعند الله تجتمع الخصوم ويلتقي الظالم والمظلوم"[29]. واستمر المؤرخ المجهول في انتقاد كل أولئك الذين ساندوا مخطط المنصور في السودان واستبشروا وفرحوا عندما علموا خبر الانتصار. ومقت هذا المؤرخ تصرفات هؤلاء القوم بقوله: "وأتاه المتفقهة والقواد وعلماء الظاهر العادمين البصائر والأمناء بخبر حقيقة يهنئونه في قتال أهل الإسلام وأخذ أموالهم وتمليك عيالهم وأولادهم وفرح لذلك فرحاً عظيماً وسرَّ به سرورا"[30]. واعتبر ابن أبي محلي حملة السودان علامة من علامات نهاية الكون وربما ستكون ءاخر مؤشر قبل ظهور صاحب الوقت المهدي المنتظر:

> ومن ءاخر علامات ظهور الإمام أو من علاماته، وقد تقدم ما في نحوه من البحث، وعلم الغيب ليس بالظنون. وربما ذكر بعضهم أيضاً، لكن بعد الوقوع والنزول، أن دخول رايات أبي العباس المنصور في حياته للسودان واستيلائه على سلطانها سكيا في دار خلافته بل إمارته وهي جاغو مع تنبكتو بأعمالها ـ كل ذلك أمارات قرب خروج الإمام[31].

لقد كانت مواقف الفقهاء المعارضة تنطلق من الشرع وتعيب على المنصور غزوه لبلد مسلم وإعراضه عن الأندلس وإهماله للثغور المغربية التي كانت لا تزال

---

(29) المؤرخ المجهول، **تاريخ الدولة السعدية...**، ص. 70.

(30) **المصدر نفسه**. انظر كذلك: القادري، **نشر المثاني**، مصدر مذكور، ج.1، ص. 272، 274 ـ 275، حيث وقع التركيز على محنة علماء السودان وامتحانهم على يدالمنصور.

(31) ابن أبي محلي، **الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت**، مخ.، خ. ح.، عدد 100، ص. 21.

على عهده في يد الكفار. واكتفى العلماء الذين خالفوا المنصور أو داهنوه يوم الاستشارة بذكر صعوبات الحملة المادية. وتساءلوا عن كيفية القيام بحملة تتطلب مواجهة القفار وكيفية القيام بغزو لم تفكر فيه الدول السابقة، فلم يجرؤ الملوك المرابطون على القيام بمثل هذا الغزو بالرغم من أنهم كانوا ينحدرون من الصحراء.

وعلى عكس موقف الفقهاء المحافظ على الحدود الشرعية، فقد تبنى أحمد المنصور مشروع غزو السودان من منطق سياسي وفق منطلقات استراتيجية. فقد كان على وعي تام بالأوضاع الدولية، لأنه كان طرفا فيها، فساهم في بلورة بعض أحداثها منذ انتصاره في معركة وادي المخازن. وكان من جهة أخرى يواكب طموحات القوى السياسية الموجودة وقتها على الساحة الدولية: فإسبانيا التي استكملت وحدتها وانطلقت عبر المحيط الأطلسي فسيطرت على العالم الجديد وصارت تستغل خيراته وتستنزفها، وازدادت قوتها بعدما ضمت إليها الإمبراطورية البرتغالية سنة 1580. فكانت تهديدات إسبانيا للمغرب ماثلة في ذهن أحمد المنصور الذي لم يكن ليغفل طموحات الإمبراطورية العثمانية ـــ التي وقفت إلى جانبه في معركة وادي المخازن، وكان ملوكها يحلمون بتوحيد العالم الإسلامي وخلق خلافة إسلامية بزعامتهم لمواجهة العالم المسيحي. وكان أحمد المنصور يدرك أن الدول الأوربية تريد الوصول إلى مناطق إنتاج التبر السوداني، وأنها تبذل كل ما في وسعها لتحقق ذلك. ورأى في هذه التحرشات الدولية خنقاً للمغرب.

وتجاوزاً لهذا الاختناق، أراد المنصور غزو السودان ليجسد به مسايرة المغرب ومشاركته في بلورة الأحداث الدولية حتى لا يبقى متفرجاً عليها وهي تتجاوزه. وبهذه الحملة سعى هذا السلطان إلى معاكسة المصالح المسيحية والعثمانية في هذه الأصقاع السودانية التي شكلت على الدوام الجذور الإفريقية للمغرب. وعن طريق هذا الغزو أراد المنصور ضمان هذه الاستمرارية وبناء الشخصية الدبلوماسية المغربية خلال العصر الحديث على أساس أن تكون شخصية نفعية ذات منطق سياسي، وليس ذات منطق أخلاقيّ أو دينيّ. "وممالك السودان أحق وأولى بالتفات العزائم. فهي وإن كانت أصعب مراماً وأشمس مركباً، فإنها أغزر وأجدى

مغبة وأرحب مجالًا وأوسع عمراناً وأوفر نشباً وأقوى بمعادنهـا وكـثرة المشتاق مـن رقيقها"[32]. فإذا كان الفقهاء قد انتقدوا قـرار غـزو السـودان أو تطـيَّروا منـه، فـإن المنصور على العكس من ذلك اعتبر دخـول الجيـوش المغربيـة لهـذه الأصقـاع حدثـاً تاريخيّاً هامّاً، وجعل يوم الانتصار عيداً وطنيّاً، فطالب المغاربة أن يُولُوا الحدث كـل ما يستحق مـن العنايـة والاحتفـال. وكـاتب عمالـه وقـواده في الأقـاليم والجهـات بضرورة الاحتفال "بالفتح وإنهاء البشرى بما أفاء الله من هذا الصنع الجميـل والمـن الجليل"[33]. وبذلك رأى المنصور في هذا الغزو، على عكس العلماء الذيـن عـارضوا المشروع، عـزة الدولـة المغربيـة الحديثـة ورسـوّاً لأوتادهـا المنصوريـة، ودعامـة مـن دعامات أبهتها، ونفساً جديـداً يمكـن المغرب مسـايرة الأحـداث الدوليـة الجديـدة ومشاركته المباشرة في صنع بعضهـا. وحـاول المنصـور أن يظهـر أن غـزو السـودان مجـرد محطـة في مشـروع أكـبر، لأن الغايـة الأساسـية هـي مجابهـة العـدو المسـيحي ومعاكسته في طموحاته التوسعية في السودان قبل مهاجمتـه في عقـر داره: "ولم يبـق بحول الله (يقصد بعد غزو السودان) إلا صرف العزائم إلى جهاد العـدو الكـافر... حتى نغزوه بجنود الله في عقر داره ومحل قراره"[34]. فكان غزو السـودان منطلقـاً لا نهايةً لسياسة المنصور؛ وحتى يهيء المستقبل، فقد طالب عماله وجميع المغاربة بـأن يتخذوا يوم البشرى يوم عيد: "واتخذوا يومها الأغر... عيداً ومهرجاناً وأقيمـوا لهـا سوقاً من البسط سرّاً وإعلاناً"[35]. وهكذا رأى المنصور رجلَ سياسة في الغـزو يـوم بداية المواجهة مع العدو والكافر، على عكس الفقيه المعـارض الـذي اعتـبر الحـدث يوم تجاوز لحدود الله.

ويظهر التباين الحـاصل بـين مواقـف العـالم ومواقـف السياسـي في مفهـوم الدولة عند كل منهمـا. فـيرى الفقيـه في قـوة الدولـة وعظمتهـا قـوة الإسـلام، لأن

---

(32) الفشتالي، مناهل الصفا...، مصدر مذكور، ص. 128.

(33) المصدر نفسه، ص ص. 142 - 143.

(34) المصدر نفسه، ص. 145.

(35) تاريخ الرسالة 7 شعبان 999 هـ الموافق 31 ماي 1591 (الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 146).

الدولة من منظوره بمجرد أداة سخرها الله لحماية الحدود التي أقامها الكتاب والسنة. وأما السياسي، فإنه يرى في قوة الدولة وأبهتها قوة السلطان وعظمته، إذ تقاس فعالية دواليبها بمدى قدرتها على ضمان سلطة صاحب الأمر على الرعية، لأن الدولة تتجسد في شخص السلطان. وزيادة في توضيح الفكرة، نسوق نقاشاً فتحه السلطان المولى عبد الحفيظ مع الفقيه الحسن اليوسي في موضوع الجباية ودورها في الإسلام. اعتمد المولى عبد الحفيظ على رسالة اليوسي للسلطان المولى إسماعيل "براءة اليوسي"[36]. وتدخل هذه الرسالة في باب بذل النصيحة للأمير. يقول اليوسي:

> وكتبنا هذه البطاقة وهي في الوقت منتهى الطاقة... فأردنا أن نرسم لسيدنا بعض ما إن وفق للنهوض إليه، رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة ... فيعلم سيدنا ـ نصره الله ـ أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى، لا شريك له، والناس كلهم عبيده ابتلاء وامتحاناً. فإن قام بالعدل، فهو خليفة الله في أرضه؛ وإن جار وتكبر وطغى وأفسد، فهو متسلط في الأرض بغير حق[37].

وتعرض اليوسي في هذه الرسالة لمفهوم الجباية في الإسلام، ولاحظ أن جباة الوقت أولئك الذين كلفهم المولى إسماعيل قد بالغوا في الظلم والجور "ولم يتركوا للناس ديناً ولا دنيا"[38]. والفكرة الثانية التي تناولتها الرسالة المذكورة تدور حول أسباب تراجع الجهاد، لأن الرعية سلبت أسلحتها وأثقل كاهلها بالمغارم التي فرضها عليها المولى إسماعيل. لقد طعن المولى عبد الحفيظ في مواقف اليوسي وحمله مسؤولية ما عرفه المغرب. لقد حاول هذا السلطان أن يفهم الأسباب التي كانت وراء انحطاط المغرب، ورأى أن من بين العوامل التي كانت تضعف المغرب مواقف العلماء المعترضة على سياسة السلاطين والمضايقة لهم، وركز على الحسن اليوسي ورأى في المواقف التي اتخذها هذا العالم من المولى إسماعيل أكثر دليل على ما صار إليه: "قلت: ولا أدري هذه المحن التي أصابت هذا الأمير (إسماعيل) ولا هذا

---

(36) فاطمة القبلي، رسائل أبي علي اليوسي، مصدر مذكور، ج.1، ص. 237.

(37) المصدر نفسه، ص ص. 237 - 238.

(38) المصدر نفسه، ص. 238.

الاضمحلال السيء الذي ءال إليه إلا في صحيفة اليوسي عفا الله عنه"[39]. لقد تجاهل المولى عبد الحفيظ في مناقشته لليوسي، الحجج الشرعية التي اعتمدها اليوسي وخاطبه بمنطق سياسي وسلطان مسؤول عن سير الدولة وفق محيطها الداخلي والخارجي؛ ومن هذا المنطلق طرح سؤالاً على اليوسي ومن خلاله على كل الفقهاء الذين يرتبطون بالثوابت الإسلامية ولا يهتمون بالمتغيرات. وفي هذا الصدد، كتب المولى عبد الحفيظ يقول: "ولو خير اليوسي بين الجباية الثقيلة التي ترفع العبء واضمحلال البلاد واستعمارها من أيدي الأجانب وأخذ الأموال الباهظة منها مع هتك حرمات الإسلام والدين والحرائر ما كان يختار"[40]. واستمر المولى عبد الحفيظ في مناقشة اليوسي، فميز قسمين في الجباية: قسم يقوم بواجب الديانات وهو الزكوات والأعشار وغيرها، وقسم تقوم به المصالح العمومية التي تجلب الآلات المدفعية والمواكب البحرية وإصلاح البلاد. وأنهى هذا السلطان ملاحظاته على اليوسي، فخاطبه بصفته رجل دولة، ونبّهه إلى أن تسيير هذه الأخيرة يحتاج إلى جباية: "إذا لم تكن الجباية الثقيلة، فمن أين يكون ذلك ونصوص العلماء في ذلك أكثر من أن تعد؟"[41]. فالدولة القوية والمتجهة نحو المستقبل في حاجة إلى جباية. وتستعمل هذه الأخيرة في تحصين أدوات الدولة وتقويتها. "وتلك هي سيرة الأوربويين في ممالكهم ومستعمراتهم"[42]. فمن خلال هذا النقاش، وذلك الذي دار في بيت الملإ على أثر الاستشارة التي طلبها أحمد المنصور عندما قرر غزو السودان، يظهر الاختلاف البين فيما بين منطق الفقيه المهتم بحراسة الشريعة، والسياسي الذي يهتم أساساً بتسيير الدولة وضمان الأمن. وقد برز هذا التعارض على عهد المولى إسماعيل في شكل مواجهة عنيفة بين الطرفين (السياسي والفقيه) في مسألة تمليك العبيد أو محنة الفقيه جسوس.

---

(39) المولى عبد الحفيظ، **داء العطب قديم**، مخ.، خ. ح.، رقم 11400، ص. 84.

(40) **المصدر نفسه**، ص. 85.

(41) **المصدر نفسه**، ص. 84.

(42) انظر الرسالة كاملة في مخطوط المولى عبد الحفيظ، **داء العطب قديم**، **المصدر نفسه**، ص ص. 47 - 55.

أراد المولى إسماعيل تأسيس جيش نظامي يكـون أداة ضاربـة مرتبطـة بالسلطان ومستقلة عن غيره، وكان يهدف من وراء ذلك القـرار إلى دعـم الدولـة، والعمل على تحصينها بجيش يكون بعيداً عن الضغوط الاجتماعية ومختلفاً عن جيـش القبائل. وعمل هذا السلطان على جمع بقايا عبيد أحمد المنصـور ونـادى بتمليكهـم. ورأى بعض العلماء في العملية تجاوزاً لحدود الله. وكان الفقيه عبد السلام جسُّوس رمز هذه المعارضة. وقد راسل المولى إسماعيل العلماء، بمن فيهـم علمـاء الأزهـر، في المسألة كما يظهر من رسالة أتـى بهـا المـولى عبـد الحفيـظ في مؤلفـه "داء العطـب قديم"، ونسبها خطأً للمنصور الذهبـي على أن المعطيـات الـواردة فيهـا تحيـل علـى العهد الإسماعيلي. وقد برر السلطان في رسالته الدوافع التـي جعلته يلجأ إلى تكوين جيش نظامي[42]. لعل أول هـذه الأسـباب صيانـة الإسـلام والعمـل علـى نشـره في الأندلس والسودان، لأن الدولـة المغربيـة كـانت قـد اعتـادت هـذه الوظيفـة بحكـم موقعهـا الجغـرافي. وأمـا الدافـع الثـاني، فيعـود إلى الفـتن التـي زعزعـت المغـرب. ويقتضي هذا التصدع وجود جيش قادر على ضمان الأمن، وكبح تصرفات القبائل المتهورة. "ولما لم نجد في هذا المغرب ـ أمَّنه الله ـ منـذ ولانـا الله أمـره جنـداً معينـاً مرتباً موقراً يعتمد عليه ويطمئن به الخاطر وتركن النفس إليه، جعلنا ـ بعـون الله ـ نستخير الله تعالى وننظر من يصلح للجندية ومن يليق بها"[43]. وذكـر السـلطان في رسالته إلى علماء مصر أنه لا يستطيع الاعتماد في جيشه على القبائل، لأنهم عرفـوا بالتكاسل والتخاذل ولا يصلحون للجندية. ولأجل هذا لجأ إلى تمليك العبيد حتـى يتسنى له أن يؤسس جيشاً نظامياً يكون أداة فعالة للسهر علـى الدولـة. ويظهـر أن المولى إسماعيل قد وجه رسالته هذه إلى علماء مصر رغبة منه في تجاوز الضجة التـي أثارها قراره في أوساط العلماء المغاربة. وكـان الفقيـه جسـوس رمـز هـذا الرفـض. وبـرر هـذا العـالم موقفـه هـذا بعـدم وجـود أي وازع شـرعي يجعلـه يقبـل القـرار الإسماعيلي. واعتبر الناصري محنة جسوس من القضايا المؤلمـة في الإسـلام وعـبر عـن ذلك قائلاً: "واعلم أن قضيـة الفقيـه أبي محمد ـ رحمه الله ـ من القضايا الفظيعـة في

(43) المصدر نفسه، ص.45.

الإسلام". و لم يتخذ الناصري موقفاً محدّداً منها، بل اكتفى بالقول: "والأسباب التي أثارتها أولاً وأكّدتها ثانياً حتى نفذ الله في ما قضاه وقدره في أزله بعضها ظاهر وبعضها خفي الله أعلم بالحقيقة"[44]. لكن موقف جسوس كان واضحا من التمليك. فقد رفض قبوله، لأن التمليك كان مخالفاً للشرع:

الحمد لله. يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه، ويشهد الله تعالى وملائكته وجميع خلقه أني ما امتنعت من الموافقة على تمليك من ملك من العبيد إلا لأني لم أجد له وجهاً ولا مسلكاً ولا رخصة في الشرع وأني إن وافقت عليه طوعاً أو كرهاً، فقد خنت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود في النار بسببه[45].

لقد أثير نقاش كبير حول أبعاد محنة جسوس؛ فرأى عبد الله العروي في موقف هذا الفقيه تعبيراً عن امتعاض وامتناع البورجوازية الفاسية التي فقدت اليد الشغيلة. ولقد أدى هذا التمليك إلى تراجع الفلاحة: "لقد تسبب تمليك العبيد في إعطاء ضربة قاسية للفلاحة في الواحات الجنوبية وبالقرب من المدن. ومن هذا المنطلق نفهم معارضة الفقهاء لهذا التمليك"[46]. ودافعت ماكالي مورسي، وهي تعالج محنة جسوس، عن الفكرة القائلة بأن هذه المحنة كانت تخفي معارضة الفقهاء السياسية للمولى إسماعيل ومن ورائهم معارضة مدينة فاس لهذا السلطان[47].

فمن خلال ما رأينا يتبين وجود تمايز في منطق كل من الفقيه والسياسي. فإذا كان الأول ينطلق في تحديد مواقفه من واجبه الذي يتمثل في حراسة الحدود الشرعية وصيانتها، فإن الثاني كان يراعي متطلبات العصر. فالمرجعية الإسلامية هي المنطلق والغاية عند الفقيه في حين ترتكز مرامي السياسي وأهدافه حول تمركز الدولة وتقوية أجهزتها ومؤسساتها. وإذا كان التباين واضحاً في المنطق، فإنهما يعملان جنباً إلى جنب لاحتياج أحدهما للآخر من أجل تسيير العامة. ويلجأ

---

(44) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.7، ص. 95.

(45) المصدر نفسه، ج.7، ص. 95.

(46) A. Laroui, *Histoire du Maghreb.*, *op. cit.*, p. 255.

(47) Magali Morsy, *La Relation de Thomas Pellow: une lecture du Maroc au 18ème siècle*, éd. Recherche sur les civilisations, Paris, 1983. p.51.

السياسي والفقيه لهذه القاعدة الاجتماعية كلما دعتهما الضرورة إلى ذلك، فيستعملانها ويوظفانها عند الحاجة. غير أنهما عملاً دوماً على إقصائها من القرارات المصيرية. ومن ثم بقيت شروط الإقلاع في المغرب غير مكتملة، لأنها كانت دائماً رسمية وتُمْلَى من فَوْقُ، وبالتالي لم تحاول أن تجسد معاناة السواد الأعظم من المغاربة ولا طموحاتهم. فما المحاولات التحديثية التي عرفها المغرب خلال العصر الحديث (16 - 18 م) ومن دعاتها؟

الفصل الثاني

الحداثة عند الأشراف السعديين
عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور نموذجين

1 – المحاولات التحديثية والمناخ المتوسطي

إلى أي حد يمكن القول بوجود محاولات تجديدية على عهد كل من عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور؟ وما الظروف والملابسات التي صاحبت تولية الأميرين المذكورين على أمور المغرب؟ وما الأحداث المتوسطية التي ساهمت في صقل شخصية هذين السلطانين وجعلتهما يطمحان إلى الوصول بالمغرب إلى مستوى البلدان التي كانت تتصارع وتتضامن لتكون كلمتها مسموعة ومصالحها مصونة؟ وما أوجه التشابه والاختلاف بين محاولات التحديث عند كل من عبد الملك والمعتصم وأحمد المنصور الذهبي؟

لما توفي محمد الشيخ سنة 1557، فر كل من عبد الملك وأحمد من سجلماسة إلى تلمسان ومنها إلى الجزائر خوفاً من أخيهما عبد الله الذي تولى أمر الدولة. وبهذا القرار دخل الأميران مجال المغامرة في أماكن مختلفة وشاركا في صنع بعض أحداث البحر المتوسط في ليبنتو، وفي استعادة حلق الوادي قبل أن يعودا إلى المغرب ويخوضا معركة وادي المخازن حيث توفي عبد الملك تاركاً أمر الدولة لأخيه أحمد المنصور الذي استحضر تجاربه في المتوسط ليشيد دبلوماسية مغربية حديثة في نهاية القرن السادس عشر. فكيف ساهمت هذه الأحداث في بلورة شخصية الأميرين؟

- معركة ليبنتو 1571 ومشاركة عبد الملك فيها

تعتبر معركة ليبنتو، التي وقعت في 7 أكتوبر 1571، أهم حدث عسكري عرفه القرن السادس عشر. لقد أعلنت هذه الحرب بداية لتراجع القوة التركية، واستطاع المسيحيون أن ينهوا الأسطورة القائلة بأن الجيش التركي لا يقهر. وفتح انهزام الأتراك الباب أمام القرصنة الأوربية لتنشط وتتقوى في البحر المتوسط[48]. لقد تطلب هذا الانتصار من البلدان المسيحية عدة سنوات من التفاوض وفرض عليها تجاوز الحذر الذي كان سائداً في علاقات بعضهم بالبعض. وقد أدّى البابا دوراً حاسماً في هذه المفاوضات وتوفق في الأخير في عقد تعاقد بين البندقية وإسبانيا والبابوية لخلق عصبة يكون هدفها مواجهة مشتركة للأتراك. وقد وقع التحالف بين الأطراف في 20 ماي 1571 على أساس أن يدوم هذا الاتفاق اثنتي عشرة سنة وأن يطبق سواء في الهجوم أو في الدفاع وأن يوجه ضد الأتراك وضد البلدن التي تكون خاضعة لهم كطرابلس وتونس والجزائر.

لقد ضخمت الكتابة الأوربية انتصار المسيحيين في ليبنتو ورأت فيه بداية التراجع التركي؛ وأجمع رأي الأعمال الجادة على القول بأن معركة ليبنتو كانت في أساسها انتصارا نفسياً وإغراقاً للأسطول التركي وللأحلام الصليبية المسيحية[49].

وتكمن أهمية هذه المعركة للمغرب في الأدوار التي أدّاها فيها عبد الملك

---

(48) ميز فرنان بروديل بين سنة 1538 حيث كانت الهيمنة الإسلامية على البحر، ومعركة ليبنتو 1571 التي دشنت بداية الهيمنة المسيحية.

"1532: La Preresa donne à l'Islam la maîtrise de la mer que lui reprend la victoire chretienne à Le Pante, en 1571". (F. Braudel, *La méditerranée...*, T. II, p. 197).

(49) "La méditerranée avait englouti les galères turques et les derniers rêves de croisade chretiens" M.Lasure, in Claude Nordman, *La montée de la puissance européenne 1492 - 1660*, Paris, P.U.F, 1974, p. 153.

ولتعميق الفكرة يمكن الرجوع كذلك إلى:

F. Braudel, *la Meditérranée*, *op. cit.*, T.II, pp. 383-386; H. Hausser; *La préponderance espagnole 1559 - 1660*, pp. 77-110, surtout 90 et 91.

المعتصم وأخوه أحمد المنصور. لا نستطيع في الوقت الراهن إعطاء تدقيقات وتفاصيل عن هذه المشاركة؛ غير أن المعلومات والإشارات الواردة هنا وهناك تمكن من أخذ فكرة عن الموضوع. ويظهر أن الأميرين قد شاركا إلى جانب الأسطول العثماني. وتتحدث الوثائق عن عبد الملك الذي جعل منه سيرفانتيس شخصية متميزة في مسرحيته "سجناء الجزائر" (*Los bānos de Angel*) وسنعود لموقف هذا المفكر الإسباني من المعتصم لاحقاً. وقد أشارت رسالة بعث بها أندريا كاسبارو كورسو إلى فليب الثاني من الجزائر بتاريخ 16 شتنبر 1571، أشارت إلى أن عبد الملك قد أسر في المعركة المذكورة. ويطالب باعثُ الرسالة من الملك الإسباني أن يطلق سراح عبد الملك هذا لما في ذلك من خير لإسبانيا، كما اقترح أندريا كاسبرو كورسو على فليب الثاني أن يدعم عبد الملك حتى يستعيد العرش ممّن ابن أخيه محمد المتوكل(50). وبفضل شبكة العلاقات التي نسجها المعتصم مع مجموعة من رجالات العرش الإسباني، ولا سيما مع عائلة كورسو أثناء وجوده مع أخيه المنصور في مدينة الجزائر، بفضل هذه العلاقات فُك أسره. لقد ساهمت مشاركة الأميرين في هذه المعركة في تكوين شخصيتهما، وجعلتهما يطلعان من الداخل على المؤسسات العسكرية والسياسية التي كانت مسؤولة سواء عند الأتراك أو عند حلفاء العصبة، ويدركان أن العودة إلى العرش في المغرب تقتضي منهما إيجاد الصيغ الملائمة لذلك من أجل استمالة هذا الطرف أو ذاك.

عبد الملك والصراع الإسباني - العثماني في تونس

لقد أثار انتصار المسيحيين في ليبنتو الحماس لدى أساطيل العصبة التي بدأت تخطط للتوسع في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط. وفي هذا الجو برزت عند الإسبانيين فكرة الاستحواذ على تونس. وفي هذا الصدد كتب المؤرخ هوسير يقول:

> صحيح أن دون خوان (أخ الملك الإسباني فليب الثاني وقائد الأسطول الإسباني في معركة ليبنتو) قد استغل انشغال فرنسا في حروبها الأهلية ليتوجه

---

(50) يمكن الرجوع إلى هذه الرسالة في:
S.I.H.M, 1ère série, dynastie saadienne, Espagne, T. III, pp. 181-183.

بأسطوله نحو السواحل الإفريقية للبحر المتوسط، واستطاع بفضل ذلك أن يغزو مدينتي بنزرت وتونس وأن ينصِّب على هذه الأخيرة أميراً حفصياً كان موالياً له: هو المولى محمد[51].

وقد اختار القائد الإسباني ذكرى معركة ليبنتو ليقوم بهذا العمل في 17 أكتوبر 1572، وشارك في هذه المعركة ضد تونس ثلاثة عشر ألفاً من الإيطاليين، وتسعة آلاف من الجنود الإسبانيين وخمسة من ألمانيا. وكان الأسطول يتكون من سبع ومئة قطعة بحرية مجهزة. ولما اقترب الأسطول من مدينة تونس، فر منها سكانها ودخلتها الجيوش الإسبانية بسهولة كبيرة؛ واحتار القائد خوان و لم يعرف ما يفعله بالمدينة.

لقد اهتم الناصري بتواطؤ الأمراء الحفصيين مع إسبانيا ومنهم الذين فتحوا لها المجال لتغزو تونس؛ وأرجع المؤلف موقف الأمراء الحفصيين إلى الإختلال والضعف الذي أصابهم فقال: "اعلم أن أمر بني أبي حفص، أصحاب تونس، كان قد مرج في هذه المدة وتداعى إلى الاختلال"[52]. بعدما دخلت الجيوش الإسبانية إلى تونس جعلت منها حماية مسيحية، وقررت أن لا تتوغل في التراب التونسي. وقد واجهت الحامية التي بقيت بالميناء صعوبات كثيرة لعل أهمها مسألة التموين، ولا سيّما أن إسبانيا كانت تعاني في هذه الفترة بالذات من أزمات اقتصادية وسياسية سواء داخل إسبانيا أو في العمالات المتحدة أو في فرنسا[53]. لقد كانت إسبانيا تسعى في تحقيق أهداف استراتيجية عندما قررت توسيع نفوذها في شمال إفريقيا. فبعد انتصارها في معركة ليبنتو حاولت القضاء على أسطورة سيطرة الأسطول التركي على المتوسط، فشجعت القرصنة المسيحية وجعلتها أداة لضرب مصالح الأتراك وعرقلة اتصالات هؤلاء مع إيالاتهم في شمال إفريقيا عن طريق البحر. غير أن امتداد الإمبراطورية التركية كان يسمح لها بالاتصال بتونس والجزائر

---

(51) H. Hausser, *La prépondérance espagnole (1559-1660)*, p. 91.

(52) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج. 5، ص. 59.

(53) F. Braudel, *La méditerranée*, *op. cit.*, T. 2, p. 423.

عن طريق البر. ولقطع اتصال القسطنطينية بالجزائر برّاً، تدخلت جيوش فليب الثاني في تونس. ويبدو أن إسبانيا انساقت وراء انتصارها النسبي على الأسطول التركي في ليبنتو، فلم تُعِرْ اهتماماً كبيراً لتفوُّق جيش الأتراك البري. وقد لاحظ المؤرخ جاستون زيلير أن الأتراك كانوا يفضلون الحروب في القارة على الحروب في البحر، لأن جيوشهم البرية كانت أكثر عددا وعدة ومهارة من أساطيلهم؛ ولأجل هذا كان تقدمهم بطيئاً في البحر المتوسط مقارنة مع توسعاتهم القارية(54).

لكن الاحتلال الإسباني لتونس لم يستمر طويلاً، لأن العثمانيين استعادوها بسرعة. وقد ساهم عبد الملك المعتصم إلى جانب الجيش العثماني في هذه المعركة. وتظهر المصادر أن مشاركة الأمير المغربي كانت الأساس الذي ارتكز عليه الأتراك والمنطلق الذي انطلقوا منه في دعمهم له في المطالبة بعرشه في المغرب. فكيف تمت استمالة الأتراك وعلى أي أساس ؟

أشارت المصادر والوثائق إلى كثرة تحركات عبد الملك وتنقلاته بين الجزائر والقسطنطينية في ما بين 1570 و 1574. لقد شارك في معركة ليبنتو وأسر فيها وأطلق سراحه كما تبين من خلال الرسالة التي بعث بها أندريا كاسبرو كورسو إلى فليب الثاني (55). لكننا لا نعرف التفاصيل عن هذا الأسر ولا عن الظروف التي تم فيها إطلاق سراحه(56). والظاهر أن عبد الملك قد عاد بعد هذا الأسر إلى الجزائر، حيث عمل من جديد على تكثيف الاتصالات مع الأتراك قصد إقناعهم بتقديم الدعم اللازم لقضيته. واستغل وجوده بالجزائر القريبة من المغرب لكي يقوم بالتخطيط والتحضير لمشروع العودة إلى بلاده، فكان إلى جانب أخيه أحمد يسهر على ربط الاتصالات الضرورية مع شيعه من القبائل المغربية أو من أطر المخزن

---

(54) G. Zeller, *Les temps modernes...*, *op. cit.*, p. 54.

(55) انظر الهامش 50.

(56) تبدو شخصية عبد الملك المعتصم شخصية جذابة، لكننا ما زلنا نجهل الكثير عنها. ويتطلب هذا بحثاً منفصلاً يوجه إلى دراسة الوثائق الأجنبيّة، ولا سيما العثمانية والإسبانية قصد اكتشاف الجوانب الغامضة وغير المعروفة عن هذه الشخصية.

نفسه[57]. ويبدو أن الأتراك لم يكونوا متحمسين في بداية الأمر لمشروع عبد الملك. وأشار الإفراني إلى ذلك بقوله: "فسار عبد المالك إلى اصطنبول وهي القسطنطينية العظمى، قاصدا للسلطان مراد العثماني... فنزل عليه وطلبه أن يمده بجيش يذهب به إلى المغرب فينتزع الملك من ابن أخيه فغضب عليه السلطان مراد و لم يوافقه على غرضه"[58]. ولاشك في أن اغتيال عبد المومن، وهو الأخ الأكبر لعبد الملك، من طرف ابن أخيه محمد المتوكل في تلمسان كان من العوامل الأساسية التي جعلت مراداً يغير موقفه[59]، ولاسيما وأن الغالب وابنه المتوكل كانا يشكلان استمرار النهج الذي تبناه محمد الشيخ تجاه الأتراك والذي كان يتميز بمعاداتهم، مما جعلهم يخططون لاغتياله. ولأجل هذا تبنى عبد الله الغالب بعدما خلف أباه سياسة الابتعاد عن الأتراك والحذر منهم. وفي المقابل، حاول الاقتراب من إسبانيا تحسبا لأي طارئ. وكان هذا الموقف لا يرضي الأتراك الذين دخلوا في اتصالات مع بعض أعيان المغرب كما تبين ذلك الوثائق العثمانية. فقد خاطب الباب العالي هؤلاء الأعيان في أحد أحكامه بقوله: "إلى العلماء والفضلاء وجميع الأمراء والأكابر وأهالي الإسلام بفاس وديار مراكش وبلاد سوس وسائر توابع تلك الأرض المباركة"[60]. وأشارت الرسالة إلى أن الأمير عبد المومن أحق بالولاية من أخيه عبد الله. ولأجل هذا طالبتهم بتنصيبه، لأنه "أولى بضبط تلك الولاية من عبد الله"[60].

---

(57) تحدث الفشتالي عن الطرق التي كان يستعملها المعتصم ليعرف ما كان يحصل في المغرب وليربط الاتصال مع أشياعه. ذكر الفشتالي ذلك عند كلامه عن نكبة القواد الأندلسيين من طرف المنصور. للمزيد من التفاصيل، انظر: الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 46 - 47.

(58) الإفراني، نزهة الحادي...، مصدر مذكور، ص. 59 - 60.

(59) Diego de Torres, *Relacion del origen y suceso de los xarifes y de estado de los reinos de Marruecos, Fez y Tarudante*. ed. Mercedes Garcia Arenal. Siglo Veinteuno editores. S. a Madrid 1960 "El hijo de Mulei Abdcla embio un criado suyo a Tremecèn a matar a su tio y le mato", pp. 293-295.

(60) عبد الرحيم بنحادة، "مساهمة الأرشيف العثماني في كتابة تاريخ العلاقات المغربية العثمانية من القرن 16 إلى القرن 17 م"، في: **المغارب في العهد العثمالي**، منشورات كلية الآداب الرباط، 1995، تنسيق عبد الرحمن المودن، ص ص. 14 -15.

ويبدو أن مشاركة عبد الملك في استعادة العساكر العثمانية تونس سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف قد أدّت الدور الحاسم في قبول الأتراك إمداده بالدعم اللازم حتى يتمكن من الاستيلاء على العرش على حساب محمد المتوكل. وقد تنبه المؤرخ الناصري إلى هذا الترابط فوقّف كلامه عن أخبار المعتصم ليتحدث عن انتصار حلق الوادي فكتب يقول: "ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها، ثم نرجع إلى بقية أخبار السلطان أبي مروان المعتصم بالله لأنها تَنْبَنِي على ذلك"[61]. لقد فهم الناصري أن عودة عبد الملك إلى السلطة كانت مرتبطة بمشاركته في حَلق الوادي. ويبدو أن عبد الملك قد عرف كيف يستغل هذا الحدث وهذه المشاركة لخدمة مشروعه. وتشير المصادر من جهة أخرى، دونما تدقيق، إلى تدخل سحابة الرحمانية لدى مراد العثماني لصالح ولدها بعدما انفردت بالسبق في تبليغه خبر انتصار جيوشه في حَلق الوادي. وفي هذا الصدد، كتب الإفراني يقول:

"وبعث معهم (عساكر مراد) مولانا عبد المالك... فهزم الله الكفرة ومكن من رقابهم السيف وطَهر البلاد من نجسهم بعد أن حاصرهم أربعين يوما، وذلك عام اثنين وثمانين وتسعماية. فكان مولانا عبد المالك أول من أرسل بالبشارة مع أصحابه إلى السلطان العثماني، فبلغت الرسالة أمه سحابة الرحمانية فأعطت للسلطان المذكور ما كتب به ابنها والتمست منه أن يعطيها في بشارتها أمر أهل الجزائر بالذهاب معه للغرب فأعطاها ذلك فجاء عبد المالك مع أمه بكتاب السلطان إلى أهل الجزائر يامرهم بالمسير معه إلى تملك ما كان بيد آبائه"[62].

فمن خلال ما سبق يظهر أن عبد المالك قد نجح في تحقيق خطته، وعمل كل ما في وسعه لتحقيق مبتغاه، فتنقل شرقاً وغرباً واستعمل تجاربه ومهاراته التي اكتسبها بمشاركته الفعّالة في صنع أحداث حاسمة عرفها البحر المتوسط خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. ولقد كان عبد الملك رجل البحر المتوسط فأثر في أحداثه وتأثر بها؛ وساهمت أحداث هذا البحر في صقل شخصية

---

(61) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.5، ص. 59.

(62) الإفراني، نزهة الحادي...، مصدر مذكور، ص. 62.

هذا الأمير المتميزة والتي كانت واعية كل الوعي بالمنعطف الذي كان يعيشه العالم، شأنه في ذلك شأن أخيه أحمد المنصور الذي ركب ما بناه عبد الملك على أثر وفاة هذا الأخير في معركة وادي المخازن. فحاول المنصور بعد المعركة أن يستغل الظروف الجديدة ليجعل من المغرب طرفاً مشاركاً ومسايراً لأحداث الكون في نهاية القرن السادس عشر. فما الأحداث التي طبعت هذه المرحلة؟ وكيف ساهمت في بلورة شخصية الفاعلين فيها ؟

معركة وادي المخازن وأبعادها الدولية

قيل الكثير عن هذه المعركة. فهي في الرواية المغربية معركة وادي المخازن، ومعركة الملوك الثلاثة، ومعركة وادي المخازي[63]. وشبهها الإخباريون بغزوة بدر، وكان انتصار المغاربة انتصارا للإسلام وللملّة المحمدية. واستبشر الفقهاء بهذا الانتصار ورأوا في موت ثلاثة ملوك رمزاً وإشارة إلى انهزام التثليث، وذكر المغاربة ذلك في نثرهم وشعرهم. وأشار ابن القاضي إلى المسألة في شكل تعجب حين قال: "فانظر لحكمة الله القهار! أهلك ثلاثة ملوك في يوم واحد، وأقام واحدا"[64]؛ وفي قصيدة شعرية لأبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي نقرأ:

وجردت في ذات الإله صوارما ... تصول بها والعاجزون نيام
ضربت بها التثليث للحتف ضربة ... فلم يبق بعد للصليب قيام
وأمطرت وبلا بالمخازن قطره ... بموت الأعادي يندق وسهام[65]

فإذا انتصر المسلمون، فإن ذلك يرجع إلى الحكمة الربانية وإلى مشاركة جنود الرحمن على حد قول الفشتالي: "وبذلك المشهد الكريم الذي حضرته ملائكة

---

(63) ابن أبي علي، الإصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت، مصدر مذكور، مخ.، خ.ح.، رقم 100، ص. 28.

(64) ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، دار التراث، تونس/مصر، 1971، ج.2، ص.225.

(65) أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط، طبعة ثانية، 1983.

الرحمان وجنود الأرض والسماء ما شمل الناس بمَنّه وبركته وسعدوا بطائره إلى يومنا هذا"[66].

تعددت أسماء المعركة في الأسطوغرافية المغربية. ومع ذلك، فإن الوثائق والمصادر العثمانية لا تستعمل هذه الأسماء المعتادة في المغرب وتلجأ إلى استعمال كلمات لم ينجح الباحثون الأتراك وغيرهم إلى اليوم في حل لغزها؛ فيستعملون حسب عبد الرحمن المودن La bataille de WADIUSSEYL. ولاحظ هذا الأخير أن المجهودات المبذولة حتى اليوم لم تُسْفِرْ عن نتيجة نهائية[67]. وتناولت المصادر والوثائق البرتغالية المعركة من زاوية دينية تشاؤمية، على عكس المصادر المغربية؛ فرأى البرتغاليون في انهزامهم فيها عقاباً من الله وحملوا المسؤولية للنبلاء ولرجال الدين الذين لم يعرفوا كيف يحدون من اندفاع دون سيباستيان الناتج عن صغر سنه وقلة تجربته. وبالرغم من ذلك، قدس البرتغاليون هذا الأمير ونزهوه وجعلوا منه مثيراً للمهديّ المنتظر، وخلد الشاعر فرناندو بْسُوَا اسم دون سيباستيان بقصيدة في هذا المعنى سماها باسمه:

لتكن مآسي الرمال والموت والشقاء
فإني لن أعبأ بها ما دمت مصوناً في الرعاية الربانية
فمعنى ذلك أني عائد لا محالة[68]

فالملك حسب هذا المعتقد لم يمت في معركة وادي المخازن، ولكنه ما زال أسيراً عند المغاربة في جزيرة بعيدة، ومن هذه الجزيرة سيعود ليحرر شعبه[69].

---

(66) الفشتالي، مناهل الصفا...، مصدر مذكور، ص. 27.

(67) A. El Moudden, "Qui a dirigé la bataille de Wad al-Makhazin? (Présentation d'un document ottomano-sa'di inédit)", in *Hesperis-Tamuda*, Vol. XXIX, fasc 2, 1991, p.177, note 1.

(68) F. Pessoa, *Meusagem...*, *op. cit.*, p. 230.

(69) Maria Isaura Pereira de Queiroz, *Historia y etnologia de los movimientos mesianicos siglo veinleuno*, editores, Madrid, 1978, 2^e^ ed, p. 59.

لقد غذّت معركة الملوك الثلاثة الخيال الشعبي سواء في البرتغال أو في المغرب، فانتقلت أسطورة دون سيباستيان ـ كما تقول لوسيت فلنسي ـ عبر الإمبراطورية البرتغالية وجُرّدت هذه الأسطورة من جوهرها التاريخي لتصبح إديلوجية اشترك فيها دون سيباستيان مع ملوك آخرين[70]. وكانت المعركة ملحمة مغربية حمت البلاد من السطو الصليبي، بل كانت أساساً لبناء القومية المغربية كما ذهب إلى ذلك محمد حجي: "ولعل أروع مظهر للقومية المغربية في القرن العاشر هو معركة وادي المخازن... أثار الخطر الداهم حماساً وطنياً... إن حادثة وادي المخازن، بكل واقعية وتجرد عمل أمة واعية وجهد قومي صرف"[71]. فكانت هذه المعركة القاعدة الصلبة التي بنى عليها أحمد المنصور كل تحركاته، ووظف عبد العزيز الفشتالي كل مهاراته واستغل المعركة لإبراز أحمد المنصور وبناء صورته التي أرادها أن تكون جذابة فريدة. وفي المقابل، عمل كل ما في وسعه ليبعد عبد الملك ويجعله يقوم بدور ثانوي وهامشي بالمقارنة مع الدور الذي أعطاه لأحمد المنصور، فأصبح هذا الأخير هو الفاعل الحقيقي والمدبر الماهر. ولولاه، لحلت الكارثة. وبسبب مرض المعتصم أصاب المغاربة الهلع والخوف من جراء "زحف طاغية البرتغال في جموع الشرك، لوادي المخازن وإرجاف الناس بمرض المعتصم. فارتبك الأمر وأرعدت سماء الهول... واضطربت أحوال المسلمين وانحلت عزائم المستضعفين"[72]. وركز الفشتالي على مرض عبد الملك ليقوي أسطورة أحمد الذهبي بصفته فاعلاً وحيداً لمعجزة القرن: "فقام ـ أيده الله ـ على أحزاب الشرك وطواغيت الكفر وحده لانقضاء أخيه المولى عبد الملك... فكان في موته ساعتئذ وأحزاب الطاغوت فاغرة الأفواه لالتهام أنصار الملة كبوة للإسلام... لولا أن الله تعالى جبر الصدع... بمولانا أمير المومنين (المنصور)"[73]. وقد رددت جل الروايات

---

(70) L. Valensi, *Fables de la mémoire, la glorieuse bataille des trois rois*, Seuil, Paris, 1992, p. 166.

(71) محمد حجي، **جولات تاريخية**، ج.2، ص ص. 558 ـ 559.

(72) الفشتالي، **مناهل الصفا...**، مصدر مذكور، ص. 27.

(73) الفشتالي، **مناهل الصفا...**، مصدر مذكور، ص. 37.

اللاحقة ما نسجه الفشتالي الذي أبعد عبد الملك قصداً، مع العلم أن هذا الملك الفضل - كما سنرى - في تهييء المناخ الداخلي والخارجي الذي سيؤهل المغرب ليخرج منتصرا في هذه المعركة. وأكثر من ذلك، فقد قام المعتصم بدور أساسي في رعاية أحمد المنصور وتأطيره سواء أيام النفي أو بعد العودة. ويتأكد هذا من رسالة بعث بها المعتصم إلى أخيه عندما كان ينوب عنه في فاس، وصفه فيها بالتقاعس والتراخي عن القيام بأمور الدولة مع العلم أنه هو الذي سيخلفه في الأمر: "من عبد الله المعتصم بالله... إلى أخينا بابا أحمد... أما بعد، فاعلم أني لا أحب أحداً بعد نفسي كمحبتي لك، ورغبتي في انتقال هذا الأمر بعدي إليك لا لغيرك. غير أني أعتاد منك التراخي في الأمور حتى أنك لا تبالي بعظيم الأمر ولا تعتبره"[74]. واستمر المعتصم في لوم أحمد المنصور ونبهه إلى جسامة المسؤولية. ومع ذلك، لاحظ أن أخاه قد تغافل في أمور خطيرة على استمرار الدولة: "من الأمور التي تكاد - لولا لطف الله - تذهب بهذا الملك وتهد أركانه"[74]. وهكذا تظهر هذه الرسالة عناية المعتصم بتكوين شخصية أخيه وتأطيره التأطير الملائم واللازم حتى يكون أهلاً للمسؤولية التي ستناط به. ويُظهر خطاب الرسالة أن المنصور كان تابعاً للمعتصم الذي لم يكن يتردّد في استعمال الكلمات التي توحي بالأمر والنهي إن اقتضى الحال ذلك. فبعدما طالب المعتصم أخاه بأن ينفذ الأمر المتعلق بإرسال المؤونة للجيش المرابط في أصيلا، كتب يقول له: "لا نقبل منك عذرا في هذه المسألة التي لا تحتاج إلى إهمال ولابد ولابد"[75]. ترجع هذه الرسالة أحمد المنصور إلى المكانة الحقيقية التي كان عليها أيام عبد الملك، وتظهر هذا الأخير مهندساً ومدبراً. فنراه يطالب أخاه بالانتباه من "الغفلة" واتخاذ "الحزم والتشمر عن ساعد الاجتهاد والعزم. والسلام"[76] .

وكان المؤرخ المجهول من الذين ركزوا على إبراز الأدوار التي قام بها

---

(74) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.5، ص ص. 66 - 67.

(75) المصدر نفسه...، ج.5، ص.67.

(76) المصدر نفسه.

المعتصم بصفته منظما وفاعلاً، وأسند إلى أخيه أحمد الدور الثاني، وستزداد مكانة هذا الأخير وتتقوى بعد نهاية المعركة. ونحا ابن أبي محلي منحى المجهول. فقد خص هذا الفقيه أبا مروان بأوصاف معبرة. فهو أبو مروان "الشجاع" و "صقر الملوك" و "الليث المصور"[77].

كذلك تميزت المصادر الأجنبية بموقف مشابه، فأظهرت المراسلات الأدوار التي قام بها عبد الملك قبل المعركة وخلالها، وعن تحركاته الكثيرة، فقد راسل فليب الثاني بعدما علم بمشروع دون سيباستيان الهادف إلى غزو المغرب، فطلب عبد الملك من الملك الإسباني أن يتدخل ليوقف الملك البرتغالي، بل راسل المعتصم أيضا هذا الأخير وحاول إغراءه وحمله على التراجع، لكن دون جدوى. ولما لم يوفق، بدأ يهيء المغاربة للمواجهة الحاسمة. وربما ضخمت الكتابة الأوربية أدوار عبد الملك الذي حظي بود وعطفٍ لدى هؤلاء، مما جعل شخصيته تحتل مكانة خاصة في بعض الكتابات المسرحية أو الشعرية كما سنبين ذلك لاحقاً عند كلامنا عن شخصية عبد الملك المحددة. ولاشك في أن الوثائق المتوافرة والدراسات المنجزة تساعدنا اليوم على إدخال النسبية وإعادة النظر في الرواية الموروثة تلك التي اعتمدت على للصادر المنحازة لأحمد المنصور من أمثال الفشتالي والمقري وابن القاضي[78].

وكانت المعركة أساسية في تكوين عبد الملك وأخيه أحمد، مع العلم أن الذي استفاد من نتائج المعركة هو هذا الأخير. فإذا كان الحدث مناسبة أظهر فيها عبد الملك مهارته وتجربته المتوسطية، فقد تسنى له ذلك قبل المواجهة كما يتبين ذلك من المراسلات العديدة التي تمت بينه وبين الفاعلين في البحر المتوسط (مراد

---

(77) لمعرفة مواقف ابن أبي محلي من عبد الملك خلال معركة وادي المخازن، يمكن الرجوع إلى: القدوري، ابن أبي محلي ورحلته الإصليت، مرجع مذكور، ص ص. 86 - 87.

(78) ولعل هذا الهاجس هو الذي جعل عبد الرحمن المودن يتساءل عن القائد الحقيقي لمعركة وادي المخازن. انظر المقال في:

A. El Moudden "Qui a dirigé la bataille de Wad al Makhazin? (présentation d'un document ottomano .Sa'di inédit), *Hespéris-Tamuda*, Vol. XXIX, fasc. 2, 1991, pp. 177-183.

الثالث - فليب الثاني - دون سيباستيان وهنري الثالث). و من جهة ثانية، كان تأطيره للجيش واستنفاره لكل المغاربة وتحديده للخطة الحربية مبادرات أكدت بجلاء أن المعتصم كان رجلاً مندمجاً في عصره ومسايراً له. وفي المقابل، فإن أحمد المنصور قد استغل ووظف ما بناه أخوه، وكانت استفادته من الانتصار أكبر مما كان متوقّعاً. فبفضل المعركة، صار في استطاعته أن يفكر في مشاريع، وأن ينجز بعضها، ويحاول أن يدخل المغرب إلى العصر الحديث. فالمعركة ما زالت عالقة بأذهان المغاربة وما زالت القوى السياسية تحتفل حتى اليوم بهذه الذكرى. وقد بينت لوسيت فالنسي محاولة علال الفاسي احتواء الحدث ورموزه سنة 1957[79]، فتكلمت عن "إعادة اختراع الحدث" وعن "الحدث المدشن"[79] لإعادة بناء الذاكرة الوطنية.

كان هم فليب الثاني الأساسي هو محاربة المسلمين وأهل البدع من المسيحيين. و لم يكن يميز بين هؤلاء وأولئك، فكلهم أداة يسخرها الشيطان. وقد اشتد صراع الملك الكاثوليكي ضد دعاة الإصلاح في فرنسا، ولا سيما من العمالات المتحدة التي كانت تابعة له. واستغلت هذه الأخيرة الإصلاحات الدينية، نظراً لتسرب أفكار كل من كالفان ولوتر في المجتمع الهولندي. وأصبحت هذه المنطقة تطالب بالاستقلال عن إسبانيا. وقد انتبه أبو القاسم الحجري إلى تجدر الأفكار الداعية إلى إصلاح الكنيسة في هذه العمالات. وعن ذلك كتب يقول في رحلته:

"واعلم أن هذه فلنضس، هي سبع عشرة جزيرة، وجميعها كانت لسلطان بلاد الأندلس. وبعد أن ظهر في تلك البلاد رجل عالم عندهم يسمى بلطرى (Luther) وعالم آخر يسمى بقَلْبِن (Calvin)، وكتب كل واحد منهما ما ظهر له في دين النصارى من التحريف، والخروج عن دين سيدنا عيسى والإنجيل، وأن البابا برومة يضلون الناس بعبادة الأصنام، ولما يزيدون في الدين بمنع القسيسين والرهبان من

---

(79) L. Valensi, *Fables de la mémoire*..., p. 229 et 232.؛ علال الفاسي، معركة وادي المخازن في ذكراها الأربعمائة، مطبعة الرسالة، الرباط، الطبعة الثانية، 1978.

التزويج، وغير ذلك كثير. ودخل في هذا المذهب جميع أهل فلنضس، أعني الجزر السبعة وقاموا على سلطانهم إلى الآن"[80].

وفعلاً، اشتدت كراهية أهل فلنضس لإسبانيا وقاوموا وجودها وأدت تلك المقاومة إلى ما عُرف بحرب الثمانين سنة بين الطرفين (1567 - 1648). وقد حصلت هذه العمالات على استقلالها بعد تضحيات جسيمة، لأن التجاوزات الإسبانية كانت كثيرة ومدمية للذاكرة الهولندية كما تبين ذلك الدراسات الحديثة أو اللوحات الفنية المستوحاة من تلك الأحداث ومن تلك المعاناة: "إن شجاعة الإنسان الهولندي وتضحياته هي التي قاومت ـ بفضل التلاحم المتجسد في الأسرة ـ وشراسة الإسباني وقسوته على أهل فلنضس. هذه المعاناة هي التي وشمت الذاكرة الهولندية وكتبت تاريخها القومي"[81].

أشرنا إلى هذه الأحداث التي لم تكن غائبة عن أحمد المنصور: لقد كان يعرفها، ولكنه لم يكن يكتفي بمعرفتها، بل كان يوظفها لخدمة أغراضه السياسية. وعلى هذا الأساس، نجد لها صدى فيما دوّنه الفشتالي الذي أبرز الصراعات الجارية بين الكاثوليك بزعامة فليب الثاني والبروتستانت بزعامة أنجلترا. وكان الفشتالي واعيا بالمقاصد الحقيقية لهذا الصراع والتي كانت تتجسد في محاولات أنجلترا مزاحمة إسبانيا في استغلال خيرات العالم الجديد. وفي هذا الصدد يقول:

> وملأت عليه البحر أساطيلها (يعني إيليزابيت) وجرت عليه (فليب الثاني) هزائم، وأتيح لها عليه الظهور وأوغلت في مضايقته ... وملكت عليه البحر أجمع. فكادت أساطيلها تقطع عنه منافع الهند ومجابيه وعطلت على بلاده مرافق البحر والتجر وضاق منها مخنقه إلى اليوم"[82].

وكان أحمد المنصور يعلم أن فليب الثاني يعاني من التحالف البروتستانتي ضده: "وتكالبوا عليه... ثم عززوا بثالث الأثافي من أهل فلنضس... فأضرموا عليه

---

(80) أحمد بن قاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1987، ص ص. 105 - 106.

(81) Simon Schama, *l'Embarras de richesses, la culture hollandaise au Siècle d'or*, Gallimard, Paris, 1987, p. 126.

(82) الفشتالي، مناهل الصفا...، مصدر مذكور، ص. 194.

في جهات ممالكه ناراً وفتنة وصلَى بنار حروبهم براً وبحراً.."[83]. وازدادت محنة فليب الثاني وانهزمت أساطيله وطمع فيه كل الأعادي. واعتبر الفشتالي ذلك عزة للإسلام ومنفعة للمنصور الذي كان يتابع عن كثب ما كان يحدث ويخطط لما سيصنع: "وألبسته (يقصد فليب الثاني) هذه المعرة الشنعاء الذل والصغار وحلته الهوان عند الملوك أضداده، فأطمعتهم فيه وفغروا أفواههم من كل جانب إلى التهامه مكن الله منه بعنايته وعزته حزب الإسلام وجعل ملكه نهبة سيوف مولانا الإمام"[83].

وكانت أنجلترا، ذات الطموحات البحرية، لا تقبل بسيطرة إسبانيا على الإمبراطورية البرتغالية، فصار فليب الثاني يتكلم عن تأسيس المملكة المسيحية الكونية[84] التي أصبحت في حاجة ماسة إلى الأمن في الطرق البحرية. ولم تعد مسألة السيطرة على البحر مجرد شرط من شروط القوة، بل صارت شرط وجود للإمبراطورية[85]. وتمكن أحمد المنصور من الاطلاع على خبايا هذه الصراعات الأوربية وأبعادها، وحاول أن يوظفها لخدمة تطلعاته السياسية والاقتصادية واستطاع أن يجعل من المغرب طرفاً فيها لا يمكن تجاوزه، واستغل هذا الدور ليخطط لمشروعه القاضي بغزو السودان وينفّذه: "وقيض له منها ـ أيده الله ـ بمقتضى حزمه وواسع تدبيره وشدة احتياطه شاغلاً يشغله تفرغاً واستجماعاً إلى ما كان ـ أيده الله ـ صرف إليه وجه عزائمه الماضية من تجهيز العساكر إلى بلاد السودان"[86].

وهكذا يكون البحر المتوسط قد عاش في الثلث الأخير من القرن السادس عشر الميلادي الأحداث المنعطفات خلال سنوات 1571 و 1574 و 1578. وارتبط المغرب ارتباطاً عضوياً بهذه الأحداث، واستطاع أن يندمج في السياسة المتوسطية

---

(83) المصدر نفسه، ص. 196.

(84) F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op. cit.*, T. II, p. 467.

(85) H. Hausser, *La prépondérance espagnole 1559-1660*, *op. cit.*, p. 111.

(86) الفشتالي، مناهل الصفا..، مصدر مذكور، ص ص. 193 ـ 194.

وأن يكون خلال هذه الفترة عنصراً فاعلاً في أحداثها. وتجسدت هوية المغرب المتوسطية وقتها في شخصية عبد الملك المعتصم، الذي عرف كيف يتسرب إلى داخل المنظومات السياسية التي كانت تتحكم في مصير هذه البحيرة (الأمبراطورية الإسبانية والأمبراطورية العثمانية). وكانت سنة 1588 تنذر ببداية التفوق الإنجليزي بعد انهزام أسطول الأرمادا الذي لا يُقهر. وجسد هذا الانتصار منطلق تجاوز أوربا الشمالية على أوربا المتوسطية، وكان أحمد المنصور واعياً بهذا المنعطف شأنه شأن أخيه المعتصم قبله.

2 - خطة عبد الملك التحديثية

لا نعرف الكثير عن عبد الملك لأنه توفي يوم الحدث/المنعطف في معركة وادي المخازن. وبسبب غيابه همشته الأسطوغرافيا لتركز على شخصية رفيقه وأخيه أحمد المنصور. فكيف يمكن تجاوز الخطاب الذي نسجه إخباريو أحمد المنصور ومؤرخوه عن فترة حكم المعتصم؟ لقد حيا جاك بيرك في عبد الملك ميزة سلطان الأزمنة المغربية الجديدة[87]. فأين تتحدد عناصر هذه الجدة؟ وهل كانت لعبد الملك خطة تحديثية تهدف إلى مسايرة عصره؟ وإذا كانت، فما هي المجالات التي مستها؟ وهل وُفّق في محاولاته أو لا؟

عبد الملك الرجل: التكوين والتجربة

ازداد عبد الملك سنة 1541، حسب ديكودي طوريس الذي أشار إلى ذلك في معرض حديثه عن محمد الشيخ سنة 1553 فقال: "كان للشريف ولد في سن الثانية عشرة سنة اسمه عبد الملك"[88]. ولا تتحدث المصادر بتفصيل عن تكوين هذا الأمير في السنوات الأولى من حياته: كيف تعلم المبادئ الأولى؟ وأين؟ وعلى يد

---

(87) "On peut saluer en ce dernier (Abd al -malek) un sultan des temps nouveaux", in J. Berque, *Ulêma, fandateurs, insurgés...*, *op. cit.*, p. 18.

(88) D. De Torres, *Relacion...*, pp. 242-243.

من؟ لقد خصص ابن القاضي لعبد الملك ستة أسطر في " درة الحجال": ذكر نسبه الشريف في سطرين وأشار في ما تبقى إلى أنه أخو أحمد المنصور وأنه توفي مسموماً: "وكان عبد الملك ضعيفاً من سم كان به... ثم إن أبا العباس عمد الصبر وقاتل قتالاً عظيماً فلم يمر على النصارى إلاّ مقدار ثلاث ساعات إلاّ وهم كلهم تحت أسره"[89]. فالحديث عن المعتصم يكون بمجرد مناسبة للوقوف عند معجزات المنصور. وسارت على هذا المسار جل المصادر والمراجع، وانطلقت جل المصادر في كلامها عن المعتصم من سنة 1557، وهي السنة التي اغتيل فيها والده على يد الأتراك. وكان المعتصم، وسنه سبعة عشر سنة حينئذ، نائباً عن أبيه في سجلماسة بعيداً عن مراكش. فقد تحمل المسؤولية وهو صغير السن في منطقة كانت تعرف مخاضاً، لأنها بدأت تعرف تراجعا بعدما كانت "جنة الأمصار وصرة المغرب الأقصا... ومنها تسافر الأركاب إلى بلاد السودان للتجارة وكذلك للحج"[90]. وقد تحمل عبد الملك المسؤولية فيها في وقت كانت تعرف تحوُّلاً وركوداً. وقد أشار حسن الوزان إلى الصراعات التي كانت قائمة بين القصور والأعراب "وانهم افترقوا (القصور) شيعاً وأحزاباً واستعان كل حزب بالأعراب"[91]. وأشار كل من مارمول وطوريس إلى هذه الصراعات وبين طوريس كيف تمكن محمد الشيخ من السيطرة على المنطقة قبل أن يعين عبد الملك نائباً عنه فيها"[92]. فلاشك في أن هذه الأحداث أكسبت المعتصم تجربة، وساهمت في تكوينه، وجعلته يعرف الصراعات القبلية عن كثب، وإن كانت المصادر لا تذكر تكوينه العلمي فيظهر أنه تعلم

---

(89) ابن القاضي، درة الحجال...، مصدر مذكور، ج.3، ص. 225.

(90) ابن أبي محلي، التقييد في التعريف بمدينة سجلماسة، مخطوط، خ.ح.، رقم 2634.
انظر كذلك:

Larbi Mezzine, *Le Tafilalet, contribution à l'histoire du Maroc du XVIIet XVIIIè siècle*, p. 272.

(91) حسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج.2، ص. 126.

(92) D. de Torres, *Relacion...*, op. cit., pp. 108-109.

المبادئ الأولى داخل القصر، وإن لم يكن هذا التعليم تعليماً منظّماً. لقد أشار ديكو دي طوريس إلى إرادة الأمير عبد المومن تعلم اللغة الإسبانية. وتعرف هذا الأخير بطوريس الذي كان أسيراً وحصل بينهما وُدّ وصداقة. وطلب عبد المومن من طوريس أن يعلمه اللغة الإسبانية: "لقد ارتبطت معه بصداقة... وكان يلح عليَّ أن ألقنه دروساً في الإسبانية... وقد وجدت في ذلك الفرصة لأعلمه بعض القضايا من عقيدتنا"[93]. فإذا كانت المصادر العربية قد تحدثت بإيجاز عن المعتصم، فإن المصادر والمراجع الأوربية فصلت القول في ذلك. لقد فر هذا الأمير مع أخيه إلى تلمسان ومنها إلى مدينة الجزائر. وتعتبر المرحلة التي قضاها في هذه المدينة أساس تكوين شخصية عبد الملك. فما الظروف والملابسات التي كانت وراء تكوين هذه الشخصية المجددة؟ الملاحظة الأولى أنه هاجر إلى الجزائر بصحبة أمه "سحابة الرحمانية" التي لا نعرف عنها الكثير. ويبدو أنها كانت حاضرة بقوة في تكوين ابنها وتوجيهه.

لقد استقر عبد الملك وأخوه في الجزائر داخل مناخ متوسطي وكوني متميز. كانت المدينة حاضرة بقوة في البحر المتوسط بسبب ممارستها للقرصنة سواء في البحر أو المحيط، ولم تكن القرصنة حركة إسلامية أو حركة مسيحية، بل كانت ظاهرة كونية لا يمكن ربطها ببلد دون آخر أو بضفة دون أخرى. وارتبطت القرصنة في هذه المرحلة بالمدن، فبرزت الجزائر وتطوان وطرابلس والعرائش في العالم الإسلامي؛ وظهرت مدينة بليرمو ومالطا وفلنسيا وغيرها في العالم المسيحي.

استقر عبد الملك وأحمد المنصور في مدينة الجزائر التي لم تكن مدينة مهمة في مطلع القرن السادس عشر. وقد نمت واتسعت على الطريقة الأمريكية على حد قول بروديل خلال الأيام التي عاش فيها الأميران المغربيان[94]. وقد عرفت ذلك الانفجار بسبب القرصنة، إذ وجد فيها القراصنة ما كانوا يبحثون عنه: الحماية

---

(93) *Ibid.*, p. 208.

(94) F. Braudel, *La Méditerranée*..., T.2, p. 194.

الطبيعية، الأمان الداخلي، إمكان تصريف مأخوذاتهم: "تميزت المرحلة الممتدة بين سنتي 1560 و 1570 بانتشار حركة القرصنة في غرب البحر المتوسط، وبالخصوص القرصنة الجزائرية"[95]. وارتبطت القرصنة بالحياة في هذا البحر وساهمت في تنشيط الاقتصاد والثقافة ودعمت الاتصالات في ما بين الشمال والجنوب. وكانت مدينة الجزائر مركزاً للتواصل والتبادل الثقافي واللغوي والحضاري، لأن ساكنتها كانت ساكنة كوسموبولتية توجد بها جميع الأجناس والأديان واللغات. وتسبب هذا الواقع في التمازج والتلاقح، فشكلت المدينة فضاء للانفتاح. فإذا كانت في مطلع القرن مدينة ذات سمات بربرية، وذات سمات تركية على عهد بربروس، فإنها أصبحت زمن علج علي وخلال الفترة الممتدة بين سنتي 1560 و 1587 مدينة إيطالية ذات نفحة شمالية مع نهاية القرن السادس عشر[96]. ولأخذ فكرة عن هذا الجو الذي تكون فيه عبد الملك وأحمد المنصور، نقف وقفة سريعة عند الحياة اليومية لهذه المدينة كما جاءت بها المصادر:

> تزخر الدكاكين في مدينة الجزائر بكل ما كان يأتي به القرصان، وتوجد بها كذلك منتوجات الأراضي الفلاحية المجاورة... وكانت الطرق والأزقة ذات حركة دؤوبة، وكان الأصدقاء يجلسون في المقاهي المنتشرة في المدينة لتبادل الرأي فيما بينهم... وتوجد في المدينة حانات كثيرة يسهر على تسييرها العبيد والأسرى[97].

ففي هذا الجو الكوسموبوليتي، قضى عبد الملك شبابه إلى جانب أخيه (1557 - 1569)، واستطاع أن يربط علاقات وصداقات متوسطية، وأن يتعرف الإواليات التي كانت تتحكم وقتها في تسيير العلاقات بين الدول، وانتبه إلى الأرباح التي كانت تدرها مؤسسات القرصنة على البلدان التي جعلت هذا النشاط قاعدة أساسية لضمان ما تحتاجه ولا سيما المدن الدويلات. ولم يبق عبد

---

(95) *Ibid.*, p. 203.

(96) *Ibid.*, p. 207.

(97) Corine Chevalier, *Les Trentes 1ères Années de l'État D'Alger1510-1541*, Alger, Office de Publication Universitaire, 1986, pp. 72-73.

الملك بعيداً عن أحداث البحر المتوسط، بل ساهم وشارك بفعالية في عدة حملات عسكرية قادها الأسطول العثماني ضد المسيحيين، وساعدته هذه المشاركة على تعرُّف القدرات العسكرية العثمانية، وساهمت في تكوينه العسكري وبلورة مهاراته الحربية التي سيظهرها بعد عودته إلى المغرب. فقد كان يشرف شخصيّاً على ترتيب جيشه كما أشار إلى ذلك المؤرخ المجهول عندما قال: "ونزل مولاي عبد المالك عن فرسه ومشى على قدميه وأخذ في ترتيب الجيوش"(98). وكان هذا السلطان مداوما على التمارين الرياضية. وقد اعتبرته المصادر الأجنبية الجندي والقائد الماهر المقدام(99). شارك إلى جانب الجيش العثماني في معركة ليبنتو عام 1571 وأسره فيها الجيش الإسباني كما أدّى أدواراً هامة في انتصار العثمانيين في حَلق الوادي سنة 1574 وهيأ الظروف والجو لانتصار المغاربة في معركة وادي المخازن.

وكان للمعتصم اهتمام كبير بتعلم اللغات الأجنبية: "وكان مولاي ملوك - يقول الجنابي - شجاعاً خيّالاً ظريفاً يعرف العربي والتركي والإفرنجي إلى الغاية"(100). وقد خلّد الشاعر والمفكر الإسباني ثربانتيس شخصية عبد الملك في مؤلفه "حمامات الجزائر" (Los banos de Argal) يوم كان هذا المفكر أسيراً في هذه المدينة. ولاشك أن لهذا التخليد علاقة بالسمعة والمكانة التي كان يحظى بها عبد الملك عند المسيحيين الذين كانوا يترددون على الجزائر. وأشار ثربانتيس إلى أن هذا الأمير كان يعيش على الطريقة الأوربية:

"هذا الرجل الذي يقدم نفسه بأنه ملك فاس، هذا المغربي الذي طبّقت شهرته كل الآفاق، هذا المومن الملتزم بعقيدته وبقوانينها إنه لغريب حقّاً، لأنه يتقن اللغة التركية والإسبانية والفرنسية، وينام في فراش مرتفع عن الأرض ويأكل فوق

---

(98) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية...، مصدر مذكور، ص. 54.

(99) B. Loupias, *"La chronique de Fray Bautista"*, in *Hesperis - Tamuda*. Vol. XXIV, fasc. Uniq., 1986, p. 94.

(100) مصطفى بن حسين الجنابي، البحر الزاخر والعيلم التيار. مخ، خ.ح.، رقم 1507، ص. 541.

الطاولة جالساً على الطريقة المسيحيّة. وفوق هذا وذاك، فإنه القائد الشجاع والإنسان الحليم الكريم"[101].

لعل تأثره بقوة الباب العالي وجلاله جعله يومن ويعمل، يوم أخذ السلطة من ابن أخيه محمد المتوكل، على تبني عادات الأتراك وتقاليدهم سواء في اللباس أو التنظيم. وقد أشار الجنابي إلى ذلك بقوله: "وسمعنا أنه تزيا بزي الأروام في اللباس والعمامة ولبس الطرطور الأحمر، وهو غير ما يعهده أهل تلك البلاد"[102]. وكان عبد الملك مولعاً بقراءة الكتب الأجنبية. فقد طلب من أحد التجار في رسالة مؤرخة بتاريخ 3 مايو 1576 أن يرسل إليه بكتابين أو ثلاثة كتب عن حياة شاركان، بل دفع عبد الملك الأسير فراي بَاوْتِيسْتَا إلى كتابة مؤلَّف عن حياته باللغة الإسبانية ويطبع في مدينة فلنسيا وسنعود لهذا المؤلف لاحقاً. كانت شخصية هذا السلطان شخصية متميزة تأثرت بعادات وتقاليد لم تكن مألوفة في المغرب؛ وأكدت تقارير وكلاء الدول ميل عبد الملك إلى الموسيقى والرقص الأوربي وإلمامه بهما، وكان يحسن العزْف على آلات موسيقية عديدة[103]. لقد حاول عبد الملك، بمساعدة وكيل إنجليزي، أن يستقدم إلى المغرب مجموعة موسيقية أنجليزية. وأكد السفير إيدموند هوكان الذي زار المغرب مبعوثاً من طرف الملكة إيليزبيت في مايو 1577 إلى مراكش على اهتمام وشغف عبد الملك بالموسيقى الأوربية. وأشار هوكان أن المعتصم قد استفسره عن الأسباب التي حالت دون وصول الموسيقيين الأنجليز إلى المغرب كما كان منتظراً[104].

ويظهر مما سبق تفتُّحُ شخصية عبد الملك على أوربا ومعرفته لذهنية وأذواق الأوربيين، وربما كان مستعداً للاندماج في هذا المناخ بسبب الجو الذي

---

(101) B. Loupias, "La Chronique de Fray Bautista", pp. 137-138.

(102) الجنابي، البحر الزاخر...، مصدر مذكور، ص. 539.

(103) B. Loupias, La chronique, pp. 435-438.

(104) "Then I presented him a great base lute, which he must thank fulley accepted, and then he was désirous to hear of the musician", (in *S.I.H.M.* 1ère série, Angleterre, T. 1, p. 244.

كان سائداً في البحر المتوسط خلال هذه الفترة. فإذا كان هذا الاستعداد حاصلاً في شخصية هذا السلطان المتميز، فما المجالات التي أظهر فيها إرادته التحديثية المسايرة لأوربا، وهل نجح في محاولاته؟

محاولات عبد الملك التحديثية

ركزت المصادر المغربية والأجنبية على عبد الملك رجل الدّولة ذي الأبعاد المتعددة. فقد اعترف عبد العزيز الفشتالي - بوق أحمد المنصور - بالعمل المجدد الذي أنجزه المعتصم، وإن كان هذا المؤرخ يوظف ما قام به عبد الملك لإبراز عبقرية المنصور، وفي هذا الصدد لاحظ بأن الدولة الشريفة كانت ــ قبل وصول المعتصم إلى الحكم - ذات "سيرة مطلقة لم تحفظها قوانين ولا قيدتها ضوابط، بل كانت الأمور مسترسلة وجارية على مقتضيات الحال لما كانت الدولة ساذجة غير مرتاضة للقوانين التي تملك زمامها وتمسك عن الاسترسال عنانها إلى أن صار الملك والخلافة للمولى عبد الملك المعتصم، فجنح بالدولة إلى السيرة العجمية... وحمل الناس عليها حملاً عنيفاً. فشق عليهم ذلك لتنافر الطباع واضطربت الأحوال لتغيير العادة وإيناس الأمور الغير المعتادة"[105].

فقد حاول المعتصم أن يخرج المغرب من المتواتر المألوف ليدخله إلى المؤسساتي، أراد أن يضبط أمور الدولة بقوانين وضوابط سياسية واقتصادية واجتماعية، وفهم أن الوقت لم يعد يسمح لتبقى دولة ذات هوية متوسطية تعتمد العفوية والارتجال، بل صارت الدولة الحديثة تقتضي مراعاة القوانين والنواميس المنظمة والحامية للمؤسسات على غرار ما كان سائداً في الضفة الشمالية للبحر المتوسط. غير أن المعتصم لم ينجح في نظر الفشتالي، لأنه أراد زعزعة المعتاد والمألوف. والواقع أن المبادرات التي اتخذها هذا السلطان تظهر عكس ما لمح إليه الفشتالي: إذ يبدو أن عبد الملك اعتمد خطة مدروسة وحاول إفراز الشروط الملائمة لنجاحها. ونلمس ذلك من خلال شبكة العلاقات التي نسجها المعتصم داخل

---

(105) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 200-201.

المغرب عندما كان يعيش في الجزائر وفي القسطنطينية من أجل مراقبة ما كان يحصل بالمغرب ومتابعته. والبقاء على اتصال بأشياعه وأتباعه. فقد تحدث الفشتالي عن الشبكة التي نظمها عبد الملك عندما أشار إلى نكبة القواد الأندلسيين أيام أحمد المنصور[106].

وكان هؤلاء القواد دعامة لسياسة المعتصم سواء تعلق الأمر بمحمد زرقون المعروف بالكاهية أو الدغالي أو أبي الفضل الغري. وقد تعرف المعتصم بهؤلاء أيام وجوده في الجزائر. وكان يكلّفهم بمهام داخل المغرب وجعلهم عيونه به، وهم الذين وطدوا له الاتصال مع أشياعه، وتحمل أبو الفضل الأخطار في خدمة المعتصم الذي تعرف به في الجزائر "ثم حصلت له من بعد ذلك المداخلة التامة هنالك بالمعتصم، فتقرب إليه بالبحث عن أخبار المغرب ونقلها بما كان يعلم... ثم أفضى الحال إلى أن أشخصه المعتصم إلى المغرب عيناً له وسفيراً عنه إلى أشياعه ومن كان يداخله في أمره"[107]. وكانت مغامرات أبي الفضل هذا أكثر، لأنه كان يتقدم لأكابر المخزن وأعيانه أيام عبد الله الغالب وكأنه تاجر الأحجار الكريمة، بهدف كشف أسرار الدولة وحملها إلى المعتصم: "وهو في ذلك كله حاطب في حبل المعتصم مرسله والمتوكل، ووالده في غفلة من أمره"[108]. وتقوى حزب عبد الملك داخل المغرب بسبب أخطاء محمد المتوكل وتصرفاته. وأشار الجنابي إلى محاولة هذا الأخير ملاحقة أصحاب عبد الملك وقتلهم: "وفي محرم سنة أربع وثمانين وتسعمائة، بلغنا أن محمد المنتصر قبض على جماعة من الأمراء ممن اتهمهم على ممالات عمه مولاي ملوك (عبد الملك)... فقتلهم فتنفر عنه القلوب فأرسلوا إلى عبد الملك بالعهد والوفاء ويدعوه للملك"[109].

وعمل المعتصم من جهة أخرى على ربط علاقاته وتوطيدها مع الأصدقاء

---

(106) تجسد نكبة هؤلاء القواد الأندلسيين تجسيداً لإرادة المنصور الواضحة لإقصاء الأطر التي كانت دعامة لسياسة المعتصم، لأنه لم يكن ليقبل باستمرار توجهات أخيه هذا.

(107) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 46 - 47.

(108) المصدر نفسه، ص. 47.

(109) الجنابي، البحر الزاخر...، مصدر مذكور، ص. 538.

الأجانب الذين تعرف بهم سواء كانوا وكلاء أو سفراء أو تجاراً. وعن طريق هؤلاء استطاع أن يقارب ذهنيات الملوك المسيحيين، وأن يعرف إواليات سياستهم. ويعتبر الأخوان كورسو دعامته الأساسية في إسبانيا وفي البحر المتوسط. فقد عرفت هذه العائلة بالتجارة في مدينة فلنسيا. وأصبحت صداقة المعتصم لأندريا كورسو صداقة متينة بعد أن تعرف به في الجزائر والقسطنطينية، فسعى كورسو إلى دعم قضية المعتصم ودافع عنه عند فليب الثاني، وجعله يهتم بالقضية المغربية ويتعرف تطلعات المعتصم. ويبدو أن فليب الثاني، لم يكن متحمساً في البداية لمساندة المعتصم واستقباله كما توضح ذلك الرسالة التي بعث بها هذا الملك أندريا كورسو:

"أما ما يتعلق بمجيء الشريف إلى مدريد، كما جاء في رسالتك، فلا أظن أن زيارته ستكون ملائمة في الوقت الراهن لما قد يترتب عليها من مشاكل. ولأجل هذا، وإن كنت لا أرى مانعاً في استقباله، فإني أفضل أن تؤجل هذه الزيارة إلى أن تكون الظروف أكثر ملاءمة"(110).

وإلى جانب صداقة عبد الملك بعائلة كورسو، فإنه قد ارتبط بصداقة مع الطبيب الفرنسي غيوم برار من نيس الذي عالجه من مرض في القسطنطينية. وقد قام هذا الطبيب بدور أساسي في تحسيس الملك الفرنسي بالقضية المغربية. وتعرف المعتصم بديكو دي مرين الإسباني الذي كان أسيراً بمراكش فأطلق سراحه، بالإضافة طبعاً إلى فراي جوان بَاوْتيستا كما سنرى. فمن خلال ما سبق، يظهر أن عبد الملك كان يعمل على واجهتين بأسلوب جديد قصد العودة إلى المغرب واستعادة العرش. وكانت هذه العملية تتطلب خلق قاعدة مساندة ومدعمة لمشروعه داخل المغرب. وقد نجح المعتصم، لأنه تمكن من استمالة معظم المغاربة الذين اعتصموا بحبله على حد قول الفشتالي، والدليل على ما نقول موقف علماء فاس من قضيته. فلما بعث المتوكل برسالة إلى علماء فاس يحملهم فيها مسؤولية تخليهم عن بيعته وانحيازهم لعمه عبد الملك، وبرر لهم سبب لجوئه إلى طلب الدعم من البرتغال، جاء جوابهم مثيراً: فقد تبنوا موقف المعتصم وتخلوا عن المتوكل

---

(110) *S.I.H.M.* 1ère *Espagne*, T. III, p. 161.

وعظموا الأول وأهانوا الثاني: "فبعد هروبك عنهم... فبينما هم كذلك إذا بعملك... على باب مدينتهم قائماً بحجته وجاءت به السكينة... فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل، وأقيمت الحدود"[111]. فإذا كان المعتصم رمزاً للخلاص من الفساد والفوضى، فإن المتوكل تجسيد للدمار أينما حل وارتحل. لقد تحرك المعتصم بحزم ووعي، لأنه أراد من جهة أن يبني صورة الأمير المؤمن العادل الحازم والمنقذ في الداخل. وسعى من جهة أخرى في تشييد صورة الملك المسلم المتسامح مع العالم الخارجي، وحاول أن يؤثر في الذهنية الأوربية بجميع الأساليب سواء في الأكل أو الملبس أو الذوق. ونجح إلى حد كبير في ذلك، لأن المصادر الأجنبية رأت فيه الإنسان الحديث المساير لعصره. لقد كان عبد الملك أول سلطان مغربي يوقع مراسلاته مع العالم الخارجي بالحروف اللاتينية، وأول من كلّف أسيراً مسيحيّاً، وهو فراي جوان باوْتِيسْتَا (Fray Juan Bautista) الإسباني، بتأليف كتاب باللغة الإسبانية يعرض فيه حياة وأعمال المعتصم وهو سلطان، وينشره في مدينة فلنسيا ويوزع على نطاق واسع[112]. وعنوان الكتاب "**أخبار عن حياة السدة العالية مولاي عبد الملك أمبراطور المغرب وسلطان ممالك فاس ومكناس وسوس، وعن الأعمال الرائعة التي أنجزها، وعن انتصاراته الباهرة، وعن الإصلاحات التي أدخلها على هذه الممالك**"[113]. ولم يكتف عبد الملك ببناء الصورة الإيجابية عنه باعتباره ملكاً متفتّحاً متسامحاً، بل استغل علاقاته وعلاقات أصدقائه من أجل نشر هذه الصورة كما تبين الرسالة التي بعث بها مؤلف الكتاب من مراكش بتاريخ 24 نونبر إلى أحد أصدقائه بمدينة فلنسيا بواسطة صديق آخر لعبد الملك هو الطبيب الفرنسي غيوم برار. وجاء في الرسالة ما يلي:

---

(111) للمزيد من التفاصيل، انظر: الإفراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص ص. 65 - 73.

(112) المؤلف غير معروف، وكل ما نعرف أنه كان أسيراً في مراكش سنة 1576، وأطلق سراحه عبد الملك وقربه إليه وصار من خدامه المقربين.

(113) Fray Juan Bautista, "Chronica y admirables hechos del Senor Muley Abdelmalech. Œuvre en prose et en ver, Valence, 1577", Traduite par Bernard Loupias in *Hespéris -Tamuda*, vol. XXIV, 1986. _

بأمر من السلطان سيدي عبد الملك ألفت خلال هذه الأيام كتاباً مزجت فيه بين الشعر والنثر وخلّدت فيه الانتصارات التي حققها هذا الملك بعون من الله في هذه الممالك. وقمت بهذا العمل، لأن الأمير طلب مني ذلك ولأنني فهمت أني بفضل هذا العمل سأقدم له خدمة كبيرة... وسأرسل لك هذا الكتاب مع السيد غيوم ذي الأصل الفرنسي. وأرجو أن تقوم باللازم عند توصلك به، حتى ينشر في فلنسيا وأتمنى ألا تطبعه أو تنشره حتى تقدمه لقضاة التفتيش ليعطوك الرخصة التي تسمح لك بذلك(114).

لجأ المعتصم إلى توظيف الكتابة باللغة الإسبانية من أجل تلميع صورته والضغط على الذهنية الإسبانية ودفع فليب الثاني إلى الاقتناع بمشروعه على أساس أنه هو الوارث الشرعي للعرش المغربي. وقد تعرض مؤلف الكتاب عن أخبار عبد الملك لانتقادات شديدة، واتهم بتأليفه لهذا العمل من زاوية مغربية، وتحت ضغط وتأثير مغربي حيث وصف الملك المغربي بأنه رجل متفتح متسامح مسالم ويعمل كل ما في وسعه لكسب الاعتراف الخارجي(115). فالجدة في سياسة عبد الملك تتمثّل في فهم تلميع الصورة والضغط على الذهنية الفاعلة في الأحداث سواء في الداخل أو في الخارج. وقد أشار فراي خوان بَاوْتيستا إلى ذلك عندما أقر بأن شهرة عبد الملك قد وصلت إلى إسبانيا بكاملهاوغزتها (116).

ولعل إلمام عبد الملك بعقلية الأوربيين هو الذي مكنه من التأثير في الفاعلين السياسيين. وليلوغ ذلك، كان يحسن التصرف مع الوكلاء والسفراء والمبعوثين الرسميين للمغرب. وهكذا نراه يخاطب مبعوث فليب الثاني ويتمنى له المقام السعيد في العرائش والتوفيق في مهامه والرسالة مؤرخة بتاريخ 2 شتنبر 1577. وكانت هذه الممارسات تجد صدى لدى ملوك البلدان الأوربية. فقد بعثت إيليزابيت ملكة أنجلترا برسالة لعبد الملك لتبين له ارتياحها للاستقبالات التي خص بها مبعوثها(117).

---

(114) B. Loupias, "La chronique de Fray Juan Bautista", *Hespéris-Tamuda*, vol. XXIII, 1985, p. 135.

(115) Fray Juan Bautista, *Chronica*, pp. 143 - 148.

(116) *Ibid.*, p. 64.

(117) *S.I.H.M.* 1ère *Angleterre*, T.1, p. 237 et 253-254.

وعمل عبد الملك كل ما في وسعه لإقناع فليب الثاني بالتخلي عن دعمه للمتوكل، واقترح عليه عقد معاهدة بينهما تضمن لإسبانيا امتيازات. من ومن جهة ثانية خاطب دون سيباستيان في الموضوع نفسه وحثه على عدم الدخول في حرب ضد المغرب قد لا يستفيد منها شيئاً، وقد تكون "مغامرة تخسر فيها نفسك وعرشك من أجل الدفاع عن أمير مغربي غير شرعي وخاسر للقضية"(118).

لقد أدرك المعتصم أن قوة الدولة الحديثة ترتبط بقوة جيشهاوانضباطه، وأن فعالية هذه الآلة الرادعة تتجسد في مدى قدرتها أو عدم قدرتها على استعمال الأسلحة النارية واستغلالها الأسطول البحري. وتشير الدراسات إلى فضل عبد الملك وأحمد المنصور في تأسيس الجيش النظامي المحترف(119). فقد كان انبهار المعتصم بالجيش التركي شديداً عند مشاركته إلى جانبه في حملات عسكرية عديدة في البحر المتوسط، مما جعله يحاول إدخال جوانب مهمة من نظام هذا الجيش إلى المغرب، ويعطي الأولوية للمدفعية "ورفع (عبد الملك) المظلة على رأسه واستخدم ألف تركي... وكان يركب إلى الجمعة والأعياد على هيئة سلطاننا"(120).

وتؤكد إحدى الرسائل أن عبد الملك كان يسهر بنفسه على صهر الحديد الذي يستعمل في صناعة الأسلحة(121). وأولى هذا السلطان أمورَ البحر أهمية كبيرة. فقد كان يعلم مكانة الطرق البحرية والأساطيل في قوة البلدان وسمعتها. ولأجل هذا، سعى بعد عودته إلى المغرب في إنشاء أسطول مغربي في العرائش كما أشار إلى ذلك المجهول: "وأمر بإنشاء السفن في سلا والعرائش وأدخل القرصنة وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر مع أهل المغرب وضيقوا بالنصارى أشد تضييق وكثرت الغنائم. وكان أكثر ما يستفيده مولاي عبد المالك ويدخل بيده من المال من غنائم النصارى"(122). وقام المعتصم بمحاولات لتنشيط القرصنة في الموانئ

---

(118) *S.I.H.M.* 1ère *Espagne*, T.3, pp. 422 -423.

(119) A. Laroui, *Histoire du Maghreb*, *opp. cit.*, p. 237.

(120) الجنابي، البحر الزاخر...، مصدر مذكور، ص. 538.

(121) *S.I.H.M.* 1ère *Espagne*, T.3, p. 421.

(122) المورخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية...، مصدر مذكور، ص. 53.

ـ خصوصاً في العرائش وسلا ـ على غرار ما عاشه في الجزائر، لأنـه كـان في حاجـة إلى أموال من أجل تجهيز البلاد، وإقامة أوراش لصناعة السفن عـن طريـق شـراء مـا سماه المؤرخ المجهول بـ "الإقامـة". ورأى هـذا المـؤرخ في محـاولات عبـد الملـك بنـاء الأسطول المغربي إرادة من هذا السلطان في توطيد أوتـاد الدولـة السـعدية، والعمـل على جعلها تساير ما كان يدبر ويحاك في البحر والمحيط: "واشتغل مولاي عبد الملك بالاستعداد من تركيب الأنفاض والأخبية وإصلاح العدة وإنشاء السفن وآلات الـبر والبحر الجهادية ومباشـرة الأمـور بنفسـه. وكـان رحمـه الله أكمـل حـال وأحسـن تدبير"[123].

ولما فهـم الأوربيـون مقـاصد عبـد الملـك، ورأوا اهتمامـه بـأمور البحـر، ولاحظوا التجهيزات التـي كان يسهر على إنجازها ليجعل من المغرب بلداً مسـايراً لأوربا، وفطنوا لذلك، رأوا في تحركاته خطراً على مصـالح أوربـا وتهديـداً لأمنهـا. وفي هذا الصدد كتب المؤرخ المجهول يقول:

> وكان للنصارى عند وصوله إليهم تدبير عظيم على مولاي عبد المالك. فقال بعضهم لبعض إن هذا السلطان رأى مملكة الترك ورأى منافع البحر. فأول ما أمـر بـه إنشـاء السفن. وإذا كملت له العمارة يقطع إلى بلادنا مع أهل الأندلس وهم أقرب إلينا من غيرهم في الرأي ولا يشتغلوا إلا بنا لا محالة ونحن ندبر ملكنا قبـل أن يصـح سـلطانه ويتمكن أمره. وأول التدبير عندنا أن تخرجـوا و تتمكنـوا بالسـواحل وتحتـووا عليهـا وتقاتلوه في بلاده وأرضه. فاجتمع رأيهم على ما ذكر[124].

فالملاحظ أن المعتصم كان رجل دولـة ذا أبعـاد متعـددة: عـاش وسـاهم في صنع أحداث متوسطية كثيرة، وعاد إلى المغـرب لينفـرد بالسـلطة فيـه، وكـانت لـه إرادة في انفتاح المغرب على محيطه، وجعله يندمج وينصهر في أحداث عصره. فكان مشاركاً إلى جانب الفاعلين الأساسيين للسياسة الكونية في النصف الثاني من القرن السادس عشر إلى جانب العثمانيين والإسبانيين والإنجليز كما حاول إخراج المغاربـة من المألوف ودفعهم إلى التأسيس والتجديـد. إلا أنـه لم يعـش طويـلاً حتـى يطبـق

---

(123) المصدر نفسه، ص. 58.

(124) المصدر نفسه، ص. 29.

خطته. وبالرغم من ذلك، فقد شيد وأسس معالم الدولة التي وطدها المنصور، وعلى عكس ما صار إليه الفشتالي، الذي حمَّل المعتصم مسؤولية الهرج والاضطرابات "حتى مال عمود الخلافة أو كاد"[125]. وقد قال الفشتالي ذلك لإبعاد المعتصم وتهييء الجو للمنصور الذي سماه "بالحبل العاصم من الطوفان"[125]. وتناسى الفشتالي أن عبد الملك هو الذي هيأ الجو للمنصور أو كما قال المؤرخ المجهول الذي رأى معركة وادي المخازن، كما لو كانت مسرحية، "فجاءت الحكاية وكأنها مقصودة شهادة وتضحية البطل ليعيش الآخرون"[126]. أما المنصور في نظره، فكان "له في الملك بخت عظيم"[126]. وعبر الناصري عن هذا البخت بوضوح أكثر، فقال: "كان أحمد المنصور هذا مجدوداً محظوظاً مسعوداً... وما كان أخوه عبد الملك يسري إلاّ في ضوء طلعته ويمن نقيبته"[127].

3 - أحمد المنصور الذهبي ومركزية الدولة

عاش أحمد بن محمد الشيخ في ظل أخيه عبد الملك، واستفاد كثيراً من تجاربه ومهاراته، وحملته ملحمة وادي المخازن إلى القمة[128]. فركب العز، واستغل الأسس التي شيدها عبد الملك لينفرد بالسلطة في المغرب، وليبني دولة لها سمات الدولة الحديثة وفق مقتضيات عصره. فمن هو أحمد المنصور؟ وما المسار الذي أهله حتى يكون من أعظم سلاطين المغرب؟ وما المنجزات التي حققها وجعلته يتجاوز عبد الملك ليصبح قطباً فاعلاً في أحداث عالم نهاية القرن السادس عشر، ومسايراً للقوى التي كانت تقود الكون؟

ظروف نشأة الدولة الحديثة في أوربا

كان الصراع في أوربا خلال العصر الوسيط قائماً بين رجال الدين

---

(125) الفشتالي، مناهل الصفا...، مصدر مذكور، ص. 201.

(126) المؤرخ المجهول، مصدر مذكور، ص. 65.

(127) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.5، ص ص. 68 - 69 .

(128) لقب بـ "المنصور" فور انتصار المغاربة في هذه المعركة.

والعلمانيين بهدف السيطرة على المجتمع. وكانت الغلبة للبابوية على الملوك. لكن نفوذ الكنيسة تعرض لهزات متتالية بسبب صيحات دعاة الإصلاح الذين استطاعوا أن يحدثوا ثورة علنية خلال العصر الحديث. وتحالفت الحركات الداعية إلى الإصلاح مع الحركات السياسية الوطنية المناهضة لهيمنة أمبراطورية شاركان - وابنه فليب الثاني - التي كانت تدعمها بابوية روما، فتمت إعادة تنظيم الحياة في المجتمعات الأوربية، فلم يعد الدين هو المنظم لحياة الناس وتطلعاتهم، واستبدل المثل الأعلى الذي كان سائدا خلال العصر الوسيط والذي كان يتجسد في الاعتقاد بوجود عالم موحد، يعمل لخدمة الله بإرشاد وتنوير من الكنيسة ليعوض بمثل آخر - قوامه الإنسان مركزُ الكون - يعمل في إطار دولة مستقلة مطلقة السيادة في أراضيها ومسؤولة عن ذاتها، تجد ضمان وجودها في القوة التي تتوفر عليها في الاقتصاد والجند. وهكذا علت أصوات تقول "من أجل الملك والوطن" وإني مع بلادي سواء كانت على صواب أو خطأ. واحتج المفكر الفرنسي على الملك لما سمعه يخاطب الناس باللاّتينيَّة: " إنها لجريمة أن تتكلم جلالته بلغة غير اللغة الفرنسية. و لم تتردد الكتابة الأنجلوساكسونية في الكلام عن نمو الحركات الوطنية على عكس الفرنسيين الذين تحفظوا في استعمال المصطلح"[(129)].

لقد قامت الطبقة المتوسطة بدور أساسي في تقوية الاتجاه الوطني، وساهمت الحروب في التحام هذا الاتجاه وتراصه. فمن نتائج الحرب مائة سنة ميلاد فرنسا الجديدة وأنجلترا. ونشأت البلاد الواطئة على أثر الحروب التي خاضتها ضد إسبانيا، وإن تطلب صقل "الوطن" في الذهنية الهولندية قرناً من الزمن[(130)]. غير أن إسبانيا، على عكس ما حصل في أوربا الشمالية، ظلت متمسكة بالروح الصليبية وكانت تعتبر نفسها الدرع الواقي أو الخارجي للمسيحية. لعل الجدة في العالم

(129) G. Zeller, *Les temps modernes...*, *op. cit.*, p. 1.

(130) (S. Schama, *L'embarras de richesses...*, op. cit., p. 85). "Il avait fallu près d'un siècle, cependant, pour que dan l'esprit des Hollandaisla "Patrie" fut exclusivement associeé aux sept provinces...".

الإيبيري تكمن في كونه خرج من شبه الجزيرة لملاحقة الإسلام والمسلمين؛ ومعركة وادي المخازن امتداد طبيعي لهذه التوسعات. وكانت ملحمة المغاربة التي أدت إلى التحام كل القوى الاجتماعية والتفافها لمجابهة الخطر المسيحي ومواجهته. ودعمت أوتاد الدولة الشريف، دولة أحمد المنصور ووطدتها.

أحمد المنصور رجل الدولة المجدد والمساير لعصره

لن نقف عند تفاصيل حياة أحمد بن محمد الشيخ الملقب بالمنصور وبالذهبي. فجوانب كثيرة منها معروفة. ولكن سنركز على القضايا التي تساعد على فهم مواقفه وأعماله التحديثية وإدراكها.

لقد أولت الأسطوغرافية المغربية أهمية كبيرة لهذا السلطان، على عكس ما خصت به عبد الملك. وجعلت هذه الكتابة من أحمد المنصور أسطورة مغرب العصر الحديث. ولعل مرد ذلك إلى المكانة والعامل الذي خص به العلماء. فقد قربهم منه وأكرمهم وأعلى من شأنهم. ونتيجة لهذا، فإن العلماء أكثروا الكتابة عنه وسعوا - دائماً - في تلميع صورته وتحسينها، فتميزت تآليفهم أحياناً بتمجيد السلطان إلى درجة المبالغة والتقديس، وأحيانا باستعمال الأسلوب الأسطوري لغرس فضائل ومؤهلات هذا السلطان الذي اختاره الله للإمامة قبل أن يختاره أخوه لها. وردد جل من كتب عن المنصور ما دونه الفشتالي في هذا الصدد على لسان ولي نعمته. لقد حكى له المنصور بأنه رأى في منامه الرسول الكريم وبجانبه رجلان لعلهما من كبار الصحابة، فسأله أحمد المنصور عن أمور ثلاثة: منها نصيبه من الخلافة ومصير أمرها، فنظر إليه الرسول وكاشفه، وأضاف السلطان قائلاً: "فأجابني عن الخلافة بما حقق لي منالها ومصير أمرها إلي، ثم أشار إلي عندما أفهمني ذلك وكشف لي الغطاء عنه بأصابعه صلى الله عليه وسلم"[131]. وكان لهذا الأسلوب وقع كبير على ذهنية الناس. واحتفظت لنا الذاكرة بقصص مماثلة عن هذا السلطان. ولعل ما زاد

---

(131) وردد جل الذين جاؤوا بعد الفشتالي هذه الأساطير. (انظر الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 26). والإفراني، والناصري، إلخ.

من مكانته محاولاتُ بعض السلاطين العلويين التشبه به كالمولى إسماعيل ومحمد بن عبد الله.

والمعلوم أن شخصية المنصور كانت باهتة أيام المعتصم. وقد انفرد الناصري بذكر اللوم والانتقادات التي كان يوجهها عبد الملك لأخيه عندما كان ينوب عنه هذا الأخير بفاس. ولم يتردد المعتصم في نعت المنصور بالمتهاون والمتراخي في أمور كان يعتبرها عبد الملك أس الملك واستمرارية الدولة[132]. والملاحظ أن المصادر والمراجع المغربية والأجنبية قد سكتت عن المرحلة التي عاشها في الغربة إلى جانب أخيه عبد الملك. فبقدر ما كانت تذكر تحركات عبد الملك واتصالاته وتتبّعها، لم تأت بشيء عن أحمد المنصور. فإلى أي سبب يرجع هذا الصمت؟ هل يعود إلى هيمنة شخصية عبد الملك على الساحة أو إلى عدم اهتمام المنصور آنذاك بالأمر؟ لقد خلد الأدباء والمفكرون اسم المعتصم في الداخل وفي الخارج، ولم يبرز اسم المنصور إلاّ بعد معركة وادي المخازن. فاهتمت به الأقلام، وضخمت شخصيته، وجعلت منه الإنسان الحكيم العادل المتزن. وقدم الفشتالي أعماله على أساس أنها كانت تصحيحاً وترشيداً لأعمال المعتصم؛ ولولا المنصور، لضاع المغرب والمغاربة:

> ولما انعقدت بيعته المباركة... ورسخت بذلك قواعد خلافته، نظر في عطاف الدولة وقد أدركها بآخر الرمق... لتوالي المرض عليها خمسة أعوام تباع عمر دولتي المتوكل والمعتصم التي نفقت فيها أسواق الفتن وأظلم الجو فيها... حتى تنمَّرت الرعايا... وتعطل الخراج... وكاد سلك الدولة يتنسر وذيلها يتقلص، ثم جبر الله الصدع بأمير المومنين[133].

فهل كان أحمد المنصور لا يشاطر المعتصم في سياسته التي كانت تدعو - على حد قول الفشتالي - إلى إدماج المغرب في عادات وتقاليد عجمية لم يقبلها المغاربة، لأن المعتصم حاول فرضها بعنف وبسرعة؟ يبدو أن أحمد المنصور أراد تحديثا تدريجيّاً بطريقة وأسلوب مختلف عن ذلك الذي نهجه المعتصم. لاشك في أن هذا الأخير غاب طويلاً عن المغرب وتشبع بالتحولات التي كانت تهز المجتمعات

(132) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.5، ص ص. 66 - 67.

(133) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 39 - 40.

المتوسطية، وأراد - بعد عودته إلى البلاد واستعادته للعرش - أن يبني مغرباً جديداً. فهل رفض المغاربة حقا ما جاء به عبد الملك كما ألح على ذلك الفشتالي؟ أو أن الأمر يتعلق بالأحل، بمعنى أن المعتصم لم يحكم المغرب لمدة طويلة وبالتالي لم يكن له الوقت الكافي، على عكس المنصور، ليوضح تصوراته ويفرض خطته؟

لقد تولّى المنصور الحكم بعد معركة وادي المخازن الملحمة المنعطف، لأنها كانت تجسد التلاحم بين الأشراف والمكونات الاجتماعية الأخرى، وبالخصوص مع الحركة الجزولية. ولاشك في أن السلطان الجديد كان واعياً بهذا التلاحم الظرفيّ. وليحدَّ من نفوذ الزوايا، حاول الاعتماد على العلماء، فقرّبهم منه وتشبع بأفكارهم، وتشبث بخلفياتهم وبمرجعيتهم الثقافية. فإذا كان عبد الملك قد سعى إلى التعريف بنفسه وبالمغرب في أوربا عموماً وفي إسبانيا خصوصاً عن طَريق التأليف الذي خصه به الأسير فراي خوان بَاوتيستْا، فإن أحمد المنصور قد حاول أن ينشر صورته وصورة المغرب في المشرق فطالب كتابه بتأليف كتب عن تاريخ المغرب من أجل نشرها في المشرق، وشجع علماء من الشرق على التأليف عنه وعن بلده[134] . وهكذا يظهر من خلال ما سبق تشبثُ أحمد المنصور بالمرجعيّة الشرقية للحضارة المغربية دون تجاهل منه أو تقاعس عن مسايرة عصره.

مظاهر تحديث دولة المنصور

حاول أحمد المنصور، بحكم طبيعة مسار حياته، أن يبني دولة مغربية مركزية على غرار ما عرفه وعاينه عند العثمانيين وفهمه من محاولات عبد الملك الأولى المستوحاة من أوربا. كما حاول أحمد المنصور أن يحصن المخزن السعدي،

---

(134) كلّف المنصور الفشتالي بتأليف "مناهل الصفا" من أجل إرساله إلى الشرق قصد التعريف بالأشراف. وأشار المقري إلى تهافت علماء الشرق على تأليف كتب عن المنصور: "ولما تقرر عند أعيان البلاد الشرقية حب مولانا نصره في العلماء، وبره بهم، وإجزا له عطاياهم، نسلوا إليه من كل حدب. ومن لم يمكنه الإتيان، خدمه بالتآليف. فألف تاريخ دولته... جماعة من أكابر علماء القسطنطينية العظمى وكذا جماعة من أعلام مصر وغيرها مما لا يحصى عدده". (المقري، روضة الآس...، مصدر مذكور، ص. 18).

وعمل كل ما في وسعه ليجعل الدولة الشريفة ذات حرمة وأبهة وهيْبة داخل المغرب وخارجه. وكان شديد الاقتناع بأهمية الخوف والرهبة بصفتها أداة فاعلة يعتمدها السلطان لفرض الوقار والاحترام لأنها أساس استمرار الملك وضمانه. لقد انتقد هذا السلطان بشدة ولي عهده المامون عندما قرب أولاد طلحة منه، وجعل عناصر من هذه القبيلة، المعروفة بعدائها للأشراف، يطلعون على بعض خبايا المخزن: "وأيضا هؤلاء الناس أنا نعرفهم وكنت في بلادهم. وهذه الخدمة كانوا طلبوها مني وأنا هناك، فوعدتهم بها إذ لا يمكنني - وأنا ببلدهم — إلا مساعفتهم"[135]. وعاب على وليِّ عهده إفشاءه أسرار دار المخزن وخباياها. "والذي شق علينا أعظم من هذا كله واستنكرناه ولم نجد صبراً عليه هو ما وجدنا قد اطلعوا عليه، أعني أولاد طلحة علي بن محمد وغيره من أحْوالكم وأخباركم"[136]. فقد كان أحمد المنصور يميز بين البَرَّاني وهو البعيد عن دار المخزن (فهو لا يثق فيه ولا يمكّنه من عورة الدولة). وبين من يتوفر على "المخزنية" (وَلْدُ الدار). وكان المنصور يلجأ باستمرار إلى إظهار قوة الدولة وسطوتها للقبائل. ولا يتردد في اللجوء إلى الزجر تحسباً لكل مفاجئة وتفادياً لها. فقد قاد حَرْكات كانت قاسية على قبائل سوس وأثقلها بالكُلَف المخزنية. وكان الفشتالي يفتخر بهذه الحملات التي ضمنت للدولة استقامة سوس "ودرت بذلك ضروع جبايتها"[137].

وكانت التظاهرات الرسمية مناسبة يستغلها أحمد المنصور ليجعل منها ومن حسن تنظيمها رمزاً لهيبة الدولة وفرصة لاستعراض قوتها وتبليغ الإشارة إلى منافسيه الإسبان والعثمانيين. ومثالاً على ذلك، نشير إلى الاستقبال الذي خص به ولي عهده المامون بتانسيفت. وقد حضر هذه التظاهرة مبعوث فليب الثاني. وعن هذا الاحتفال المهرجاني كتب الفشتالي يقول:

حضر جمعه العظيم رسول عظيم الملة النصرانية طاغية قشتالة بما كان ساعتئذ بمراكش... فاستأذن المقام العالي في البروز يوم اللقاء لمشاهدة شعار الإسلام...

---

(135) المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم...، مصدر مذكور، ص. 32.

(136) المصدر نفسه، ص. 33.

(137) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 52 و 58 و 77.

فشاهد من جنود الله وشدة شوكة الإسلام وأبهته جموعه المذكرة بالحشر سوادا ودويّاً ما لم يشاهده قط في أرضهم... فراح هاله وأذهله[138].

وعاد الفشتالي ليتكلم عن الظاهرة عندما كان المنصور في "رأس الماء" بالقرب من فاس حيث حضر كل من المبعوث العثماني والإسباني وشاهدا ما كان يسر المسلمين ويدمي قلوب الكافرين. وكان المنصور يستعمل البروتوكول داخل القصر للضغط نفسيّاً على المبعوث عن طريق توظيف جمال وفضاء المكان الذي كان يوحي بأبهة صاحبه وجلاله. فعندما كان المنصور يحضر لغزو السودان، استقبل رسول مملكة بورنو "وكان سلامه - يقول الفشتالي - يوما مشهوداً حسناً وضخامة وأبهة وجلالة... وجلس لهم الأمير أفخم جلوس... وقد أخرست الألسن وخشعت القلوب"[139]. يهدف البروتوكول إلى ضرب مخيلة المبعوث وزعزعة اقتناعاته فيصبح وكأنه في عالم آخر، فيصاب بمركب النقص لأن عملية ضرب المخيلة تتبعها العناية والكرم.

وهكذا تجسدت أبهة الدولة وهيبتها في شخص السلطان. واعتمد هذا الأخير في بناء هذا الجلال وهذه المهابة على خلق أداة ضاربة قوية وحديثة: الجيش النظامي. فجعل أحمد المنصور من هذا الجيش جيشاً محترفاً حديثاً يرتبط أساساً بالسلطان ولا تصله بالمجتمع أيّ صلة. فكانت العساكر مجهزة ومنظمة على غرار ما كان موجودا في حوض البحر المتوسط، يتقاضى الجنود رواتبهم بانتظام في الحرب والسلم، كما اتبع نهج المعتصم في إدخال تنظيمات تركية. واعتبر الفشتالي المنصور قد تجاوز في ابتكاراته "أسلافه من ربى العرب والعجم"[140]. وأقر بمحاولات المعتصم التي لم تتم، لأن أيامه كانت قصيرة.

حظي الجيش عند المنصور بمكانة خاصة، وبالأساس جيش النار، لما أصبح يتوفر عليه من حظوة في باقي العالم. وهكذا نرى هذا السلطان يخصص لقواد هذا الجيش اعتناء متميزاً، فقربهم إليه ووضع فيهم ثقته واعتبرهم من "خواص أمور

---

(138) المصدر نفسه..، ص. 60.

(139) المصدر نفسه، ص. 64.

(140) المصدر نفسه، ص. 202.

الملك والثقة بأمانتهم"[141] وجعلهم يشرفون على شؤونه اليومية والحميمية وذهب إلى "انتقائهم للتصرف بين يديه وخدمة بساطه ومناولة طعامه والوقوف على رأسه وموالاة ركابه متحملين بالملابس الجميلة والديباج وسائر أنواع الحرير... فصاروا لذلك أبهى حلل الملك وطرازاً على ملابس الدولة"[141].وسهر أحمد المنصور على تجهيز هذا الجيش بأحدث الأسلحة النارية التي أصبحت في وقته أساس الحروب في معظم أنحاء المعمور. وسعى هذا السلطان في تشجيع صناعة الأسلحة في المغرب: واشتهرت دار العدة بمراكش والتي كانت توجد بجوار قصره في القصبة. واهتم بإنتاج البارود، نظراً لوجود مناجم ملح البارود في أماكن مختلفة من المغرب[142]. وأقام المنصور هذه المصانع بفاس وتارودانت، واستفاد من خدمة الأسرى والأجانب: فكان يسهر على صهر الحديد، وإنتاج الكور، وصنع المدافع التي كانت تضاهي المدافع الأوربية، وارتبطت أسماء بعض المغاربة بهذه الصناعة كالحاج أحمد الغمق. وانطلقت هذه الصناعة ونشطت وكثر إنتاجها: "وصلت إلى هضاب الأكر الحديدية والحجرية والرصاص الماثل كالجبال الراسية والبارود المنبث في الدهاليس الندية والمخازن الرحيبة رأيت ما يبلد الفكر ويوجب البهت"[143]. وكانت التداريب العسكرية ضمن الأنشطة اليومية للعساكر. كما عمل أحمد المنصور على إدخال آلات موسيقية أوربية، كان الغرض منها هو بث الحماس في الجنود وتركيز فكرهم وقت الحرب على العمليات العسكرية:

واحدتها غيطة يتولى النفخ فيها قوم من العجم أساتيذ يتعلمونها فتنبعث منها أصوات وتلاحين لا تحرك الطبع ولا تبعث على شيء سوى الحرب ـ حكمة فلسفية ـ ومزامير أخرى وجعاب طوال صفرية على قدر مقدار النفير تسمى الطرنبطات مما أحدثه أمير المؤمنين في دولته وازدادت بها تلك الآلة حسنا ومزيد ضخامة[144].

كانت الآلة العسكرية هي الأداة التي اعتمدها المنصور من أجل فرض

---

(141) المصدر نفسه.

(142) *S.I.H.M.* 1ère Série, *Angleterre*, T. 1, p. 199.

(143) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 210 - 211.

(144) المصدر نفسه، ص. 204.

هيبة الدولة المركزية على غرار ما رآه عند العثمانيين وسمع عنه عند الأوربيين. ولعل إرادة المنصور في ربط آلة الجيش بشخص السلطان ومحاولة إبعادها عن المجتمع هو الذي دفع بعبد الله العروي إلى القول "بأن الدولة السعدية قد سارت رهينة ومحبسة جيشها"[145]. وكان هذا الجيش منظّماً ومجهزاً على غرار الجيوش الأوربية، ولا سيّما في استعمال الأسلحة النارية التي لم تكن ــ على حد قول بروديل ــ مقصورة على بلد دون آخر أو على دولة دون أخرى، ولكنها كانت معروفة ومستعملة في جل بلدان البحر المتوسط[146].

وتطلب الجيش الاحترافي من المنصور اعتمادات هائلة، مما جعله يعيد النظر في الجبايات التي كانت من أسس مداخيل الدولة. وأثقلت هذه الجبايات كاهل المغاربة، وعبر عن ذلك ابن أبي محلي في كلامه عن مآسي سجلماسة فقال: "فإن المخزن يأخذ بمجرد الماء الذي لله تعالى وحده وليس له مع أهلها أصل ولا فصل في زرع ولا في نخل. وهذه بلية بها... وإلى الله المشتكى"[147]. ونستطيع أن نكوّن فكرة عن الطريقة التي اعتمدها المنصور من أجل فرض الضرائب من خلال ما نجده في "ديوان قبائل سوس..." للحساني. ويعتبر الديوان وسيلة إحصائية وأداة ناجعة لضمان دخل الضرائب. وذكر محقق الديوان أن هذه الطريقة تبناها العلويون فيما بعد. وشرح الحساني هذه الطريقة قائلا:

> ثم بعث (المنصور) لجميع أشياخ أهل سوس عرباً وعجماً. فلما اجتمعوا عنده كلهم في مجلسه، فرض عليهم بيضة الدجاجة لكل كانونة، فأتوا بها إليه فأمرنا بكتب ذلك، فشرعت في حسابها شيخاً شيخاً حتى دفعوا عددها، ثم جعل كل خمسة عشر كانونة بسرجه[148] ليسهل طريق المخزن على عماله وعلى الدافع والقوي والضعيف[149].

---

(145) A. Laroui, *Histoire du Maghreb*, *op. cit.*, pp. 239-240.

(146) F.Braudel, *Civilisation matérielle et capitalisme*, op. cit., p. 293.

(147) ابن أبي محلي، **الإصليت...**، مصدر مذكور، مخ.، خ.ح.، رقم 100، ص. 112.

(148) الكانونة أو الكانون: مجموعة أشخاص يسكنون في مكان واحد. (وحدة عائلية، وحدة جبائية). السرجة "سرج" مصطلح سعدي، يتكون السرج من خمسة عشرة كانوناً، (وحدة جبائية).

(149) إبراهيم بن علي الحساني، **ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور**، تحقيق عمر أفا ، البيضاء، 1988، ص. 14.

ترتبط مسألة الإقلاع بالتنشيط الاقتصادي وبالنظام الإداري على أساس أن الإقلاع يبقى - في جوهره - عملية كلية. وقد طرحت أسئلة منذ زمن قديم عن علاقة الاقتصاد بالسياسة وهل تعطى الأهمية للاقتصاد أو للسياسة والثقافة في الإقلاع. وبمعنى آخر، هل المعطيات الاقتصادية هي التي تتحكم أو العكس؟ والسؤال ما زال مطروحاً لا لعدم وجود أي جواب، ولكن لأن الأجوبة تختلف باختلاف منطلقات أصحابها واقتناعاتهم، وتجارب البلدان المعتمدة. فالملاحظ أن الأزمات الاقتصادية التي كانت تهز العالم خلال العصور السابقة كانت بالأساس أزمات محلية لا صلة لها في غالب الأحيان بالحركة الاقتصادية العالمية، وغالباً ما كانت ترتبط بالظروف الطبيعية. لكن الاكتشافات الجغرافية الكبرى أخرجت اقتصاد أوربا من الاقتصاد المحدود والمغلق إلى الاقتصاد المفتوح والموسع. وهكذا برزت قطاعات اقتصادية مُسَيْطِرة - على حد تعبير فرديريك مورو -(150) خلال القرن السادس عشر وقطاعات أخرى مسيطر عليها، وكون هذه السيطرة إقطاعية أو إقليمية. فكانت السيطرة الجغرافية تتجسد في هيمنة المدينة على البادية، أو تكون سيطرة أقاليم على أخرى. وهكذا كانت المدن الإيطالية تسيطر على البحر المتوسط، وكانت العمالات المتحدة تسيطر على الأقاليم الأخرى زمن شاركان وفليب الثاني. وسيطرت التوابل والسكر والمعادن النفيسة خلال هذا القرن على المواد الأخرى.

في ظل هذه المعطيات، هل كان اقتصاد المغرب مسايراً لهذه التحولات التي عاشها اقتصاد العالم خلال القرن السادس عشر؟ وما السياسة الاقتصادية التي سار عليها أحمد المنصور؟

لقد كان للتجهيزات التي عمت مناطق عديدة من أوربا خلال القرن السادس عشر صدى في المغرب، وأولت دول هذه المناطق أهمية للطرق ولبناء القناطر من أجل تسهيل الأمن والتبادل التجاري، وشيد كل من شاركان وابنه

---

(150) F. Mauro, *Le XVI^e siècle économique européen*, Paris, Nouvelle Clio 1970, pp. 300 - 303.

فليب الثاني طرقاً من أجل أهداف سياسية كالطريق الرابط بين ميلانو وجنوى وبروكسيل، وأوليت عناية خاصة لتوسيع شبكة الطرق بالجنوب الألماني، ولا سيّما تلك التي توصل إلى المعادن كما هو شأن منطقة التيرول. وتبين تقارير الوكلاء والتجار أن أحمد المنصور قد اهتم بالأمن في الطرق وشيد القناطر. وتحدثت المصادر المغربية عن هذه التجهيزات واعتبرتها أساسية لغرس أوتاد الدولة الشريفة وتوطيدها. فقد كتب الفشتالي يقول: "ومنها بناء القناطر المتعددة كقنطرة تانسيفت؛ وكذا قنطرة وادي أم الربيع السفلي، وكذا قنطرة بين المدن بالمحروسة فاس... والقنطرة العظيمة التي على واد سبو"[151]. وأشار المقري وغيره إلى بناء المنصور لسدين مهمين. وقد حظي السَّدَّان باهتمام العلماء الذين نظموا بالمناسبة قصائد شعرية تخليداً للحدث: "ومنها بناء السدين العظيمين بوادي بوطوبة. وقد أنفق عليهما ـ نصره الله ـ أموالاً كثيرة كنت إذ ذاك بفاس حيث بث ـ أيَّده الله ـ لبناء السد الأعظم قائده الفقيه سيدي إبراهيم بن محمد الأيسي"[152].

قد نتساءل عن طبيعة اقتصاد مغرب أحمد المنصور وعن الصيغ التي اعتمدها هذا السلطان حتى يجعله اقتصاداً مندمجاً في الاقتصاد العالمي في نهاية القرن السادس عشر. لقد كان اقتصاد المغرب ـ أيام المنصور ـ يتميز بوجود قطاعين في المجال الفلاحي: قطاع معاشي سائد تعيش منه أغلبية المغاربة، ويرتبط الإنتاج فيه بالظروف الطبيعية، (وبالرغم من أهميته، فإن المصادر لا تتكلم عنه إلاّ نادراً، خصوصاً أيام الشدة والمجاعات)، ثم قطاع تسويقي (قصب السكر والنيلة)، وقد حظي بأهمية كبيرة وتحدثت عنه المصادر والوثائق المغربية والأجنبية. لقد اهتم المنصور بقصب السكر والنيلة بسبب ما كانت تدر عليه من أرباح. وتعتبر هذه الزراعة ـ لا في المغرب فحسب، بل في كل المناطق التي كانت تنتج فيها ـ من المواد المحركة للاقتصاد على حد قول فريدريك مُورُو. وعرفت زراعة قصب السكر رواجاً بالمغرب منذ عهد محمد الشيخ، وكانت سوس من الأقاليم الخصبة والمعروفة

---

(151) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 22.

(152) المقري، روضة الآس...، مصدر مذكور، ص ص. 23 ـ 24.

بإنتاجها كما ألح على ذلك الوزان: "وهذه البلاد (سوس) منتجة وخصبة تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة"[153]. وتميز المنصور بتوسيعه لمساحتها المزروعة واعتنى بها أكثر من سابقيه، لأنه دخل بها إلى السوق العالمية، واتخذها أداة حفظ في سياسته الخارجية. واستفاد من الظروف الدولية التي كانت في صالحه: إذ كانت الجزر المتوسطية التي تزود أوربا بهذه المادة قد تراجع إنتاجها، فأصبح المغرب هو المزود الرئيس لها ابتداء من عام 1570. ومما زاد في أهمية المغرب في نهاية القرن هو إنتاجه للسكر الذي كان يلقى إقبالاً كبيراً عند المستهلكين الأوربيين وخصوصاً في أنجلترا. وكان الكتاب المغاربة يفتخرون بالمعاصر السكرية التي "ابتدع رسومها (المنصور) واخترعها ببلاد حاحة وشيشاوة، وهي من الأمور التي انفرد بتدبيرها"[154]. وركز الفشتالي على محاولة أحمد المنصور الخروج عن المألوف والعمل على الابتكار والإبداع، لأن الذين سبقوه قد "سدوا باب القياس وأعمال التجريب وتوليد الأمور... إلى أن جاء أمير المؤمنين فرفض التقليد واتسع التوليد والاختراع"[155]. ويدخل اهتمام المغرب وغيره في هذه الفترة بزراعة قصب السكر وصناعته ضمن ما عرف عند المؤرخين بتوازن اقتصاد البحر المتوسط. وكتب بيرتيي يقول: "لقد أصبح استهلاك السكر أمراً عادياً ومتزايداً. وقد أدت هذه الزيادة في الاستهلاك إلى انتشار زراعة قصب السكر عبر عالم البحر المتوسط، وأصبحت تحتل أجود الأراضي فيه وأخصبها"[156]. وكان إنتاج السكر في المغرب - زمن المنصور - مرتفعاً قدرت حليمة بنكرعي صادرات المغرب ب 000.600 كلغ سنوياً بقيمة 000.680.1 أوقية. وبينت، اعتماداً على المصادر الأجنبية، مختلف استعمالات المنصور لهذه المادة في سياسته الخارجية، نظراً

(153) الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج1، ص. 94 - 95.

(154) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 209 - 210.

(155) المصدر نفسه.

(156) Paul Berthier, *Les anciennes sucreries du Maroc et leurs réseaux hydrauliques*, Rabat, E.N. et C.N.R.S et C.U.M.R.S, 1966, T.1, p. 289.

لتهافت هذه الدول على سكر المغرب(157). فقد استعملت هذه المادة لشراء الأسلحة النارية من أنجلترا. وأظهرت كل المصادر احتكار الدولة للتصرف في هذه المادة وبينت أن استغلال المعاصر كان يتم عن طريق الاكتراء: "وقد قطعت معاقدة الكراء فيها اليوم لطائفة من أهل الذمة عن كل سنة"(158). ورأى الفشتالي أن استكثار المنصور من معاصر السكر كان يساعده على الإكثار من مداخيل الدولة، وان تضاعف الخراج أساس قوتها.

وظهرت العجلة وانتشر استعمالها أيام المنصور، واستعملت في نقل البضائع أو الأسلحة أو الأسفار. وقد ألح إبراهيم الغنامي في كتابه **"العز والرفعة"** على ضرورة الاهتمام بالعجلة لما لها من فوائد. وميز بين مختلف استعمالاتها، فأشار إلى أنها كانت تشكل قوة الدولة في أوربا. فحاول في كتابه هذا أن يبين الاختلاف بين العجلات المخصصة لنقل المواد الثقيلة والعجلات التي كانت تخصص لنقل المسافرين وقال:

> قد وقع الخلاف بين المدافعين عن إنشاء العجلات لجميع المدافع. فمنهم من قال إن المنحرفات الغير مستقيمات التي هي في دائرتها مائلة برا كعجلات المسافرين التي صنعت للسفر إنها أحسن وأليق، إنها لا تميل ولا تتحول بسرعة كما قيل وتتحول المستقيمات؛ ومنهم من قال إن التي هي ... غير مائلة هي أفضل وأحسن ولا يلتمس فيها زينة، بل قوة واضحة لأنها تدوم أكثر من غيرها وهي أقوى من المنحرفة(159).

ويظهر مما قيل أن المنصور قد دعم استعمال العجلة وقواه، ونشط صهر المعادن وصناعة الأسلحة، بالإضافة طبعاً إلى إكثاره من معاصر السكر. ومن ثم يتبين أنه كان يريد بناء مغرب منفتح على محيطه ومساير في جل المجالات لعصره. ويبقى السؤال المطروح هو: ما الأسباب التي حالت دون نمو هذه التقنيات وتفشي

---

(157) حليمة بنكرعي، مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين، رسالة جامعية، 1985، مرقونة بكلية الآداب - الرباط، ص ص. 91 - 92.

(158) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 210.

(159) إبراهيم الغنامي، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، ترجمه من الإسبانية إلى العربية أبو القاسم الحجري، مخ.، خ.ع.، رقم 87، ص. 95.

هذه الصناعات وعدم العمل على تطويرها لاحقاً؟ ومن كان مسؤولاً عن عدم هضم المغاربة لاستعمالاتها والمحافظة عليها في ذاكرتهم؟ سنعود لهذه الأسئلة في القسم الأخير من هذا العمل الذي نخصصه لإبراز العوامل التي كانت وراء إجهاض هذه التجارب وغيرها والتي كانت بالأساس تجارب آتية من القمة.

لقد عاصر المنصور تحولات اقتصادية وسياسية عالمية، وعاين تجارب وخططاً مختلفة التوجهات. ومن أبرز هذه الخطط الاقتصادية: الحركة الميركانتيلية سواء تلك التي تبناها الأنجليز والتي كانت تركز على التجارة والمبادلات، أو ميركانتيلية فرنسا التي اعتبرت قوة الدولة في صناعتها، أو تلك التي اعتمدتها إسبانيا والتي كانت تعتقد أن قوة الدولة توجد في امتلاك المعادن النفيسة واختزانها. وبحكم تعامل المنصور ومحاولاته إدماج المغرب في الاقتصاد العالمي، فهل ظهرت لدى هذا السلطان بوادر لسياسة مركنتيلية أو لا؟

تصعب الإجابة عن هذا السؤال بالنفي أو بالإيجاب، نظراً لغياب الدراسات في هذا الباب. ومع ذلك، تبقى المغامرة في هذا الموضوع مثيرة، إذ توجد مؤشرات وإشارات خاطفة ومتفرقة في المصادر والوثائق. ولعل سياسة المنصور كانت مبنية على تدخل الدولة في القطاعات الاقتصادية الحيوية، فرأينا كيف كانت زراعة قصب السكر وصناعته مرتبطة بتوجيه رسمي: "لقد ظهر واضحاً منذ الفصول الأولى لهذه الدراسة أن زراعة قصب السكر وصناعته كانت تخضع لتنظيم فريد بتدخل وتوجيه من الدولة"[(160)]. ونظراً لتعامل المخزن بأسلوب الاحتكار في مبادلاته الخارجية سواء في مادة السكر أو غيرها، فإنه سعى إلى تخزين المعادن النفيسة. وكان المنصور يعتقد أن قوة الملك وعظمته تتمثل في امتلاك الذهب والفضة. وقد عبر عن ذلك الفشتالي غير ما مرة. فمن التبريرات التي أوردها في شأن غزو السودان كتب يقول:

أرض كرم الله تربتها... بما اختصها به من معادن الذهب الذي به قوام العالم وأس الملك وبناء المجد وبالتفاوت فيه تتفاوت الأمم اقداراً وقوة وسلطاناً وجنوداً وأوطاناً

---

(160) P. Berthier, *Les anciennes sucreries...*, *op. cit.*, T.1, pp. 221-222.

فهي مثرات العديم ومجلب التبر إلى المشارق والمغارب في الحديث والقديم. فمن ملكها ملك الأرض وجمع الطول والعرض، لاضطرار أهل الأرض قاطبة إلى اجتراره واقتيادهم إلى الإذعان لصفرائه[161].

وقد وقف الفقهاء موقفا معادياً من التجار الذين كانوا يخرجون الذهب والفضة من المغرب من أجل شراء مواد كالتبغ، واعتبرهم التسولي سفلة، لأنهم ينقلون ذخائر المسلمين من النقود الجيدة إلى بلاد النصارى وبها يتقوى هؤلاء على المسلمين، وعاب عليهم "صرف النقود الجيدة من الذهب والفضة الخالصة... ودفع ذلك في أعشاب الأرض.. فهي رزية وما أعظمها! وبلية وما أخسها! ومحنة عظيمة ولا خالد بن الوليد لها"[162].

يظهر أن المنصور لم تكن لديه سياسة ميركانتيلية واضحة المعالم. غير أن الممارسة وجواره لإسبانيا ربما جعلاه يتبنى حدساً اتجاهاً ميركانتيلياً معدنياً، لأنه كان يومن بأهمية الذهب والفضة لقوة الملك.

وفهم هذا السلطان من جهة أخرى أن هيبة الدولة ترتبط بسيادة الأمن، لما لذلك من فوائد في تنقل الناس والبضائع. ولهذا كان حازماً في ضبط البوادي المغربية؛ وكان يفتخر بهذه الصرامة كما نلمس ذلك من الحكاية الآتية: سافر القاضي اليحميدي بن مالك في إحدى المناسبات من فاس إلى مراكش. وفي الطريق، رأى مجموعة من الأشخاص مكبلين وبينهم امرأة. فتأثر القاضي للمنظر و لم يتحمله وعبر عن رأيه للمنصور فغضب عليه هذا الأخير إلى أن تاب القاضي فعفا عنه وخاطبه قائلا: "لولا ما رأيت، ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة. فإن أهل المغرب مجانين مارستاناتهم هي السلاسل والأغلال"[163]. واهتم أحمد المنصور بتنشيط التجارة الداخلية بتمهيد الطرق. ويقول ابن القاضي أن المنصور بنى فيها المنازل والخيام تسهيلاً لتنقل التجار والبضائع في أمان. وكان المنصور يحمل مسؤولية الأمن بالطرق للأعيان ولشيوخ

(161) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 118.

(162) التسولي، نوازل، "باب الجهاد"، مخ.، خ.ح.م.، رقم 778.

(163) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.5، ص. 189.

القبائل من عرب أو بربر. وأشار المؤرخ المجهول إلى ذلك بقوله: "وانتبه الأكابر ووافته أعيان قبائل كل بلد من عرب وبربر فجددوا له البيعة... وأخذ معهم في الاتفاق على تأمين الطرق وكل شيخ ضمن ما يضيع في ترابه وأخذ العهود على رؤساء القبائل بذلك"[164].

وحرصا على الأمن فقد ابتكر المنصور خطّاً خاصّاً بمراسلاته، يكتب برموز لا يفك لغزها إلاّ المسؤول أو القائد الذي يكون مسبقاً قد علّمه إيّاها: "اخترع - أيده الله - أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الاطلاع عليه من أسراره ومهمات أموره وأخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملمعاً مستغلقاً فلا يجد المطلع عليه بابا يدخل منه إلى فتح شيء من معاني الكتاب ولا الوصول إلى فهم سر من أسراره حتى لو تلف الكتاب أو سقط أو ضاع أو وقع في يد عدو"[165].

وكان المنصور يسهر على معرفة كل أخبار مملكته، فغرس لهذه الغاية عيوناً له في جميع أطرافها، وكان يحاول أن يكون أول من يعلم بما يحدث في الدولة. "وبثّ أصحاب الأخبار في البلاد دانيها وأقاصيها... وفي كل خلوة وخلوة عيون أذكاها، موكلين بنقل ما يحدث من خبر أو قصة أو يدور على الألسنة"[166].

ولم يقتصر المنصور على تتبع ما يحدث في مملكته، بل أولى أهمية كبرى للحروب ولتحركات الفاعلين وقتها في السياسة الدولية. وحاول أن تكون مساهمته فيها في مستوى تطلعاته القاضية بإعطاء المغرب المكانة التي يستحقها. ومن أجل التخطيط لغزو السودان الذي كان يعتبر الامتداد الطبيعي لمملكته، استعمل كل مهاراته الدبلوماسية، فناور بين الأطراف المهيمنة على الساحة الدولية في نهاية القرن السادس عشر: العثمانيّين والحلف الكاتوليكي بزعامة إسبانيا،

---

(164) المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية...، مصدر مذكور، ص. 66.

(165) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 207 - 208.

G. Colin," Notes sur le système cryptographique d'Ahmed - al mansour", *Hesperis*, 2ᵉ trimestre, 1927, pp. 221-228.

(166) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 207.

والحلف البروتستانتي بزعامة أنجلترا. فكان يظهر العناية الفائقة بمبعوثي هذه الأطراف. فلما علم بوصول المبعوث الإسباني إلى أسفي سنة 1579، كتب رسالة إلى قائده في الميناء يطالبه فيها بتقديم الرعاية اللازمة له. ولما وصل السفير إلى مراكش، هيأ له المنصور الجو وجعله يشعر بالاطمئنان فأنزله للراحة بالمنارة، وكانت أعيان المدينة تقوم بزيارته:

وكان دخول دييكودي مرين إلى مراكش دخولاً مشهوداً حيث ركب الفرس الرمادي الذي كان يمتطيه عبد الملك... واصطف التجار فوق خيلهم سواء كان هؤلاء التجار مغاربة أو أجانب من أجل استقبال هذا السفير... وكانت جماهير مراكش واقفة بجانبي الطريق الذي مر منه دييكودي مرين(167).

وكانت كل تحركات المنصور الدبلوماسية ترمي بالأساس إلى تحقيق هدفين: الأول استثمار انتصار معركة وادي المخازن من أجل إعطاء المغرب المكانة التي يستحقها على الساحة الدولية، والثاني التحضير لتحقيق فكرته الأساسية أو ما عرف بفكرة المنصور الكبرى، أي غزو السودان. وعرف كيف يوظف التناقضات الحاصلة بين الإسبانيين والعثمانيين، ثم الإسبانيين والأنجليز، فاستغل الصراع الأنجليزي الإسباني على العرش البرتغالي، فتقرب لإيليزابيت ووعدها بمساندتها ضد فليب الثاني. وقد صدقت هذه الملكة نوايا المنصور كما تدل على ذلك الوثائق المتبادلة بين الطرفين في شأن الأمير دون كريستوف الذي بعث به والده إلى المغرب رهينة، وتعبيراً منه عن إرادة التعاون مع المنصور الذي وعد بمده بالأموال اللازمة التي تمكنه من استعادة عرشه من فليب الثاني. وأشار الباحث جورج بيانيل، اعتماداً على هذه الوثائق، إلى النقاش الذي دار بين إيليزابيت والمنصور حول مشروع مشترك من أجل غزو إسبانيا أو الهند(168). وقد تحفظت الملكة من فكرة غزو إسبانيا، ولكنها لم تستبعد فكرة التحالف مع المغرب. وطالب الجانب

---

(167) *S.I.H.M.* 1ère série, *France*, T. II, pp. 37-38,45 - 47.

(168) G. Pianel, "Le Maroc à la recherche d'une conquête; L'Espagne ou les Indes", *Hespérice* XL, 1953, pp. 511-521.

الأنجليزي بتمويل الحملة و لم يجزم المنصور، بل ترك الباب مفتوحاً قصد التثاقل والتماطل، وبعث بمبعوث منه لأنجلترا من أجل التفاوض في هذا المشروع: "لقد أعطيناه كل الصلاحيات ليناقش معكم كل القضايا. ولهذا نرجوكم أن تثقوا بكل ما يقول، لأنه يحظى بثقتنا الكاملة"[169]. وكانت مناورات المنصور تهدف إلى حياد القوى المنافسة له حتى يتفرغ لجمع كل طاقاته إلى السودان. وأشار الفشتالي بوضوح إلى أن المنصور كان يناور، "واغترت صاحبة بلاد نكلطيرة بمظاهرته وطاوعته بما أغراها به"[170]، لأن المنصور كان مقتنعاً بأن مستقبل المغرب ومصيره يوجد في دخوله إلى السودان، لأن الأبواب الأخرى قد أغلقت في وجهه: "فالاستيلاء على الممالك السودانية الغنيَّة بخراجها ومعادن الذهب على التوسع في الإنفاق... وبالسواد الأعظم من رقيقها على تسخير الجاديف الثقيلة بالأساطيل"[171].

وأولى أعطى المنصور أهمية كبيرة للترجمة والمترجمين، وقصده من ذلك معرفة الآخر وتتبع خطواته. واتخذ مترجمين رسميين وأسند إليهم مسؤوليات داخل القصر. وكان أبو القاسم الحجري من أشهر هؤلاء[172].

وعن طريق اهتمام هذا السلطان بالمعمار، يتضح أن تداخل الثقافات والحضارات كان واقعاً زمن المنصور. ويعتبر قصر البديع معلمة تجاوز بها المنصور كل التخمينات؛ فقد ساهم في إنجاز هذه التحفة صناع من داخل المغرب ومن خارجه، وبالخصوص من إيطاليا: "وحشد به الصناع وأرباب الحكمة من كل أرض، حتى من بلاد الإفرنجة"[173]. و لم يتردد المنصور في تزيين قصره بالتماثيل على الطريقة الأوربية "من منحوت المرمر بتماثيل مختلفة"[173]. واستعمل فيه كل

---

(169) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص .

(170) المصدر نفسه، ص. 194.

(171) المصدر نفسه، ص. 193 - 194.

(172) من أشهر هؤلاء يمكن ذكر أبي القاسم الغساني وأبي محمد المسفيوي إلى جانب الحجري.

(173) الفشتالي، مناهل...، ص. 254.

المهارات. كما كان توزيع المياه في هذه المعلمة الحضارية بطريقة عجيبة: "وتسافر (المياه) لهذه الديار، وقد أخذت الأهبة لمصبها في النقر المرمرية بكل دار من أنبوبين ينبجس أحدهما البارد والآخر بالسخن مغدين بلوالب تنجذب عند الفتل طوع يد التخيير بين الحار والفاتر ومزجهما عند الاستعمال"[174]. وذكرت المصادر الأجنبية أن قصر البديع شكل سوقاً ضخمة للتجار والصناع الأوربيين الذين كانوا يتقاطرون على مراكش من كل الآفاق. ودون الكاتب الفرنسي مونطين صدى هذا القصر في إيطاليا في مذكراته التي نشرت سنة 1774، وهي عبارة عن رحلة قام بها مونطين إلى إيطاليا سنة 1580 - 1581، حيث ذكر أنه شاهد أوراشاً كان يصنع فيها الإيطاليون حوالي خمسين سارية من المرمر الإيطالي الممتاز استجابة لطلب الملك المغربي الذي كان يسعى - في نظر مونطين - إلى تشييد مسرح كبير[175].

يظهر أن أحمد المنصور كان على وعي تام بأهمية المرحلة التي كان يعيشها، وسعى إلى مسايرة أحداث عصره بمساهمته في صنع بعضها، وعمل على تقوية الدولة المركزية وتحصينها عن طريق خلق جيش نظامي على غرار ما كان في أوربا، وعند العالم العثماني. وهذا على أساس أن يكون هذا الجيش أداة مرتبطة بشخص السلطان يستعملها كلما دعت الضرورة إلى ذلك من أجل فرض سلطته المطلقة. وبفضل هذا الجيش، حاول الابتعاد عن المجتمع. وعن طريق دبلوماسية نفعية "بركماتية"، حقق المنصور مشروعه (غزو السودان)[176]. لكن لماذا لم تتسرب عطلة المنصور وأفكاره إلى المجتمع؟ ولماذا توقفت محاولاته التحديثية فور وفاته؟ وهل حقاً اتخذ العلويون، وبالخصوص محمد بن عبد الله، تجربته نموذجاً ومرجعاً؟

---

(174) المصدر نفسه...، ص. 259.

(175) *S.I.H.M.* 1ère série, *Pays Bas*, T. IV, p. 573.

(176) لن نطيل في هذه النقطة، لأننا أعطيناها ما تستحق في الفصل الأول من هذا القسم.

الفصل الثالث

محمد بن عبد الله أو الإرادة السلطانية لخلق المغرب الحديث (1757 - 1790)

1 - الإجماع الإيجابي

أجمعت المصادر والمراجع على اعتبار محمد بن عبد الله منقذ الدولة الشريفة ومجددها بعدما شلت وتلاشت هياكلها منذ وفاة المولى إسماعيل (1727/1140). فقد رأى الضعيّف في سيدي محمد "السلطان الأسعد، وشمس الزمان وروح عالم الإسلام وظل الله على العباد"[177]. وكانت توليته، في نظر القادري، تولية "السعد والهنا"[178]. ولم يخف الزياني إعجابه الكبير بهذا الملك، وأشار إلى الطرق التي استعملها - بالرغم من معارضة والده - حتى يكون من أتباعه ومماليكه. فلما صار منهم بلغ أعلى المراتب والمناصب[179]. ولاحظ الناصري بنظرته الثاقبة كيف التف المغاربة حول ملكهم: "فتظافرت على ولائه ونَصْرِهِ القلوب والألسنة من غير توقف ولا تريث"[180]. وكان موقف ابن زيدان شبيهاً بالمواقف السابقة.

واستمرت الكتابة المعاصرة في الاتجاه نفسه: فقد لاحظ رامون لوردو دياز

---

(177) الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط، دار المأثورات، 1987، ص. 163.

(178) القادري، نشر المثاني، مصدر مذكور، ج.4، ص. 129. وإذ سحر الإله أناسا لسعيد، فإنهم سعداء (المصدر نفسه، ص. 126).

(179) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، دار الأنباء، 1965، ص ص. 62 - 63.

(180) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.8، ص. 3.

(Ramon Lourido) أن التقارير والمراسلات الأوربية قدمت محمد بن عبد الله بطريقة إيجابية ورأت فيه الملك المتسامح والمتشبع بالنزعة الإنسانية[181]. وقد أشار الرحالة السفير شخونينخ إلى أن الملك المغربي كان يعامل الأسرى المسيحيين معاملة حسنة. فلما علم بعدم قدرة الأسرى الهولنديين على تحمل حرارة مدينة مراكش، خاطبهم قائلا: "إننا نعلم أن سكان المناطق الشمالية لا يستحملون مناخاً كمناخ مراكش. ولهذا أصدرنا أوامرنا حتى يتم نقلكم إلى ميناء الصويرة"[182]. واعتبر عبد الله العروي محمد بن عبد الله "المهندس الحقيقيّ للمغرب الحديث"[183]. وخصص الحسن العبادي بحثه الجامعي لدراسة شخصية هذا السلطان، وبرر اختياره هذا بالمحبة التي يكنها لهذا الرجل الغيور على الإسلام وبتقديره لحركته الإصلاحية[184].

انطلاقاً من هذه المواقف، قد نتساءل عن الدوافع والعوامل التي كانت وراء هذا الإجماع؟ وهل كانت لهذا السلطان إرادة حقيقية لتحديث المغرب على أساس تجديد شمولي ومتكامل أو أن الأمر لا يزيد عن وصوله إلى السلطنة في ظروف كانت تتميز بيأس المغاربة ومللهم من وقع الهرج وشدة الفتن ورغبتهم في عودة البلاد إلى الأمن والإستقرار؟ وكيفساير محمد بن عبد الله عصره؟ وهل كانت له خطة تتلاءم وآفاق التحولات التي كان يعيشها العالم زمن توليته الأمر بالمغرب؟

تميز القرن الثامن عشر في أوربا - النصف الثاني منه على الخصوص - بانهيار النظام الاقتصادي/الاجتماعي القديم. وتجسد ذلك الانهيار سياسيا في الثورة الفرنسية واقتصادياً في الثورة الصناعية. فقد استطاعت القوى الحيوية ـ في المقام

---

(181) Ramon Lourido Diaz, *Marruecos y el Mundo exterior en la mitad del siglo XVIII*, Madrid, Agencia Española de la cooperacion Internacional, 1989, p. 122.

(182) Le Baron Schoening, *Croisières et Négociations de Mr. Kinsbergen*, Amsterdam, 1779, p. 35.

(183) A. Laroui, *Histoire du Maghreb, op. cit.*, p. 257.

(184) الحسن العبادي، الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله العلوي: حياته، حركته السلفية، نهضته العلمية والإصلاحية، الدار البيضاء، موسسة بنميد، 1987، ص. 25.

الأول - هدم الأوتاد التي كانت تشد النظام القديم الذي ينبني على نظام الملكية المطلقة: فكان الملك يستمد سلطته من الله. وكانت الركيزة الثانية لهذا النظام المتلاشي تعتمد على احتكار الدولة وسيطرتها على الاقتصاد. وشكلت الكنيسة دعامته الثالثة لما كان لها من وقع على حياة الناس اليومية. إلا أن البورجوازية ناهضت هذه القيم التي كانت تعاكس مصالحها واستبدلتها، خلال القرن الثامن عشر، بمثل وبقيم جديدة: فحاربت سياسيّاً الأسس التي كانت تقوم عليها الملكية المطلقة عن طريق دعمها وتقويتها لنظرية ومفهوم العقد والتعاقد في السياسة بين الحاكم والمحكوم، وركزت في عملها هذا على بلورة مفهوم المواطنة أسلوباً وأساساً للبناء والتسيير السياسي والاجتماعي. وقاومت هذه الفئة من جهة ثانية احتكار الدولة للاقتصاد، فشجعت مبدأ المبادرة الفردية واعتبرت الربح الخاص أساس العمل الاقتصادي، واستبدلت قيم الكنيسة، فناهضت الاعتقادات الغيبية عن طريق دعمها للعقل واعتباره معياراً لكل تحركات بني البشر.

وأدى توغل هذه المبادئ وتسربها إلى حياة الناس، وتجذر فكر فلاسفة عصر الأنوار واقتناعاتهم في أذهان رجال السياسة والاقتصاد خلال القرن الثامن عشر، أدى إلى اندلاع ثورات في الفكر السياسي والاقتصادي، وإلى تحولات في الممارسات وفي السلوك. وساهم من جهة أخرى في إعادة النظر في توزيع الخيرات واستهلاكها. واختلفت مواقف مفكري الاقتصاد واقتناعاتهم من بلد إلى آخر في أوربا بسبب طبيعة بنيات اقتصاد هذه البلدان وهياكله. ومع ذلك، فقد حصل الاتفاق وتم الإجماع في أوربا على ضرورة حماية وصيانة حقوق الإنسان الطبيعية التي أعلنتها الثورة الفرنسية[185].

وأولى الفيزيوقراطيون أهمية كبيرة للحرية الاقتصادية واشترطوا أن تكون حرية كاملة حتى تمكنهم من تسيير أمورهم وتدبيرها وفق مصالحهم الخاصة التي لا تتعارض والمصالح العامة، وعمق دعاة الاقتصاد الكلاسيكيين هذا المبدأ. ورأى

(185) ركز البند الثاني في الإعلان عن حقوق الإنسان سنة 1789 على اعتبار الملكية الفردية والحرية والأمن ومقاومة الاضطهاد حقوقا طبيعية مقدسة.

آدم سميث أن اليد الخفية التي تسير الكون قادرة على جلب الرفاه للبشر. واعتبر التجارة مصدر جميع الثروات عكس الزراعة التي اعتمدت في فرنسا. ويرجع ذلك إلى وجود طبقة تجارية قوية في أنجلترا. وتحدثت المصادر والمراجع الأوربية عن انتقال الهيمنة الأوربية خلال العصر الحديث على العالم من بلد إلى آخر بحسب الظروف. وهكذا سيطرت إسبانيا خلال القرن السادس عشر والسابع عشر وهيمنت هولندا بأساطيلها خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، ثم انفردت أنجلترا بالزعامة خلال القرن الثامن عشر. وقد انتبه ابن عثمان إلى هذه السيطرة الإنجليزية حيث قال عن هذا البلد "إنه كان أقوى أجناس النصارى في البحر وكان له الظهور عليهم وأعياهم أمره لما اشتد طلبه"[186]. وتساءل المؤرخون عن أسباب هذه الهيمنة. فهل كانت ترجع إلى اتساع مساحة الأمبراطوريات وامتدادها أو أنها تجد تفسيرها في القوة العسكرية وفي السيطرة على الطرق البحرية؟ والملاحظ أن أنجلترا انفردت بالزعامة منذ معاهدة أوتريخت (1713 - 1714)، فهل يرجع تفوقها إلى موقعها الجغرافي بصفتها جزيرة أو إلى تقدمها الصناعي؟ ولخص مورو (Mauro) هذه التساؤلات بقوله: "لنقل ونُقر بأن معجزة أنجلترا قد ارتبطت بتداخل هذه العوامل وأنها استطاعت أن تنفرد بزعامة العالم عندما قررت أن تتخلى عن طموحاتها في أوربا"[187]. فبفضل تظافر هذه العوامل، أصبحت قادرة على "فرض نفسها ومصالحها على باقي العالم"[188].

لقد عاصر محمد بن عبد الله التحولات التي عرفتها أوربا بسبب الثورة الصناعية، فكيف تعامل معها؟ وإلى أي حد يمكن القبول بما جاء به جاك بيرك (J. Berque) في هذا الصدد عندما لاحظ حصول خلل عميق في موازين القوى بين المغرب وأوربا بعد الثورة الصناعية. فلم يعد المغاربة قادرين على خلق الملاحم

---

(186) ابن عثمان المكناسي، الإكسير...، مصدر مذكور، ص. 97؛ وعبد المجيد القدوري، سفراء مغاربة...، مصدر مذكور، ص ص. 59 - 60.

(187) F. Mauro, *L'expansion Européenne 1600 - 1870*, Paris, Nouvelle Clio, P.U.F., 1967, p. 252.

(188) Mb. Bennassar et autres, *Historia Moderna*, Madrid, Akal editor, 1980, p. 725.

على غرار ما حصل خلال القرن السادس عشر في معركة وادي المخازن بسبب التفوق التقني والعسكري[189]؟ لقد سعى هذا السلطان إلى التعامل مع أوربا على أسس جديدة يتحكم فيها السلم والمهادنة. غير أن هذه الإرادة لم تكن لتضع حداً للموروث في هذه العلاقات التي تحمل في طياتها السلم والمواجهة.

كان الاحتلال الأوربي لبعض الثغور المغربية أساس المواجهة كما تؤكد تقارير السفراء ورحلاتهم. فقد ألح الغزال بإعجاب كبير على محاصرة المرابطين لسبتة، "وكانت مدة إقامتنا بالمدينة ستة أيام، وكنا في أيام الإقامة تتعاهد الأماكن التي بها المجاهدون المرابطون على المدينة تبركاً بها، فنخرج من الباب المقابلة للمرابطين التي بها الخمسمائة من السلطاظ فنجدهم واقفين على قدم عسستهم والمسلمون في مقابلتهم"[190]. وكانت هذه الثغور عبارة عن قلعات عسكرية شبه معزولة، لأن التحركات فيها ومن حولها كانت مرصودة ومراقبة. وأشار ابن عثمان إلى هذا الجو بقوله: "وفي داخل القصبة (سبتة) أيضاً دار فيها قبة في أعلاها وفيها مرآة كأنها الجايزة من الخشب، ولها رجل موكل بها يظل ويبيت هنالك يرصد المراكب التي تظهر في البحر ومن يظهر في البر من المسلمين"[191].

وإلى جانب المواجهة في الثغور، طغت على علاقات المغرب بأوربا على عهد محمد بن عبد الله مسألة القرصنة. فقد اهتم محمد بن عبد الله بها، وجعلها مؤسسة تابعة للدولة، وحاول توظيفها وتسخيرها في علاقات المغرب بأوربا، فصار الأسطول المغربي يجوب البحار ويضايق الأساطيل التجارية الأوربية. وتبنت الدول الأوربية مواقف متباينة من المغرب لحماية مصالحها، فمنها من أعلن عليه الحرب، وهكذا قنبلت السفن الفرنسية سلا عام 1764 والعرائش سنة 1765؛ ومنهم من ركن إلى السلم والصلح، وعبر الناصري عن ذلك بقوله:

---

(189) J. Berque, *L'intérieur du Maghreb XV-XIX^e siècle*, Paris, Gallimard, 1978, p. 394.

(190) أحمد الغزال، نتيجة الاجتهاد...، مصدر مذكور، ص. 51.

(191) محمد بن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1965، ص. 12.

فلم تزل قراصينه تتردد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفر فتقتل وتأسر وتغنم وتسبي إلى أن ضاق بهم رحب الفضاء... وكان يستأصل جمهورهم حكم القضاء. فمنهم من فزع إلى طلب المهادنة وحسن الجوار ومنهم من كذبته نفسه فطاول إلى الأخذ بالثأر[192].

وتوجد عدة مراسلات في هذا الصدد: ففي رسالة وجهها محمد بن عبد الله إلى "جماعة الاصطادوس أصحاب ديوان الفلامنك... فقد بلغنا كتابكم... ووصلتنا إقامة السفن... وقد جددنا معكم عقدة الصلح السابق بيننا وبينكم... وكتب في ثالث شوال عام سبعين ومائة وألف الموافق من تاريخ العجم سنة سبعة وخمسين وسبع عشرة مائة"[193]. وفي رسالة أخرى من السلطان إلى العمالات المتحدة بتاريخ 26 ربيع الأول 1198، نقرأ أن الملك توصل بهدية من القونصو بلونط (Blount): "ونحن معكم على المهادنة والصلح التامين"[194].

كما احتل تبادل الأسرى مكانة هامة في تحديد علاقات المغرب بأوربا زمن محمد بن عبد الله. فقد أولى هذا الأخير أهمية كبرى للأسرى وأحاطهم بعناية خاصة سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين[195]. وقد اهتمت كل الدول بمصير الأسرى وبوضعيتهم. ولأجل ذلك، قام سفراء من المغرب برحلات نحو أوربا[196]. ولاشك في أن البعد الإنساني له دور في دفع الدول إلى الاهتمام بالأسرى. غير أن هذا البعد وحده لا يكفي لتبرير هذا الاهتمام. فلا يمكن إغفال الخلفيات

---

(192) الناصري، **الاستقصا...**، مصدر مذكور، ج.8، ص. 21.

(193) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي Barbaric, 6960/1757 .

(194) المصدر نفسه.

(195) لاحظ السفراء الأوربيون النزعة الإنسانية التي كان يتحلى بها محمد بن عبد الله على عكس السلاطين الذين سبقوه .(Ramon Lourido Diaz, *Marruecos...*, *op. cit.*, pp. 122 - 123).

(196) تكفي الإشارة إلى كل من أحمد بن المهدي الغزال ومحمد بن عثمان المكناسي وإلى بعض العناوين المعبرة: **الإكسير في فكاك الأسير**، و**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**.... وقد أورد الضعيف المنة الأسرى. (انظر: **تاريخ الضعيف**، مصدر مذكور، ص. 174).

الاقتصادية وراء ذلك. إذ كانت الدول تستغل الأسرى يداً عاملة لبناء الطرق وللتحديف في السفن. وكان المغرب يستعين بخبرتهم وبكفاءاتهم من أجل تأطير الدولة وتسييرها، وعن طريقهم استطاع محمد بن عبد الله إدراك بعض مكونات الذهنية الأوربية التي لم تكن غائبة عنه.

وقد شعر محمد بن عبد الله بالقوة التي صارت تتوفر عليها أوربا. وبفضل هذا التفوق، أصبحت سيدة الكون براً وبحراً. ويقتضي الواقع الجديد أن يتعامل المغرب مع هذه القارة بأسلوب جديد وبخطة جديدة. فهل كان محمد بن عبد الله مؤهَّلاً ومهيَّئاً لمسايرة هذا الواقع؟

2 - محمد بن عبد الله: النشأة والتكوين

لقد نشأ هذا الأمير وتربى في جو الفتن والشدائد. مات جده المولى إسماعيل وعمره خمس سنوات. فكبر في أيام الهرج والخلخلة التي عمت أرجاء المغرب، حينما استبد العبيد بالأمور وهدموا أركان الدولة وكان لهم التصرف المطلق. فعمت المحن والبلايا البلاد، وتعذر الأمن في الطرق، وكثر الثوار، وتفتتت هياكل المؤسسة، فشاع الظلم، وانتشرت الرشوة، وأكل القويّ الضعيف. وقد أشار محمد بن عبد الله إلى هذه الوضعية في أحد مراسيمه عندما قال: "اعلم أن هذا الوقت وقت صعب كثُرَ فيه الظلمة"[197]. في هذا الجو القاتم صارت البلاد في حاجة إلى منقذ، وربما كانت الوضعية المتأزمة وملل الناس من الهرج ومن الخوف هي التي تفسر السهولة التي تمت بها بيعة محمد بن عبد الله، لأن الناس كانوا - كما يقول محمد بن عبد السلام بن الخياط القادري - في حاجة إلى الإمام الموهوب ليجدد للأمة دينَها. وكان الناصري - على عادته - أكثر وضوحاً إذ قال:

وكان الناس قد سئموا الهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب، وملوا الحرب وملتهم... إذ كانت أيامه (يقصد المولى عبد الله) لا سيما أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان. وكان حال الرعية معه مثل الفوضى الذين لا وازع لهم،

(197) ابن زيدان، الإتحاف...، مصدر مذكور، ج.3، ص ص. 196 - 197.

فكان ذلك أقوى الأسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله إلى بيعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله"[198].

لكن كيف وظف هذا الأمير معطيات الأزمة الداخلية وحيوية أوربا ليبني المغرب الجديد؟

حظيت شخصية هذا السلطان بالاهتمام الكبير سواء في الأسطوغرافية المغربية أو الأجنبية. وكان من إيجابيات ذلك، التنوعُ والتكاملُ في المعلومات الواردة فيها عنه. فكيف قدمت هذه الكتابة هذه الشخصية؟ وهل ركزت في كلامها عنه على العناصر نفسها أو لا؟

لقد أجمعت جل المصادر العربية على ذكر تاريخ ميلاد محمد بن عبد الله في 4 ربيع النبوي 1134 بمكناس. وأشارت من جهة أخرى إلى العناية التي خصته بها جدته خناثة بنت بكار، فهي التي لقنته المبادئ الأولى في القراءة والتعليم، وأخذته معها إلى الحج سنة 1143، فكان تأثير جدته عليه كبيراً. وأعطى الضعيف تفاصيل عن صفات السلطان الجسمانية: فهو "أسمر اللون، تام القد، أقنى الأنف لتمام شعر لحيته، عريض الأكتاف، واسع المنكبين، صبح الوجه"[199]. وردد كل من جاء بعده هذه الأوصاف التي تختلف في منطقها عن تلك التي نجدها عند الأجانب. فإذا رأى الضعيف الرباطي في صفات محمد بن عبد الله صفات السلطان المسلم النموذج، فإن البارون شخونينخ (1776) قدم صفات هذا السلطان بشكل مغاير، وإن كانت لا تخلو من إعجاب هذا الرحالة بشخصية الملك المغربي. فقد كتب يقول: "وخلاصة القول إن صفات إمبراطور المغرب الجسمانية توحي بالقساوة والجلال في شخصيته"[200].

---

(198) الناصري، الاستقصا...، ج.8، ص. 3.

(199) الضعيف، تاريخ الضعيف...، مصدر مذكور، ص. 164.

(200) "Mehemed Abdala, qui est aujourd'hui sur le trône, est de la moyenne taille, et extrêmement maigre, avec un visage long, les yeux fort enfoncés dans la tête, et un nez aquilain. Sa peau est brune". (Baron Schoening, *Croisières et Négociations...*, *op. cit.*, p. 78).

لم تولِ المصادر العربية أهمية كبيرة للظروف التـي تكون فيها محمد بن عبد الله. واكتفت بإشارات خاطفة تتعلق بأمور عامة غالباً ما ترتبط بأمور دينية. فقد أشار الزياني إلى إعجابه بثقافة هذا السلطان الواسعة واهتمامه الكبير بالتاريخ والحديث، لأنه "كان - كما يقول الزياني - نسابة اخبارياً حافظاً لأيام العرب ووقائعها، حافظا للسيرة والحديث لا يجارى ولا يبارى... وكان له ولع بسرد كتب التاريخ والحديث، وكاد أن يحفظ ما في كتاب الأغاني"[201].وأطالت هذه المصادر في ذكر تآليف محمد بن عبد الله سواء تلك التي ألفها في الفقه أو في الحديث أو في التعليم أو في التصوف أوفي الشعر.

واهتم الرحالة شخونينغ كثيراً بمسألة تربية الأمير. وكان يرى فيها، انطلاقاً من مرجعيته الأوربية المتأثرة بأفكار فلاسفة عصر الأنوار في موضوع التربية ودورها في تكوين الشخصية أساس النجاح. فلاحظ أن معرفة السلطان وتربيته كانت مبنية على دراسة العربية، وعلى المبادئ الأولى في الحساب، وكان يتدرب على ركوب الخيل واستعمال الأسلحة. وتأسف هذا الرحالة على التربية في المغرب، لأنها لا تنمي الطاقات الطبيعية لهذا الأمير، بل تركته ينمو ويتكون وحده: "ولو تحقق له ذلك - يقول هذا الرحالة -، لكان للسواحل المغربية أمير في مستوى كبار الرحالات"[202].أشار هذا الرحالة إلى محاولات السلطان توسيع تكوينه وتنويعه باستعانته بالعلوج أو ببعض المهندسين المسيحيين الذين كانوا في خدمته. وعن طريقهم، كان يحاول أن يتعرف دياناتهم وجغرافية بلدانهم[203]. وحاول محمد بن عبد الله أن يضمن لأولاده تربية في المستوى، ويرى البارون شخونينغ أن اهتمام الأمبراطور بتربية أولاده سيمكن المغرب من تحقيق قفزة نوعية وسيصبح من الأمم المتحضرة[204]. وركز هذا الرحالة من جهة أخرى على نزعة السلطان الإنسانية.

---

(201) أبو القاسم الزياني، الترجمة الكبرى...، مصدر مذكور، ص. 63.

(202) Baron Schoening, *Croisières et Negociations*, *op. cit.*, p. 78.

(203) *Ibid.*, pp. 81-82.

(204) *Ibid.*, p. 106؛ عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام...، مصدر مذكور، ج.5، ص. 117.

فقد كان الأجانب يعيشون في جو منشرح وانتقد الإشاعات المغرضة التي حاول التجار الأوربيون نشرها عنه[205]. وأثار انتباهه وجود اليهود بكثرة في المغرب واستحواذهم على الأعمال العامة: "كانت الأمبراطورية تغص باليهود"[206]. وأشار البارون شخونينخ إلى معرفة السلطان للإسبانية، لأنه خاطب بها الأسرى الهولنديين بمراكش في حضوره؛ وبيّن أن الأمبراطور كان يكره الخمول والتراخي في العمل ولخص كلامه قائلا: "كان الأمبراطور مؤهلاً ليكون على العرش. ولسوء حظه، لم يولد في مناطق ذات مناخ آخر حتى ينمو فكره ويطبق سياسته"[207].

لم يخف الذين كتبوا عن محمد بن عبد الله إعجابهم بشخصيته، فاعترفوا له بالمؤهلات التي كان يتوفر عليها والتي جعلت منه رجلاً مسؤولاً وعبقرية سياسية. يقول الضعيّف: "فهو - أعزّه الله - من ذوي السياسة والرياسة"[208]. لقد علمته أيام الشدة والفتن مكامن ضعف المخزن، وعرف عن طريق جدته الكثير عن سيرة جده المولى إسماعيل، ورافق والده سنة 1147 إلى واد نول، وبقي لمدة ثلاث سنوات بتارودانت، وعاد إلى مكناس واستقر بها، وكان يتردد على خناثة بنت بكار فأخذ عنها العلم والصلاح والحنان، وعمقت في نفسه فكرة القيام بإصلاح في المغرب وضرورة هذا الإصلاح حتى يتجاوز ما تسبب فيه العبيد من جور واستبداد، وحتى يعيد للمغرب الأمن وينشر العدل، ويزيل الرشوة، ويعيد الحق لأصحابه. لقد فطن محمد بن عبد الله إلى بعد الأزمة التي كانت تجتاح المغرب وفهم أن هياكل الدولة قد شُلّت ولم تعد قادرة على ضمان الأمن والسهر على تطبيق الشريعة. ولأجل هذا أو بسببه، عمل هذا السلطان على إعادة إحياء مؤسسات الدولة على أسس جديدة تمكن من تحديد معالمها الأساسية عندما كان ينوب عن والده في مراكش، وبالخصوص في أسفي.

---

(205) المصدر نفسه، ص. 160.

(206) Baron Schoening, *Croisières et Négociation...*, *op. cit.*, p. 158.

(207) *Ibid.*, pp. 100-101.

(208) الضعيف الرباطي، تاريخ...، مصدر مذكور، ص.164.

3 - تجارب السلطان وأثرها في بلورة مشروعه التحديثي

عزف محمد بن عبد الله بعد النظر في تسييره لأمور الدولة. فلما كان نائباً عن أبيه في مراكش وسوس، حاول العبيد استمالته والدفع به إلى القيام ضد والده؛ لكنه لم يتردد في رفض اقتراحهم عدة مرات. وكان يسارع إلى إبلاغ والده بالأمر ويخبره بالدوافع التي كانت تدفعه إلى معاملة العبيد معاملة حسنة.

> وفي أواخر صفر 1163، توجه ثلاثة آلاف من عبيد الرمل... لمولانا سيدي محمد بن عبد الله ... إذ كان ... عاملا لأبيه على مراكش وسائر بلاد السوس مفوضاً له في أمره وجباياته، يطلبون منه القيام بالدعوة لنفسه... فأكرمهم وأعطاهم واعتذر لهم مراراً. ويعتذر لأبيه أيضاً بأنه إنما يفعل معهم ذلك مخافة استدعائهم ذلك من بعض أعمامه، فيجيبهم لذلك. فأفصح لهم بأنه لا يقبل منهم ذلك ولا يخرج عن أبيه[209].

نلاحظ أن محمد بن عبد الله كان يعمل على تحقيق الإجماع حوله. فهو يرفض الخروج عن والده من جهة، ويطعن بذلك في الأمراء الذين قبلوا بتلك الممارسات؛ ويعمل من جهة أخرى على تجنب غضب العبيد بصفتهم قوة عسكرية وسياسية فاعلة حتى لا يترك المجال مفتوحاً أمام أعمامه وخصومه. فقد عرف كيف يستعمل الأحداث ويتعامل معها لبلورة مخططه، فكان يلجأ إلى المرونة واللين عندما يعرف أن ميزان القوى ليس لصالحه. وهكذا نراه يخرج من مراكش تحت ضغط قبائل الرحامنة دون مقاومة. فقد عاش لحظات الإهانة ورأى والده يبعد عن الحكم خمس مرات؛ وقبل بذلك، لأنه كان يعرف أن السلطة الحقيقية كان يتقاسمها جيش العبيد وجيش الودايا[210]. وعرف محمد بن عبد الله من خلال هذه التجارب واقع المغرب وحدود موازين القوى فيه. وكانت تجربته بآسفي هامّة جداً، لأنها مكنته من معرفة الرواج التجاري وجعلته يتعرف منطق التجارة والتجار، ومن خلالهم كان انفتاحه على الخارج. فتكاملت لديه الرؤية واتضحت معالم مشروعه التحديدي الهادف إلى تجاوز الضغوط الداخلية.

---

(209) القادري، لنشر المثاني...، مصدر مذكور، ج.4، ص. 69 و 82.

(210) J. Berque, *Ulèma, Fondateurs...*, *op. cit.*, p. 258.

وبالرغم من الهرج والفتن التي عمت المغرب بعد وفاة المولى إسماعيل، فإن التجارة لم تتوقف مع العالم الخارجي، ولم يبتعد التجار الأجانب قط عن الموانئ المغربية، بل ربما حصل العكس. فآسفي مثلاً من الموانئ التي نشطت بها التجارة أيام الأزمة، وذلك لقربها من مراكش ولأنها كانت ميناء الحاضرة السعدية، بالإضافة إلى أن الوفود الأجنبية الواردة على مراكش كانت تنزل بسفنها في هذا الميناء. ولا ننسى أن آسفي كانت من الثغور التي احتلها البرتغاليون وجعلوها ميناء مجهزاً قادراً على استقبال السفن. وسجل لوي مييج (J. -Louis Miège) أن ميناء آسفي قد استقبل 187 سفينة فرنسية قدمت إليه من مرسليا في ما بين سنتي 1692 و 1792 واحتل بذلك الرتبة الثالثة بعد كل من سلا التي وصلتها 362 سفينة والصويرة التي وصلتها 245 سفينة. واحتل ميناء آسفي الرتبة الرابعة من حيث السفن التي غادرت المغرب في اتجاه مرسليا في الفترة نفسها بعد سلا والصويرة وأكدير. ولاحظ مييج انتعاش التجارة البحرية المغربية ابتداء من سنة 1749. والملاحظ أن هذه الفترة قد صادفت وجود محمد بن عبد الله في آسفي[211]. فلم تكن الحروب ولا الأزمات لتوقف التجارة وربما كانت هذه الأخيرة مسؤولة عن خلق مصالح جديدة. إذ حاول التجار دائماً الاستفادة من أيام الحروب وتطويعها لخدمة مصالحهم. يقول جاك بيرك (J. Berque): "بالرغم من وجود المواجهة، فإن أمر المبادلات لا يكون - كما يعتقد الناس - أسود أو أبيض"[212].

لقد استقرت في آسفي جالية يهودية مهمة تعاطت التجارة واحتكرت الوساطة بين المغرب الرسمي والأوربيين. وتعرف محمد بن عبد الله هذا الجو وانتبه إلى فوائد التجارة وما يمكن أن تدره عليه من خيرات لاشك في أنه كان في أمس الحاجة إليها، وتم مجيئه إلى آسفي بإرادة وطلب من قبائل عبدة واحمر ومن سكان المدينة. واستعمل الناصري كلمات معبرة عن رغبة السكان الملحاحة في وصوله

(211) J. - Louis Miège, "Les relations maritimes entre Marseille et le Maroc 1682 - 1863", in Revue *Maroc/Europe*, 1992, N°2, pp. 62-63.

(212) J. Berque, *L'intérieur du Maghreb XV-XIX^e siècle*, Paris, Gallimard, 1978, p. 175.

إليها، فعملت القبائل كل ما في وسعها من أجل ذلك (فاستضافوه، وأهدوه الهدايا، وتسابقوا، ولعبوا البارود...، إلخ). و لم تنفرد القبائل بحفاوة الاستقبال، بل أظهر سكان آسفي الحماس نفسه. فلما دخلها، "فرح أهل آسفي واغتبطوا به". ولاحظ الناصري اهتمام التجار الأجانب بمقدم الأمير: "وتبادر تجار النصارى واليهود وتنافسوا"[213] على تقديم الخدمات للأمير. لقد وجد هذا الأخير في آسفي الدعم المادي والضروري والمناخ المعنوي اللازم، فعرف كيف يوظف هذا الحماس وهذا التعطش إلى الاستقرار، فسهل أمر التجارة والتجار، "وسرح للتجار وسق السلع بالمرسى؛ فأهرعت إليه المراكب من بر النصارى بأنواع سلعها وقصدها التجار بالبضائع من كل جهة يبيعون ويشترون، وكثرت الخيرات ونمت البركات لهاستركب واستلحق وعلا أمره وطار صيته في البلاد"[213].

4 - تجديد هياكل المخزن

- تجديد أم إصلاح؟

هل كانت لمحمد بن عبد الله إرادة التجديد؟ وأي تجديد كان يريد؟ الملاحظ على المصادر والمراجع العربية أنها لم تجد أي حرج في كلامها عن الجدة في عهد هذا السلطان. وهكذا نقرأ عند ابن زيدان، نقلا عن الناصري، أن محمد بن عبد الله "هو الذي جدد هذه الدولة الإسماعيلية بعد تلاشيها، وأحياها بعد خمود جمرتها وتمزق حواشيها"[214]. وتزخر هذه الكتابة بالألفاظ والمصطلحات التي تحيل القارئ على عملية التجديد. ومن الأمثلة التي تتكرر في المصادر التي تتحدث عن هذا السلطان، نجد عبارات: (أعاد للدولة شبابها ـ نهج بالدولة نهجا جديدا أو أسس الدولة الجديدة إلخ). وأشار الرحالة والسفراء الأجانب بدورهم إلى هذه الحركة الإصلاحية التي قادها محمد بن عبد الله في المغرب. واستعمل البارون شعونينخ مصطلح "حضّر" (civiliser) في كلامه عن عملية التجديد. وهذا أمر

---

(213) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.7، ص ص. 194 - 195.

(214) ابن زيدان، إتحاف...، مصدر مذكور، ج.3، ص. 150.

طبيعي، لأنه ينطلق في كلامه عن المغرب من موقف المتفوق المتعالي: "كان الأمبراطور المغربي محتاطاً جداً ولا يدخر أي جهد ليحضّر (civiliser) شعبه"[215].

وأضاف في مناسبة أخرى عندما كان يبرر لجوء محمد بن عبد الله إلى جمع الأموال: "وكان يرمي من سهره على الزيادة في مداخيل بيت المال إلى نشر الفنون والعلوم في دولته ليحضّر رعاياه"[216]. فهل كان محمد بن عبد الله واعياً بما نسب إليه؟

لقد استعمل هذا السلطان مصطلح إصلاح في رسالة بعث بها إلى شرفاء تافلالت على أثر رفضهم استقبال مبعوثه العباس مرين الرباطي المكلف بتفقد خراج الأسواق. والرسالة تقول: "الحمد لله وحده... كافة شرفاء تافلالت شتت الله شملكم، لا سلام عليكم". وبعدما انتقد السلطان موقفهم بشدة وهددهم، أردف يقول: "هل عرفتم أن بيت المال... محتاج لما يرد إليه من تافلالت، بل المراد إصلاح بلادكم...؟ في ثالث عشر ذي القعدة عام ستة وثمانين ومائة وألف"[217]. فاستعمل السلطان في الرسالة مصطلح الإصلاح بموازاة توافر الشروط المادية الضرورية لإنجازه. وسار الرحالة شحونينغ في الاتجاه نفسه حيث ربط تمدن الرعايا وتحضّرها بضمان مداخيل بيت المال. لعل الإصلاح — في نظر محمد بن عبد الله — ذو ارتباط بالملموس. كما استعمل كلمة إصلاح في رسالة أخرى عندما لاحظ أن "إصلاح الألسنة يكون بالنحو"[218]. ونبه هذا السلطان في مناسبات عديدة العلماء إلى ضرورة العودة إلى منهج السلف الصالح الذي ينبني على الرجوع إلى القرآن وأحاديث الرسول لاستنباط الأحكام[219].

تولى محمد بن عبد الله الحكم بإجماع من المغاربة الذين ملوا الأزمة والإهانة وجور العبيد واستبدادهم. وكان على بينة من موازين القوى التي أفرزتها

---

(215) Baron Schoening, *Croisières et Négociations...*, *op. cit.*, p. 81.

(216) Ce monarque se sert pour parvenir à ses divers buts; comme d'augmenter ses revenus d'introduire dans ses états les arts et les sciences, et de policer ses sujets".

(217) الضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 176.

(218) الحسن العبادي، الملك المصلح...، مرجع مذكور، ص. 192.

(219) المرجع نفسه.

الأزمة، فحاول أن يخرج المغرب من الدمار فتبنى مشروع إعادة إحياء هياكل الدولة وترسيخ أو ردّ الاعتبار إلى القوانين والمؤسسات التي أفرغها الهرج والفتن من مضامينها. وحتى يتحقق له ذلك، فقد سعى هذا السلطان إلى خلق توازن مقبول بين الواقع الداخلي وتحولات العالم الخارجي. فما الجدة التي أتى بها هذا السلطان وأثر بها في حياة الناس اليومية؟ وما المبادرات التي اتخذها اتجاه العالم الخارجي ليشيد فضاء المغرب الأطلسي؟

- إعادة النظر في خطة القضاء

للقضاء صلة مباشرة ووطيدة بحياة الناس اليومية، وكان محمد بن عبد الله مدركا لهذا. لذلك عمل كل ما في وسعه ليعيد ثقة الرعايا في مؤسسة القضاء حتى تستعيد مصداقيتها، لما لها من صلة بالأمن والاستقرار في المجتمع. فما المبادرات التي تبناها محمد بن عبد الله من أجل إصلاح القضاء؟

أعطى السلطان الأولية لهذا القطاع كما يتبين ذلك من العدد الهائل من الظهائر والمراسيم والقرارات التي أصدرها في وقت وجيز بعد ما تولى أمر المغاربة[220]. ويرجع السبب في ذلك إلى حضور مؤسسة القضاء في كل صغيرة أو كبيرة من حياة الناس. وفهم السلطان أن تطهير القضاء أمر ضروري لتقوية هياكل الدولة؛ وسهل عليه الأمر، لأنه كان عالماً مجتهداً. ومن هذا المنطلق كان يحاور القضاة والمفتين ويناقشهم. وهكذا نراه لا يتردد في توجيه انتقادات قاسية لأولئك الذين يحكمون أو يفتون اعتماداً على كتب المتأخرين وفتاويهم. فقد خاطبهم قائلا:

> كان القضاة والمفتون المتقدمون يأخذون الفتاوي من كتب الأقدمين المقبولين واليوم والعياذ بالله يأخذون الفتاوي من كتب المتأخرين... فلا عمل عليها ولا حكم بها ولا يفتي بها مفت... واشتغلوا بتغليب هذا على هذا بالفتاوي الواهية[221].

(220) خصص ابن زيدان في كتابه "الإتحاف..."، حوالي 37 صفحة لهذه المراسيم والقرارات (انظر: ابن زيدان، الإتحاف...، مصدر مذكور، ج.3، ص ص. 188 ـ 225).

(221) المصدر نفسه، ص. 206، وكذا، ص. 196.

لقد طعن السلطان في هذه الآليات واعتبرها غير مقبولة شرعاً، وحمل المشتغلين بها مسؤولية ما وصل إليه القضاء من ابتعاد عن العدل وعدم إنصاف الضعيف والمسكين، فصار القضاء على أيديهم مسخراً لخدمة الظلمة المتمردين. وانتقد محمد بن عبد الله القضاة الذين تخلوا عن دينهم ومبادئهم جرياً وراء الطمع، فضيّعوا على المسكين حقه وأضاعوا أنفسهم: "وأين القضاة الذين كانوا يحكمون بما ذكرنا ولا يهملون حق المساكين؟ وإنما نظر القضاة اليوم إلى صاحب المال لماله وصاحب الجاه، فيحكمون لهم ويغلبونهم على المساكين"[222].

ومن المبادئ التي ألح السلطان على تطبيقها تدوين القضاة الأحكام التي يحكمون بها: "إننا نامر القضاة بسائر إيالتنا أن يكتبوا الأحكام التي يوقعونها بين الناس في كل قضية على أساس أن يسلمَ المحكوم له رسماً يبقى حجة في يده"[223]. ولما كان إصلاح المجتمع مرتبطاً بإصلاح الأسرة، فقد أولى هذا السلطان عناية خاصة لحقوق المرأة. فأوصى القضاة بمنع توكيل الزوج عن زوجته لاستخراج حقوقها... إلاّ إن أحبت أن توكله فلا بأس"[224]. وحفظاً على مصالح العائلة، طالب محمد بن عبد الله القضاة بعدم سجن الزوج في حالة خصامه مع زوجته، لأن في سجنه مضيعة لأموال الأسرة: "لأن الزوج في السجن سيكون ماله لقمة سهلة يأكل منه القاضي وأعوانه والسجان"[225].

وحارب السلطان ممارسات، ربما كانت شائعة وكانت تتسبب في خلق مشاكل اجتماعية. ومن بين هذه القضايا تلك التي تتعلق بالمرء الذي اقترض مالاً وأفلس وعجز عن رد ما عليه. ففي هذه الحالة، أصدر السلطان قانوناً ــ اعترف بأنه بدعة ـ ويقضي بنفي العاجز عن أداء ما عليه من بلده. فإذا عاد، أدخل إلى السجن. واعتبر السلطان أن النفي قد يرغمه، إن كان يخفي أموالاً على إظهارها

(222) المصدر نفسه، ص. 192.

(223) المصدر نفسه، ص. 188.

(224) المصدر نفسه، ص ص. 193 ـ 194.

(225) المصدر نفسه، ص. 200.

لرد دينه؛ وإذا لم تكن له أموال، فعليه أن يتحمل الجلاء: "وهذه المسألة وإن كانت بدعة (أي تجديد)، فقد رأيناها مستحسنة"[226] . وأوصى محمد بن عبد الله القضاة بعدم التسرع في إصدار الأحكام، وبضرورة الاهتمام بحياة الناس اليومية ومحاولة الاعتماد عليها أحيانا في أحكامهم. فإذا وقعت سرقة أمة أو دابة، فعلى القاضي أن يتريث، وننصحه بألا يبني حكمه على شهادة أناس تحتمل حرفهم الكذب كأهل الدكاكين، بل عليه أن يستعين في حكمه بشهادة الجيران وأقوالهم في الحومة إن كانت القضية في الحاضرة أو بأهل الدوار في البادية؛ فالجيران أدرى ـ عن طريق المعاينة اليومية ـ بحالة كل واحد[227] . وطالب محمد بن عبد الله القضاة بصرف زكوات بعض الأقاليم على الضعفاء وفي بناء المرافق الاجتماعية. ومن جهة أخرى ناهض ممارسات اجتماعية كان يعتبرها أساس توترات اجتماعية، فقام بتحديد الصداق: "وكذلك أمرنا... أن لا يكتب في الأصدقة أزيد من أربعين مثقالاً...، لأن في ذلك قطعاً لمادة الخصام"[228] .

يبدو من خلال العينات المدرجة أن محمد ابن عبد الله كان مهتمّاً بإعادة الحيوية لهياكل الدولة ومؤسساتها من أجل استرجاع هيبة المخزن، فقام بإصلاح خطة القضاء داخل المنطق الإسلامي الموروث، وانشغل بهذه المؤسسة لما لها من صلة مباشرة بحياة الفرد والجماعة، ولأن أوتاد الدولة لا يمكنها أن تتحذر خارج نزاهة القضاء وتربية القضاة وكفاءتهم.

- إصلاح التعليم

العملية التربوية عملية معقدة. فهي عمل كلي وغير معزول و تتدخل فيه المساجد والمدارس والأساتذة والطلبة؛ وهي لا تقف عند هذا الحد بل تتجاوزه

---

(226) المصدر نفسه.

(227) "فإن بصلاح الشهود تستقيم أمور الشرع، لأن لهم عصمة الدماء والأموال والأنساب وصلاح الشهود بصلاح القاضي، وصلاح القاضي بالعلم والتقوى والورع". (ابن زيدان، المصدر نفسه، ص. 224).

(228) المصدر نفسه، ص. 196.

لتشمل السلطة السياسية المسؤولة عن القرار. فالتعليم مرتبط بمسار الأمة بكاملها، فيه وبواسطته تحدد المجتمعات مسارها وفلسفة وجودها وتطلعاتها إلى المستقبل. وقد انتبه محمد بن عبد الله إلى أهمية التعليم لاستمرار الدولة، وفهم أنه أساس الصلاح والاستقامة في المجتمع. وأفصح عن ذلك بقوله: "إن القيام بأمور الدين أولى، والاهتمام بالاستقامة فيه أهم. ولو استقام دين العامة، لاستقام أمر دنياهم. فينبغي للعاقل إيثار أهل الدين على الدنيا"[229]. وللوصول إلى هذه الغاية، تبنى هذا السلطان مشروعه القاضي بتعميم تعليم الصبيان كما سنوضح ذلك بعد قليل. وتكونت لدى محمد بن عبد الله نظرة متكاملة في المسألة التعليمية، فاقترح خطة عالج من خلالها الموضوع بصفته رجل دولة مهتماً وعارفاً للميدان، وعرف أن مستقبل البلاد واستمرار الدولة مرتبطان بخطة تعليمية موجهة من الدولة بإشراف وتأطير من السلطان. فما السياسة التعليمية التي تبناها؟ وهل هي خطة جديدة ومجددة أو هي استمرار لما كان معهوداً؟

ترتبط مسألة التعليم في العالم الإسلامي بعلاقات السلطة بالعلماء نظراً للمكانة التي تحظى بها سلطة العلم في الإسلام. فالعلماء حراس الشريعة وضمير الأمة يتقاسمون مسؤولية أمرها مع الأمراء. وفي هذا الصدد قال ابن أبي محلي: "والتحقيق عندي أن كل واحد من العالم والأمير صاحب أمر في ما هو بسبيله"[230]. وبسبب هذا التشارك حاولت السلطة دائما تدجين العلماء بكل الأساليب، لأن في ذلك زيادة في سلطانها على حسابهم. ونشير هنا إلى المواقف الغاضبة التي اتخذها سلاطين المغرب من العلماء الذين تجرأوا على إظهار استقلاليتهم: قصة أحمد بابا السوداني مع أحمد المنصور، ومحنة عبد السلام جسوس، ومناقشة الفقيه اليوسي للمولى إسماعيل. لقد انطلق هذا العالم في نقاشه مع السلطان من منطق العالم المسؤول والراغب في تطبيق المبدإ الإسلامي المعروف:

---

(229) المصدر نفسه، ص. 223.

(230) ابن أبي محلي، **سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة**، مخ.، خ.ح.، عدد 4733، ص. 132.

"الدين النصيحة". وفي هذا الصدد، ذكر الملك بالقولة الفقهية المشهورة: "إن الملوك حكام على الناس وإن العلماء حكام على الملوك"[231].

وهذا موقف قديم. فقد تميزت سياسة الملوك المرينيين التعليمية بسيطرتهم على العمل البيداغوجي، ومحاولتهم توظيفه سياسيًا. وقد بين محمد القبلي في دراسته عن "المجتمع والسلطة والدين في نهاية العصر الوسيط" النقاش الذي دار بين العلماء حول مشروع المرينيين التربوي[232]. وقد تساءل هذا الباحث عن الأهداف التي توخاها هؤلاء السلاطين من هذا المشروع، وأظهر أنهم كانوا في بحث مستمر عن المشروعية ووظفوا المدارس لتكوين أطر وفية وموالية لهم. ولأجل هذا، شيدوا هذه المؤسسات وموّلوها. وجاء محمد القبلي بمقارنة سريعة بين المدارس المرينية، ومن خلالها الجامعة في البلاد الإسلامية، والجامعة في الغرب. فأوضح أن الأولى تابعة للدولة، والثانية ذات استقلال متميز؛ وكتب يقول: "ذلك أن الدفاع عن استقلالية التعليم وموضوعية المقاييس مرتبط في الغرب بالدفاع عن شخصية الجامعة، وشخصية الجامعة في المجال الإسلامي شيء لا يبدو أنه توفر ككيان مكتمل"[233].

وأشار الوزان إلى تراجع التعليم في أيامه في المغرب وربما طيلة القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر. إلا أن هذا القطاع سيعرف انتعاشاً أيام السعديين كما أوضح ذلك محمد حجي الذي بين كيف كان التعليم "في مقدمة اهتمامات الأشراف إلى جانب الجهاد"[234]. لقد حاول الملوك السعديون توظيف التعليم من أجل إبعاد شيوخ الزوايا عن السياسة عن طريق تحويلهم من "المشيخة

---

(231) فاطمة القبلي، رسائل أبي علي الحسن اليوسي، مصدر مذكور، ج.1، ص. 136.

(232) يمكن الرجوع إلى:

M. Kably, *Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1986, pp. 279-285.

(233) محمد القبلي، "قضية المدارس المرينية: ملاحظات وتأملات في النهضة والتراكم"، أعمال مهداة لمحمد المنوني، منشورات توبقال، المحمدية، 1986، ص. 59.

(234) محمد حجي، الحركة الفكرية...، مصدر مذكور، ج1، ص. 81.

إلى التعليم"[235]. فأصبحت هذه الزوايا مراكز إشعاع علمي في جميع أنحاء المغرب. وبالرغم من انتشار التعليم، فإنه بقي يعاني من آفتي الاختصار والحفظ؛ بل ازدادت الوضعية تفاقماً أيام الفتن التي تلت وفاة المولى إسماعيل. ومن أجل مناهضة هذه الآفات، بادر محمد بن عبد الله ـ بعد ما تولى الأمر ـ إلى إعادة النظر في المسألة التعليمية: فما الخطة التي سار عليها؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار مشروعه التعليمي مشروعا مجدداً؟

اهتم هذا السلطان بإدخال إصلاحات على التعليم من منطق السياسي المطلع والعارف بما يجري في الميدان. لقد فهم أن إخراج المغرب من الهرج ومن الفتن لن يتم إلا إذا قام بعمل في العمق، عن طريق تربية العامة تربية إسلامية، فانفرد هذا السلطان بتأليفه لكتاب في الحث على تربية الأطفال تربية صالحة من أجل تحصين شخصيتهم ودفع الجهل عنهم وسماه "**مواهب المنان مما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان**"[236]، وأصدر منشوراً وزعه على نطاق واسع كان الهدف منه تنظيم الدروس في المغرب وتحديد البرامج والكتب الواجب تدريسها.

فـ"**مواهب المنان**" كتيب صغير ألفه السلطان سنة 1203 بعدما مرَّ بعدّة قبائل وعدة قرى أثناء رجوعه من مكناس إلى مراكش، فلاحظ جهل أهل البوادي بمبادئ دينهم الأولى: "فكم من إمام منهم لا يعرف ما تصح به الطهارة... وكنت قد لقيت من الأساتيذ الجم الغفير الكثير وألفيت كل من اختبرته منهم لم يتمسك من علم دينه بقطمير، حملني ذلك... أن أجمع لهم مسائل مهمات من علم أمور الدين"[237]. فالمؤلف عمل تبسيطي يحتوي على ملاحظات بيداغوجية، خص بها السلطان معلمي الصبيان، وبين لهم فيها الطرق الواجب اتباعها في تلقينهم لمجموعة من المبادئ الأساسية. واعتبر التعليم مسؤولية يتقاسمها المعلم والأب، والهدف من

---

(235) محمد حجي، **جولات تاريخية...**، مصدر مذكور، ج.1، ص. 335.

(236) محمد بن عبد الله، **مواهب المنان مما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان**. مخ.، خ.ع.، ك. 795؛ انظر المرسوم عند: ابن زيدان، **الإتحاف...**، مصدر مذكور، ج.3، ص. 211.

(237) محمد بن عبد الله، **مواهب المنان...**، مصدر مذكور، مخ.، خ.ع.، ك 795؛ ص.3.

العملية هو جعل الصبيان يتشبثون في صغرهم بأمور دينهم. وعلى المعلم أن يراعي كفاءة كل صبي وأن ينطلق دائما في عمله من البسيط إلى المعقد ومن السهل إلى الصعب، وأن يعتمد على التكرار. وقدم السلطان في مقدمة الكتاب الجوانب الضرورية في العملية التربوية للمعلم والمتعلم، ثم قسم المؤلف إلى أبواب هي: باب في الطهارة، باب في الصلاة، وآخر في الصيام، ثم في الحج؛ وختمه بذكر سمات المسلم الصالح وصفاته. والجدة عند محمد بن عبد الله هي تركيزه على التمييز بين مرحلتين في التعليم: مرحلة التعليم الأساسي واجبة على كل الصبيان، وفيها يتعلمون المبادئ الأساسية في الإسلام ويتحمل المسؤولية في هذه المرحلة كل من المعلم والوالد؛ ثم المرحلة الثانية وتعودُ المسؤولية فيه للمعلم وحده، لأنه هو الذي سيحدد هل يستطيع الصبيّ مواصلة التعليم أو لا: "ثم إن ظهرت فيه نجابة في القراءة، فليتركه يقرأ؛ وإن لم تكن فيه نجابة في القراءة وهو قد تعلم أمور دينه وبرئت ذمة والده من تباعه بقائه بجهله، فعليه أن يحترف بالحرفة التي كان والده يحترف بها من تجارة أو صنعة يدٍ أو فلاحة لمعاشه. وبالله التوفيق"[238].

ما كان يهم محمد بن عبد الله من هذا البرنامج هو تأطير الصبيان تأطيراً دينياً، لأن في نجاح هذا التأطير خلق المسلم الصالح المتزن والملتزم بصيانة دينه ومجتمعه. وأهمية خطة السلطان تكمن في أنها همت البادية بالأساس. فهل شملت كل الصبيان في البوادي المغربية أو بقيت منحصرة في بعضها؟ المعروف أن اقتراحات السلطان لم تأت بأشياء غير معروفة، ولا سيما في المضمون ولكن الجديد فيها أنها كانت إلزامية، وحاولت أن تعتمد طرقاً جديدة عند التطبيق. لقد انتقد محمد بن عبد الله في خطته أسلوب الحفظ الذي لا ينبني على الفهم. وأصدر أوامره بمنع استعمال بعض المختصرات وحدد في المقابل تلك التي يمكن الاعتماد عليها. وأمر من جهة أخرى منع تدريس علم الكلام والمنطق والفلسفة وأقوال غلاة المتصوفة ورأى في تلقين هذه المواد للطلبة، وطلبة البادية على الخصوص، مضيعة

(238) المصدر نفسه، ص ص. 18 - 19.

للوقت وبلية لا تطاق[239]. وقد نتساءل عن الدوافع الحقيقية التي جعلته يمنع تدريس هذه المواد العقلية: فهل منعها خوفا وشفقة على طلبة البوادي؟ أو أنه أراد بمنعها حماية البادية من أن يدخلها الفكر الناقد والمشكك، خصوصاً إذا علمنا أن البادية شكلت وما زالت تشكل أساس الدولة ودعامتها؟

لقد تعامل محمد بن عبد الله مع المسألة التعليمية بصفته رجل دولة، كان أساس تحركاته البحث عن الوسائل التي تضمن له الأمن والاستقرار: فهما ضمان استمرارية الدولة. فالتعليم إذن، كالقضاء، باستقامته تستقيم الأمور للسلطان، ويُصبح قادراً على تحديد خطط تمكّنه من ربط علاقاته مع العالم الخارجي بناء على منطلقات جديدة. ويبدو أن محمد بن عبد الله حدد هذه العلاقات من منطلق إرادة بناء فضاء المغرب الأطلسي. فإلى أي حد وفق في هذا الرهان؟

- محمد بن عبد الله والرغبة في بناء مجال المغرب الأطلنتيكي

بالرغم من وجود دراسات عن البحر في حياة المغاربة، يبقى تناول هذا الموضوع ناقصاً ومشوَّهاً[240]. فبالرغم من امتداد سواحل المغرب على طول 3000 كلم، يبقى الاهتمام بها محدوداً. فهل لهذا الإهمال علاقة بذهنية المغاربة التي تظل بالأساس ذهنية قاريّة؟ ولأجل هذا، فضلوا روابط المغرب بالشرق والسودان ودعموها، أو أن المغاربة تخلوا عن البحر لأسباب طبيعية مرتبطة بالسواحل؟ وربما يرجع عدم اهتمام المغاربة بالبحر وبخيراته إلى تنوع المظاهر الطبيعية بالمغرب. وهذا التنوع أدى إلى تنوع في الإنتاج وتوافره، وبالتالي لم يشعر الإنسان المغربي باحتياجه إلى البحر، خصوصاً وأن النمط الاقتصادي والاجتماعي الذي كان سائداً خلال

---

(239) سنعود لمناقشة مواقف محمد بن عبد الله من تدريس المواد العقلية في القسم الثالث المتعلق بدراسة الأسباب التي منعت من إقلاع المغرب، وخصوصاً في الفصل المتعلق بالأنساق التعليمية وعلاقتها بتكوين أطر الدولة.

(240) ربطت الأسطوغرافية الأوربية النشاط البحري في المغرب بالقرصنة، وضخمت هذا الجانب على حساب قضايا أخرى لعلها كانت الأهم، وأثرت بذلك في ذهنية الإنسان الأوربي، وربما ذهنية الباحث المغربي كذلك. والمطلوب الآن هو فتح أوراش في قضايا البحر.

عصور ما قبل الاكتشافات كان مبنياً على تجارة القوافل. وكانت الطرق البحرية مكملة للطرق البرية في الشرق وفي المغرب، حيث شكلت هذه المناطق صلة الوصل بين مناطق التبر والعاج والعبيد بالسودان، ومناطق الحرير والتوابل بالشرق الأقصى وأوربا.

وكان التجار الأوربيون منزعجين من هذه الوضعية التي كانت تكلفهم الكثير. ولتجاوز الوساطة العربية الإسلامية، انطلقت أوربا في تحقيق مشروعها القاضي باكتشاف طرق جديدة تمكنها من الوصول مباشرة إلى مناطق إنتاج التبر والتوابل، واستطاعت اكتشاف هذه الطرق بحراً عن طريق التجربة وبالتدريج. وبحكم موقع المغرب الجغرافي، فإنه كان أول ضحية للمد الأوربي المتطاول على الرقعة الإسلامية. فقد نقل المسيحيون حروبهم ضد المسلمين من الأندلس إلى المغرب، واتخذوا بذلك سياسة المبادرة والهجوم عكس المغاربة الذين ركنوا إلى الانكماش والدفاع. ويعد سقوط سبتة سنة 1415 الحدث المنعطف حيث كانت هذه المدينة هي القاعدة التي تنطلق منها أساطيل البرتغال الاستكشافية عبر السواحل الإفريقية. ودامت هذه العملية قرناً من الزمن كما شكلت الثغور المغربية القواعد التي كانت تغذي الحملات المتوجهة نحو رأس الرجاء الصالح. لقد رأت الدراسات المغربية في الغزو البرتغالي مجرد هجمة صليبية وأغفلت إيجابياته. ولعل أولى هذه الإيجابيات الزعزعة التي أحدثها في ذهنية المغاربة الذين لم يكونوا متعودين احتلال المسيحيين لثغورهم، مما جعلهم يولون أهمية لسواحل البلاد. وبفضل الوجود البرتغالي، دخل المغرب رواج المحيط الأطلنتيكي وارتبط بالتجارة العالمية التي كانت تصل أوربا بإفريقيا وبالعالم الجديد، بالإضافة إلى الشرق الأقصى. ومن المؤكد أن إدماج المغرب في الاقتصاد العالمي لم يكن لصالح المغاربة، بل كان لصالح أصحاب المبادرة في المشروع.

ولعله بسبب سيطرة أوربا على الطرق البحرية تشبث أحمد المنصور بغزو السودان دفاعاً منه عن النمط الاقتصادي والاجتماعي المألوف الذي كان يعتمد على القوافل. فرأى المنصور في هذا الغزو الرد الطبيعي والمنطقي والمباشر - بالرغم

من معارضة العلماء له ـ على المبادرة الأوربية وتحكمها في الطرق البحرية. والمعروف أن سيدي محمد بن عبد الله كان يعتبر أحمد المنصور القدوة، وقد درس وتحلى بسيرته، بل كان يصرح "بأنه أستاذه وقدوته"[241]. فهل استوعب محمد بن عبد الله خطأ المنصور الذي لم يفهم أهمية المحيط، وأراد استدراك الموقف لربط المغرب بالمحيط، وبالتالي التخلي عن النمط الاقتصادي القديم، النمط الصحراوي، لأنه فهم وفطن إلى مكانة تجارة المحيط الأطلنتيكي وأدرك أن مصلحة المغرب ومداخيل بيت المال ترتبط أكثر بهذه المبادلات وبحيوية موانئه وأساطيله؟ فكيف شيد محمد بن عبد الله فضاء المغرب الأطلنتيكي؟ وكيف عمل على إدماج هذا الفضاء في الاقتصاد العالمي؟ وإلى أي حد وفق في تحقيق ذلك؟

تميزت علاقات المغرب بأوربا في السابق بالحذر والتردد، ونشطت التجارة مع الشرق والجنوب، لأن النمط الاقتصادي السائد آنذاك كان يتطلب طبيعة تلك العلاقات ويحددها، فأهمل البحر واعتبر أحياناً مصدراً لويلات المغرب. وبوصول العلويين إلى الحكم، تغيرت الأوضاع العالمية، فأصبح المحيط الأطلنتيكي المركز الحيوي في الاقتصاد العالمي وصارت الطرق البحرية أساس المواصلات. ولهذا أولى السلاطين العلويون أهمية كبرى لتعامل المغرب مع أوربا. وانطلاقاً من السواحل المتوسطية، ربط المولى إسماعيل علاقاته مع هذه القارة في حين وجه محمد بن عبد الله كل اهتماماته للتجارة الخارجية، فجعل منها أساس مداخيل الدولة، واعتبر السواحل الأطلنتيكية منطلق هذه التجارة، لما لهذا المحيط من مكانة في اقتصاد الكون. فما الخطوات التي سار عليها هذا السلطان من أجل تحقيقه لهذا المشروع؟

لعل لتجربة محمد بن عبد الله بآسفي دوراً أساسياً في بلورته لهذه الخطة. فبفضل هذه التجربة تعرف من الداخل إواليات التجارة الخارجية عموماً والتجارة الأطلنتيكية خصوصاً: فعن طريق التجار المسيحيين والقناصل، اتضحت لديه الرؤيا؛ فاستطاع أن يتبيّن امتيازات التجارة الخارجية وإيجابياتها. وتأكدت لديه ضرورة السيطرة على مرافقها من أجل تسخيرها لمصالحه السلطانية. وكان وجوده بآسفي

(241) انظر ابن زيدان، الإتحاف...، مصدر مذكور، ج.3، ص. 150.

من جهة أخرى مناسبة للتجار المسيحيين ليتعرفوا شخصيته وعقليته ويدركوا أن خدمة مصالحهم متوقفة على تعاملهم معه. وتشير التقارير والمراسلات القنصلية إلى أن التجار كانوا متأكدين من عدم تهديد السلطان لمصالحهم، لأنه ركز في سياسته على الصلح والمهادنة، مما جعل عبد الله العروي يقول عن هذا السلطان "بأنه لم يحكم، بل قضى وقته في التفاوض"[242]. وانطلاقا من هذا، ندرك أبعاد التسامح الذي أظهره تجاه الأجانب الذين كانت تغص بهم مملكته بشهادة المسيحيين أنفسهم. فقد وجدوا في المغرب ما أرادوا "فاغتنوا في أعمالهم، وكانوا يعيشون في رفاهية واطمئنان، وكانوا مكلفين بتزويد السلطان بالعدة والعتاد"[243]. ما أن تولى محمد بن عبد الله الأمر بالمغرب حتى قام بزيارة تفقد فيها أهم الموانئ الأطلنتيكية، الرباط وسلا والعرائش وطنجة. ولما كان بالرباط، عقد لقاء مع رؤساء السفن الجهادية؛ وبالرغم من سكوت المصادر عن هذا الحدث أو اكتفائها بإشارة خاطفة إليه، فيبدو أن اللقاء كان حاسماً ومصيرياً للجهاد البحري؛ إذ قرر السلطان أن يجعله مؤسسة رسمية أكثر مما كانت عليه في السابق، كما توحي بذلك الكلمات التي استعملها الضعيف عندما قال: "وأعظم من هذا كله ما فيه من الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد. وقد جمع من ذلك ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه، وسخر الله له السفن في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وغيرهما"[244]. فهدف السلطان هو استعمال الأسطول الجهادي وتوظيفه لإدخال المغرب وإشراكه في التجارة العالمية التي كانت أساس الدول الأوربية وقوتها، حيث استفاد العالم الإيبيري من التجارة الثلاثية وتقوت أنجلترا عن طريق التهريب. وسعى محمد بن عبد الله إلى الاستفادة من الجو التنافسي الذي كان يميز العلاقات الأوربية ليقتني الأسلحة من أنجلترا وهولندا. ويقول البارون شخونينخ

---

(242) A. Laroui, *Histoire du Maghreb...*, *op. cit.*, p. 259.

(243) Baron Schoening, *Croisières et Négociations...*, *op. cit.*, p. 160.

(244) الضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 166؛ انظر: ظهائر الرواس في: الإتحاف...، مصدر مذكور، ج.3، ص ص. 261 - 263.

إن التجارة مع العالم الخارجي كانت "تضمن لهذا الإمبراطور مداخيل بيت المال الأساسية التي كان يؤديها التجار في شكل رسوم جمركية"[245]. وأشار هذا السفير إلى أن التجار الأجانب كانوا يغتنون بسرعة في المغرب. وبعد جمعهم لثروات هائلة، يعودون إلى بلدانهم ويتركون الفرصة لأحد أصدقائهم أو لأحد أقربائهم. وبذلك عمل محمد بن عبد الله على توظيف مداخيل التجارة والجهاد البحري ليقوي الدولة، وليحتكر التجارة الخارجية. فما السبل التي نهجها من أجل خلق أسطول يكون في مستوى تحديات العصر؟

رأى المؤرخ رامون لوردو دياز أن محمد بن عبد الله حاول خلق أسطول بحري وطني قادر على رفع التحديات والمشاركة في النشاط الاقتصادي العالمي. وألح هذا المؤرخ على أن محمد بن عبد الله لم تكن له أيُّ نية في الجهاد أو في إعلان الحرب على المسيحيين على عكس ما ذهبت إليه كتابة بعض الإخباريين المغاربة وبعض المؤرخين الأوربيين[246].

ولم يهتم محمد بن عبد الله بالأسطول فقط، بل جهز الموانئ وأصلحها وجعلها ملائمة للملاحة أيضاً. وكان يشجع المغاربة والأجانب على السفر بحراً بين الموانئ. وأشار إلى هذه الإرادة القنصل الهولندي العام ولستير بلونط[247] في إحدى رسائله إلى وجود "عدة قوارب صغيرة تتنقل ما بين طنجة والعرائش وسلا... وقد اتخذ أمبراطور المغرب كل الإجراءات من أجل تسهيل السفر عبر البحر وتشجيعه، لأن الطرق البرية غير آمنة بسبب الحروب بين القبائل ووجود قطاع الطرق"[248]. وكان القناصل والسفراء يراقبون الأسطول المغربي ويبعثون

---

(245) Baron Schoening, *Croisières...*, *op. cit.*, p. 96.

(246) R. Lourido Diaz, *Marruecos...*, *op. cit.*, p. 101.

(247) تحتاج شخصية هذا القنصل إلى دراسة خاصة، لأنه أدّى أدواراً مهمة في المغرب. وطالت مهمته من سنة 1778 إلى سنة 1810. وكانت له حظوة عند سيدي محمد بن عبد الله. وبالإضافة إلى رعايته لمصالح مجموعة من الدول، وبالخصوص هولندا فإنه كان يمارس التجارة في المغرب.

(248) دار المخطوطات الوطنية بلاهاي، سجل 1 - 01 - 04 رقم 6981 بتاريخ 26 غشت 1779.

بتقارير مفصلة عنه، وكانوا يخبرون بلدانهم بأنشطة السفن الجهادية. والأمثلة كثيرة في الوثائق الأجنبية:

ETAT DE LA MARINE DE L'EMPEREUR DU MAROC 28 MAI 1772					
NOM DU COMMENDENT	T	CANONS	RAMES	EQUIPAGES	VILLE
RAIS SALAH	Fregate	30		200	LARACHE
LARBI MISTERY	op. J.	21		160	"
HAMET EL ENER	op. J.	21		160	"
ABDELA LARNY	op. J.	20		150	"
LARBI MISTERY	Paquebot	20		150	"
CASS EM	Chebeque	12		100	"
ALI PEREZ	Fregate	20		130	MAMORA
MAHAMAR	Galiote	8		110	TANGER
FARACHE	J .o	8	32	120	TETUAN
CHIN CHOUNY	J. o	8	31	110	"
RAIS ISMAIN	Chebeque	10	32	80	SALE
YOUSSEF TRABELSY	J.o	10	36	150	"
ALI SABOUNJI	J.o	8	36	150	"
HAMIT TURQUIE	J.o	8	36	150	

تقرير قدمه القنصل الهولندي العام فرانسوا روسنيول (François Rossignol) [1771 – 1777] عن البحرية المغربية 28 مايو 1772. دار المحفوظات الوطنية، لاهاي سجل 1 - 01 — 04 رقم 6974 بتاريخ 26 يونيو 1772. ويمكن الرجوع إلى رقم 6977 حيث نجد تقريراً آخر في الاتجاه نفسه بتاريخ فبراير 1775.

واستطاع الأسطول المغربي مضايقة المصالح الأوربية ودوخ - على حد قول الضعيف - أساطيلهم التجارية في البحر. واعتنى السلطان المغربي بصناعة السفن، فأقام ورشا بسلا حيث أمر بصناعة سفينة كبيرة سنة 1176 من طبقتين و "أنفق فيها مالا كثيرا"[249]. وكان يشتري ما سمته الوثائق "بالإقامة" من دول أوربية كهولندا وأنجلترا[250]. وكان محمد بن عبد الله يربط الصلح والمهادنة بشروط من بينها تزويده "بالإقامة". ففي رسالة بعث بها إلى الجماعات المتحدة في 29 شوال 1769، كتب يقول:

إلى جماعة الاسطادوس أصحاب ديوان الفلامنك... سلام على من اتبع الهدى... وقد اخترناكم على جميع النصرى الذين نالهم عهدنا ووجهنا لبلادكم خديمنا الرئيس على مرسيل السلاوي ومعه التاجر يفي المسترضامي بقصد أن يشتروا لنا من بلادكم صواري وقلع ومن وغير ذلك مما تحتاج إليه سفننا الجهادية... من الإقامة[251].

كان مشروع محمد بن عبد الله، الهادف إلى خلق فضاء المغرب الأطلنتيكي وإشراك المغرب في التجارة العالمية، متكاملاً. فلم يقتصر اهتمام السلطان بالأسطول وحده أو إصلاح وتجهيز الموانئ التي كانت تابعة للمغرب، بل قرر استرجاع "البريجة" وشيد ميناء جديداً صار رمزاً لسياسته المبنية على الانفتاح. لقد يئس الملك من إمكان استعادة الثغور الشمالية واعتبر الجهاد في سبيل استرجاع سبتة ومليلية وبادس والنكور حَماقة وجهلاً، إذ صار - على حد قوله - "لا ينفع فيها حرب ولا ينشأ عنها إلا السبة للإسلام. فالإعراض عنها أولى"[252]. فهل الأمر يرتبط بقلة الإمكانات العسكرية أو أنه يرجع إلى اقتناعات السلطان بأهمية المحيط الاقتصادية؟

---

(249) الضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص ص. 169 - 170.

(250) يوجد مخطوط بخزانة جامعة ليدن تحت رقم OR 1358 يضم مجموعة رسائل (62) من محمد بن عبد الله إلى هذا البلد: Brief van der Kaysar Van Moroko. وضمن هذه الرسائل يوجد زمام أو تقييد حدد فيه السلطان الإقامة التي كان يحتاج إليها. وكان تاريخ التقييد هو 30 شتنبر 1786، والإقامة المطلوبة هي المخاطف بجميع أنواعها، القلاع، البوصلات، فنارات كبار وعاديين، الحبال، الطرونبات، إلخ. (انظر المخطوط، ص ص. 9 - 12).

(251) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، رقم S.G 241 - 12597.

(252) الزياني، الترجمانة الكبرى، مصدر مذكور، ص ص. 131 - 132.

لقد قرر السلطان أن يستعيد البريجة، الثغر الوحيد الذي كان لا يزال في يد البرتغال، وذلك لأنه كان مطلعاً على أوضاع الحامية البرتغالية الموجودة بها، بالإضافة إلى قرب البريجة من العاصمة مراكش. فاسترجاعها سيكلفه القليل، وستكون له نتائج ذات وقع كبير، في الداخل والخارج. فخاطب السلطان حاكم البريجة البرتغالي وأمره أن يختار مغادرة المدينة أو البقاء بها على أساس أن يتعهد بدفع الجزية وأن يقبل بوجود التجار المغاربة والأعاجم. وبعد حصار دام أكثر من شهر، قبل البرتغاليون الاستسلام فسمح لهم السلطان بمغادرة المدينة (شوال 1769/1182 مارس)[253]. ويشكل تشييد ميناء الصويرة التجسيد الكامل لمشروع السلطان الأطلنتيكي. قد نتساءل عن الأسباب التي جعلته يفضل خلق ميناء جديد ويقرره عوض تجهيز أحد الموانئ الموجودة وإصلاحه؟ لقد كان يعرف جيداً آسفي والرباط وسلا وفتح البريجة، ومع ذلك بنى الصويرة. فهل أراد تجنب أخطاء تقنية وعراقل طبيعية كانت موجودة كما أشار إلى ذلك الغزال عندما كتب:

> إن سفن سيدنا مقصور جهادها على شهرين في السنة، لاتصال المراسي بالأودية بصفة يتعذر الخروج فيها قبل فتح الطمس بالأزمنة الشتوية... وقد استعمل الحكماء وأهل الهندسة جهدهم في تنظيف المراسي من الرمل المانع لخروج المراكب، فلم يحصلوا على طائل... فجعل ـ أيده الله ـ يستعمل الفكر... إلى أن ... أرشدته بصيرته... لتشييد ثغر... الصويرة[254].

ولم يتوقف الضعيف طويلاً عند الحدث، واكتفى بالإشارة إليه على عكس القادري الذي فصل في وظائف الصويرة بصفتها ميناء تجارياً حيوياً، وأوضح أنها وصلت إلى ما وصلت إليه بالإرادة السلطانية، "وأحياها حتى صارت... حاضرة من أحسن حواضر البلاد المغربية، ومن أعظم مراسيه الساحلية البحرية... وتكاثرت بها الجموع والتجار من أقطار بلاد المسلمين وأنواع أجناس الكفار"[255]. لقد أراد

---

(253) ابن سليمان المراكشي، **الحلل البهيجة في فتح البريجة**، دراسة عبد الكريم كريم، الرباط، 1986، ص. 12.

(254) أحمد الغزال، **نتيجة الاجتهاد...**، مصدر مذكور، ص ص. 37 ـ 38.

(255) القادري، **نشر المثاني...**، مصدر مذكور، ج.4، ص. 160.

السلطان أن يجعل من الصويرة الميناء المركـزي قصـد تهميـش حيوية مينـاء أكـادير الذي كان يتعامل مع الأجانب وتصعب مراقبته لبعده عـن العاصمـة. وقـد نجحـت خطة السلطان في فرض الاستقرار بالمينـاء الجديـد علـى القنـاصل[256]. وكـان أول قنصل استقر به في فبراير 1765 هو القنصل الدنماركي[257]. وعرفت المدينة حسـب التقارير القنصلية رواجاً اقتصادياً هائلاً خلال الفترة التـي عاش فيها محمـد بـن عبـد الله. وكان الميناء ملتقى تجارياً يصله التجار من أوربا ومن العالم الإسـلامي وتصلـه القوافل التـي كانت تأتي السودان[258]. لقد شكلت الصويرة رمزا لانفتـاح المغـرب الرسمي على العالم الخارجي، وردد التجار والسفراء والقناصل إرادة محمـد بـن عبـد الله المتسامحة فتطاير خبره عبر الآفاق. وتحسنت صـورة المغـرب. فتسـابقت الـدول وتهافتت في البحث عن الصلح والمهادنة.

وكان محمد بن عبد الله يسهر ويعمل كل ما في وسعه للمحافظة على هذه السمعة، فكان يكثر من المراسلات ومن المعـاهدات. وفي هـذا الصـدد، يمكـن فهـم لماذا كان أول ملك مسلم يعترف باستقلال الولايات المتحدة. لقد كـان يلجـأ هـذا السلطان إلى جمع القناصل وإبلاغهم بالحدث كلما حصلت أزمة مـع هـذا البلـد أو ذاك. وهكذا جمعهم سنة 1777 في شهر مارس وأبلغهــم بأنـه يريـد السـلم والهدنـة وطالبهم بتبليغ ذلك إلى رؤسائهم وتسجيل البيـان وثيقـة رسميـة في سـجلاتهم وأن

---

(256) أمر عامل المدينـة الجديـدة، إدريـس بـن المنتـصـر، علـى القنصل الهولنـدي دمتري كليتـي (Demitrie Colety 1753 - 1766) بأن يبنـي داره بالصويرة كما فعل باقي القناصل وتقـول الرسـالة: "إلى دمـتري قونصو الفلمنك... أما بعد؛ فسيدنـا نصره الله يامرك... أن تصرف ولد أخيك جرش ليبنـي داره هنا بثغر الصويرة .فإن القنصوات كلهم يبنون بها وكل من بنى بها ينال الخير الجزيل من سيدنـا المنصـور بالله. انتهى في الخامـس والعشريـن جمادى الأولى 1179..."/ 8 نونبر 1765. وتوجد هذه الرسـالة في دار المخفوظـات الوطنـية بلاهـاي بسجـل 1 - 10 - 04 - 01 - رقم 6964.

(257) J. - Louis Miège, "L'activité maritime d'Essaouira 1764 - 1840", in *Essaouira: Addakira wa Bassamàt al Hàdir*, Casablanca, 1994, pp. 16-17.

(258) Attilio Gaudio, *Histoire du Naufrage et de la captivité* de Mr. Brisson en 1785, Nel, 1984, p. 76.

يوقعوا وثيقة رسمية يلتزمون فيها "بأنهم قد تعرفوا البيان المتعلق بإرادة السلطان عقد الصلح مع بلدانهم"(259)

تعرفنا في هذا القسم من الدراسة محاولات تجديدية على عهد دولتي الأشراف: السعديين والعلويين. ولعل ما تميزت به هذه المرحلة الممتدة بين القرن السادس عشر والثامن عشر، هو العمل على صيانة الهوية المغربية من التهديدات الخارجية. وقد اعتمد المغاربة في هذه المواجهة على الحماس الديني. فهل هذا يعني أن الأشراف حكموا البلاد بصفتهم رجال دين؟ من دون شك أن السعديين والعلويين قد استعملوا الشرف ووظفوه سياسيًا. غير أن هذا لا يعني أنهم تصرفوا بصفتهم رجال زوايا، بل سيروا البلاد بصفتهم رجال سياسة، فسهروا على إدماج المغرب في محيطه وقام بعض سلاطينهم (عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور والمولى إسماعيل ومحمد بن عبد الله) بمحاولات تحديثية. إلا أن هذه المبادرات فشلت؛ فقد انمحت تجربة عبد الملك بموته وانتهت محاولات المنصور والمولى إسماعيل بالدم والدمار. وعوض أن يربط محمد بن عبد الله المغرب بالمحيط كمحرك اقتصادي ربط مصير البلاد ومستقبلها بالتجارة الخارجية وبالمعاهدات، أي بالقرار الخارجي. وهذا يعني أنه ما أن تتغير الظروف حتى يصبح المغاربة مهددين بأطماع الأجانب. فما الأسباب والعوامل الحقيقية التي حالت دون نجاح محاولات السلاطين التجديدية؟ فهل فشلت هذه المبادرات، لأنها كانت تحمل في طياتها أسباب فشلها؟ أو فشلت، لأنها جاءت من القمة ولم تكن متجذرة في هياكلها الاجتماعية والاقتصادية؟ إن محاولات السلاطين قد اصطدمت بصمود وبنفور القواعد الاجتماعية التي لم تكن مستعدة بعد لاستيعاب هذا التجديد، لأنه لم ينبعث من الداخل ولم ينبن على اقتناعات فردية أو جماعية، وربما لأن التجديد يتطلب وجود شروط لعل أهمها أن تكون البنية الاجتماعية مؤهلة وقابلة للتغيير. فأين تكمن أسباب تعثر المحاولات التحديثية الرسمية؟

---

(259) Baron Schoening, *Croisières et Négociations...*, *op. cit.*, p. 34.

القسم الثالث

جذور العرقلة وأسباب التجاوز

الفصل الأول

الأزمات السياسية في مغرب العصر الحديث
أو حتمية العودة المستمرة إلى البداية

1 - ملاحظات عامة

يرى ابن خلدون أن الدولة كائن حي: تنشأ وتزدهر ثم تنحط وتنتهي؛ وبنهايتها تأتي دولة جديدة، فالتاريخ يعيد نفسه. ورأى في هذه الدورة البيولوجية ركيزة من ركائز الدولة في شمال إفريقيا. ورد البعض هذا التحليل المتشائم إلى الخيبة التي عاشها هذا العالم من جراء التشتت الذي أصاب المنطقة. لقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة انطلاقاً من اقتناعاته بصفته فقيهاً وقاضياً ملتزماً بالتعاليم الإسلامية. وحتى يتسنى له ذلك، أبدع علم العمران لفهم وإدراك طبيعة الأزمة التي كانت تنخر الغرب الإسلامي.

فاستعمالنا عبارة "العودة إلى البداية" لا تعني أننا اعتمدنا نظرية ابن خلدون، لأن دولة الأشراف ـ على عكس سابقاتها ـ لم تقم على عصبية، بل قامت على أسس مغايرة وبتطلعات مختلفة وكانت مندمجة في محيطها الجديد ومتأثرة بظروفه. فشدة الأزمات وتكرارها ونتائجها المدمرة هي التي أوحت بعبارة "العودة إلى البداية"، لأن وطأة الثورات السياسية والكوارث الطبيعية كانت تهدم كل ما بناه المغرب، وتعرقل كل محاولاته التحديثية وترغمه ـ بعد كل أزمة ـ على البداية من جديد. فما الأسباب التي حالت دون نمو المغرب وتقدمه؟ وما الدوافع التي كانت وراء فشل محاولات بعض السلاطين في هذا الاتجاه؟ ولماذا تعرضت إنجازات هؤلاء للهدم والدمار فور ابتعادهم عن السلطة، بسبب الأزمات التي كانت

تخلخل البلاد وتجعل اليأس يتسرب إلى قلوب الناس، فاعتبروا ذلك عقاباً من الله وصاروا ينتظرون ظهور "مول الساعة"، أي صاحب الوقت؟[1].

2 - من ثوابت الأزمات في تاريخ المغرب

- الكوارث الطبيعية

يقول مثل شعبي "الجغرافية عنيدة"، لأنها تفرض الموقع والعوامل المناخية. فهل للكوارث الطبيعية علاقة بمسألة التجاوز؟ يتوسط موقع المغرب منطقتين مختلفتين من الناحية المناخية: منطقة رطبة ومعتدلة في الشمال، ومنطقة جافة وحارة في الجنوب. وبسبب هذا الموقع، يتأثر مناخه بمعطيات هذه المنطقة وبمعطيات تلك بالإضافة إلى تأثيرات البحر والمحيط طبعاً. وتبقى الميزة السائدة في مناخ المغرب هي قلة الماء. والجفاف من السمات الثابتة والمؤثرة في تاريخه. فله علاقة بالأزمات التي تهز المغرب من حين لآخر؛ إلاّ أنه لم يدرس إلى حد الآن بما فيه الكفاية، وخصوصاً من حيث علاقته بالتحولات ودورها في الأزمات السياسية والاجتماعية. فالدراسات المنجزة حتى الآن لا تشمل كل المراحل ولا تميز في أحكامها بين الجهات والمناطق[2].

ويتميز المناخ المغربي بعدم انتظام التساقطات سواء داخل السنة الواحدة أو خلال سنوات كثيرة؛ لأنها تتهاطل كثيراً في وقت وحيز أو لا تتساقط البتة. وبذلك يبقى الجفاف هو العامل المهيمن في هذا المناخ والمحدد الأساسي لنمط العيش، وقلة الماء هي المسؤولة عن اتّساع المساحات المزروعة أو تقلصها. ولهذه

---

(1) نشأت الدولة السعدية في جو مؤمن بفكرة المهدي المنتظر واتخذ مؤسسها لقباً معبّراً: القائم الله، للمهدوية. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي...، مرجع مذكور؛ وندوة: المهدوية، الأزمة، والتحول، في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب بالرباط.

(2) يمكن الرجوع في هذه النقطة إلى: محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الدار البيضاء، 1992؛ وكذلك إلى:

B. Rosenberger, H. Triki, *Famines et épidémie, op. cit.*

الأسباب تكون حياة المغاربة مهددة باستمرار بالكوارث الطبيعية وبتوالي القحط. فما الأدوار التي تلعبها هذه المعطيات في أزمات المغرب؟

لقد انتبه الفقهاء والإخباريون لآفة الكوارث الطبيعية والجفاف وأشاروا إليها عبر كل الأحقاب. فقد تحدث ابن أبي زرع عن الظاهرة قائلاً: "في سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة كان قحط شديد ببلاد المغرب والأندلس وإفريقية، جفت من أجله المياه جفوفاً كثيراً"[3]. ووقف ابن أبي محلّي طويلاً عند ظاهرة قلة الماء وجعل شدة وطأتها علامة من علامات ظهور المهدي المنتظر الذي سيأتي لإنقاذ الناس من هذه المعاناة. وحاول هذا الفقيه أن يفسر معنى كلمتي سجلماسة وتافلالت انطلاقاً من دلالات ترتبط بالماء: فكلمة سجلماسة مركبة من "سجل" ومعناه الدلو، ومن "ما" الذي يعني الماء المشروب. وأما كلمة تافلالت، وهي الاسم الذي اشتهرت به المنطقة في عهده عوض سجلماسة، فأصلها هو "الفل" وتعني الأرض التي لا يصب فيها مطر وجمعها "أفلال"[4]. وتزداد حدة الأزمة بتوالي القحط لعدة سنين، وهي ظاهرة مصاحبة لتاريخ المغرب. فقد أشار المختار السوسي إلى هذه المعاناة قائلاً:

> وقد اشتد الجوع على الناس في آخر عام 1266 هـ إلى سبعة وستين، إلى ثمانية وستين، إلى أوائل تسعة وستين... وقد صار الجوع في سائر البلدان من بلدة الغرب إلى بلاد الأحواز إلى بلدة حاحا، وسواحل البحار. وقحطت جميع الأقطار وتشتت الناس. فمنهم من مات في منازلهم، ومنهم من غاب وافتقد... وأكل الناس الجيف والميتة والدم وغير ذلك مما يجب اجتنابه... كل ذلك من شدة الجوع والقحط[5].

وإلى جانب الجفاف والقحط وتواليه، تعرض المغرب من جهة أخرى إلى الزلازل. وقد ميزت دراسة جامعية في موضوع الزلازل بين ثلاث مراحل: ينطلق العصر الأول من سنة 846 م وينتهي بزلزال 11 ماي 1624 م. وكان هذا الأخير سبباً

---

(3) ابن أبي زرع، القرطاس...، مصدر مذكور، الرباط، 1973، ص. 114.

(4) ابن أبي محلي، الإصليت...، مصدر مذكور، ص. 46 و 93 - 95.
وعبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي ورحلته...، مصدر مذكور، ص ص. 21 - 23.

(5) المختار السوسي، المعسول، الدار البيضاء، النجاح الجديدة، 1962، ج. 15، ص. 11.

في هدم فاس. وينتهي العصر الثاني بزلزال لشبونة الذي أدى إلى دمار مكناس في 7 فبراير 1755 والعصر الأخير ينتهي بزلزال أكدير في 29 نونبر 1960. وقد زلزلت الأرض بالمغرب حسب هذه الدراسة 430 مرة(6).

ومما كان يزيد من وطأة هذه الكوارث كونها كانت تتسبب في اندلاع المجاعات والأوبئة وانتشارها عبر المغرب. لقد انتبه الوزان إلى توالي هذه الأوبئة على المغرب بطريقة تكاد تكون منتظمة. وعن هذا كتب يقول: "ويظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة. وعندما يأتي، يذهب بالعدد العديد من الناس"(7).

(6) ثريا المرابط أزروال، تاريخ الزلازل بالمغرب من 846 إلى 1960، رسالة جامعية مرقونة، كلية الآداب بالرباط، سنة 1991.

(7) حسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج. 1، ص. 68

الكوارث الطبيعية وتواليها على المغرب*

السنة	الكارثة
1522 - 1521	الطاعون + المجاعة
1558 - 1557	الطاعون
1580 - 1579	المجاعات + الطاعون
1610 - 1597	المجاعات + الطاعون
1624	زلزال عنيف ومدمر
1662 - 1661	مجاعة + الطاعون
1724 - 1721	المجاعة
1738 - 1737	المجاعة
1744 - 1742	الطاعون
1755	زلزال عنيف ومدمر
1776	المجاعة الكبرى
1782 - 1779	المجاعة
1800 - 1798	الطاعون

يظهر الجدول أعلاه أن المغرب كان مهدداً باستمرار بالكوارث الطبيعية، وأن هذه الأخيرة كانت تضرب في العمق بنياته الاقتصادية والديمغرافية، لأن البلاد لم تكن قادرة على مواجهة الأوبئة والأمراض الفتاكة. يقول الوزان إنه إذا أصاب الناسَ الطاعونُ، "لا يهتم به أحد ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب

* مصادر هذا الجدول ومعلوماته مأخوذة من:

B. Rosenberger et H. Triki, *Famines et épidémies, op. cit.*

ومحمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات...**، مرجع مذكور؛ وثريا لمرابط أزروال، **تاريخ الزلازل...**، مرجع مذكور.

حول دمل الطاعون"[8]. فقد أنهكت الكوارث ودمرت هياكل المغرب وتسببت في تعطيل طاقاته الحيوية وحالت دون تحقيق طموحاته التحديثية. وعلى العكس من ذلك، فقد رسخت فيه الذهنية الغيبية فأصبح الناس يرون فيما يصيبهم من ويلات عقاباً من الله. فاحتلال أصيلا وتجاسر البرتغاليين مظهر من مظاهر هذا العقاب الرباني، وأكد ابن يجبش التازي ذلك بقوله: "لأن ما أصابكم إنما هو من ضعف إيمانكم وقلة يقينكم، واستهزائكم بأمور الدين، ومخالفتكم لسنة سيد المرسلين... فحل بكم ما قد رأيتم... لأنكم تعديتم حدود الشريعة إلى الأمور الشنيعة"[9]. ومن أجل هذا، ولأسباب أخرى، انتعشت الحركة الصوفية وأسست الزوايا وانتشرت عبر المغرب في حواضره وبواديه وعملت على تأطير المغرب وملء الفراغ السياسي، خصوصاً أيام المحن والشدة كما هو الشأن في مطلع القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر:

> وعرفت هذه الفترة الحالكة من تاريخ المغرب أواخر الدولة السعدية إلى جانب المجاهد العياشي السلاوي كثيراً من أرباب الزوايا المتزعمين الذين استغلوا فرصة اضطراب الأحوال لتحقيق مطامحهم في الحكم والرئاسة، أمثال ابن أبي محلي السجلماسي، وأبي زكريا الحاحي، وأبي حسون السملالي[10].

وتسبب انتشار المجاعات والأوبئة في نزيف ديمغرافي ونقصان اليد العاملة، وأدى ذلك إلى تقلص النشاط الزراعي لصالح النشاط الرعوي. وكانت وطأة الطاعون تدفع الناس أحياناً إلى بيع أولادهم وأنفسهم إلى البرتغاليين هرباً من الجوع والتهلكة[11]. فعَمَّ الخوف واليأس المغرب، وكان ذلك سبباً في التفاف الناس حول الزوايا وجعل هذه المؤسسات تؤدّي أدواراً سياسية أساسية فدعمت في مطلع القرن

---

(8) حسن الوزان، وصف إفريقيا...، مصدر مذكور، ج. 1، ص. 68.

(9) أبو بكر البوخصيبي، أضواء على ابن يجبش...، مرجع مذكور، ص. 140.

(10) محمد حجي، الزاوية الدلائية، مرجع مذكور، ص. 22.

(11) "Beaucoup d'autres se vendaient, et c'étaient leurs pères ou leurs frères qui les vendaient". (Bernardo Rodrigues, *Anais de Arzila* cité par B. Rosenberger, *Famines...*, *op. cit.*, pp. 94 - 95).

السادس عشر الأشراف السعديين وأوصلتهم إلى الحكم، وقامت ضدهم بعد وفاة المنصور واشتداد الأزمة، فساهمت في تفريق البلاد.

وبالجملة، قد نتساءل عن الأسباب التي جعلت المغرب يعجز عن مسايرة الضفة الشمالية للبحر المتوسط. يبدو أن للعوامل الطبيعية دوراً أساسياً في ذلك. فالمناطق المعتدلة في أوربا كانت تتوفر على مناخ ملائم وعلى تربة جيدة جعلت الاستقرار فيها يكون مبكراً، وخلقت توازناً فيما بين الإنسان والمجال الذي يعيش فيه. وأما البلدان الأوربية التي تنتمي للمنطقة المتوسطية، إيطاليا شبه الجزيرة الإيبيرية، والتي تعيش في ظروف مناخية قريبة من تلك التي يعيشها المغرب، فإنها حققت إقلاعها، وتجاوزت العراقيل التي كانت تهددها من جراء الظروف الطبيعية الصعبة، وذلك بخروجها من مجالها الأوربي ودخولها مغامرة الاكتشافات والسيطرة على مجالات غير أوربية قصد استغلالها وجلب ثرواتها لسد حاجيات شعوبها وتقوية وجودها[12]. وعلى العكس من ذلك، فإن المغرب الذي كانت تهزه الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة ظل منكمشاً ومنعزلاً وتخلى عن خلق شروط الإقلاع.

فهل الكوارث الطبيعية وحدها كافية لتفسير تجاوز أوربا للمغرب؟ أولا يجب البحث عن جذور الأزمة في عوامل أخرى ترتبط بالإنسان المغربي نفسه وبمؤسساته السياسية؟

- مسألة المشروعية في الحكم

لقد احتلت المشروعية في الحكم حيّزاً هاماً في الكتابة الإسلامية التي اعتبرت الخلافة نظاماً خاصّاً بالمسلمين وحدهم، وهو منصب قوامه الدين وأساسه الشريعة. ومن حقوق الخليفة على كل فرد من المسلمين "الولاية العامة والمبايعة الصادقة والطاعة التامة، لأنه نائب عن النبيّ في الحفاظ على الدين وحماية الشريعة

---

(12) F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op. cit.*, T.1, p. 224.

والسير بمقتضى التعاليم والأصول التي جاء بها القرآن"[13]. ورأى بعض الباحثين أن أمر الخلافة كان من أسباب تشتت المسلمين لانعدام وجود أي نص صريح كما أشار إلى ذلك ابن أبي محلي قائلاً: "وإنه أيضاً لا نص فيها من الرسول عليه السلام في معين واحد من أصحابه الخلفاء، فكيف بغيرهم؟ وإنما هي أخبار متعارضات أو محتملات. وقد اختفت القرائن الفعلية أو غيرها ببعضها، فصارت كالنص معها وإن كانت اجتهادية"[14]. وللإمامة شروط كما وضح ذلك الماوردي. ومن الأمور التي احتار واحتاط العلماء والفقهاء في أمرها، مسألة القيام ضد الإمام، لما يترتب عن ذلك من فتن ومحن لأمة المسلمين. ومن أجل تجاوز منع الخروج عن الإمام لجأ القائمون إلى تأويل النصوص وقراءتها قراءة تساير دعوتهم.

وكانت البيعة من المشاكل الثابتة والمسؤولة عن اندلاع الأزمات السياسية في تاريخ المغرب. فالبيعة مستوحاة من القرآن وتحتمل الالتزام والتعاقد. ولاحظ ابن زيدان أن البيعة في المغرب نظام متميز. فإذا كانت شفهيّة في الأقطار الإسلامية، فإنها تكون في المغرب تعاقداً مكتوباً يحضره الخاص والعام وتشارك فيه البادية والحاضرة "فلا يتخلف من عقد البيعة في كامل القطر المغربي أية جمهرة أو فئة ثم ينادى بذلك نداء يسمعه القريب والبعيد"[15].

وبسبب الطبيعة الشرعية لعقد البيعة، فإن هذه الأخيرة كانت موضع خلاف في التأويل بحسب الظروف والملابسات بين العلماء والأمراء. ومثالاً على ذلك، نسوق مناقشة علماء فاس للأمير المتوكل عندما استنجد هذا الأخير

---

(13) عارف تامر، **الإمامة في الإسلام**، بيروت - بغداد، دون تاريخ، ص. 56.
(14) ابن أبي محلي، **سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة**، مخ، خ. ح.، رقم 4733 ورقة 121.
(15) لمزيد من التفاصيل، يمكن الرجوع إلى ابن زيدان، **العز والصولة في معالم الدولة**، الرباط، 1961، ج.1، ص ص، 8 - 35 خصوصاً.

A. Laroui, *Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*, , Paris, 1976, (1830 - 1912), pp. 71-76.

بالنصارى ضد عمه المعتصم، ودافع عن موقفه في رسالة وجهها لعلماء فاس وحملهم فيها مسؤولية ذلك، لأنهم تخلوا عن بيعته ومناصرته. فأجابوه في رسالة مطولة استعملوا فيها الحجج الشرعية والسياسية والإنسانية لدحض زعمه. فجاء خطابهم إليه مشحوناً بمصطلحات شرعية (الأدلة الشرعية ـ النهج الشرعي ـ الحدود الشرعية، إلخ)، وبينوا له أنهم تخلوا عنه لأنه لم يلتزم بما هو واجب عليه وأنه فر وترك المدينة عرضة للنهب "فأصبح أهلها في أيدي الأعادي من السفهاء والمفسدين... ولا مدافع عن الضعفاء والمساكين"[16]. وبسبب ذلك، عمت الفوضى والهرج إلى أن دخل المدينة عبد الملك الذي أرجع إليها السكينة. وأوضحوا له أن استغاثته بالنصارى على المغاربة ردة تحتم "خلعك وسقوط بيعتك"[17]. زيادة على الحجج الشرعية، اعتمد علماء فاس حججاً سياسية أخذوها من داخل البيت السعدي نفسه. ذلك بأن عبد الملك أحق بالخلافة، انطلاقاً مما سنه مؤسس الدولة القائم بأمر الله الذي أمر أن تكون البيعة للأكبر "حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر ولم يخف عنكم منه عين. إذ كان محمد الجد الأكبر عهد لأولاده... ألاّ يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلاّ الأكبر فالأكبر"[18]. فهل كان للمعتصم نص صريح في هذه المسألة أو أن الأمر مجرد احتمال عرف هذا الأمير كيف يستعمله ليستميل الفقهاء إلى جانبه؟

لقد طرحت مشروعية الحكم من جديد في مطلع القرن السابع عشر، زمن فتنة أولاد أحمد المنصور. وتردد ابن أبي محلي كثيراً قبل أن يقوم على السعديين، إذ كيف يحق له أن يخرج عن الجماعة ويفتح باب الفتنة وهو الفقيه العارف للحدود الشرعية. وليتجاوز هذه الحدود، لجأ إلى تأويل النصوص، منطلقاً في ذلك من واقع المغرب المتأزم، فتبنى مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي هذا الصدد كتب

(16) يمكن الرجوع إلى جواب العلماء للمتوكل في كتاب عباس بن إبراهيم المراكشي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، فاس، 1938، ج. 4، ص ص. 179 ـ 187.

(17) المصدر نفسه، ص. 180.

(18) المصدر نفسه.

يقول:

بعدما تشتت البلاد وأفسدها أبناء المنصور وملؤوها ظلماً وجوراً، وتخلوا عن الجهاد مع تعيينه على المبايع. فإذا عجز فلا تجوز توليته؛ إذ لا فائدة فيه. وأما إذا تعامل مع الكفر (إشارة منه إلى تسليم المامون العرائش لإسبانيا) عن أهل الإيمان، فذاك غاية العصيان[19].

فاغتنم ابن أبي محلي الفرصة وصار يدعو لنفسه على أساس أن قيامه أصبح ضرورياً صيانة للعدل والدّين، واعتبر المتخلف عنه عاصياً: "فإن قام عادل عليه غيرة على الدين، وجب على كل المسلمين القيام مع الثاني ليظهر دين الله؛ والمتخلف عليه عاص كما نص على ذلك الأئمة"[20]. لقد فطن المامون إلى خطورة الموقف. وليتدارك الأمر وجه سؤالاً إلى علماء المغرب، بعدما شرح لهم الأسباب التي جعلته يتخلى عن العرائش للنصارى والتي تتلخص في احتفاظ هؤلاء بأولاده رهائن: فهل يحق للمسلمين أن يتخلوا عن حفدة الرسول الكريم؟ واتخذ العلماء مواقف متباينة في شأن هذه الفتوى: فمنهم من قبل بها وساند المامون. وتعرض بعض هؤلاء إلى سخط العامة، بل إلى القتل كالفقيه محمد بن قاسم ابن القاضي؛ ومنهم من خاف على نفسه فغادر الحواضر إلى البوادي كالإمام الحسن الزياتي وأبي العباس يوسف الفاسي؛ ومنهم من غادر المغرب كأبي العباس المقري؛ ومنهم فئة قامت بمناهضة قرار المامون كالفقيه أبي عبد الله بن أبي الحسن المعروف بالحاج الأغصاوي البقال الذي لم يغفر له المامون ذلك، فأمر بقتله. وكانت حادثة تسليم العرائش منطلق ثورة ابن أبي محلي ومنعطف حياته:

ولما وصلت هذا المحل من هذه الفصول[21]، ورد علينا خبر مهول بل فحش مطيش وأن العرائش من الساحل قد دخلها الكفار وهم على أثر ذلك بجيش يجيش يريدون استيصال الإسلام... أرقني ما سمعت وأقلقني ما رأيت من شتات الكلمة.. لَئِنْ صح ما قد قيل ما عاش عائش[22].

---

(19) ابن أبي محلي، المهراس، مخ.، خ. ع.، ك 192، ص. 7.

(20) المصدر نفسه.

(21) يقصد فصولاً من كتابه "سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة"، وهو آخر ما ألف.

(22) مصدر مذكور، ص. 182 و 202.

البيعة نظريّاً رسم موثق يعترف به الجميع، لكن الالتزام به شيء آخر، لأنه يبقى رهينا بميزان القوى بين المبايِع والمبايَع من جهة، والمبايَع وباقي أمراء القصر من جهة ثانية. فمن خلال النقاش الذي دار بين أبي زكريا الحاحي والأمير زيدان بن أحمد المنصور، يتبين دور الغلبة في مسألة البيعة. لما قام ابن أبي محلي ودخل قصر الخلافة بمراكش، استغاث زيدان بأبي زكريا الحاحي، فتدخل هذا الأخير وناصر الأمير وتمكن من قتل ابن أبي محلي وإعادة الأمر لزيدان بعدما فرض عليه شروطاً. واستغل الحاحي هذه الشروط ليتدخل في أمور الملك ويضغط باستمرار على زيدان الذي كان يتحمل من ذلك أمراً عظيماً على حد قول الناصري. وكان هذا الشيخ ينطلق في ملاحقته لزيدان من منطلق "الدين النصيحة"، وكان يشدد عليه اللوم[23]. وأجابه زيدان في رسالة مطولة اعتبرها جاك بيرك محاولة جادة في بناء نظرية الحكم في المغرب[24]. انطلق زيدان، في حججه، من منطق الأمير الشرعي وأن بيعته واجبة على الحاحي وغيره، وأن دعمه ضد كل متسلط ضروري. وذكر الحاحي أن ابن محلي قد خرج عن الجماعة وفتح باب الفتنة، ولذلك كان على الجميع القيام ضده لمناصرة الأمير الشرعي. والملاحظ أن زيدان وضع نفسه داخل نظام الحكم في الإسلام، ولم يتشبث بالانتماء إلى السلالة السعدية وخاطب الحاحي قائلا: "من أراد أن يشق عصاكم، فاقتلوه كائناً من كان، وإلاّ فلو دخل إلى الملك (يقصد ابن أبي محلي) من بابه وبايعه أهل الحل والعقد وأخذ ذلك بوسائط مثل بيعة جدنا... فلو كان وصل إلى ذلك بمثل هذه الوسائط، لم يجب حربه"[25]. وتخلى الحاحي عن زيدان طمعاً في السلطة، ولذلك انتقده السكّتاني قاضي تارودانت ومراكش وصديقه، فعاب هذا القاضي على الحاحي تخليه عن زيدان بعدما أعلن للناس في مراكش وسوس أن الأمير السعدي هو سلطانهم الشرعي. وناهض السكّتاني

---

(23) يمكن الرجوع إلى رسالة الحاحي، وجواب زيدان عند الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج. 6، ص ص. 36 - 50.

(24) J. Berque, *Ulèmas...*, *op. cit.*, p, 26.

(25) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج. 6، ص. 40.

موقف الحاجي سعياً منه لقول كلمة الحق بغية إيقاف الفتنة. وذكّر صديقه بمواقف أجداده الذين استطاعوا أن يجعلوا من الزاوية مأوى الضعفاء والمساكين تشد إليها الرحال من كل أنحاء المغرب، وفي الأخير خاطبه السكّتاني من منطلق شرعي واستفسره عن الأسباب التي أباحت له الخروج عن زيدان.

أيها الشيخ... أوَ تجدُ في الوجود ملكا أعظم من ذلك الملك... وأين ضلت عنك نصوص الكتاب والسنة... هذا، إنك مبايع وأنت قدوة... فأي حجة لك على الأمير... أوَ ما علمت أن كثيراً من العوام يعتقد جواز ذلك إذا رأوك ارتكبته، فتكون قد سننت هذه السنة وضل ـ بسبب ذلك ـ كثير من الناس[26].

فالمشروعية في الحكم والبيعة في المغرب من الثوابت المواكبة لتاريخه. وتظهر الأحداث أنها كانت مسؤولة في غالب الأحيان عن اشتعال الأزمة فيه. فكيف كانت البيعة تترجم على أرض الواقع؛ وكيف ساهمت، على عكس ما أراده السلاطين، في تصدع البنى الاجتماعية عوض التحامها؟ وكيف كانت تشتعل فتيل الفتنة داخل القصر وخارجه؟

ـ البيعة أزمة قصر قبل أن تكون أزمة مجتمع

انشغل الأشراف باستمرار الدولة على أساس أن تدوم السلطة في سلالتهم وعملوا كل ما في وسعهم لتحقيق ذلك، فكان أمراؤهم يحكمون المغرب على أساس أنه ملكية خاصة[27]. ولعل من الأمور التي سهلت الفتن التي كانت تلي وفاة السلاطين لجوء هؤلاء في حياتهم إلى تقسيم إدارة المغرب بين أبنائهم من أجل إشراكهم وتكليفهم في إدارة أمور البلاد، وهي ممارسة قديمة في تاريخ المغرب. فقد ترك إدريس الثاني بعد وفاته عشرة أولاد، أسند للكبار منهم ـ في حياته ـ مهام تسيير الأقاليم وأبعد الصغار. لكن ما أن تم الأمر لكبيرهم محمد بعد وفاته حتى

---

(26) الافراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص ص. 229 ـ231.

(27) كان السلاطين لا يفرقون بين ملكهم الخاص وملك الدولة، لأن السلطان تجسيد لهذه الأخيرة. (انظر في هذا الصدد مخطوط "كناش في أمور بحارة العدوتين"، لمؤلف مجهول، مخ.، خ. ع.، د 1409، ص. 13 و 25)؛ A. Kaddouri, "Le Maroc et l'Atlantique à travers un Kunach inedit" in colloque le *Maroc et l'Atlantique*, Casablanca, 1992, p. 84.

نكث بعض إخوته طاعته، "فكانت بينهم حروب عظيمة"[28]. ورأى بعض الباحثين في هذا التقسيم عودة إلى الأعراف البربرية نتيجة لتأثير زوجة إدريس كنزة فيه[29]. ولاحظ محمد القبلي أن عملية التقسيم والإشراك إجراء مفضل عند المرينيين[30]. ولجأ القائم بأمر الله السعدي إلى المبدإ نفسه حيث قسم مملكة مراكش بين أبي العباس الأعرج ومحمد الشيخ. وما أن توفي مؤسس الدولة حتى اندلعت الحرب بين الأخوين، انتهت بانفراد محمد الشيخ بالحكم: "وتقاتلا مدة مديدة، فغلب الشيخ على أخيه أبي العباس... وقبض عليه فسجنه هو وأولاده بمراكش"[31]. وسار أحمد المنصور على النهج نفسه. فعندما خص المامون بولاية العهد واستخلفه عنه بفاس، أسند إدارة الأقاليم الأخرى إلى إخوته، لأنه كان يرى في ذلك دعماً للدولة وتقويتها. وأشار الفشتالي إلى ذلك عندما كتب قائلاً: "كان للخليفة... جماعة من الولد من أمهات مختلفات... ولما طلعوا أعزهم الله بآفاق دولته الشريفة... رأى ـ أيده الله ـ أن يرسي بهم قواعد ملكه... وقسم بينهم الممالك... وشد بهم عرى ملكه فازدهرت بهم آفاق الدولة"[32]. ولم تتوقف سياسة التقسيم في عهد العلويين، بل استمرت؛ ونهج المولى إسماعيل التقسيم بين أبنائه سنة 1111 هـ/ 700: م. ويبدو من خلال الأحداث التي كانت تترتب على هذه الممارسة السياسية أن العملية كانت فاشلة، لأنها كانت من الأسباب التي تؤدي إلى الفتن والهرج. وعوض أن توطد الدولة وتقوّيَ نفوذها، فإنها كانت تضعفها بسبب ثورات الأمراء بعضهم ضد البعض؛ بل كان منهم من يثور على والده: المامون على المنصور، ومحمد العالم على المولى إسماعيل، واليزيد على محمد بن عبد الله[33]. وكانت صراعات الأمراء تنتهي دائما بمآسٍ وبحروب تهز المجتمع وتتسبب في عرقلة مسيرته، وكان الأمراء

---

(28) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب...، مصدر مذكور، ص. 52.

(29) Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, Paris, Hatier, 1967, p. 66.

(30) M. Kably, *Société...*, *op. cit.*, pp. 173-174.

(31) الافراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص. 22.

(32) الفشتالي، مناهل الصفا...، مصدر مذكور، ص ص. 92 - 93.

(33) عبد الله العمراني، مولاي إسماعيل بن الشريف: حياته، سياسته، مآثره، تطوان، 1978، ص. 214.

المتنافسون على السلطان لا يترددون في نهج كل السبل من أجل تحقيق طموحاتهم ولو بتصفية أقربائهم.

نظراً للحزازات الناتجة عن ولاية العهد، ولتعدد زوجات السلاطين وانتمائهن إلى قبائل مختلفة، فلا يخلو عهد من عهود سلاطين الأشراف ـ خلال العصر الحديث ـ من اغتيال سياسي. وبينت آسية بنعدادة، اعتماداً على "زهر الأكم"، أن المولى إسماعيل اتخذ من الزواج استراتيجية سياسية. فعن طريقه كان يحاول استمالة القبائل، وخلصت إلى القول بأن هذه الممارسة: " وهذا التنوع في انتماء الزوجات... لعب دورا خطيرا في زمن الأزمة، عندما ساندت بعض القبائل الأمراء الذين ينتمون إليها"[34].

لن نقف عند كل الاغتيالات السياسية التي عرفها مغرب الأشراف، ولكن سنكتفي بإعطاء نماذج صارخة. لما توفي القائم بأمر الله، وقعت حروب شديدة بين أحمد الأعرج وأخيه محمد الشيخ، كان الانتصار فيها لمحمد الشيخ. وحينما تحقق له ذلك، أقبل على سجن أخيه وأولاده. ولما قتل الجنود الأتراك محمد الشيخ سنة 1557، أقبل خليفته في مراكش على قتل أحمد الأعرج وجميع أولاده: "فلم يزل أبو العباس في حكم الثقاف إلى أن قتلت الأتراك بالسوس الأقصى أخاه محمد الشيخ... فبلغ خبر مقتله لخليفته بمراكش... فأسرع بقتل أبي العباس وأولاده ذكوراً وإناثاً وصبية جميعاً خشية أن يخرجوه (أهل مراكش) من السجن فيبايعوه"[35]. ولم يكتف الغالب بهذا، بل قتل ثلاثة من إخوته، وتمكن من الفرار إلى تلمسان كل من عبد المومن وعبد الملك وأحمد، وتمكن المتوكل من اغتيال عمه عبد المومن بهذه المدينة.

وكانت ظاهرة الاغتيال متفشية عند العلويين كذلك. فقد قتل المولى رشيد أخاه المولى امحمد، وقام أولاد هذا الأخير على عمهم الرشيد، ووقعت بينهم

(34) عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، دراسة وتحقيق آسية بنعدادة، الرباط، لابورث، 1994، ص ص. 34 - 40.

(35) الافراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص. 22.

حروب انتصر فيها الرشيد، فألقى القبض على ابن أخيه محمد بن محمد وإخوته "وسجنهم بتازة إلى أن بعث إليهم من قتلهم"[36]. وهكذا يتضح أن القتل السياسي كان معهوداً بين الأمراء وكان يتسبب في الفتن والهرج بين الناس ويحدث شرخاً في المجتمع ولم يكن الصراع مقصوراً على الأمراء فيما بينهم فقط، بل كان ولاة العهد بدورهم يقومون على آبائهم حتى ولو كان هؤلاء أقوى سلاطين الأشراف.

لقد خرج المامون، ولي عهد أحمد المنصور، عن طاعة والده واشتهر بفساد أخلاقه واستهتاره بالمسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقه[37]، ووصفته المصادر بالفسق في القيان والأولاد وأكل الحشيش وشرب الخمر، امتنع عن صيام رمضان وأكَلَ أموال الناس، وأضر بالقوي والضعيف، إنه لم يكن يخاف الله ولا يهابه. ولما علم والده بسيرته القبيحة، حاول إصلاح اعوجاجه، فأكثر النهي والنصح، وطالبه بالمثول أمامه بمراكش، فرفض ولم يمتثل. فقرر حينها المنصور أن يخرج إليه في فاس. ولما علم المامون بالخبر، قرر اللجوء إلى تلمسان عند الأتراك. لذلك تراجع المنصور عن الذهاب إلى فاس، واكتفى بإرسال وفد من العلماء والفقهاء، "فساروا إلى أن وصلوا إليه وجلسوا بين يديه ووعظوه ونصحوه بأن لا يسخط والده"[38]. لكن المامون لم يغير من سلوكه، بل استمر في ظلم الرعية وخراب البلاد. فقرر المنصور أن يخرج إليه في محلة، وأمر ولده زيدان بالمشاركة. ولما سمع المامون بمجيئهما إليه، فر إلى زاوية الشيخ أبي الشتاء حيث ألقي عليه القبض، فسجنه والده بمكناس. وقد تسبب تمرد المامون في خراب البلاد وإتلاف خيراتها. وكان لثورته أثر بليغ على نفسية والده كما يتبين ذلك من مراسلاته مع ابنه أبي فارس شقيق المامون. "إلى ولدنا الأجل الأرضى بابا فارس. وبعد؛ ولاشيء إلا ما جرت به الأقدار، وحكم به الفاعل المختار، وما جاء به من عجائب الدهر

---

(36) عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، مصدر مذكور، ص ص. 124 - 125.

(37) ما زال موضوع عصيان المامون لوالده غير معروف. ترجع جل المصادر اللوم لولي العهد وتحمله مسؤولية ما حصل وتغض الطرف عن استبداد المنصور وتدخله في كل صغيرة وكبيرة. والملاحظ أن الفشتالي غض الطرف عن الحدث الذي زعزع هيبة المنصور في نهاية حكمه.

(38) المؤرخ المجهول، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 73 - 74.

الليل والنهار وهي قضية أخيكم التي ثارت إلي بها صروف الدهر من مكمني، وطلعت علي من مأمني"[39]. وقد أثرت هذه الثورة في الجهاز المخزني وأضعفته وحملت في طياتها مؤشرات ما سيحدث بعد وفاة المنصور، ولا سيما أن الأمير زيدان قد ساهم إلى جانب والده ضد أخيه المامون.

وشق محمد العالم عصا الطاعة ـ بدوره ـ على والده المولى إسماعيل، وحرض قبائل سوس. وقد تحدث القادري عن هذا العصيان، فنعته بالفتنة العظيمة: "فثار على والده ودعا الناس إلى بيعته"[40]. وأرسل إليه والده جيشاً قاده أخوه زيدان، وكانت الهزيمة على محمد العالم، فقبض عليه أخوه وقيده بالحديد، وعاد به إلى والده في مكناس، فقطع هذا الأخير يده ورجله من خلاف وبقي محمد العالم أياماً معدودة، ثم مات. ومن نتائج هذه الثورة ما تعرضت له مراكش وقبائل سوس من نهب، وسبي وتجاوزات على يد جيش زيدان. وكانت هذه الفتنة وبالاً على الناس حيث "مات أمم وأعيان وقواد. ولما دخلت (جيوش زيدان) عنوة، قتلوا جميع من بها رجالاً وصبياناً ونساء"[41]. وعاني محمد بن عبد الله بدوره من ثورة ولده اليزيد الذي استعان بجيش العبيد، وأدت حركته إلى فتنة عظمى تجاوز صداها المغرب كما يتأكد ذلك من الرسالة التي بعث بها السلطان إلى أمير مكة الشريف سرور يعاتبه فيها على عدم قبضه على اليزيد: "وكأنك أعجبك فعله، واستحسنت ضلاله وجهله... . ولو وقع ذلك من ولدك، ما وسعك إهماله والإعراض عنه. ولولا ما بيننا وبينكم من ثمرة القرابة النبوية، لكنت تؤدي ذلك من مالك شرعاً وعرفاً... فلا حول ولا قوة إلا بالله"[42].

فمن خلال هذه التمردات والاغتيالات السياسية، تتبين الأدوار التي أدتها قضية المشروعية في الحكم ومسألة ولاية العهد في تاريخ المغرب. لقد كانت وراء

(39) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ص. 176.

(40) القادري، نشر...، مصدر مذكور، ج. 3، ص ص. 166 ـ 167.

(41) الزياني، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، الرباط، ص. 182.

(42) الزياني، البستان...، مصدر مذكور، ص. 456.

الأزمات السياسية التي هزت المغرب الحديث وحالت دون إقلاعه ومنعته من مسايرة تحولات عصره. ومما زاد من وطأة هذه الفتن وشدّتها التدخل الأجنبي فيها، كما سنوضح ذلك من خلال نموذجي الناصر السعدي وابن محرز العلوي[43]

كان الناصر بن عبد الله الغالب نائبا عن والده بتادلا. وعند وفاة هذا الأخير، ألقى عليه القبض أخوه المتوكل تحسباً لأي طارئ و لم يطلق سراحه إلا بمجيء عمه المعتصم. وبقي الناصر بالمغرب إلى أن توفي عبد الملك، فخاف على نفسه ففر إلى أصيلا ومنها إلى إسبانيا حيث بقي قرابة ثماني عشرة سنة إلى أن قام بدعم من هذه الأخيرة على عمه أحمد المنصور. فكيف حصل ذلك ولماذا؟ من المعروف أن الدول كانت تتخذ الأمراء المعارضين لسلاطين بلدانهم ورقة ضغط سياسي كلما دعتهم الضرورة إلى ذلك[44]. فثورة الناصر جاءت نتيجة لتقارب أحمد المنصور مع انجلترا ودعمه العلني للعرش البرتغالي في تحركاته ضد فليب الثاني، وإعلانه غير ما مرة عن إرادته العبور إلى الأندلس كما وضح المنصور نفسه في الرسالة التي بعث بها إلى علماء مصر يزف لهم فيها بشرى انتصاره على الناصر ومن خلاله على قشتالة.

مما نستطرد لكم ذكره على جهة البشرى... إعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة الذي هو اليوم العدو الأكبر للإسلام وعميد ملل التثليث وعبدة الأصنام لما آنس من تلقاء جنابنا العالي نار العزم تلتهب التهاباً... وهِمَمُنا... قد همت بتحديد الأسطول والاستكثار من المراكب... وعلم أن الحديث إليه يساق وإلى أرضه بالخسف والتدبير... يهفو كل لواء... رام - خذله الله - مكافأتنا على ذلك... فرمى بمخذول من أبناء أخينا عبد الله إلى مليلية[45].

فهل حقاً كانت نية المنصور العبور إلى إسبانيا من أجل استرجاع الأندلس؟ أو أن الأمر مجرد كلام كان الهدف منه تسويد صورة الناصر الذي خلق له متاعب كثيرة وكان يسميه بالشقي وبحليف الصليب وبولي الطاغوت.

---

(43) ما زالت أحداث الثورتين وأبعادها غير معروفة، تناولتها المصادر المغربية من منطق رسمي لعل أهميتها الخاصة أنها كانت من داخل القصر وضد أقوى سلاطين الأشراف.

(44) الأمير إسماعيل والناصر فيما يتعلق بالمغرب، ودون كريستوف فيما يتعلق بإسبانيا.

(45) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 190.

لقد كانت ثورة هذا الأمير عنيفة انطلقت من الريف وتوغلت داخل البلاد إلى أن وصلت أحواز فاس. وسخر لها المنصور كل طاقات ولي عهده الذي لم يستطع القضاء عليها، لأن الناصر نهج أسلوب الحرب المتنقلة واستطاع استمالة القبائل إلى جهته. يقول الفشتالي: "وكان الناصر يتحرف إلى التسلق بجبل مدغرة وغياثة ليتعلق بذروته"[46]. فأقبل عليه الناس والتفوا من حوله، بل التحقت به جيوش المامون "وجعل الأشقياء وجوههم إلى الناصر وكانوا زهاء خمسة ءالاف كلها من عساكر النار"[47]. وبسبب هذه الثورة، اهتز المغرب وأصاب الذعر المنصور فدفع بالناس إلى الدعاء له في المساجد وأورد الفشتالي على لسان وليّ نعمته أن هذا الأخير قد رأى في منامه أن الله قد بشره بالانتصار. و لم تكن ثورة الناصر ثورة سهلة أو أمرا بسيطاً، بل كانت عنيفة خلخلت الجهاز المخزني. وقد استعمل الفشتالي كلمات تعبر عن ذلك (اهتز المغرب بأسره لذلك، استفحل أمره، وتمكن ناموسه، إلخ) وتكلم كاتب المنصور عن هذه الثورة في اثنتين وعشرين صفحة. وقد انتبه الناصري إلى ذلك حيث ربط نجاحها بانصراف الناس عن المنصور: "لما سمع المنصور بخبره، أقلقه ذلك وتخوف غاية؛ لأن الناصر اهتز المغرب لقيامه وتشوقت النفوس إليه لميل القلوب عن المنصور لشدة وطأته واعتسافه"[48].

لقد ركزت مراسلات المنصور والمصادر الموالية له على إبراز تحالف الناصر مع إسبانيا، فأظهرته على أساس أنه كان ورقة سياسية في يد فليب الثاني وأنه رمي به إلى المغرب ليفرق كلمة المسلمين وليمكن العدو من بلادهم. والغريب أنه بالرغم من استغاثة الناصر بالنصارى وخروجه من ثغر مليلية مدعماً بجيوشهم للقيام على بطل معركة وادي المخازن، فإن المغاربة لم يتبنوا الطرح الرسمي الذي حاول أحمد المنصور نشره؛ بل على عكس ما حصل في معركة الملوك الثلاثة، فإن القبائل قد قامت وساندت الناصر لا المنصور إلى درجة جعلت أحد الفقراء وهو أبو الحسن

---

(46) المصدر نفسه، ص. 171.

(47) المصدر نفسه، ص. 175.

(48) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج. 5، ص. 146.

علي بن منصور البوزيدي المعروف بأبي الشكاوي دفين شالة يقول: "يا فقراء! أتسمعون ما تقول بغلتي؟ إنها تصيح بالنصر لمولاي الناصر وكذلك الشجر والحجر"(49). فثورة الناصر كانت مرهقة ومكلفة للدولة وجاءت مؤشراً من المؤشرات الهدامة التي بدأت تلوح مع نهاية القرن السادس عشر وتوحي بما سيكون عليه مغرب مطلع القرن السابع عشر. وبالرغم من حدة هذه الثورة، فإنها كانت أقل ضرراً من تلك التي قادها أحمد بن محرز ضد عمه المولى إسماعيل.

استخلف المولى رشيد ابن أخيه أبي العباس أحمد بن محرز على عدة أقاليم: على وادي درعة وسجلماسة وتوات وبلاد أنجاد ثم على مراكش. وقد قام على عمه الرشيد سنة 1671 م في مراكش. ولما توجه إليه عمه، فر إلى أزمور ثم عاد تائباً إلى عمه الذي وبخه وأخذ له كل ممتلكاته قبل أن يعفو عنه ويرسله إلى تافلالت. وقد قام بذلك حياء من أم أحمد بن محرز زوجة أخيه. لكن ما أن توفي الرشيد حتى بايعهُ أهل مراكش واستقدموه من تافلالت، في حين بايع أهل فاس عمه إسماعيل. فمنذ هذا الحين والحرب دائرة بين الرجلين واستمرت أربع عشرة سنة. وكانت المصادر تتحدث عن ابن محرز سلطاناً لمراكش. وقد قاد المولى إسماعيل شخصيّاً ثماني حركات ضد ابن أخيه وعقد معه الصلح مرتين عام 1675 م بمراكش وعام 1679 بتارودانت.

وتميزت ثورة أحمد بن محرز بالتنقل عبر جلّ أقطار المغرب وتجذرت حركته خصوصاً في مراكش وسوس والمغرب الشرقي والريف ودرعة والأطلس. وكان أحمد بن محرز يتصرف عند دخوله المناطق تصرف السلاطين: "وفي سنة 1090 استولى الأمير أبو العباس مولاي أحمد بن محرز على مدينة تارودانت وكثير من أعمالها، واحتل بها واشتغل بخزن الخرائن وتخليف القبائل...وأذعن لطاعته جميع من بسوس من العباد"(50). ودخل في اتصالات مع أتراك الجزائر: "كتب إلى أهل الجزائر

(49) أوردها الناصري، نقلاً عن "ابتهاج القلوب" (انظر: الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.5، ص. 146).

(50) عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، مصدر مذكور، ص. 167.

وتواطأ معهم على أن ينشروا الخباوات بتلمسان وينهضوا من هناك لبلاد السلطان"[51] ولم يقبل المولى إسماعيل بذلك، واعتبر الأمر خطيراً. ولهذا فضّل الذهاب لمحاربة ابن أخيه وملاحقته على أن يقوم لردع فتنة أهل فاس. "فاستصغر مولانا المنصور قتال أهل فاس بنفسه ونهض إلى أحمد بن محرز بتازة وحاصره بها شهراً"[52]، حيث اشتدت شوكته وتمكن في الملك أي تمكين[53].

لقد سئم المولى إسماعيل من ثورة ابن أخيه التي طالت وانتشرت وأثرت في معنوياته. فقد أورد منامة لوزيره الفقيه أبي العباس اليحمدي رواها أكنسوس على النحو التالي: أن المولى إسماعيل... لما أعياه ابن أخيه المذكور أصبح ذات يوم دهشاً كئيباً. فقال لوزيره... اليحمدي: إني رأيت في هذه الليلة رؤيا أحزنتني إلى الغاية، فقال: وما هي؟ قال: رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد ولم يبق إلا أنا وأنت مختفين في غار مظلم، فسجد الوزير... ثم رفع رأسه، وقال: أبشر يا مولانا! فقد نصرنا الله على هذا الرجل، فقال له السلطان: ومن أين لك هذا؟ فقال له: من قوله تعالى ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فسر السلطان بذلك غاية السرور﴾[54].

ولعل سر نجاح أحمد بن محرز راجع لتجذر حركته في القبائل والجواضر التي كانت تناهض المولى إسماعيل. لقد طالت هذه الثورة وساهمت في إضعاف المخزن وكانت مكلفة جداً للقبائل التي كانت تتحمل ثقل الحركات وتجاوزات الجنود الذين لا يترددون في نهب من كان يساند أحمد بن محرز وقتلهم. وتميزت الحركات بالعنف والشراسة والقتل، مما جعل ابن موسى الريفي يكتب على أثر هزيمة ابن محرز: "وفي آخر سنة خمس وتسعين وألف نهض أمير المؤمنين لسوس الأقصى وزحف لابن أخيه... أحمد بن محرز فالتقى الجمعان في تنكرت فكانت

---

(51) المصدر نفسه.
(52) المصدر نفسه.
(53) المصدر نفسه، ص. 160.
(54) المراكشي، الإعلام...، مصدر مذكور، ج.2، ص. 121.

الهزيمة العظيمة على ابن أخيه حتى كان واديها يجري بالدم"[55]. وفي معركة أخرى، تحدث الريفي عن مراكش التي جعلها المولى إسماعيل بعدما دخلها "للطير والوحوش ولائم"[56].

كانت ثورة أحمد بن محرز - كثورة الناصر - مدمرة للمغرب والمغاربة، هلك فيها خلق كثير وخلخلت الجهاز المخزني وغرست انعدام الثقة بين المغاربة؛ فدعمت الانكماش والانعزال والخوف وشجعت التسيب والتسلط ووضعت القبائل تحت رحمة الآلة العسكرية. فكانت الأزمات السياسية تنطلق من القصر، فيتمرد الأمراء قبل المجتمع. وتسبب ذلك في تشتيت الجهود وصرف السلاطين عن تشييد المغرب المتين القادر على مسايرة التحديات والمشارك في صنع أحداث عصره، وجعلهم يهتمون أساساً بالجيش بصفته أداة ضرورية وقادرة على ردع تمرد الأمراء قبل القبائل، وهمها الأساسي ضبط الأمن والمحافظة على سيادة هيبة المخزن. والظاهر أن هذه السياسة قد أدت إلى عكس ما كانت تطمح إليه. فقد انكسرت شوكة المخزن وهزت المغرب حروب أهلية عنيفة ومدمرة في مطلع القرن السادس عشر، ومطلع القرن السابع عشر، وبعد وفاة المولى إسماعيل.

3 - الفتن والحروب أو الدمار المتكرر

يبدو لقارئ هذه الأزمات وكأن الأحداث تتكرر في المغرب بالوتيرة نفسها وبالعنف بنفسه، وتعم بسببها الفتن وتنتشر في البلاد، فتتبدد المؤسسات وتنهار، ليسود الخراب والفراغ السياسي الذي يدعم الطموحات والمغامرات السياسية ويغذيها؛ فيظهر تاريخ المغرب وكأنه صراع دائم بين الجهاز المخزني بصفته مركزاً والقوى المحلية بصفتها هوامش معارضة. ولن نقف عند كل الأحداث، ولكن سنكتفي بذكر تلك التي كانت مسؤولة عن عرقلة مسيرة المغرب وتحولاته العميقة وحالت دون مسايرته لمحيطه.

---

(55) عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم...، مصدر مذكور، ص. 170.

(56) المصدر نفسه، ص. 162.

تستعمل المصادر المغربية عندما تتعرض لأيام الأزمات مصطلحات خاصة تعبر بها عن تأزم الوضعية خلال هذه المرحلة أو تلك. فقد استعمل الحسن الوزان الذي عاش أزمة مغرب نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر مصطلحات دالة، فتحدث عن الخراب والخربة والتخريب والهدم والدمار كلما تحدث عن الأعراب والبرتغاليين، فقال عند حديثه عن أنفا والمنصورة مشيراً إلى مغادرة السكان لها: "فسارع البرتغاليون إلى أنفا فنهبوها وخربوها تخريباً تاماً، ثم أحرقوا المنازل وهدموا الأسوار وبقيت أنفا مهجورة خربة إلى الآن"(57). فبقدر ما كان البرتغاليون يبادرون ويهاجمون ويتعسفون، كان المغاربة يكتفون باتخاذ المواقف السلبية التي كانت تتجسد في الانتظار أو في الفرار: "ولما رأى السكان الأسطول قادماً، أخذوا أنفس ما يملكون من متاع واجتمعوا كلهم وفروا إلى الرباط وسلا تاركين مدينتهم خالية"(58). ونجد في المصادر التي عالجت أزمة مطلع القرن السابع عشر مصطلحات من هذا القبيل: كالكرب والفتن المذلة الهوان والغرق. فقد اهتز المغرب بسبب هذه الأزمة، مما جعل ابن أبي محلي يقول: "حتى اسود وجه المبيض من شدة اليأس وكثرة البؤس في يوم عصيب قمطرير يشيب الرؤوس"(59). ونجد مصطلحات بالمعنى نفسه مستعملة في المصادر التي تناولت أزمة العبيد (1727 ـ 1757). فقد تحدث الضعيف في مناسبات كثيرة من كتابه عن الشدائد العظام، وعن الفتن والضيقة(60). واستعمل بعض السلاطين في كلامهم عن الأزمة مصطلح "المحنة". فقد ناقش المولى عبد الحفيظ مواقف اليوسي من المولى إسماعيل، فأشار: "قلت: ولا أدري هذه المحن التي أصابت هذا الأمير ولا هذا الاضمحلال السيء الذي ءال إليه المغرب إلا في صحيفة اليوسي عفا الله عنه"(61). فمن خلال المصادر والمراسلات نلاحظ هيمنة مصطلح "الخراب" و"الفتن". فما هي الدلالات المحيطة به؟

---

(57) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج.1، ص. 156.

(58) المصدر نفسه.

(59) ابن أبي محلي، الإصليت الخريت، مخ.، خ. ح.، رقم 100، ص. 18.

(60) الضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 124.

(61) المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم...، مصدر مذكور، ص. 237.

"خرب" تعني - حسب ابن منظور - هدم؛ والخراب ضد العمران[62].

وجاء في الحديث عن اقتراب الساعة إخراب العامر فمضمون الكلمة يجعل القارئ ينتقل من الهدم المحسوس والمادي الصرف إلى الدمار والخراب الداخلي، أي المعنوي، وهو الأصعب، لأنه ينذر المومن بيوم القيامة أو بالنهاية المطلقة. فالخراب يكون في هذا المنطلق إرادة إلهية جاءت لتحدّ من سلوك الإنسان الطائش والمتهور. فالفتنة أشد من الكفر والحرب وما يترتب عليها من نهب، وسبي وطغيان وفساد تكون إعلاناً لخراب الفرد والجماعة وإيذاناً بمنعطف وتحول جديد. فأزمة مطلع القرن السادس عشر أدت إلى نهاية الوطاسيين ووصول الأشراف السعديين الذين سعد الناس بمجيئهم، وأزمة مطلع القرن السابع عشر فتحت الباب لوصول بني عمومتهم العلويين إلى السلطة كما ألح على ذلك الزياني: "قلت: ولقد سمعت من مولانا أمير المسلمين ــ سيدي محمد بن عبد الله ــ، لما جرى ذكرهم (يعني السعديين) وذكرت له الخلاف الذي وقع في نسبهم، قال لي: اسكت ولا تعد لمثل هذه المقالة، فإنهم إخواننا وبنو عمنا وجدُّنا واحدٌ وقريتُنا واحدةٌ يقال لها بنو إبراهيم"[63]. وأما أزمة العبيد، فقد دفعت بمحمد بن عبد الله إلى الالتفات إلى الخارج ليربط المغرب به أكثر.

- أزمة نهاية القرن XV ومطلع القرن XVI

لقد ساهمت أزمة نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر في عرقلة إقلاع المغرب ومسايرته لمحيطه وعصره، لأنها نخرت مؤهلاته وقدراته وطاقاته وجعلته عاجزاً عن مواكبة سير الفاعلين الدوليين. وتزامن هذا التوقف في المغرب مع تجاوز أوربا لحدودها المغلقة لتكتسح العوالم الأخرى. وكانت سنة 1492 سنة الحسم والمنعطف: إذ استردت إسبانيا خلالها آخر إمارة إسلامية في الأندلس، غرناطة. ووصلت سفن كريستوف كلومب إلى العالم الجديد كما أكد الرحالة

---

(62) ابن منظور، لسان العرب، مادة "خرب".

(63) الزياني، البستان الظريف...، مصدر مذكور، ص. 31.

نفسه ذلك في رسالة بعث بها إلى إيزبيلا وفرناند: "أصحاب الجلالة! لقد استطعتم خلال هذه السنة أن تدخلوا غرناطة وتطردوا اليهود من مملكتكم. وبعدما تحقق لكم ذلك، كلفتموني بالخروج في أسطول من إسبانيا من أجل التوجه إلى الهند غرباً لا شرقاً كما جرت العادة"(64). واقترح المؤرخون البرتغاليون اعتماد سنة 1492 منطلقاً لعصر أوربا الحديث بدل 1453، وبرروا ذلك بقولهم إنه من الأفضل أن تبدأ قارتنا عصرها الحديث بانتصار على المسلمين في غرناطة عوض أن تبدأه بانهزامها أمام الأتراك في القسطنطينية.

ففي هذه الفترة التي عرفت امتداد أوربا واتساعها واكتساحها للعالم، كان المغرب يعيش أزمة خانقة وحادة فرضت عليه الانكماش والانعزال والانزواء وتسببت في خلخلة هياكله وبناه الأساسية وزعزعتها وضربت في العمق ذهنية سكانه. فتراجعت السلطة المركزية وفشل الوطاسيون في صيانة وحدة البلاد وظهرت كيانات سياسية وعسكرية جهوية مستقلة أو متصارعة، بعضها كان بمبادرة من أسر أندلسية كإمارة شفشاون بقيادة علي بن راشد، أو إمارة المنظري بتطوان، بالإضافة طبعاً إلى إمارة دبدو آخر معقل مريني ومملكة مراكش ومملكة فاس زيادة على الاحتلال البرتغالي والإسباني للثغور المغربية وما ترتب على ذلك من تجاوزات.

لقد أعطى الوزان تفاصيل عن أسباب هذا الدمار السياسي، فأرجعه إلى انعدام المشروعية للوطاسيين وإثقال هؤلاء كاهل المغاربة بالإتاوات والضرائب. وبالرغم من كل هذا، فإن مداخيل بيت المال الوطاسي ظلت ضعيفة: "إن لملك فاس مملكة كبيرة، ولكن ليس له سوى دخل صغير، لا يكاد يبلغ ثلاثمائة ألف مثقال، لا يصل إلى يده حتى خمس هذا المبلغ... وفضلاً عن ذلك، فإن نصف هذا الدخل يتكون من حب وماشية وزيت وسمن. وتجبى هذه الضرائب على وجوه شتى"(65). وألح الوزان في مناسبات كثيرة من كتابه على دور الأعراب في نشر

(64) C. Colomb, *La découverte de l'Amérique*, Vol. 1, pp. 31-32.

(65) الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج.1، ص. 222.

الفوضى وانعدام الأمن سواء في السهول أو في الجبال، وبين كيف كان هؤلاء يفرضون الخراج والإتاوات على السكان مقابل حمايتهم لهم. وساهموا بذلك في إفراغ البوادي المغربية وأرغموا الناس على مغادرتها، وقد حصل ذلك بالحوز وبأمزميز المنطقة التي كانت تنتج قمحاً جيداً لم ير الوزان أحسن منه: "لكن الأعراب يثقلون كاهل هذه المدينة بالإتاوات، وكذلك يفعل بها أمير مراكش، حتى إن معظم البادية غدا غير مأهول، وأخذ السكان أيضاً يغادرون المدينة. وقد فقدوا أموالهم، ولو أنهم يملكون كثيرا من الأراضي والحبوب"[66]. وبسبب تصرفات الأعراب القاسية والمدمرة لطاقات المغرب، كان الناس يتوددون لهم ويقدمون لهم الهدايا. وقد ساهمت تصرفاتهم بقدر كبير في نشر الرعب داخل البادية وإيقاف الإنتاج الفلاحي في مناطق كثيرة من البلاد، وازدادت وطأة الشدة على المغاربة، وانعدم الأمن بسبب الغارات التي كان يقوم بها البرتغاليون انطلاقاً من الثغور التي كانت خاضعة لهم. وقد أحصى أحمد بوشرب 39 عملية عسكرية برتغالية فيما بين سنتي 1510 و 1520. وقد همت هذه الهجومات العنيفة والمكلفة كل المناطق المجاورة للثغور المحتلة: الهبط وتامسنا ودكالة وعبدة والشياظمة وسوس، بل تجاوزتها فتوغلت إلى الداخل، إلى الحوز[67]. وتميزت هذه الحملات العسكرية بالوحشية والنهب وإتلاف المزروعات. ومما كان يزيد من شدتها تحالف الأعراب وبعض القبائل الموالية للبرتغال والأمثلة كثيرة نذكر على سبيل المثال ما حصل في مدينة اثماي: "عندما انضم عدد عديد من الأعراب إلى ثلاثمائة فارس برتغالي وقاموا على حين غفلة بغارة حتى وصلوا إلى أبواب المدينة... وكان ذلك عام 920 هـ"[68]. وألحق البرتغاليون، بتعاون وتحالف مع يحيى أو تعفوفت والأعراب، هزيمة قاسية بالملك الوطاسي في بولعوان سنة 920 هـ[69]. لقد تسببت هذه التجاوزات في

---

(66) المصدر نفسه، ص. 99.

(67) أحمد بوشرب، دكالة...، مرجع مذكور، ص ص. 224 - 227.

(68) الوزان، وصف إفريقيا، مصدر مذكور، ج.1، ص ص. 108 - 109.

(69) المصدر نفسه، ص ص. 122 - 123.

إلحاق أضرار جسيمة بالقبائل، فعم الخوف والهلع وانتشرت الفوضى والفتن وخلت البادية وقل الخلق وتقلصت المساحات المزروعة وقل الإنتاج وغلت الأسعار؛ فانتشرت المجاعات والأوبئة ومات خلق كثير؛ فضعفت الساكنة المغربية[70]. ولاشك في أن هذا الدمار كان من أقوى العوامل التي حالت دون إقلاع المغرب، وجعلته عاجزاً عن مسايرة عصره وملاحقة أوربا التي كانت تعيش نهضتها والتي تميزت بالانفتاح لا بالانكماش وبالتوسع والمغامرة، وكانت تؤمن بقوة الفرد وكفاءاته وطاقاته الهائلة؛ مما جعل رواد عصر النهضة يجعلون هذا الإنسان مركز الكون القادر على أن يكون ما يريد كما يريد، على عكس الإنسان المغربي الذي أصابه من شدة الأزمة الذعر والخوف والهلع، وسلطت عليه كل الويلات فلم يجد تفسيراً لها إلا برجوعه إلى العالم الغيبي وإلى الاعتقاد في الخوارق والمعجزات التي لم تعد من ممكنات الإنسان المغربي العادي؛ بل أصبحت من كرامات الولي الصالح والقطب الجامع القادر على تجاوز العراقيل الطبيعية والسياسية ليملأ الفراغ السائد، وليلم الشمل، ويصون الأرض والمقدسات، ويدعم التكافل والتعاضد، لينقذ البلاد والعباد. والنموذج على ذلك محمد بن مبارك، مدعم الأشراف السعديين:

> ومنهم الشيخ... أبو عبد الله محمد بن مبارك... كان... أعجوبة من عجائب الدهر... وكان إذا هاجت فتن القبائل يبعث لهم بالكف عن القتال. فمن تعدى أمره، عجلت عقوبته... وهو الذي أمر قبائل سوس بالانقياد إلى السلطانين الشريفين أبي العباس أحمد وأخيه أبي عبد الله محمد الشيخ، وأمرهما بالعدل والجهاد[71].

- الحروب الأهلية في مطلع القرن السابع عشر ودمار المغرب

عرف المغرب في نهاية القرن السادس عشر أزمة خانقة ازدادت حدتها بعد وفاة أحمد المنصور؛ فلم تبق النزاعات السياسية منحصرة في القصر، بل نقلها أولاد

---

(70) لقد اشتدت الأزمة حتى صار الأب يتخلى عن ابنه والزوج عن زوجته للبرتغاليين حتى يضمن له أو لها أن تعيش.(انظر:

.(Bernardo Rodriguez, *Anais de Arzila*, Chap. LXXV. p. 327.)

(71) ابن عسكر، دوحة الناشر...، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص ص. 113 - 114.

هذا السلطان إلى المتمع، فاجتاحت الحروب جميع أطراف المغرب، وكانت حروباً هيلة مدمرة. وقد ازدادت شدة وطأتها بسبب طول المدة التي فسحت المجال لكل الحملات والطموحات والمغامرات، فقويت النزعات المحلية وضعفت أو انهارت المؤسسات المركزية، فتعددت مراكز القرار بالبلاد، بل وقع التشتت داخل القبيلة الواحدة ومس الحواضر وأحياءها. فوقعت التجاوزات، وأهينت الكرامات، فعم الهرج وكثرت الفتن، وانتشر الخوف بين الناس. وقد عبر شاهد عيان عن هذه الحالة المزرية بقوله: "هذه مصيبة عظيمة نزلت بغربنا فافترق ملاؤهم وقتلت سراواتهم وانتهبت أموالهم وهتكت حرماتهم ومزقت أعراضهم وفسدت أديانهم واختلت وبعدت عن التوفيق آراؤهم وكادت تطمع، بل طمعت، فيهم أعداؤهم"[72]. فصار المغاربة أحزاباً وشيعاً، وضربت الأزمة القواعد والهياكل التي كان يقوم عليها المغرب، وزعزعت ذهنية المغاربة الذين أصبحوا متشبثين بالغيب وينتظرون المنقذ، وفتحت أبواب المغالطات، وهدمت ما بناه المنصور، فانكمشت الأقاليم وانعزلت وساهمت في تراجع المغرب عن مسايرة عصره.

تميزت الفترة التي تلت وفاة أحمد المنصور، إلى غاية وصول العلويين إلى الحكم، بكثافة الأحداث وسرعتها. ولهذا يصعب على الباحث حصرها أو التطرق إلى تفاصيلها[73]. ويبقى المهم ـ في نظرنا ـ هو الوقوف عند ذكر تلك التي لها علاقة بتأزم الأوضاع بالمغرب ومنعه من الانطلاق ومسايرة عصره على غرار ما حصل في الضفة الشمالية للبحر المتوسط. ويمكن تقسيم هذه الفترة إلى مراحل:

مرحلة نزاعات أولاد المنصور، زيدان وأبي فارس والمامون. دارت عدة عمليات عسكرية بين الإخوة انتهت بوفاة أبي فارس سنة 1018 هـ، وباستقرار المامون بمراكش، وزيدان بفاس مؤقتاً قبل أن يعود الصراع من جديد؛ مما جعل الناس

---

(72) الإفراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص. 227.

(73) عبد اللطيف الشادلي، الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17، الدار البيضاء، 1982، ص ص. 47 ـ 62. لو استعمل الحاسوب في قراءة هذه الأحداث والأعلام البشرية لهذه الأزمة لكانت النتيجة مفيدة.

يقتنعون بعدم صلاحية أولاد المنصور لممارسة الحكم. وقد عبر ابن أبي محلي عن سخط الناس عن الأمراء السعديين وبداية إعراضهم عنهم، وحملهم مسؤولية ما حصل بالمغرب من بلايا[74].

وانتقد ابن أبي محلي مواقف الأمراء والعلماء والأولياء، فلاحظ نوم العالم وعدم اهتمامه بمعاناة المسلمين، وبين عدم قيام الولي بواجبه، وانشغال السلطان باللهو والمجون[75].

ولقد اتضحت معالم أزمة مطلع القرن السابع عشر، وبرز الفاعلون فيها. ويتعلق الأمر بالأمراء السعديين ـ كما قلنا ـ وبالزوايا، وبأمراء الجهاد، وبفتن الحواضر. فخلال الفترة الأولى كان الصراع بين أولاد المنصور أو من أجلهم. ولعلنا بالوقوف عند ما كتبه الإفراني عن صراع الإخوة في صفحتين من كتابه، نستطيع استخراج الملاحظات التالية[76]: لقد استعمل 42 كلمة للتعبير عن أحداث ارتبطت بعائلة المنصور، وكان الأمراء مسؤولين فيها أو مصدراً لها؛ فالجمل تنطلق وتعود إليهم. وازداد عدد الكلمات عندما أدمج الإفراني، في المخزن، الأعيان والقواد وكل من كانت له مسؤولية في الجهاز. وقد تغيرت صيغ الجمل في كلامه عندما بدأ يقدم أحداث الفترة الثانية، تلك التي تتعلق بقيام قوى أخرى ضد الأمراء.

ولقد طرحت عدة أسئلة حول شخصية ابن أبي محلي الذي تزعم الثورة ضد زيدان : فهل كانت حركته مجرد مغامرة واندفاع لهذا الفقيه الثائر؟ أو أنها كانت تعبر في عمقها عن سخط وانزعاج طائفة من علماء المغرب الذين تذمروا مما أصاب المغرب وأرادوا تصحيح الاعوجاج وطالبوا برد الناس عن زيغهم باعتماد الشريعة في العبادات والمعاملات؟ فإذا أصبح المغاربة يعيشون الفتنة والذل، فلأنهم تخلوا عن الإسلام الصحيح، وتجاوزوا حدود الله، وأن خلاصهم لن يتحقق إلا بوجود إمام منقذ. ولجأ ابن أبي محلي إلى تدعيم حركته، من الناحية الشرعية، عن

---

(74) ابن أبي محلي، مهراس...، مصدر مذكور، ص. 7.

(75) ابن أبي محلي، الإصليت...، مصدر مذكور، ص. 17.

(76) الوفراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص ص. 191 ـ 192.

طريق الأخذ والمناداة بالمهدوية وبالخلافة: "لأن الخلافة ـ في رأيه ـ معقودة له (بقصد المهدي)... ليتصرف في الملك والملكوت"[77]. ولتبليغ دعوته، نهج خطة ارتكزت على المراسلة والأتباع، مما جعل أبا مهدي عيسى بن عبد الرحمن السجتاني يقول عنه إنه "ملأ الدنيا صياحا ودعاوي وعياطاً وأكاذيب مما لم يشهد به عقل ولا نقل"[78]. ويظهر أن ابن أبي محلي كان طوباوي النزعة. وقد لاحظ تاجر هولندي هذه النزعة عندما استقبله بمحلته بالقرب من آسفي بعدما دخل مراكش، وكتب هذا التاجر يقول: "استطاع (ابن أبي محلي) أن يحقق الكثير بفضل الخطب والمعجزات التي كان يعد الناس بها... فالأغلبية التزمت الصمت والإنصات والانتظار، لأنها تعودت هذا الموقف منذ القديم. وأما الأقلية، فإنها بدأت تغير موقفها منها مع مرور الوقت. ولهذا، فإني لا أعلم ما سيحدث"[79]. وألح التجار في كلامهم عن هذا الثائر على قضايا الجهاد وإرادته الأكيدة على استعادة الأندلس. والملاحظ أن تجربته لم تستمر طويلاً؛ وكانت سبباً في لجوء الأمير زيدان إلى طلب العون من الحاحي الذي استطاع أن يقضي على حياة هذا الثائر؛ إلا أن أفكاره استمرت وربما كانت تجربته منطلقاً لحركة العلويين من تافلالت. على عكس ابن أبي محلي المندفع والمتسرع في أخذ المواقف. فقد نهجت الزاوية الدلائية طريق الحذر والاحتياط. ورأى جاك بيرك في هذا السلوك بعداً وطنياً ضائعاً، لأن الزاوية كانت، في رأي هذا المفكر، مؤهلة لبناء دولة وطنية ترابية[80]. وكادت أن تحقق ذلك، لولا وصول المولى رشيد إلى الحكم. وألح محمد حجي على ثقل المؤسسة الدلائية الاجتماعي والديني والثقافي، لأنها كانت مأوى الضعفاء والمساكين ومركزا ثقافياً تجاوز إشعاعه المغرب[81]. وامتد نفوذ الزاوية إلى تادلة

---

(77) ابن أبي محلي، الإصليت...، مصدر مذكور، ص. 53.

(78) الإفراني، نزهة...، مصدر مذكور، ص. 226؛ عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر...، مصدر مذكور، ص ص. 61 ـ 68.

(79) *S. I. H. M.*, 1ère Série, *Pays-bas*, T. II, p. 119.

(80) J. Berque, *Ulémas*, p, 25 et 81.

(81) محمد حجي، الزاوية الدلائية، مرجع مذكور، الباب السابع، ص 235 وما بعدها.

والغرب فأصبحت مؤهلة لتوحيد البلاد ،لأنها صارت تتوفر على قاعدة مادية هائلة (تادلة) وتراقب الطريق الصحراوي، وكانت صلة وصل بين الجبال والسهول، وفتحت باباً لها على المحيط عندما استولت على سلا[82]. فلماذا لم يحاول الدلائيون تجاوز تادلا؟ هل يرجع ذلك إلى انعدام الطموح السياسي لديهم؟ قد يفهم ذلك من الرسالة التي بعث بها محمد بن أبي بكر الدلائي إلى أبي حسون. فيظهر من خلال هذه الرسالة على حد تعبير محمد حجي: "انصرافه المطلق عن الملك وعزوفه عن الجاه والسلطان"[83]. وفعلاً، يتأكد من هذه المراسلة ما ذهب إليه محمد حجي حينما قال الشيخ الدلائي بصريح العبارة مخاطباً أبا حسون: "ولضعف ملك المغرب نحو ثلاثين عاماً، ما المانع لنا لو كانت لنا فيها شهوة أو رغبة؟"[84]. ثم استمر في الكلام إلى أن صارح أبا حسون، طالباً منه أن يفصح عما يريد: "إن كانت لكم رغبة في الملك - ولابد - وعلمت من نفسك القدرة على وظيفتها... فتقدم. إن لم نعنك، لم نمنعك"[85]. إلا أن بيرك وغيره من الأوربيين[86] قد اعتمدوا على هذه الرسالة للحكم على الدلائيين بعدم طموحهم السياسي، مع العلم أن محمد الحاج قد أظهر رغبته الأكيدة في السلطة، والسيطرة على البلاد؛ لكن طموحاته هذه أوقفها منافسوه، خصوصاً العلويون. فقد استولى المولى رشيد على الزاوية سنة 1668 وأخذ كل ما كانت تملك "وأمرهم (الدلائيين) بالرحيل... ثم أعمل المعاول والفؤوس في مباني المدينة، وهدم ما استطاع أن يهدمه منها وتركها خرابا موحشة"[87]. وهكذا كانت نهايتهم نهاية قاسية تعرضت لدمار مركب: الدمار المادي الذي بقي أهون من الدمار النفسي: الاغتراب والنفي.

عرفت سوس، مهد الدولة السعدية، عدة محاولات للاستقلال عن

---

(82) J. Brignon et autres, *Histoire du Maroc, op. cit.*, p. 225.

(83) محمد حجي، الزاوية...، مرجع مذكور، ص. 141.

(84) المرجع نفسه.

(85) المرجع نفسه.

(86) J. Berque, *Ulémas..., op. cit.*, p. 81.

(87) محمد حجي، الزاوية الدلائية، مرجع مذكور، ص. 231.

مراكش. ولعل أهم هذه الحركات تبقى تلك التي تزعمها أبو زكريا الحاحي وأبو حسون السملالي. لقد عرف الولي بالعلم والصلاح، درس بفاس وسكن بإحدى مدارسها مدة طويلة في بيت واحد مع ابن أبي محلي وتولى أمور زاوية عائلته التي توجد بزداغة شمال تارودانت سنة 1603. وكانت الزاوية تعرف إقبالاً كبيراً جاءها الناس من مناطق كثيرة. وقد اشتهر أبو زكريا بدعمه للأمير السعدي زيدان في حروبه ضد ابن أبي محلي. واستطاع أن يقضي على ثورة ابن أبي محلي، لكن أطماعه في الحكم جعلته يمارس ضغوطاً كثيرة على الأمير زيدان الذي كان يتقبل منه ذلك كما توضح المراسلات التي تمت بين الرجلين. وانتهى الحاحي بالقيام على زيدان، مدعياً أنه يريد إصلاح الدين وحماية المسلمين. ويقول المختار السوسي: "كان يحيا الحاحي... يبكي على الدين وعلى ما وقع في الشعب من نشوب أظفار المضللين فيه"[88]. غير أن حركته لم تتجاوز كثيراً تارودانت بسبب منافسة من سماهم السوسي "بدويلة أولاد الشيخ سيدي أحمد بن موسى"[89].

أبو الحسن علي أبو حسون، المعروف بعدة ألقاب: ولي سوس، ولي ماسة، أمير سوس، شيخ إليغ أو صاحب الساحل لم يكن متضلعاً من العلم. أعلن دعوته سنة 1613 بسوس وأسس إليغ واتخذها عاصمة لحركته، واتخذ شارات الملك، وكان واضح الطموحات السياسية على عكس منافسيه. وربط علاقات تجارية مع السودان، وعمل على تنشيط مينائي أكادير وماسة، وشجع التعامل التجاري مع الأوربيين، خصوصاً مع التجار الإنجليز الذين عملوا كل ما في وسعهم لتبيان أهمية سوس والتعامل مع أميرها، لأن في ذلك مصلحة أنجلترا الاقتصادية كما يتضح من خلال ما كتبه أحد هؤلاء التجار سنة 1637.

تبقى مملكة سوس أهم منطقة لتجارتنا. وتخضع هذه المملكة للولي سيدي علي بن موسى الذي يتوفر على الجاه والسلطة وله قوة تضاهي قوة أمير مراكش، وقد خرج عن طاعة هذا الأخير منذ سنين عديدة. ويعتبر هذا الولي من اكبر أصدقاء بلدنا، فقد أفرج عن عدد هائل من الأسرى وبعث بهم إلى أنجلترا، عكس ما كان يقوم به

---

(88) المختار السوسي، سوس العالمة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ، 1984، ص ص. 77 - 78.

(89) المرجع نفسه، ص. 159.

حكام مراكش وسلا وباقي مناطق المغرب. لقد ازدهرت تجارتنا في هذه المملكة وصار تجارنا يبيعون ست مرات في سوس ما كانوا يبيعونه في باقي بلاد البربر[90].

وأشار التجار إلى الرسوم الجمركية التي كانوا يؤدونها لمملكة سوس وحدودها في 10% داخل ميناء ماسة، وفي 7% إذا باعوا البضائع داخل سفنهم[91].

وتراجع نفوذ أبي حسون بسبب الصراعات التي خاضها ضد العلويين والدلائيين خصوصاً ضد محمد الحاج والمولى رشيد، ووقعت حروب كثيرة بينهم انتهت بتزايد سلطة الشريف وتراجع وانكماش إمارة أبي حسون الذي توفي سنة 1659 وخلفه ابنه محمد الذي بقي في إليغ إلى أن هدمها الرشيد وشتت أهلها سنة 1670[92].

عرف المجاهد العياشي شهرة جعلته "يملك السمع والبصر عن عصره ومصره"[93]. ومع ذلك، فقد صدرت في حقه أحكام متناقضة: فهو المجاهد الصادق عند البعض، وهو الرجل الطموح الذي كان يجري وراء تحقيق مكاسب سياسية في وقت كان المغرب يمر فيه من مرحلة عصيبة :إذ انهارت القيم، وصارت البلاد عرضة لتطاول الأجنبي عليها. ولاحظ محمد حجي أن من التناقضات المحيرة في حياة هذا المجاهد "تمرد قبائل الغرب وهم أهل عصبيته، وعصيان الأندلسيين في الرباط والقصبة... وهم جيرانه وأنصاره، ومهاجمة الدلائيين له بعد أن اتخذوا من الدعاء له بالنصر والتأييد... واغتياله في النهاية على يد عشيرته الأقربين"[94]. لقد تخلى عنه الجميع في النهاية، تراجع عنه المورسكيون، لأنهم لم يجدوا فيه ما أرادوا: "فهو من صلب الشخصية المغربية؛ وأما هم، فبالرغم من إسلامهم ظلوا في المغرب

---

(90) *S. I. H. M.*, 1ère Série, ***Angleterre***, T.III, p. 359.

(91) *S. I. H. M.*, 1ère Série, ***Angleterre***, T.III, pp. 236-237.

(92) المختار السوسي، **سوس العالمة**، مرجع مذكور، ص. 159؛ ومحمد حجي، **الزاوية الدلائية**، مرجع مذكور، ص. 143؛ والشاذلي، **الحركة العياشية**، مصدر مذكور، ص ص. 91 - 100.

(93) محمد حجي، **جولات تاريخية**، مرجع مذكور، ج.2، ص. 619.

(94) المصدر نفسه، ص. 620.

أجانب"[95]. واعترضت العياشي، من جهة أخرى، مشاكل وتجاوزات القبائل السائبة والمتمردة، ولا سيما أن إمكاناته ظلت محدودة. لقد ناوش المسيحيين دون أن يصيبهم بأضرار جسيمة أو أن يتمكن من إخراجهم من الثغور التي كانوا يحتلونها. ودخل في صراعات ضد الدلائيين وحارب طموحات المورسكيين السياسية في تطوان وسلا و الرباط، حيث أسس هؤلاء جمهوريات وسعوا إلى الابتعاد عن القوى المنافسة لهم أو المتحكمة فيهم، واستغلوا مداخيل سفنهم من عملية القرصنة التي كانت تدر عليهم أرباحا طائلة بمباغتتها للأساطيل المسيحية في أعالي البحار؛ مما جعلهم محط اهتمام القوى المنافسة لهم التي تدخلت ضدهم من أجل السيطرة على مداخيل القرصنة.

وفي خضم هذه الحروب وهذه التطاحنات التي كانت تهز المغرب ما يزيد على نصف قرن، برزت قوة الأشراف العلويين الذين عرفوا كيف يوظفون نسبهم ويستغلون الفرص، لينفردوا بالسلطة ويعملوا على توحيد البلاد بعدما دمرت هياكلها الاقتصادية والاجتماعية. فأين كانت تكمن سمات هذا الدمار والخراب؟

لقد أدت الحروب والفتن التي عاشها المغرب خلال النصف الأول من القرن السابع عشر إلى هلاك البلاد. فمات بسببها خلق كثير. لا نتوفر على أرقام مضبوطة، لكن المراجع والمصادر تشير هنا وهناك إلى بعض الأعداد. وهكذا يذكر الناصري موت 5500 من أصحاب عبد الله بن المامون بمراكش في أواخر سنة 1015 هـ. وفي حرب أخرى استطاع عبد الله أن ينتقم لنفسه ويقتل 9000 من أنصار زيدان سنة 1016 هـ[96]. وإلى جانب الحروب والفوضى، كان الناس يموتون بكثرة بسبب الوباء، وكتب القادري عن الظاهرة:

فبسبب النهب، زاد الغلاء... وأكلت فيه الجيف وأكل فيه الآدمي بوسط الصفارين ميتاً، وكثر الموت بالأزقة دون ما في المارستان. قيل: دفن في المارستان أربعة وثمانون ألفاً دون من دفن من غيره... وخلت حومات من فاس[97].

---

(95) J. Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, *op. cit.*, p. 223.

(96) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.6، ص ص. 8، 9، 30، 55.

(97) القادري، نشر المثاني، مصدر مذكور، ج.2، ص. 67 و 134.

ويبدو أن الرقم مبالغ فيه؛ إلا أنه يعطي فكرة عن الفاجعة.

وكانت تجاوزات الجيوش وتصرفات السلاطين والقواد قاسية على السكان ومنهكة للقواعد الاقتصادية المغربية. والأمثلة لا تحصى في هذا الباب. فلما دخل زيدان منتصراً على ابن أخيه في مراكش، "أمر... بقتل كل من تخلف... فأتى للقتل على جميع من وجد بمراكش من جيش أهل فاس"[98]. وكذلك تعرضت البادية لنهب الجيوش الذين كانوا لا يترددون في القيام بذلك: "ولم يزل أصحابه (عبد الله) ينهبون ما يمرون عليه من أهل الخيام وأهل العمود ويسبون البنات، وكان وصولهم إلى فاس في 24 شوال 1016 هـ"[99]. .

واستطاعت المراجع والمصادر أن تنقل إلى القارئ جو المحن والفتن التي كانت تتميز بها هذه الفترة. فالكلمات المستعملة تدور كلها في الحقل الدلالي للخراب والهدم. فلو رجعنا إلى صفحة واحدة من كتاب "الاستقصا..." الذي تناول فيها هذه الصراعات لوجدنا الكلمات التي تتكرر والتي يدور حولها الكلام هي: القتل والانحراف والفتن والشر والنهب والقيام والاستيلاء والغلبة والخراب. والأحداث المروية في هذه الصفحة تتعلق بجهات مختلفة من المغرب، كمكناسة وتطوان. ولخص الناصري هذا الجو المدمر عند كلامه عمّا أصاب فاس من جراء هذه التطاحنات عندما قال:

> وكانت فاس - أيام هؤلاء - على فرق وشيع لا يأمن التاجر على نفسه إلا إذا استجار بأحد من هؤلاء ووقع من الفتن ما أظلم به جو فاس ونتن أفقها... وخلا أكثر المدينة واستولى عليها الخراب ودام الشر بين أهل العدوتين حتى كادت فاس تضمحل ويعفو رسمها[100].

لقد كانت هذه الحروب وبالاً على المغرب، لأنها أنهكت كل طاقاته

(98) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.6، ص. 8.

(99) الإفراني، نزهة الحادي...، مصدر مذكور، ص. 195؛ انظر كذلك الناصري الاستقصا...، مصدر مذكور، ج.6، ص. 13. لما وصل جيش زيدان فاس ووجد زروعاً بظهر الزاوية لأصحاب الشيخ، "أرسل جيشه فانتسفوها".

(100) المصدر نفسه، ص. 58.

وتسببت في تفتيت جهاز الدولة ومحو الأطر المغربية. فقد هلك عدد كبير من الشخصيات العسكرية والعلمية التي كانت مسؤولة عن تدبير هياكل الدولة السياسية والثقافية والاجتماعية وتسييرها. فمن الأطر العسكرية التي قتلت جودر باشا على يد عبد الله بن المامون، ووزيري ابن عبد الله القائد أحمد بن عميرة وحمو بن عمرو[101] ومصطفى باشا قائد زيدان[102]، وقتل من العلماء ابن أبي محلي وقاضي الجماعة أحمد بن علي السلاسي[103]. وغاب عن الساحة ، مهاجراً أو مختفياً، عبد العزيز الفشتالي وزير قلم أحمد المنصور، وأحمد بن محمد المقري. والأمثلة كثيرة، لأن المراجع والمصادر تتحدث عن هذه الأعلام البشرية التي فقدها المغرب أيام هذه المحن. وكان لغيابها بالتأكيد الأثر الكبير على البلاد.

ولقد أصاب الدمار بسبب الحروب والوباء معاصرَ السكر التي كانت تشكل مفخرة السعديين، وانتبه التجار الإنجليز للأخطار التي كانت تهدد هذه المنشآت الاقتصادية. ففي سنة 1598، أشار تقرير إنجليزي إلى الوباء وإلى فرار العمال والمعلمين من هذه المعاصر خوفاً من المرض. وأدى هذا الفرار إلى تقلص الإنتاج فيها. وأشارت رسالة مؤرخة في سنة 1603 إلى أن المعاصر التي كانت قاعدة اقتصاد المنصور قد هدمت ما عدا معصرة أزرو[104]. وقد تتبع بيرتي هذه التقارير الإنجليزية ليوضح أن معاصر السكر التي كانت أساس المعاملات التجارية بين المغرب وأوربا عموماً وأنجلترا على الخصوص إلى حدود نهاية القرن السادس عشر قد أصبحت في حدود 1604 شبه منسية ولا تتحدث عنها الوثائق إلاّ بشكل ضبابي[105].

لقد عاش المغرب منذ وفاة أحمد المنصور إلى وصول المولى رشيد (1603 — 1668) فوضى عارمة. كانت المرحلة عصيبة، إذ جعلت جاك بيرك يتساءل بطريقته

(101) المصدر نفسه ، ص. 56.
(102) المصدر نفسه، ص. 16.
(103) القادري، نشر المثاني...، مصدر مذكور، ج .2، ص. 74.
(104) *S. I. H. M.*, 1ère Série, *Angleterre*, T. II, p. 126.
(105) Paul Berthier, *Les anciennes sucreries du Maroc*, T. I, pp. 270-278.

المعهودة المثيرة للجدل: هل كانت مرحلة فوضى أو مرحلة ابتكار؟ واعتبرها فترة خلاّقة، لأنها فسحت المجال للمكبُوت والمهمَّش ليفصح عن نفسه ويفرض وجوده على حساب المركز. فالعبارات التي استعملها بيرك عبارات جميلة الصنع والوقع من الناحية الجمالية، لكن التصدع والتشتت والدمار وكل الويلات التي عاشها المغاربة لا تسمح بقبول ما ذهب إليه هذا المفكر. لقد عانى المغرب من التمزق، وأصاب المغاربة الخوف، وأصبحوا يتطلعون إلى تجاوز الأزمة. واستطاع المولى امحمد وأخوه المولى رشيد استغلال الظروف من أجل الانفراد بالسلطة على حساب منافسيهم. وعمل العلويون كل ما في جهدهم لإعادة الوحدة إلى البلاد، وقضى المولى إسماعيل معظم وقته متنقلا لجمع الشتات؛ لكن ما أن هدأت الأمور نسبيّاً في أيامه حتى عادت بعد وفاته لتنفجر الأزمة من جديد، وليهتز لها المغرب، ولتهدم الهياكل التي أعاد ترميمها هذا السلطان. وعلى عكس أزمة مطلع القرن السابع عشر ـ التي عرفت صراعات داخل القصر وخارجه، وأدت مثل أزمة مطلع القرن السادس عشر إلى تغيير الحكم من سلالة الوطاسيين إلى السعديين، ومن هؤلاء إلى العلويين ـ، فإن أزمة الثلاثين سنة (1727 ـ 1757)، التي هي أزمة العبيد، قد بقيت منحصرة في السلالة العلوية. فما أهم مميزات أزمة عبيد البخاري؟ وما الدمار الذي أصاب المغرب بسببها؟

ـ أزمة عبيد البخاري (1727 - 1757)

يعتبر عصر المولى إسماعيل عهد توطيد وتوحيد بالمقارنة مع وضعية المغرب خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. وهذا لا يعني أن زمن حكمه لم يخل من مشاكل، ولكن ربما كان يحمل في طياته جذور الأزمة التي هزت المغرب بعد وفاته والتي اصطُلح على تسميتها بأزمة عبيد البخاري. وارتبطت هذه الفاجعة في سماتها العريضة بآلة الجيش التي تحولت من أداة لحماية الرعية وضبطها إلى آلة دمار وتفكيك وإضعاف للسلطة التي أصبحت في يد العبيد يعملون فيها ونبها بما يريدون: "وكان من أمر عبيد مشرع الرملة لما بلغوا الغاية في الظلم والجور والبغي والفساد، وعم جورهم جميع البلاد، وتعجبوا من قوتهم وكثرتهم، وصاروا يعبثون

بالملوك الخلائف: يخلعون هذا، وينصرون هذا، ويقتلون هذا"[106]. فكانت هذه الأزمة صعبة مستعصية بسبب طول أمدها ولا تنحصر أسبابها في تمرد وتصرفات العبيد، بل لها ما يبررها في المجتمع والجهاز المخزني نفسه. فقد أسس المولى إسماعيل جيش عبيد البخاري لا ليبتعد عن ضغوط المجتمع فقط، بل أراد أيضاً أن يستعمل هذه الآلة لضرب وكبح جماح الثوار وتمرد القبائل المتنمرة. ولهذا ما أن مات هذا السلطان حتى عم الطغيان والعصيان في جل أنحاء المغرب.

وكانت سوس من أهم المناطق المعارضة، وكان أهلها يبايعون أمراء لم يكن قد تم اختيارهم. فعندما بايع العبيد أحمد الذهبي كان أهل سوس قد قدموا ولاءهم لمولاي عبد المالك وظلت تارودانت ملجأ الثوار. وقام كل من الكرسيفي وأبي محمد عبد الله سنة 1147 بثورة مزعجة بأقصى سوس "حتى مات الجل منهم عطشاً (يقصد أهل أكادير) من نسائهم وصبيانهم وكانوا يدفنونهم في الديار"[107]. وإلى جانب سوس، ثار أحمد بن علي بن عبد الله بن حدو الريفي وهو من قبيلة أولاد حمامة ببلاد الفحص، واستطاع أن يجمع حوله قبائل كثيرة وأصبحت كلمته مسموعة من باب طنجة إلى باب تازة، بل إلى جبال بني يزناسن[108].

وكانت القبائل تهاجم المدن وتحاصرها. وقد انتبه عبد الكريم بن موسى الريفي إلى الخراب الذي أصاب مكناسة من جراء مضايقات القبائل "حتى كانت ... محصورة من جميع الجهات... والناس بالعسة في كل حومة ودرب من الدروب"[109]. وتعرضت فاس بدورها مرات عديدة إلى سطو القبائل ونهبها كما حصل سنة 1140 على أثر هجوم الودايا على أهلها "ورموهم بالكور والبمب"[110].

---

(106) الضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 137.

(107) المصدر نفسه، ص. 118.

(108) المصدرنفسه، ص. 141 و 231؛ وانظر كذلك: الريفي، زهر الأكم...، مصدر مذكور، ص ص. 248 - 249.

(109) المصدر نفسه، ص. 251.

(110) الزياني، البستان...، مصدر مذكور، ص. 216.

ولم تنج تطوان أو مراكش من مثل هذه الممارسات[111]. لقد قام مولاي عبد الله بأربع عشرة حركة في ما بين سنتي 1139 و 1146 هـ، ووجهها لجميع جهات المغرب، مما يبين انتشار الفوضى والفتن. وبالرغم من هذا كله أو ربما بسببه، عم الفساد في الحاضرة والبادية، وعظم البلاء، وأكل القوي الضعيف، وكثرت المنكرات، واشتد الخوف في الطرقات، ومات الناس أيام هذه الشدائد جوعاً وغلاء، كما أكدت المصادر بطرق مختلفة:

وفي شهر رجب الفرد عام خمسين ومائة وألف، وصل وسق القمح ثمانين مثقالاً، والشعير ما يقرب من ذلك، والذرة كذلك والزيت بخمسة وعشرين مثقالاً... وما زال الزرع في الزيادة إلى أن بلغ مائة مثقال للوسق، يعني وسق القمح، وبيعت الدار الجيدة في تلك الوقت بستين مثقالاً إلى ستة وثمانين مثقالا[112].

ومن نتائج الفتنة والهرج فقدان الدولة لأهم أطرها، وأشارت المصادر إلى أسماء القواد والكتاب والوزراء الذين ماتوا بسبب هذه الشدائد كعبد المجيد المشامري بوطالب الذي سجن أيام دولة المستضيء الأولى، ونهبت أمواله وداره، وظل يعذب إلى أن مات، وقتل أهل فاس القائد أبا علي الروسي الذي كان عاملاً على هذه المدينة أيام المولى إسماعيل. وقد كلفه هذا الأخير بتسجيل العبيد في الديوان. وذكر القادري من جهة ثانية أن مولاي عبد الله فرض مغارم ثقيلة على أهل فاس، لأنه كان يعتقد أن عصيانهم يأتي من كثرة توفرهم على الأموال؛ مما جعل بعض الفاسيين يهاجر من المدينة إلى بعض البوادي أو إلى المشرق[113]. لقد فطن الزياني إلى الخطورة التي كانت تهدد كيان الدولة المغربية من جراء ضياع أطرها بسبب الهرج والفتن. وكتب في الموضوع يقول:

فقد كان علي ويشي أمير البربر وغيرهم وعامل العمال، وأحمد بن علي اليازغي عامل جبال مرموشة وبني وارين وغياثة والحياينة والجبال رديفا لعلي ويشي... وابن الأشقر أمير الزراهنة وعلى يديه أعشار القبائل كلها من أهل الغرب وبني

(111) المصدر نفسه، ص. 215.

(112) الريفي، زهر الأكم...، مصدر مذكور، ص. 249؛ والضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 124.

(113) القادري، نشر...، مصدر مذكور، ج .3، ص. 37.

حسن رديفاً لهما ومرجان صاحب بيوت الأموال وبيده دفتر الداخل والخارج منها وعارفا لما يدفعه العمال في كل سنة. فلما ماتوا، استخفت الرعية بمنصب الملك، واستراحوا ممن يحول بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبيح، خصوصاً البربر: فقد كانوا في أقماع النحاس، فخرجوا منها بموت علي ويحيى واشتغلوا بشراء الخيل واقتناء السلاح، ورجعت هيف إلى أديانها؛ فكأنما كانوا على ميعاد(114).

وزرعت الفتن الحقد والكراهية بين الناس. فأصبح النهب والسبي والدمار والقتل من الأمور المعتادة والمعيشة. وقد عبر الضعيف عن الممارسات الوحشية بعبارات توحي بالبشاعة التي كانت تسود علاقات القبائل المتصارعة فيما بينها أو تلك التي كانت تتحكم في تطاحنات القبائل وجيش العبيد. ومثالاً على ذلك، نورد ما سجله الضعيف عند كلامه عن تدخل جيش العبيد ضد قبائل سفيان وبني مالك. فبالرغم من احتماء هؤلاء بضريح مولاي بوسلهام، هاجمهم العبيد

وأوقعوا بهم وقعة هائلة. وكانوا يقتلون الناس في وسط القبة، ولا يتركون الصغير ولا الكبير، ويشقون على بطون النساء ويجبدون الجنين ويضربونه بالسيف، فلطخت القبة بالدم، ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم، وأخذوا ما وجدوا عندهم، وتركوهم حفاة عراة"(115).

---

(114) الزياني، البستان...، مصدر مذكور، ص ص. 215 - 216.

(115) الضعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص. 141.

الفصل الثاني

احتكار المخزن للتجارة الخارجية ودعمه للتجار الأجانب

1 - الإسلام والتجارة

لقد حالت الفتن والأزمات دون إقلاع المغرب الحديث كما تبين ذلك في الفصل السابق. إلا أنها لم تشكل العامل الوحيد، بل توجد عوامل وحواجز أخرى. ومن بينها لجوء سلاطين المغرب إلى تبني سياسة الاحتكار في التجارة الخارجية، ودعم التجار الأجانب، وتهميش التجار المحليين. فكيف حصل ذلك ولماذا؟

أثارت الكتابة الغربية نقاشاً كبيراً حول موقف الإسلام من التجارة، واعتبر هنري بيرين الإسلام، بحكم معاداته للتجارة، مسؤولاً عن كسر العالم المتوسطي وتقسيمه إلى قسمين متعارضين؛ مما تسبب في دمار التجارة بين الشرق والغرب. وأدى هذا الانكسار حسب هنري بيرين إلى تركيز أوربا اهتمامها على الفلاحة، وبالخصوص في مناطقها الشمالية والغربية. وانتقد المؤرخ موريس لومبارد موقف المؤرخ البلجيكي السابق، فبين أن الإسلام لم يحدث القطيعة وأن التجارة لم تتوقف؛ بل كان الإسلام سبباً في انتعاش أوربا وساهم في انطلاقة النهضة الكارولنجية. ودعم كلود كاهين هذا الموقف، بعدما أدخل عليه تعديلاً، فبيَّن أن التوسعات الإسلامية قد غيرت من الاتجاهات التجارية وأعطتها أبعاداً جديدة دون أن توقفها أو تعارض التجارة والتجار[116]. وبين ماكسيم رودنسون من جهته أن

(116) Claude Cahen, *L'Islam des Origines au début de l'Empire ottoman*, Paris, Bordas, 1970, pp. 127-128.

الإسلام لم يحرم الملكية الفردية، بل دعمها وأكد عدم التساوي في الرزق بين الناس. فالقرآن لا يمنع التجارة، ما دامت في خدمة الجميع ووفق الحدود الشرعية ولا تشغل المسلمين عن واجباتهم الدينية[117]. ودار نقاش حول مفهوم الربا، فرأى ماكسيم رودنسون "أن المعنى غير واضح وبُني تحديده على اجتهادات معقدة[118]. لقد منع الإسلام التجارة المبنية على الغش أو المرتبطة بمواد محرمة كالخمر ولحم الخنزير أو لحم الجيفة. فالإسلام لم يناهض التجارة التي كانت مرتبطة بالحج، حيث كانت القوافل تجوب الرقعة الإسلامية شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً؛ وشكل ركب الحج سوقاً متنقلة. وتشتمل "رحلة العياشي..." على أمثلة كثيرة، منها حديثه عن مدينة سجلماسة:

> وسبب إقامتنا في هذه البلاد هذه المدة أن كثيراً من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافلالت، أخروا الصرف إلى توات. فإن الذهب فيها أرخص، وكذلك سعر القوت من الزرع ومن التمر. وهذه البلدة هي مجمع القوافل الآتية من بلاد تنبكت ومن بلاد آكيدز من أطراف السودان، ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شيء كثير، والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج السودان... فإذا قدم الركب إليها، كان فيها سوق حافل[119].

وتناولت الكتابة الإسلامية موضوع التجارة. ويعتبر ابن خلدون من أبرز الذين فكروا فيها واعتبرها "محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء. وذلك القدر الباقي يسمى ربحا"[120].

واشترط ابن خلدون في نجاح التاجر أن يكون جريئاً مقداماً؛ وإذا لم تتوافر فيه هذه الخصال، فعليه بالتخلي عن احتراف التجارة. وفصل هذا المفكر الكلام في حرفة التجارة وناقشها من جوانبها المختلفة، و لم يجد فيها ما يتعارض مع الإسلام.

---

(117) يمكن الرجوع إلى سورة البقرة، الآية 282؛ وسورة النساء، الآية 29؛ وسورة التوبة، الآية 24.

(118) Maxime Rodinson, *Islam et Capitalisme*, *op. cit.*, p. 31.

(119) أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية: ماء الموائد، الرباط، 1977، ج. 1، ص. 21؛ وانظر كذلك ج. 2، ص. 335.

(120) ابن خلدون، المقدمة، مصدر مذكور، ص. 355.

وخصص فصلاً للكلام عن مساوئ الاحتكار الذي يلجأ إليه التجار: "واعتبره الشارع أكل أموال الناس بالباطل"[121]. وأوضح ابن خلدون من جهة أخرى المساوئ التي تلحق الرعايا بسبب مزاولة السلطان للتجارة. فهذه الممارسة مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية. فاهتمام ولي الأمر بالتجارة يؤدي به إلى الاحتكار، لأن ماله أعظم من مال التجار، وسلطته تسمح له بممارسات لا يقدر عليها غيره من التجار. واعتبر ابن خلدون هذه الممارسات السلطانية إساءة للبلاد، وخرابا للعمران، واختلالاً للدولة؛ "لأن الرعايا إذا قعدوا عن تثمير أموالهم بالفلاحة والتجارة، نقصت وتلاشت النفقات وكان فيها إتلاف أحوالهم. فافهم ذلك"[122].

2 - احتكار المخزن للتجارة الخارجية ومسألة التجاوز

عرفت أوربا خلال العصر الحديث ازدهاراً اقتصاديّاً متفاوت الأهمية جغرافيّاً: نشطت الحركة التجارية في إسبانيا خلال القرن السادس عشر وعرفت الموانئ حركة كثيفة، بالخصوص ميناء إشبيلية لما كان له من علاقات مع الملاحة في المحيط الأطلنتيكي. وظهرت في إسبانيا فئة تجارية فيها التاجر البنكي، والتاجر المشارك والتاجر في الدكان. والملاحظ أن جل هؤلاء كانوا أجانب، وكان الملوك الإسبان بسبب حروبهم المتزايدة ومصاريفهم الباهظة في حاجة مستمرة إلى الاقتراض من العائلات : فقد مولت عائلة فوغر انتخابات شارلكان سنة 1519. ولجأ العرش الإسباني إلى مبدإ التعاقد (Escirtura de Campaña) الذي يتم بين الدولة والتجار. وكانت تدون الشروط في العقدة ويصادق عليها المتعاقدون أمام العدول. "ورغم وجود هذه الشركات، فإن إسبانيا لم تكن تتوفر على رجال أعمال في مستوى كوني؛ لأن هذه الشركات بقيت ذات طابع عائلي بالأساس"[123]. وكان لطرد الموريسكيين الأثر البليغ على اقتصاد إسبانيا؛ وقد استفادت منه الدول المجاورة

---

(121) المصدر نفسه، ص. 357.

(122) المصدر نفسه، ص. 252.

(123) Marc Zuili, "Industrie et commerce dans l'Espagne du XVIè siècle", in Revue *L'information historique*, Année 1985, N°3, pp. 94 -95.

لها، فحل محل الموريسكيين حرفيون وتجار وصناع من هذه البلدان[124].

وطاف ملاحو أنجلترا العالم، فسيطرت أساطيلهم على التجارة البحرية ورفع تجارها شعاراً من أجل ضرب الاحتكار وبكل الطرق والوسائل. ولدعم هذا المشروع، شجعت السلطة في أنجلترا تأسيس الشركات التجارية (كشركة الهند الشرقية سنة 1600، والشركة البربرية سنة 1585). وتبنت هولندا، بعدما استقلت عن إسبانيا، موقف أنجلترا. واستطاع هذا البلد الصغير في وقت وجيز توسيع حدوده التجارية، فامتدت تجارته إلى درجة جعلت البعض يقول عنها بأنها "أصبحت لا تعرف حاجزاً ولا يعرف حدودها إلاّ العليُّ القدير"[125]. وتحقق لهولندا ذلك، لأنها اعتمدت سياسة خلق الشركات (كشركة الهند الشرقية سنة 1619، وشركة الهند الغربية سنة 1621) ودعمها[126]. لقد أعجب كولبير الفرنسي بالتجربة الهولندية، فحاول أن يضمن لفرنسا نصيبها من الملاحة العالمية، فعمل على تأسيس الشركات الفرنسية على النمط الأنجليزي الهولندي سنة 1646 ـ 1670. ومنح هذا الوزير هذه الشركات حق الاحتكار التجاري في البحار وخصها بتسهيلات مالية. ويظهر مما سبق أن شبه الجزيرة الإيبيرية بقيت على عكس دول أوربا الشمالية، متشبثة بالنمط الاقتصادي العتيق. فقد دعم ملوكها النبلاء ورجال الدين وحدوا من حيوية التجار. وهكذا لم تنشأ في إسبانيا ـ ما عدا في منطقة كتالونيا ـ طبقة بورجوازية على غرار ما حصل في أوربا الشمالية، مما جعل واقعها يقترب أكثر من واقع منطقة أوربا الشرقية. فقد كانت التجارة تابعة في إسبانيا والبرتغال للدولة، وتندرج ضمن الخدمات ذات المصلحة العامة، وتتم المراقبة في مؤسسات ملكية في مدريد ولشبونة[127].

ما الحالة التي كان عليها المغرب خلال العصر الحديث؟ ما نتائج سياسة

---

(124) G. Zeller, *Les temps modernes...*, *op. cit.*, p. 306.

(125) S. Schama, *l'Embarras de la richesse*, *op. cit.*. p. 306.

(126) G. Zeller, *Les temps modernes...*, *op. cit.*, p. 213.

(127) H. Hausser et A. Renandet, *Les débuts de l'âge moderne*, Paris, P.U.F, 1956, p. 350.

الاحتكار التي نهجها الأشراف في قطاع التجارة الخارجية؟ وما الأدوار التي أدّاها التجار الأجانب وأهل الذمة في ربط اقتصاد المغرب بالعالم الخارجي؟ ألا يجب البحث عن أسباب التجاوز في تجذر الذهنية المحافظة وغياب قاعدة ثقافية مؤهلة للتحول ودعم ممارسات اقتصادية غير مألوفة؟ فقد ربط محمد القبلي سيطرة الدولة على التجارة بمواقف الفقهاء الذين كانوا يكْرهون الناس في التجارة بدار الحرب، وهجروا التجار على الابتعاد عن المتاجرة في غير الرقعة الإسلامية. وبسبب هذه المواقف، تحملت الدولة دور الوسيط فيما بين أوربا وبلاد السودان. ومعنى هذا في رأي محمد القبلي استحالة ظهور الطبقة التي ظهرت في مناطق أخرى، أي الطبقة التجارية المتطورة التي أخذت بالمبادرة وأحدثت ما يسمى بالرأسمالية[128]. وتساءل عبد الله العروي من زاوية أخرى عن الأسباب التي جعلت الأندلسيين الذين أتوا إلى المغرب عاجزين عن خلق طبقة متوسطة، بالرغم من كونهم موهلين لذلك. فعوض أن توظف هذه العناصر مهارتها في تنشيط الاقتصاد، صارت تحتقر المغاربة وتعمل على تحقيق الاستقلال عن المغرب. وبفضل مؤهلات العناصر الأندلسية المادية والثقافية، أصبحوا ينافسون التجار والصناع المحليين. ورأى عبد الله العروي في عصيانهم للسلطة المركزية ثورة محلية لم تنجح في تحقيق آمالها. وأصدر هذا المؤرخ في حق الأندلسيين حكماً صارماً حيث حملهم مسؤولية عرقلة التطور العادي الذي كان قادراً على خلق طبقة متوسطة داخل المجتمع المغربي[129]. فهل حقاً كان الأندلسيون مسؤولين عن إجهاض خلق هذه الطبقة؟ وهل لارتباط سلاطين المغرب بالتجار الأجانب، وبأهل الذمة علاقة بهذه الوضعية؟

لاحظنا أن النشاط التجاري في أوربا عموماً وفي الأقاليم المتحدة على وجه الخصوص لم يكن مرتبطاً بالقرار السياسي، ولكن كان يرجع بالأساس إلى الشركات التي كانت تسيطر على رؤوس الأموال. فكان الإقلاع في هذه المنطقة ذا صلة وطيدة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. واعتبر الفرد في أوربا منذ عصر

---

(128) صرح محمد القبلي بهذا الموقف في المحرر الثقافي بتاريخ 8 إبريل 1978.

(129) A. Laroui, *Histoire du Maghreb...*, *op. cit.*, pp. 223 - 224.

النهضة المسؤول الوحيد عن مصيره، والقادر على حل مشاكله عن طريق تبنيه للحلول العقلية والتي تكون تقنية بالأساس. فقد واجه الإنسان الهولندي تحديات الطبيعة المتمثلة في الفيضانات بإبداعه للسدود وللحواجز الطبيعية القادرة على حماية حياته، ولم يلجأ إلى السماء للبحث عن حلول في كرامات الأولياء.

3 - التجار الأجانب أهل الذمة والمخزن

لقد ربط سلاطين المغرب مصالح البلاد بالتجار الأجانب وبالوسطاء من أهل الذمة، فكان المخزن المغربي لا يتردد في استخدامهم لتسهيل المعاملات والصفقات. فقد كان زيدان بن المنصور يكنُّ تقديراً خاصاً للتجار الهولنديين ويعمل ما في وسعه من أجل الاستفادة من خبرة الهولنديين التقنية[130]. قرب السلاطين هؤلاء التجار وجعلوهم يستحوذون على التجارة الخارجية بعد بذلهم - التجار - لكل الوسائل قصد تحقيق ذلك، وتحدثت الوثائق عن تصرفات التاجر أنطوني شيري (Anthony Sherey, 1605) الغريبة التي جعلت ممثل فرنسا يقول عنه: "فهو لا يترك صغيراً أو كبيراً إلاّ أعطاه هدية"[131]. لقد تبنى المخزن السعدي ثم العلوي سياسة الاحتكار لأغراض مالية وعسكرية؛ وتُظهر الوثائق والمعاهدات التي أبرمها المغرب مع الدول الأوروبية خلال العصر الحديث، ازدهارَ المؤسسات المخزنية المرتبطة بالتجارة الخارجية.

واهتم المخزن باستيراد الأسلحة التي ازداد حجمها حتى أصبحت تشكل خلال العصر الحديث أساس استيراد الدولة[132]. واهتم الأشراف بتسويق المواد

---

(130) يمكن الرجوع في هذه النقطة إلى:

S. I. H. M., 1ère Série, P. B., T. III, pp. 169-171; 191 - 193; 212 - 216 et 247.

وتعطي مقدمة المجلد الأول من الأجزاء المخصصة لأنجلترا تفاصيل عن علاقات المغرب بهذا البلد واستغلال شركات هذا الأخير للمغرب.

(131) *S. I. H. M.*, 1ère Série, Angl., T. II. pp. 278 - 279.

(132) توجد عدة مراسلات ومعاهدات تبين اهتمام المخزن بالعدة. (انظر: خزانة ليدن، سجل 1353، رسالة بتاريخ 18 يناير 1779 ورسالة رقم 8 مؤرخة بتاريخ 11/6/ 1785 و 30/9/ 1783 و 26/2/ 1785).

التي كانت تمكنهم من موارد هامة كقصب السكر وملح البارود فيما يخص السعديّين، والجلدْ والصوف فيما يخص العلويّين. وكان هذا الاحتكار مبنيّاً على خدمة التجار الأجانب. وبالرغم من معارضة الفقهاء، لم يكن السلاطين يترددون في بيع المواد المحرمة التي كانت تقوي العدو كالمعادن وتجعله ـ على حد قول الفقهاء ـ قادراً على السيطرة على المغرب. لقد قرب السلاطين التجار الأجانب وأعطوهم امتيازات في بعض الموانئ. وتشير إلى ذلك رسالة بعث بها محمد بن عبد الله إلى أحد خدامه يحثه فيها على تسليم ميناء أكَادير امتيازاً لتجار هولندا:

> خديمنا الحاج الرزيني. سلام عليك... وبعد؛... ولا يخفى عليك أن جنس الفلامنك أقرب من جميع الأجناس... ولهم فينا الحظ الذي ليس لغيرهم وتجارهم مقدمون لدينا على سائر التجار ولا نعمل لهم إلا ما في خاطرهم. ولو أننا أعطيناهم مرسى ثغر أقدير يأخذون جميع مستفادها لنفوسهم ويحتفظون به لرؤوسهم، لكان ذلك قليلاً عندنا في جهة الاصطادوس لوقوفهم في أمورنا واعتنائهم بحوائجنا... من حضرة مكناسة في سابع ذي الحجة عام 1773 هـ[133].

اعتمد السلاطين أيضاً على أهل الذمة وسطاء بينهم وبين التجار الأجانب، الذين كانوا يكترون منهم بعض المرافق الاقتصادية. فقد تحدث الفشتالي عن الظاهرة قائلاً: "وكان يلجأ (يقصد أحمد المنصور) إلى كرائها (معاصر السكر) لطائفة من أهل الذمة"[134]، وأحياناً كان يلجأ المنصور إلى المعاهدة مع تجار الحربيين[135].

ساهمت هذه الامتيازات التي أعطيت للتجار الأجانب وللوسطاء في تقويتهم داخل المغرب. وقد انتبه إلى ذلك الرحالة البارون شخونينخ الذي جاء إلى المغرب للتفاوض مع محمد بن عبد الله سنة 1776 في شأن معاهدة صلح بين المغرب وهولندة، فلاحظ هذا المفاوض أن التجار الأوربيين يربحون الكثير؛ ومع ذلك،

---

(133) دار المخطوطات الوطنية بلاهاي ـ سلسلة 1/01/04 ـ الأقاليم المتحدة رقم 6963، تاريخ 1760.

(134) عبد العزيز الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص ص. 209 ـ 210؛ P. Berthier, *Les Anciennes sucreries*, T. I, p. 264.

(135) الفشتالي، مناهل...، مصدر مذكور، ص. 210.

يلطخون سمعة الإمبراطور المغربي وصورته. ويعملون ذلك قصد تنويم الشركات التي تستخدمهم بالمغرب[136]. فانتقد هذا الرحالة من جهة أخرى تصرفات الوسطاء أهل الذمة واعتبرهم مسؤولين عن الصورة المشوهة المرسومة في أوربا عن سلطان المغرب وعن المغاربة. واشتهرت عائلات يهودية كثيرة بهذه الأدوار، كعائلة بلاش التي اقترن اسمها بأحداث نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر. وكان أفرادها من خدام زيدان الذي كتب عن سموئيل بلاش معتبراً إياه "خديم دارنا العلية، المحب في خدمتها الناصح...". فهو - كما يقول زيدان - "مقابل منا بجزيل القبول"[137]. وارتبطت هذه العائلة بالمخزن السعدي لمدة طويلة حتى صارت مطلعة على أسراره. وهكذا كان يوسف بلاش يفتخر بطول المدة التي قضاها في خدمة السلطان، حيث خدمه ما يزيد على سبع عشرة سنة، تقاسم خلالها الخدمة وأسرار الدولة مع أخيه، جيث كان يرافق المبعوثين الأجانب ويتعرف أسرارهم ،مما جعله يقول في هذا الصدد: "كنا مطلعين على كل الأسرار بفضل سيدنا ومولانا السلطان"[138]. تعرف الأخوان بلاش خبايا الجهاز وصارا يستعملان دواليبه لخدمة مصالحهما. فكان يوسف بلاش يطالب الأقاليم المتحدة بإعطائه رخصة لتصدير الأسلحة والعدة ولوازم السفن إلى المغرب[139]. وكان أفراد عائلة بلاش يتصرفون بكل حرية في أمور المغرب ويتخذون القرارات ويعرقلون مصالح البلاد. وبالرغم من كل هذه الامتيازات، ظل أفراد هذه العائلة مستعدين لمغادرة المغرب لصيانة مصالحهم. وهكذا طلب سمويل من هولندة السماح له بالاستقرار بهذا البلد مع أسرته، كما يتضح من الوثيقة الآتية: "لقد تقدم يوسف بلاش وأخوه سمويل المزداذان في فاس بطلب الرحيل من المغرب الذي يعيش الفتن، إلى الأقاليم المتحدة قصد الاستقرار بها؛ وبينا رغبتهما في الإتيان بزوجتيهما وأطفالهما"[140].

(136) Baron Schoening, *Croisières*..., *op. cit.*, p. 88.

(137) رسائل سعدية، مخ. خ. ع. ك 278، ص. 33.

(138) *S. I. H. M.*, 1ère Série, Pays-Bas, T. VI, p. 60.

(139) *S. I. H. M.*, 1ère Série, Pays-Bas, T. VI, p. 142.

(140) *Ibid.*, p. 18.

وأشار البارون شعوتينخ إلى تصرفات ممثل محمد بن عبد الله سمويل سمبل فنعته بكل النعوت القذرة: فهو الماكر المخادع المناور الذي كان لا يتردد في طمس الحقائق عن السلطان ويبالغ في طلبات هذا الأخير ليجعلها صعبة المنال. وكان يقدم على هذه الممارسات، لأنه كان يستفيد منها؛ "وكان سمبل هذا يعمل كل ما في وسعه لإفشال عدد كبير من مشاريع السلطان الجيدة"[141]. وكان سلاطين المغرب على بينة من تصرفات أهل الذمة. لذلك كانوا يلجؤون إلى مصادرة أملاكهم أو يرغمونهم على مدهم بالأموال كلما احتاجوا إلى ذلك. وأشار جوزيف ليون إلى ذلك عندما قال:

يوجد بالمغرب عدد كبير من اليهود... ويعيشون أساساً من التجارة ومن بعض الحرف كالصياغة والخياطة... وكانوا يقدمون هدايا للسلطان بالإضافة إلى أدائهم للضرائب العادية، واعتاد المولى إسماعيل مطالبتهم بمساهمات مالية ـ غير عادية ـ كلما احتاج إلى ذلك؛ وكان يرغمهم على إعطائه الأموال اللازمة لشراء العدة التي كان يحتاج إليها جيشه[142].

4 - الضجة حول الإسلاميين وأبعادها

لاشك في أن لاحتكار المخزن التجارة الخارجية واستخدامه التجار الأجانب وأهل الذمة واستعانته بهم دوراً في عرقلة ظهور طبقة محلية ذات خبرة مكتسبة وانفتاح معقلن وبناء. لكن المخزن، في نهاية المطاف، انعكاس للواقع الاجتماعي والاقتصادي. فهل كان المجتمع المغربي مؤهلاً لركوب المغامرة والانفتاح والتجديد؟ ولماذا أقام أهل فاس ضجتهم المعروفة ضد الإسلاميين؟ وما خلفياتها وأبعادها؟.

تعرف هذه الفئة بالإسلاميين وبالمهاجرين وبالبلديين، وهي أسماء قدحية اطلقها في حقهم أهل فاس. فقد أثارت قضية هؤلاء ضجة وأخذت باهتمام علماء

(141) Baron Schoening, *Croisières..., op. cit.*, p. 91.

(142) Chantal de la Veronne, *Vie de Moulay Isma'il, roi de Fès et de Maroc d'après de Léon 1708-1728*, Paris, Geuthner, 1974, p. 69. (Folio Joseph 249).

تلك الفترة وألفوا فيها تآليف وأفتوا فيها. ومن هذه التآليف كتاب: "**نصيحة المغترين وكفاية المضطرين في العفريق بين المسلمين بما لم ينزله رب العالمين ولا أخبر به الصادق الأمين ولا ثبت عن الخلفاء المهديين**"[143] لمحمد بن أحمد بن ميارة المتوفى سنة 1660 م؛ ثم كتاب آخر لمؤلف مجهول "**ذكر قصة المهاجرين المسمون (كذا) اليوم بالبلديين**"[144]. والظاهر أن مؤلّف هذا الكتاب عاش في فترة متأخرة عن الفترة التي عاش فيها ميارة، لأنه أتى بمواقف هذا العالم المساندة والمتحيزة للبلديين. والمؤلف المجهول، الذي يتحدث عن مواقف علماء فاس من المهاجرين، أشار إلى استنجاد هؤلاء بميارة فكتب يقول: "إنهم (يقصد المهاجرين) استغاثوا بالفقيه سيدي محمد بن أحمد ميارة وشكوا له أمرهم، فانتصر لذلك وألف فيه تأليفا سماه "**نصيحة المغترين...**""[145].

لقد اتخذ المجهول موقفاً من ميارة واعتبر أقواله غير واضحة في الموضوع بالمقارنة مع غيره: "وتأليف سيدي محمد ميارة ليس واضح الدلالة، بل تأليف سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي أحسن منه، وأوضح منه وأثبت حجة"[146]. ما زالت ظاهرة البلديين لم تحظ بعد بدراسة شاملة، بالرغم من تناول بعض الباحثين لها من زوايا اهتماماتهم. فقد درسها عبد الأحد السبتي بصفتها حدثاً اجتماعيّاً وتوقف عندها لمقاربة النسب ودراسة وظائفه الإيديلوجية. فرأى هذا الباحث في الإسلاميّين قوة اجتماعية جديدة جاءت لتنافس الأنماط التي كانت تهيمن على الساحة الاجتماعية عن طريق توظيفها لآليات النسب[147].

ووسع عبد الله العروي النقاش ليدخله في إطار مجيء العنصر الأندلسي إلى المغرب، وعدم قدرة هذه العناصر على الاندماج في المناخ الاجتماعي، وفشلها في

---

(143) محمد بن أحمد ميارة، نصيحة المغترين...، مصدر مذكور، مخ. خ. ع. ك 923.

(144) مجهول، ذكر قصة المهاجرين المسمون كذا اليوم بالبلديين، مخ. خ. ع. د 1115.

(145) المصدر نفسه، ص. 7 ظ.

(146) المصدر نفسه، ص. 12 ر.

(147) A. Sebti, *Aristocratie Citadine. Pouvoir et discours savant au Maroc pré-colonial.* Thèse de doctorat du 3è cycle, Paris VII, 1984, pp. 199 - 200.

مثل طبقة متوسطة. واهتم محمد حجي بالظاهرة ودرسها في فصل ضمن ما سماه في الباب الرابع من عمله بـ "مسائل فكرية مهمة شغلت المثقفين"[148]، وربط القضية بتعصب أهل فاس في وسط العلماء والتجار، ومرد ذلك عند العلماء إلى الخوف من المنافسة على المناصب الشرعية السامية: "وأما التجار، فقد تحزبوا ضد الإسلاميين ومنعوهم من دخول الأسواق الكبرى حتى لا يزاحموهم في الاتجار بها. ووقع بسبب ذلك هرج ومرج، فسلت السيوف وسالت الأقلام"[149]. ودام هذا الصراع ثلاثة قرون من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر. وقد طرحت القضية البلديين بسبب أحقيتهم أو عدم أحقيتهم في تعمير أسواق فاس، بما فيها القيسارية الكبرى واتخذت من القضية مواقف متباينة. ولعل عنوان كتاب ميارة يعطي فكرة عنها: فهو يتكون من 23 كلمة لخص فيها ميارة ما كان يروج عن الإسلاميين؛ فاستعمل المؤلف كلمات تحيل القارئ على الحدود الشرعية: نصيحة الفريقين بين المسلمين، ما لم ينزل به، رب العالمين، الصادق الأمين، إلخ. استعمل ميارة الحجج الشرعية لدحض مزاعم الذين يطالبون بمنع التعمير، وحملهم مسؤولية التفريق بين المسلمين وإشعال نار الفتنة. فتبنى ميارة قضية المهاجرين ودافع عنهم؛ مما جعله يعيش مضايقات في فاس ويضطر إلى مغادرتها.

وأما المؤلف المجهول، فلم يجزم في مواقفه وبقي متردداً مع ميل ملموس منه إلى ترك باب الشك مفتوحاً في القضية التي ارتبطت في نظره "بما كان بين الفريقين من البغضاء القديمة"[150]. لقد دعم الوطاسيون في البداية الإسلاميين ضد التيار المحافظ الذي اتهم هؤلاء بالغش في المعاملات وبتجاوزهم للحدود الشرعية وبمحاولاتهم المتكررة الاستيلاء على القيسارية، المركز الحيوي لاقتصاد المدينة، لأنهم "صاروا - حسب المجهول - يشترون السلعة بالسلعة... إلى غير ذلك من

(148) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب...، مرجع مذكور، ج 1، الفصل 4، الباب 4.

(149) المرجع نفسه، ص. 274.

(150) المجهول، ذكر قصة المهاجرين...، مصدر مذكور، مخ. خ. ع، د 1115، 7 ظ.

أنواع الخدع واختل على الناس النظام في البيع والأحكام"[151]. ووجد العلماء صعوبات، بسبب ما أدخله الإسلاميون من ممارسات اقتصادية لم تكن معهودة. ولم تفلح اجتهادات الفقهاء في تأويل ممارساتهم التي أصبحت تهدد الكيان الموروث وتزعزع المألوف. لأجل هذا، حاربوهم بدعاوى مختلفة. ولما وصل السعديون، وقف العلماء إلى جانب حركتهم واتصلوا بمحمد الشيخ لدى دخوله فاس واشتكوا إليه من ممارسات الإسلاميين: "فشكا إليه أهل فاس مما ينالهم من المهاجرين من الغش والمكر والخديعة والربا في سائر الأسواق والحرف... وأعلموه بما جرى به العمل عند فقهاء فاس وأفتوا به من منعهم... فأمر الأمير المذكور بإحضار المهاجرين فأخرجوا أجوبة من أفتى لهم بالجواز"[152]. ولما درس محمد الشيخ حجج الفريقين، اتخذ موقفاً سياسيّاً فمال إلى ما سارت إليه الأغلبية، لا لأنه كان مقتنعاً بذلك؛ بل لأنه التزم بالمألوف حتى لا يصدم الذين منعوا الإسلاميين من تعمير الأسواق: "فتأمل ما بيدي الفريقين، فوجد من قال بالمنع أكثر عدداً... فرأى المنع هو الصواب الجاري على المشهور... فأمرهم بالخروج من الأسواق"[153]. لا ننسى أن محمد الشيخ كان بحاجة إلى دعامة أهل فاس ضد أحمد الوطاسي، لكن أحمد المنصور الذي لم يعد بحاجة إلى استمالة أهل فاس، قد تفهم موقف الإسلاميين فرد لهم الاعتبار على يد ولده وولي عهده المامون الذي قبل التخلي عما كان جاريّاً في حقهم بتأثير من المنجور كما أشار إلى ذلك المجهول عندما قال: "وكان معه أبو العباس المنجور الفقيه العلامة المشهور الإسلامي؛ طلبوا منه أن يتكلم له فيهم فتكلم بين يديه وأحضر تلك الأسئلة والأجوبة والبيانات وأقوال العلماء وفتاويهم... فرأى المنع، فألح عليه المنجور على الإباحة فأباح..."[154]. وكانت مواقف المنجور واضحة: إذ دعا إلى عدم اللجوء إلى تعميم المنع، وطالب بتطبيق المنع على من ظهر فيه الغش.

---

(151) المصدر نفسه، 9 ظ.
(152) المصدر نفسه، 5 و.
(153) المصدر نفسه، 5 ظ.
(154) المصدر نفسه، 5 ظ، 6 و.

واستمر النزاع. ولما وصل المولى رشيد إلى فاس، اتصل به الإسلاميون وفسروا له الوضعية وأعطوه هدايا "فاعتمد السلطان على قوة قول من قال بالإباحة، وأذن لهم؛ فعمروا الأسواق، وظهر منهم ــ على عادتهم ــ الغش"(155). ومورست الضغوط على السلطان، فتراجع عن قراره السابق وأخرجهم من القيسارية. واتخذ المولى إسماعيل الموقف نفسه من البلديين، ففرض عليهم حمل علامة خاصة تميزهم. وتظهر رسالة بعث بها هذا السلطان إلى أهل فاس سنة 1718، تظهر موقفه المعادي للبلديين(156). وقد جاءت الرسالة لتطالب الفاسيين "بما هو حق وما هو واجب"(157). وذكّر السلطان أهل المدينة بأن سكانها كانوا على عهد أخيه الرشيد دعامة المخزن: فمنهم الجيش ومنهم العيش(158). والهدف من الرسالة يبقى هو دفعهم إلى الالتزام بالكلف المخزنية وخيرهم في أن يكونوا نوائب أو جيشاً، "لأن الناس إما جندي وإما خدام"(159). واستعمل السلطان في خطابه الصرامة والكياسة. وإن وضع إمكان الاختيار، فإنه على ما يبدو كان بحاجة ماسة إلى الدعم المادي. وأثناء حديثه عن واجبات أهل فاس، تطرق إلى قضية البلديين وشتمهم شتماً عنيفاً واعتبرهم دخلاء على فاس. ومع ذلك، سيطروا على اقتصاد المدينة وأبعدوا سكانها الحقيقيين الذين ركنوا إلى الخمول والخمود. "وفي الحقيقة، الأندلس واللمطيون هم أهل فاس وهم عمدة أهل فاس. وأما غيركم، فما ثم إلا الدجاج الأبيض ومن لا يعد لا في العير ولا في النفير... واليوم غطيتم رؤوسكم ورجعتم إلى الحرف والفلاحة وسلمتم الكلام للبلديين... ورضيتم بالاستكانة والخمود والمهانة"(160). لاشك في أن لموقف المولى إسماعيل ما يبرره. فالبلديون كانوا

(155) المصدر نفسه، 8 و.

(156) Norman Cigar, "Une lettre inédite de Moulay Ismā'il aux gens de Fès", in *Hespéris-Tamuda*, vol. XV, 1974. pp. 105 - 118.

(157) *Ibid.*, p. 114.

(158) *Ibid.*

(159) *Ibid.*, p. 115.

(160) *Ibid.*

يرفضون الامتثال للكلف الإسماعيلية المتزايدة؛ والسلطان لم ينس معارضة الإسلاميين له في تمليك العبيد. وشكلت محنة عبد السلام جسوس الذي كان ينتمي لهذه الطائفة قمة هذه المعارضة.

والخلاصة أن السلاطين أقصوا التجار المغاربة من المساهمة، والمشاركة في المبادلات مع العالم الخارجي. ومن ثم حرموهم من اكتساب الخبرة والانفتاح، ودفعوهم إلى عدم الاهتمام بمحاولاتهم الإصلاحية (عبد الملك السعدي وأحمد المنصور ومحمد بن عبد الله)، فبقيت هذه المحاولات من عمل الجهاز المخزني وحده سواء كانت إصلاحات أساسية أوهامشية. والملاحظ أن البلدان التي أقلعت في أوربا تركت المبادرة في يد الأشخاص والشركات، وكانت الدولة مجرد حام وحارس لمصالح الفئات وتطلعاتها. وأما التجارة في المغرب، فظلت جامدة؛ وإذا ازدهرت، فإنها حققت ذلك بفضل ارتباطها بالأجانب الذين سعوا دائماً إلى حماية مصالحهم التي كانت لا تنفصل عن مصالح بلدانهم. وقد وجد هؤلاء التجار في سلاطين المغرب الدعامة الأساسية، فنظموا أنفسهم للدفاع وصيانة الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها؛ وأسسوا لهذه الغاية - زمن محمد بن عبد الله - رابطة كانت تعقد جمعها كلما دعتها الحاجة إلى ذلك: فعندما تعرض التاجر البرتغالي سلفا سنة 1780 لمضايقات عامل الصويرة الذي أراد السطو على كمية من الذهب كانت في ملك سلفا، اجتمع التجار الأجانب في دار القنصل الهولندي ويبستير بلونط[161] وقرروا التحرك للضغط على عامل الميناء. وتحقق لهم ما أرادوا، حيث التزم المسؤول المغربي بإعادة الذهب إلى صاحبه[162].

فارتباط اقتصاد المغرب بالتجار الأجانب جعله عرضة لتهديداتهم. وكلما أراد المغاربة مقاومتهم، لجأوا إلى ذلك سيّاسيّاً أو عسكريّاً ولم يهتموا بالمقاومة

---

(161) أقام هذا القنصل مدة طويلة في المغرب وأدّى أدواراً هامة. وتحتاج شخصية ويبستير بلونط (Wibster Blount) إلى دراسة خاصة. كان نائباً لقنصل هولندا، ثم قنصلاً عاماً في ما بين سنتي 1778 و 1810.

(162) دار المخطوطات الوطنية بلاهاي، سلسلة 01. 02. 1، قنصلية طنجة، بتاريخ 4 فبراير 1780 م.

الاقتصادية، وبالتالي ظل السلاطين عرضة لهذه الضغوط التي كانت تحدُّ من تحركاتهم، لأنهم عملوا على تغييب القاعدة الاجتماعية التي لم تكتسب الخبرة اللازمة، وبالتالي لم تكن مؤهلة لإدراك الواقع الذي كانت تعيشه. واعتبر العروي تركيز الفقهاء المسلمين على "تساكن السلطنة كواقع، والخلافة أو الإمامة الشرعية كطوباوية"[163] الأساس الذي أدى إلى فصم الدولة عن المجتمع، وبالتالي إلى عدم إدراك الواقع. ومن ثم ظل المجتمع غير مؤهل للتغيير ولا قابلاً له، بل بقي أكثر تشبثاً بالأعراف والتقاليد كلما برزت،فكرة التغيير أو الإصلاح. ويظهر ذلك واضحاً عندما كان المغاربة يصطدمون بالمجتمعات الأوروبية خلال رحلاتهم مبعوثين رسميين لقضاء مهام خاصة بالسلاطين.

(163) عبد الله العروي، مفهوم الدولة، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1981، ص. 156.

الفصل الثالث

الدبلوماسية المغربية خلال العصر الحديث
أداة نمو أم مؤشر تجاوز؟

ارتبطت حيوية أوربا خلال العصر الحديث بميلاد الدولة الوطنية الحديثة المتخذة للمبادرة والمستعينة في تنفيذها للمشاريع بأدوات ومؤسسات هادفة. وشكلت الدبلوماسية العنصر الأساسي والفعال في محاولات أوربا اكتساح العالم. وكان المغرب من البلدان التي ارتبطت قديماً بعلاقات متنوعة مع البلدان الأجنبية لدرجة جعلت عبد الرحمن بن زيدان يرى في كثافة هذه العلاقات وتنوعها مؤشراً لعظمة المغرب وعزته. يقول ابن زيدان: "الكتب التاريخية طافحة بأخبار العلائق السياسية بين المغرب وبين دول الأجانب على اختلاف أجناسهم وبلادهم، وذلك ما رفع رأس المغرب العزيز عالياً بين الدول الأخرى، وجعلها تتنافس في التودد إليه، وتتبارى في مصافحته بيد السلم وحسن التعاون"[164]. ولكن إلى أي حد يمكن قبول هذا الطرح؟ وهل حقاً كانت للمغرب آلة دبلوماسية فعالة استخدمها السلاطين في علاقاتهم بأوربا؟ أو أن محاولاتهم ظلت محدودة ومتجاوزة؟

1 - قراءة في المصطلحات

تزخر الرسائل الرسمية بالمصطلحات الكثيرة التي تحيل على السفارة: سفير، مبعوث، قونصو، باشدور. فكلمة سفير في الاصطلاح العربي القديم تعني الرسول المصلح بين القوم، وجمعها سفراء؛ ويقال سفر بينهم يسفر سفراً وسِفارة

---

(164) عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة...، مصدر مذكور، ج 1. ص. 276.

وسَفَارة، أي أصلح. وفي حديث علي لعثمان أن الناس قد استسفروني بينك وبينهم، أي جعلوني سفيراً. وسفرت بين القوم إذا سعيت بينهم في الإصلاح. لقد اقتبس ابن عثمان الكلمة الإسبانية في صيغة الجمع "لنبشدريس": "أمر جميع من عنده (الملك الإسباني) من وفود طواغي الكفرة ويسمونهم لنبشدريس"[165].
ويظهر أن ابن عثمان استعمل الكلمة كما سمعها؛ ولجأ من جهة ثانية إلى إدراج التمييز الحاصل في إسبانيا بين "لنبشدوريس ذي فميلية" - وقد عبر عنها ابن عثمان بالقرباء: "ويسمونهم لنبشدوريس ذي فميلية، المعنى القرباء إليه - والسفراء العاديّين بالإضافة إلى سفير البابا، ويسمى "نبشدور الباب ويسمى النونسي". ثم حدد ابن عثمان مهام نبشدور في الوساطة بين سلطات بلده وسلطات البلد الذي يعين فيه، وبين أن هذا النبشدوريس يقيم لمدة طويلة في البلد الذي عين فيه: "وهؤلاء يردون بقصد المقام بديارهم وسائط بين ملوكهم وبين الطاغية فيما يعرض لأحدهما عند الآخر، فيقيم أحدهم العشرة أعوام أو نحوها ويأتي من يخلفه"[165].
واستعمل السلاطين كلمة **قونصو** عند كلامهم عن ممثلي البلدان الأجنبية بالمغرب. فقد خاطب سيدي محمد بن عبد الله ديوان الأقاليم المتحدة في شأن دي مطري قائلا:

> إلى جماعة الإصطادوس، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإن قونصوكم دي مطري كبر سنه وتعددت منفعته لكم و لم يوافق خاطرنا. والذي يعجبنا هو أن تجعلوا في موضعه التاجر ككلير الذي هو خليفة قونصكم بثغر أسفي وهو من دينكم. وقد قام ببلادنا اثنا عشر سنة ولا رأينا فيه إلا ما يعجبنا. وقد صنعنا مرسى جديدة تسمى بالصويرة... والذي يعجبنا منكم هو أن تامروا قونصكم يشيد بها داراً ويستقر بها كغيره[166].

وعرف ابن زيدان القنصل بأنه "موظف تعينه إحدى الدول في البلاد الأجنبية...، ولا سيما في الثغور، لحماية رعايا دولته المقيمين والعابرين... وينطق به المغاربة "قونصو" ويكتب أحيانا "قنص". واللفظ أجنبي شاع استعماله حتى صار في حكم

---

(165) ابن عثمان، **الإكسير في فكاك الأسير**، الرباط، 1965، ص ص. 96 - 97.
(166) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، سلسلة الأقاليم المتحدة رقم 6969 بتاريخ 12 شتنبر 1766.

العربي"[167]. فكلمة الباشدور دخيلة كما أشار إلى ذلك ابن عثمان. وتعوّد المغاربة استعمال كلمة مبعوث السلطان. فقد استأنس ملوك المغرب تعيين خدامهم وتكليفهم للقيام بمهام محددة لدى الملوك الأجانب. يقول ابن عثمان: "وكنت ممن تفضل الله عليه بالانتظام في سلك خدمته، والاستظلال في ظل سعادته. فبعثني أدام الله أيامه ونصر أعلامه للبلاد الإصبنيولية وإلى عظيمها وأصحبني... عشرة آلاف مثقال من سكته ليأخذ كل أسير حظه من صلته"[168]. لم يألف ملوك المغرب خلال العصر الحديث تعيين سفراء مغاربة قصد الإقامة لمدة طويلة في البلدان الأجنبية على عكس ما كان حاصلاً في الفترة نفسها في أوربا؛ إذ أخذت الدبلوماسية الأوربية مكانة متميزة، لأنها كانت أداة توغل للدولة الحديثة. فالسفارة في أوربا لم تكن عملا معزولاً، بل هي مؤسسة خاضعة للقانون العام الهادف إلى تحقيق المصلحة. وقد وضح الكاتب دي فيكوفورت (MR. De Wicquefort) ذلك في مذكراته عن السفراء فقال: "عوض إعطاء تعريف مدقق للباشدور، أقول بأنني أقصد بها كل الوزراء الذين يعينهم أمراؤهم في البلدان الأجنبية ليقضوا له حاجاتهم بمقتضى ما تخوله لهم أوراق اعتمادهم حسب ما تسمح به القوانين"[169]. والسفراء نوعان: سفراء فوق العادة، وسفراء عاديّون هم الذين تكون إقامتهم في البلدان التي يعينون فيها لمدة طويلة. وأما الصنف الأول، فإنه يكون مكلّفاً بمهمة محددة في الزمان. والملاحظ أن فيكوفورت قدم هذه التحديدات بطريقة عادية، لأن الأمر كان مألوفاً في أوربا؛ على عكس ابن عثمان الذي قدم تعريف الباشادور بنبرة لا تخلو من تعجب وتفصيل حتى لا يترك قارئه في حيرة.

لقد أقحم سلاطين المغرب في مراسلاتهم هذه المصطلحات الدخيلة، وتعودوا استعمال الباشدور عندما يتعلق الأمر بممثلي الدول الأجنبية عندهم. ففي

---

(167) عبد الرحمن بن زيدان، **العز والصولة...**، ج 1. ص. 413.

(168) ابن عثمان، **الإكسير...**، ص. 6 وأحمد الغزال، **نتيجة الاجتهاد**، ص. 42 و 43.

(169) Mr. De Wicquefort, *Mémoires touchant les ambassadeurs et les ministres publics*, La Haye, 1676, p. 3.

رسالة بعث بها محمد بن عبد الله في 17 إبريل 1778 نقرأ: "ونحن معكم على المهادنة المتقدمة التي جددناها مع باشادوركم هنا في العام الفارط والمال الذي ذكر لنا باشادوركم هذا..."[170]. والأمثلة كثيرة في المراسلات الرسمية التي أصبحت تستعمل مصطلح الباشدور للكلام عن المبعوث المخزني إلى إحدى الدول الأجنبية كما يتبين من الرسالة السلطانية الآتية:

إلى جماعة الإصطادوس أصحاب ديوان الفلامنك والمتولين لأمورهم. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإننا وجهنا لكم الذمي إبراهيم بن يدير صحبة خديمنا الباشدور الحاج محمد الرزيني التطواني بقصد قضاء أغراض عرضت لنا ببلادكم. فقفوا في قضائها؛ ولابد. وهذا الأمر في تاسع وعشرين لصفر الخير من عام 1172[171].

إذا كانت كتب الرحلات السفارية تستعمل كلمة **مبعوث** في حديثها عن الخدام الذين يكلفهم السلاطين بقضاء مهام محددة، فإن المراسلات السلطانية كانت لا تتردد في استعمال المصطلحات الدخيلة كالباشدور أو **القونصو** مع وجود اختلاف أساسي. ذلك بأن الباشدور في نظر المسؤولين المغاربة لا يعني أن إقامته تكون لمدة طويلة في البلد الذي يزوره، بل تنتهي زيارته بانتهاء الخدمة المهمة التي بعث من أجلها، على عكس ما كان سائداً في أوربا.

ألا يمكن أن نجد في هذا الاختلاف مؤشراً آخر من مؤشرات التجاوز بين المغرب وأوربا؟ ما طبيعة الدبلوماسية في أوربا العصر الحديث وما أهدافها؟ وهل يمكن الحديث عن دبلوماسية مغربية خارج المحددات التي طبعت علاقات الأمة الإسلامية بالأجانب؟

2 - العلاقات السياسية في الإسلام

ينبثق المبدأ المنظم للعلاقات الدولية في الإسلام من منطق وتفكير القانون الإسلامي المرتبط بالقرآن والسنة. وينطلق هذا المبدأ من كونية الإسلام: فالقرآن لا يتجه للمسلمين وحدهم، بل للبشرية جمعاء. فقد نظم الدين الإسلامي قواعد

---

(170) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي سلسلة 08.01.1 عدد 12637/1.

(171) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي سلسلة 6962 St. G.L بتاريخ 28 غشت 1759.

التعامل بين الأفراد، وقواعد التعامل بين الجماعات المختلفة، في الحدود التي وضعها القرآن في السلم والحرب. وانطلاقاً من هذا، بنى المسلمون علاقاتهم مع الآخر لا على معطيات اجتماعية واقتصادية، ولكن على مواقف الفرد والجماعة وسلوكاتهم اتجاه الإله. ومن هذا المنطلق، برز التعارض بين دار الإسلام ودار الكفر؛ وحدد الدين جوهر علاقات المسلمين بالأجانب. وخلال الفترة الكلاسيكية، عندما كانت الغلبة لصالح العالم الإسلامي، لم يهتم المسلمون بأوربا، لأنها كانت في وضعية لا تخيفهم، مما جعل هشام جعيط يقول: "كل اهتمام بالآخر وتساؤل عنه يعني الخوف منه والانشغال به. وإذا كان الإسلام الكلاسيكي غير مبال بالغرب، فإن ذلك الموقف لا يعني أنه لم يكن يثير فضوله؛ ولكن يعني أنه كان يتجاهله"[172]. وأرجع جعيط حالة تأخر المجتمعات الإسلامية، مقارنة مع أوربا، إلى عجز الحكومات، أي أن مؤسساتها السياسية فشلت في مسايرتها للواقع الجديد. وتفوق أوربا ونجاحها في فرض نوع العلاقات التي ارتبطت بها مع العالم الخارجي جعلها تنتعش وتتغذى وتنمو بعطاءات الثقافات غير الأوربية، مما جعلها تفرض أسلوبها وسيطرتها على العوالم الأخرى[173].

ولاحظ بيرنار لويس الاختلاف الموجود في علاقات الإسلام بالغرب، وأرجع ذلك إلى منطق التمييز بين العالمين: "إذا كان الإسلام هو المعبر الأساسي لتحديد الهوية الإسلامية في علاقته مع "الآخر"، فإن الغرب تعود أن يميز بين الناس حسب معايير أخرى كالانتماء القومي أو الترابي"[174]. واستمر بيرنار لويس في تركيزه على مركزية الإسلام في تحديد وضبط مضامين مجموعة مصطلحات: كدار الكفار و دار الكفر وملوك الكفار. وتتحدث المراسلات الرسمية عن الطاغية، والمقصود بها من لا يتبع القانون ولا الشرع الإسلامي. والملاحظ أن اللفظ قد

---

(172) H. Djait, *L'Europe et l'Islam*, Paris, 1978, p. 21. ("Toute interrogation sur autrui voile une hantise par autrui").

(173) H. Djait, *L'Europe et l'Islam*, p. 10 et 29.

(174) B. Lewis, *Le langage politique arabe*, Paris, 1988.

استعمله القرآن في حق فرعون. فالدبلوماسية الإسلامية لجأت - في نظر برنار لويس - إلى تقسيم العالم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب. وكان المسلمون يستعملون الجهاد ضرورة فرضها القانون والدين. ومن أجل هذا، صار الغرب لا يرى في الإسلام إلا الحرب والمواجهة[175].

وانطلق ماكسيم رودنسون من منطلق مغاير لبيرنار لويس، لأنه حاول أن يدرس مواطن الاحتكاك بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي؛ على عكس هذا الأخير الذي قدم قراءة موجهة للمصطلحات السياسية عند العرب. فقد لاحظ رودنسون أن اهتمام المسيحيين بالعرب جاء نتيجة دخول هؤلاء وسيطرتهم على الأندلس، وبيّن كيف صارت إسبانيا فضاء للاتصال الثقافي المباشر، مما جعل المثقفين المسيحيين يتعرفون المسلمين ويزدادون اقتراباً من الصورة الحقيقية. واعتبر رودنسون حروب الاستردادات عملية أوربية موجهة ضد الإسلام ومدعمة لنفوذ البابوية[176]. وتأثرت علاقات أوربا الصاعدة والمكتسحة للعالم خلال العصر الحديث بالعالم الإسلامي المتراجع. فظهر في أوربا تيار شعبي حقود لا يفصل الإسلام عن الوثنية وينعت الرسول بكل النعوت القدحية. وإلى جانب هذا الموقف العدائي، اهتم مثقفو أوربا بالعلوم الإسلامية واعتنى تجارها بخيرات العالم الإسلامي؛ فاستفادوا من خبراته في الذهب والفضة والجوهرات. وأدت هذه المبادلات إلى الاحتكاك والتقارب، فازداد حجمها وصارت التجارة بحاجة إلى مؤسسات سياسية تحميها. يقول رودنسون: "فأصبحت أوربا في حاجة إلى معرفة العالم الإسلامي، لأن معرفته كانت ضرورية لتجارها وسياسيّيها"[177]. ومن هذا المنطلق، اهتمت الحركة الإنسية بالدراسات عن هذا العالم وشجعته وأولت أهمية للغة العربية التي كانت لغة التجارة العالمية. وقد دار نقاش في أوربا، وخصوصاً في البلاد الواطئة، عن الأسباب التي كانت كامنة وراء اهتمام جامعة ليدن بهذه اللغة. فربط يَان بْروخمان هذا

---

(175) *Ibid.*, pp. 88-110 et 113.

(176) M. Rodinson, *la Fascination de l'Islam*, Paris, Maspéro, 1980, p. 22.

(177) *Ibid.*, p. 59.

السر بتأسيس الجامعة سنة 1574، ورأى الاهتمام باللغة ذا صلة بالصراع الذي خاضه دعاة الإصلاح ضد الكنيسة: "لقد سيطر اللاهوتيون البروتستانت في ليدن... وبطبيعة الحال الاهتمام باللغات التي كان الكتاب المقدس مكتوباً بها. وبما أن العهد القديم كتب باللغة العبرية وبالآرامية، فلاعجب إن ازدهرت دراسة هاتين اللغتين... وبشكل منطقي أوتوماتيكي أدت هذه الدراسة إلى دراسة اللغة العربية"[178].

لقد نفى بروجمان أن يكون لهذا الاهتمام علاقة بالتجارة، مع العلم أن المتاجرة مع العالم الإسلامي في هذه الفترة بالذات كان وارداً. ولجأ هذا المستشرق المتحمس في أحداث نهاية القرن العشرين، والخاضع لمؤثرات الهجرة المغربية الراهنة إلى هولندا، لينفي الحجج التي دونها معاصرو أبي القاسم الحجري، ومؤسسو الاستشراق أنفسهم. وهكذا كتب بروجمان نابذاً ما دونه أربينيوس نفسه في الموضوع: "ولم يكن السبب الأول في الاهتمام الذي أبداه المستعربون الهولنديون باللغة العربية كونها لغة التجارة والدبلوماسية، وذلك بالرغم من إشارة أربينيوس... إلى أهمية اللغة العربية كلغة التجارة في منطقة البحر المتوسط"[179].

يظهر العمل الدبلوماسي ـ من خلال ما سبق ـ عملاً مندمجاً لا معزولاً عن الآلة السياسية التي أصبحت مجسدة في الدولة الحديثة. فالدبلوماسية المغربية لا تنفصل عن واقع العالم الإسلامي المتراجع مقارنة مع أوربا. فبقدر ما كانت هذه الأخيرة حيوية طموحاً مستعدة لملء فراغ تجده، كان العالم الإسلامي يعيش دماراً وتقهقراً. فكيف تجسد هذا على الساحة السياسية؟

---

(178) يان بروجمان، الدراسات العربية في هولندا...، مرجع مذكور ، ص. 10.

(179) المرجع نفسه، ص. 13؛ عبد المجيد القدوري، "أبو القاسم الحجري: اتصالات وسجالات مع مؤسسي الاستشراق في مطلع القرن 17"، في محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، المحمدية، 1996، ص ص. 225 ـ 235.

3 - الدبلوماسية أداة نمو في أوربا

لا تنفصل الدبلوماسية في أوربا عن تزايد الاهتمام بالقانون الدولي والقانون العام خلال القرن السادس عشر، وخصوصاً خلال القرن السابع عشر. فقد ألفت الكتب في هذا الحقل وعمّق المتخصصون والممارسون للدبلوماسية النقاش والتفكير في ميدان كان لا يزال في حاجة إلى تعريف وتحديد. ويمكن تصنيف كتاب فيكفورت في هذا الصدد كما صرح بذلك هو نفسه عندما كتب: "يعترف الجميع بقلة الدراسات في القانون الدولي والقانون العام. ولهذا قررت تدوين بعض الأفكار التي لها علاقة بالسفارة والسفراء"[180]. ولا ينكر هذا الكاتب في "مذكراته..." وجود تآليف أخرى في الموضوع؛ إلا أنها أسهبت، في نظره، في الكلام عن صفات وخصال لا تتعلق بالسفراء وحدهم، بل اهتمت بكل الأطر التي كانت تعمل في القطاع العام: "لقد ألفت مجلدات كاملة عن السفراء المثاليين وجاءت هذه المؤلفات مشحونة بخطابات لا تهم السفراء وحدهم، بل كانت الصفات التي جاءت فيها تنطبق على كل العاملين في الحقل العمومي"[181]. ولاحظ فيكفورت أن تكوين الباشدور يتطلب منهاجاً خاصاً: فالمفروض فيه أن يكون ملمًّا بشروط التفاوض وأن يسهر على حماية مصالح البلد الذي يمثله ودعمها. وبين هذا المؤلف العناية التي أصبحت المؤسسة الدبلوماسية تحظى بها في أوربا حيث وضعت قوانين لحماية السفراء أينما كانوا ومن أي مكان جاؤوا ولو أتوا من بلدان غير أوربية، كما يتبين ذلك من تصريح 29 مارس 1651 الصادر عن السلطات الهولندية:

> سلام على كل من سيقف على هذا التصريح. اعتماداً على ما نصت عليه البنود المسطرة في القانون الحامي والضامن لحقوق الناس، فالمطلوب من كل الدول بما فيها الدول البربرية أن تعمل على احترام السفراء وتوقيرهم وأن تسهر على حمايتهم من كل إساءة. وبمقتضى هذا التصريح، يُمنع منعاً كلّياً على أيٍّ كان أن يعتدي على الباشدورات وأعوانهم وخدامهم أو يسبهم. والمطلوب، على العكس من ذلك، من

---

(180) Mr. De Wicquefort, *Mémoires Touchant les Ambassadeurs et les Ministres Publics*, La Haye, 1776, p. 1.

(181) *Ibid.*, p. 2.

الجهات المسؤولة أن تقدم إليهم الدعم والعون حتى يتمكنوا من القيام بمهامهم في أحسن الظروف[182].

ورأى المؤلف فيكفورت في هذا التصريح ضمانة أساسية مسايرة للعقل السياسي وللقانون الدولي. ولهذا دعا كل الدول للانخراط فيه بما فيها بلاد "البربر"[183]. وبعدما عرّف المؤلف بالباشدور وبالشروط والظروف المصاحبة لهذه المهنة باعتبارها كانت في أوربا مؤسسة تهدف إلى خدمة مصلحة الدولة الحديثة، توقف طويلاً عند الشروط اللازمة لنجاح العمل والفعل الدبلوماسي ولخصها في ثلاثة اتجاهات: في الانتماء العائلي للباشدور، وفي تكوينه ودراسته، وأخيراً في تجربته الخاصة. فإذا كان الانتماء الأسري يساعد الباشدور على أن يكون مؤهّلاً لولوج هذا الحقل، فإن الدراسة تسمح له بالتكوين وبمعرفة ما يلزمه للقيام بمهامه. وأما التجربة، فيستطيع بواسطتها أن يكتسب ما يسمح له باستكمال تكوين شخصيته[184]. وقد قلل المؤلّف من أهمية العنصر الأول، لأن الانتماء إلى النبلاء لا يضمن مسبقاً نجاح الباشدور، لأن الكفاءة والمهارة لا ترتبطان بالانتماء العائلي؛ بل هي أمر طبيعي. وكتب في هذا المعنى يقول: "إني أعتقد أن النسب لا يدخل في شيء في هذه المهنة التي ترتبط بالكفاءة الطبيعية وبمهارة الباشدور. قد يعطيه انتماؤه للأسرة النبيلة الضياء واللمعان؛ إلا أنه سيكون لمعاناً خاطفاً، لأن العمل الحقيقي يظل زهيناً بكفاءته الشخصية. فالنبلاء لا يصلحون إلاّ لتنشيط الحفلات والسهرات لا لإنجاح المفاوضات"[185].

وألح المؤلف من جهة ثانية على أهمية المصلحة والمنفعة بالنسبة للعمل الدبلوماسي، لأن المصلحة هي أساس عظمة الأمراء. وفي هذا الصدد، طالب وفضل إرسال التجار القادرين على كسب المفاوضات عوض إرسال الدوقات ذوي الأصل الأصيل، لأن التاجر يتفاوض من منطق تجاري في حين يتحرك الدوق من منطلقات

---

(182) يمكن الرجوع إلى هذا التصريح الرسمي في: *Ibid.*, pp. 3 - 4.

(183) *Ibid.*, p. 5.

(184) *Ibid.*, pp. 5 - 6.

(185) *Ibid.*, p. 5.

أخلاقية وأسرية. فللباشـدور مسؤولية الدفـاع عن مصالح البلد الذي يمثله والسهر على صيانة هذه المصالح عن طريق اللباقة وحسن التصرف واستخدام المهارات لنجاح المفاوضات. والمطلوب من الدول الأوربية، في رأي فيكفورت، هو تعيين باشدورات ذوي كفاءات ومهارات لا سفراء ذوي انتماءات عائلية (beaucoup d'esprit et peu de naissance). إن نجاح المهمة الدبلوماسية يرتبط بكفاءة السفير وبحسن اختياره. وقد سجل المؤلف أمثلة كثيرة أظهر من خلالها الأخطاء الناجمة عن عدم اختيار الإنسان المناسب. فقد فشلت محاولات لويس الثاني عشر الفرنسي في إقناع أمراء البندقية سنة 1503 بعقد تحالف معه ومده بقدر من المال كان بحاجة إليه، لسوء اختيار لويس الثاني عشر للسفير الذي كلفه بالمهمة وهو جان لافياريس (Jean La Fearis)[186] . فنجاح المهمة يبقى متوقفاً على خبرة الباشدور وتجربته.

وقد كانت المدن الدويلات الإيطالية سباقة إلى الاهتمام بالآلة الدبلوماسية. وكانت تحسن استخدامها لتحقيق مصالحها. فقد ذكر فيكفورت أن الأمراء الإيطاليين اهتموا بتكوين الباشدورات، وكانوا يعينون المبتدئين منهم في مهام لا تتطلب التفاوض ولا تمس المصالح المادية الأساسية، ويكلفون ذوي الخبرة والمهارة بالمهام الصعبة: "أما في البلدان الأخرى، فكان الأمراء يلجأون إلى تعيين الباشدورات المبتدئين. وغالباً ما كانت النتائج غير مرضية؛ ويتحمل المسؤولية في ذلك الأمراء، لأنهم هم الذين قاموا بتلك التعيينات"[187] .

فالسفارة في أوربا مؤسسة اقتصادية بالأساس. لهذا دعم الأمراء إقامة السفراء في البلدان الأجنبية وشجعوها، لأن في استقرارهم مصلحة البلاد. وحث فيكفورت في "مذكرات..." ـه الأمراء على عدم قبول السفراء الذين يلجأون إلى الإقامة الطويلة، لأنهم غالباً ما يكونون جواسيس بلدانهم وعيونها: "تزداد إستفادة

(186) *Ibid.*, p. 14.

(187) *Ibid.*, p. 18.

الأمير بحثه للسفراء عوض استقبالهم، لأنهم يكونون في غالب الأحيان جواسيس"[188].

واعتمدت أوربا على الآلة الدبلوماسية للتوغل داخل العوالم الأخرى. وكان الباشدور أداة لإدراك ذهنية النخبة الحاكمة في هذه العوالم بحكم احتكاكهم بها وخدمتهم لها. وصارت أوربا لا تستطيع الاستغناء عن خدمات دبلوماسييها لأن مصالحها التجارية قد تتوقف. وقد عبر فيكفورت عن ذلك صراحة فقال: "لقد أصبح استعمال الباشدور أمراً لا غنى عنه، لأن المبادلات التجارية بين الملوك لن تتم دونهم"[189]. لنوضح أهمية أعمال الفاعلين الدبلوماسيين ، نقف عند نماذج منهم في المغرب الحديث.

السفير المقيم بالمغرب: ويبستير بلونط (Webster Blount) نموذجاً

ويبستير بلونط هولندي الأصل من مواليد العقد الرابع من القرن الثامن عشر. يعتبر من أهم الفاعلين الدبلوماسيين الذين تعامل معهم المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، مثل بلاده وبلدان أخرى بالمغرب خلال مدة طويلة - سبع وثلاثين سنة (ما بين 1773 و 1810) - وتعرف خلالها إلى ثلاثة سلاطين هم: محمد بن عبد الله والمولى اليزيد والمولى سليمان. بدأ عمله نائباً لقنصو الأقاليم المتحدة العام 1773 - 1778 ثم قنصواً عامّاً في ما بين سنتي 1778 و 1810. وتنقل خلال هذه الفترة بين جميع الثغور المغربية (طنجة وسلا وأسفي والصويرة). وارتبط بعلاقات وطيدة مع سيدي محمد بن عبد الله والأمراء، ومع جميع أطر المخزن المغربي، وحظي بمكانة خاصة ومتميزة جعلت السلطان يخاطبه بما يخاطب به خدامه، كقوله له: "إلى خادمنا القنصو بلونط. السلام على من اتبع الهدى. وبعد؛ أنتم عندنا أعلى مرتبة أجناس النصارى وتنال الخير معنا حتى يتعجب منكم النصارى"[190]. وخاطبه السلاطين والأمراء أيضاً بالتاجر: "نأمر التاجر بلونط

---

(188) *Ibid.*, p. 20.

(189) *Ibid.*, p. 19 et 21.

(190) دار المحفوظات الوطنية لاهاي، قنصلية طنجة، 01 - 02 - 1.

بإعطاء خط يده لصاحبه بالوندريس". وطالب محمد بن عبد الله أن يعطي التاجرَ الإنجليزيَّ الضمانة اللازمة حتى يقتني للسلطان جميع حاجاته على أساس أن يدفع له السلطان ما صرف عندما يصل إلى المغرب. وتوجد لهذا القونصو مراسلات مع قواد المخزن وأطره. فقد كاتبه أبو القاسم الزياني في شأن أمور الأسلحة التي كان سيدي محمد بن عبد الله يريد اقتناءها على يد بلونط. وتقول رسالة الزياني:

إلى ابلنط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فإن سيدنا ـ نصره الله ـ وجهنا لك للعرائش نتوجه معك لحضرته العلية مراكش نتلاقى بها مع سيدنا... ثم إننا لم نجدك بالعرائش، والآن قف على ساق الجد... وتقدم علينا... فإننا في انتظارك. فإياك ثم إياك التراخي... والسلام. في 23 ذي القعدة 1197. كاتب الأوامر الشريفة بلقاسم بن أحمد الزياني(191).

لقد كان بلونط من كبار التجار الهولنديين بالمغرب وأدى أدواراً أساسية في توطيد علاقات الأقاليم المتحدة في المغرب. وكان السلاطين يلجأون إليه لقضاء حوائجهم في هولندا وأنجلترا وجبل طارق وإسبانيا. وكان بلونط يتحرك في المغرب بصفته تاجراً مرتبطاً بالقصر. فقد راسله الأمير مولاي علي الابن الأكبر لسيدي محمد بن عبد الله: "القونصو بلونط. سلام على من اتبع الهدى. وبعد؛ فنامرك أن توجه لحضرتنا العالية بالله الأتاي الذي كنا وصيناك عليه... ويكون جيدا غاية. والسلام"(192). وتذكر رسالة أخرى بعث بها الأمير مولاي عبد السلام أخو مولاي سليمان: "إلى بلونط قونصو الفلامنك. وبعد؛ فأتاي والسكر والمواعين التي ذكرت لنا؛ فإن كانوا تحت يديك، فنامرك أن تدفعهم لخديمنا الحاج محمد الشبليح يقدم بها إلى حضرتنا"(193).

---

(191) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 ـ 02 ـ 1، بتاريخ 23 ذي القعدة 1197/ 1782.

(192) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 ـ 02 ـ 1، بتاريخ مارس / شعبان 1193/ 1779.

(193) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 ـ 02 ـ 1، بتاريخ 10 ربيع الأول 1208/ 1794.

وفي مقابل الخدمات التي كان بلونط يقدمها للسلاطين والحاشية، استطاع أن يكسب حظوة؛ فصار يتاجر في الثغور المغربية بكل حرية، بل بحماية من المخزن كما يتبين ذلك من الرسالة التي وجهها له محمد بن عبد الله يقول له فيها: "إلى القونصو بلونط. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد؛ فقد وصلنا كتابك في شأن السفينة التي وردت من فضالة. وها نحن قد أمرنا خديمنا القائد عمر بن الداودي ألا يشاورنا عليها. فإن أردت أن تسوقها، وجهها لبلادها؛ وإن أردت أن ترسلها فارغة، فأرسلها. والسلام"[194]. لم يكن بلونط يتردد في استعمال أي وسيلة لحماية مصالح التجار الهولنديين وصيانتها. فقد كان يقدم الهدايا للسلاطين والأمراء والقوّاد كما يتبين من الرسالة السلطانية الآتية: "الحمد لله... إلى النصراني بلونط. فقد وصلنا ما وجهت لنا. وقد أعجبنا كثيراً. وأنت عندنا مميز على النصارى لوقوفك في قضايانا والماكانات"[195]. لقد تعرف بلونط عقلية المغاربة، فصار يراسل السلطان في أموره التجارية بالعربية. وكان لا يتردد في مراسلاته في استعمال كلمات لم نتعودها في المراسلات الأجنبية. وهكذا نقرأ مثلا في كلامه عن السلطان: "المقام الذي ارتقى في أعلا الكواكب، الإمام المالك الهمام - سلطان الأنام - مولانا أحيا الله به منار الإسلام، حامي بيضة الإسلام - أمير المؤمنين - المجاهد في سبيل رب العالمين خليفة الله في الخلق - ناصر الحق والهدى، ملاذ المضطرين وعصمة المعتصمين - وكهف الخائفين"[196]. والظاهر أن ما كان يهم بلونط هو المعاملات التجارية، لأنه كان يتوسط للتجار الأوربيين في المغرب. ولم يتردد في مناقشة السلطان في السعر فقال: "إن ذلك السوم - سيدي - يضر بصاحبنا جداً"[197]. وذيل رسالته بتوقيع جاء فيه: "ووقع الرسالة خديم المقام العلي بالله بلونط قونص جنرال

---

(194) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 - 02 - 1، بتاريخ 26 ذي الحجة 1198/ 1783.

(195) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 - 02 - 1، في رمضان 1193/ 1779.

(196) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 - 02 - 1، بتاريخ 22 ذي الحجة 1196/ 1781.

(197) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة ، سلسلة 01-02-1، بتاريخ 18 شوال 1186/1773.

الفلمنك بثغر الصويرة عمرها الله"[197] .

لاشك في أن المدة الطويلة التي قضاها بلونط في المغرب جعلته يتعرف أكثر من غيره إواليات التسيير المخزني، ويرتبط بعلاقات وطيدة مع أطره. وبفضل هذا، حقق هذا القونصو إنجازات كثيرة لصالح التجار الأوربيين، وشارك فاعلاً في أحداث سياسية كثيرة همت المغرب في علاقاته بالأجانب الأوربيين. فقد نجح هذا الدبلوماسي والتاجر الماهر في تقريب المغرب من هولندا وجعل سلاطين المغرب يعطون الجنس الفلامنكي مكانة خاصة كما نصت على ذلك معاهدة الصلح والمهادنة التي وقعها المغرب مع هولندا سنة 1777 عندما زار المغرب وفد من الأقاليم المتحدة برئاسة القائد كنسبرجن (Kinsbergen). واستطاع هذا الأخير أن يعقد الصلح بفضل الدور الذي لعبه بلونط.

- **السفير المفاوض كنسبرجن (Mr. Kinsbergen)**

إلى جانب الباشدور المقيم كانت البلدان الأوربية تلجأ إلى إرسال سفراء في مهام مضبوطة ومحددة في الزمن. وفي هذا الإطار، جاء الفارس كنسبرجن على رأس وفد هولندي من أجل تجديد معاهدة الصلح التي وقعها المغرب مع الأقاليم المتحدة سنة 1752. ونتوفر على معلومات حول تحركات هذا الوفد بفضل التأليف الذي خلفه أحد أعضائه البارون شخونينخ (Baron Schoening)[198] . بالإضافة إلى هذا البارون والفارس كنسبرجن، كان الوفد يضم كلاً من قائد السفينة الأنفتريت (L'Amphitrite) بيشوت (Pischot) والكونت دي بايلاند (De Bay Lond) والكاتب الأول بوكارد (Bogard) وطبيب الوفد باكير (Backer)، بالإضافة إلى القونصو بلونط[199] .

---

(197) دار المخطوطات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة ، سلسلة 01-02-1، بتاريخ 18 شوال 1773/1186.

(198) Mr. Baron Schoening, *Croisières et négociations de Mr. Kinsbergen avec les détails historiques, moraux et politiques sur l'Empereur du Maroc*.

(199) *Ibid.*, pp. 36-37.

قدم صاحب الرحلة البارون شخونينخ رئيس الوفد كنسبرجن بأنه رجل دبلوماسي ماهر وقائد عسكري ذو خبرة كبيرة في الحرب والسلم، قام بعدة رحلات عبر العالم: فقد زار الهند الغربية وخاض حروباً كثيرة في البحر المتوسط على الأتراك والقراصنة[200]. فرئيس الوفد إنسان عملي يشرف بنفسه خلال السفر على تكوين البحارة في السفينة التي كانت مدرسة حربية متنقلة. ساهم في تكوينهم العسكري وتدريسهم الرياضيات والجغرافية والتاريخ[201].

وبين هذا المفاوض مهاراته الدبلوماسية عندما وصل المغرب وبدأ يهيء الجو للمفاوضات. فقد دشن عمله بالإعلان كتابة للسلطات المغربية عن وصول الوفد الفلامنكي، وبين في الرسائل التي بعث بها إلى السلطان المغربي الود والتقدير:

> سيدي. لقد وصلنا إلى المغرب منذ 20 من هذا الشهر وجئنا بهدف تجديد معاهدة 1752 مع جلالتكم (إن أرادت ذلك) مع أسيادنا في الأقاليم المتحدة الذين أعطونا الأمر باسترجاع الأسرى الهولنديين الذين يوجدون في إمبراطوريتكم أولئك الذين حظوا بعفوكم كما جاء في تصريح مارس المنصرم. وفي انتظار ذلك، سيكون لي الشرف التعرّف بجلالتكم. وفي الأخير تقبلوا سيدي أسمى عبارات تقديري واحترامي من سلا على ظهر السفينة الحربية الانفتريت في 25 يونيو 1777. كنسبرجن[202].

وأدّى بلونط دوراً هاماً في المفاوضات: فهو الذي كان يمد رئيس الوفد الهولندي بكل المعلومات المتعلقة بعقلية أطر المخزن ويخبره بتحركات السلطان المغربي كما أشار إلى ذلك كنسبرجن: "بما أن أوامر جلالتكم لم تسمح لي بعد بالنزول إلى الأرض، فإني أستعين بخدمات بلونط وأكلفه بأن يقدم لجلالتكم احترامي وتقديري وتشكراتي على التبريرات[203] التي بعثتم بها إلى بحارتنا"[204]. وكان التنسيق بين

---

(200) *Ibid*., p. 19.

(201) *Ibid*., p. 9.

(202) *Ibid*., p. 43.

(203) توصلت السفينة من السلطان بثمانية عجول واثني عشر كبشاً والدجاج والبيض والخضر والخبز.
Baron Schoening, *Croisières...*, *op. cit*., p. 40.

(204) *Ibid*., p. 45.

الوفد وبلونط محكماً كما تؤكده الوثائق الوطنية بهولندا. فقد أشار كنسبرجن على بلونط بأن يعمل كل ما في وسعه حتى يتم اللقاء بين الوفد والسلطان قبل أن يغادر هذا الأخير سلا: "ما دام الإمبراطور يوجد بسلا، علينا استغلال الفرصة لإنهاء المهمة التي جئنا من أجلها قبل أن يغادر المدينة"[205] . وقد أشار المفاوض كنسبرجن إلى أنه جاء لتجديد معاهدة 1752 وفك الأسرى لا للدخول في نقاش مع السلطان المغربي حول بيع هولندا للمغرب الأسلحة أو السفن أو لإعطاء الهدايا[206] . وتوفق هذا المفاوض في تجديد معاهدة الصلح كما يتبين من الرسالة السلطانية التي أعلنت ذلك: "الحمد لله وحده. وبعد؛ كافة خدامنا بثغر الصويرة المحروسة بالله. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد؛ فاعلموا أننا جعلنا المهادنة مع افلامنك في يوم الأحد رابع العشرين من جمادى الأولى عام 1191، فنامركم أن تتركوا تجار الفلامنك الذين هنالك يحملون سناجيقهم كيف كانوا أولا. والسلام"[207] .

يظهر من النموذجين السابقين سواء من الدبلوماسية العادية أو دبلوماسية ما فوق العادة أن هذه المؤسسة ما هي إلا أداة استعملتها الدولة الحديثة في أوربا من أجل التوغل اقتصادياً وسياسياً في العوالم الأخرى. فكان الباشدور والقنصل يعملان على صيانة مصالحها التي لا تتعارض مع مصالح الدولة التي عينتهما لتمثيلها. وقد سهرت هذه الدولة على تكوين أطرها الدبلوماسية تكويناً يجعلهم قادرين على تحمل هذه المسؤولية القاضية بالتعامل والتفاوض والتناور باسم بلدانهم ولصالحها على حساب الآخرين. فكيف اكتشفت البلدان غير الأوربية هذا المد الدبلوماسي الهادف إلى تسهيل التوسع الأوربي المتزايد؟ وما الحالة التي كانت توجد فيها الدبلوماسية المغربية خلال العصر الحديث؟ وكيف كان المخزن المغربي يكون أطره في هذا الحقل؟

(205) دارالمحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 - 02 - 1، بتاريخ 1777/6/26.

(206) Baron Schoening, *Croisières...* , *op. cit.*, p. 47.

(207) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01 - 02 - 1، بتاريخ 1777/7/23؛ انظر كذلك: Baron Schoening, *Croisières...*, *op. cit.*, pp. 68-69.

4 - الدبلوماسية المغربية وخصائصها الأساسية

- الدبلوماسية في الكتابة المغربية

قليلة هي الأدبيات التي اهتمت بموضوع الدبلوماسية في المغرب، ما عدا محاولات عبد الرحمن بن زيدان الذي أولى الموضوع أهمية وخصص له قسطاً هامّاً من مؤلفاته[208]. وهدف ابن زيدان من هذه التآليف إلى الرد على أولئك الذين تشككوا وشكّكوا في وجود دولة مغربية[209]. وقد رأى في تهافت الأجنبي على المغرب مؤشراً ورمزا لمجده ولعزته. ونبه ابن زيدان من منطلق الزاوية التي حددها لنفسه إلى ضرورة الاهتمام بالعلائق "التي هي جديرة بدرس مستفيض يستنتج منه ما نحن غافلون عنه اليوم، وهو جدير بالدرس والتمحيص"[210]. ولاحظ هذا المؤلف أن علاقات المغرب بالعالم الإسلامي محدودة وتحتاج إلى الاهتمام بها لما تتضمنه من مصلحة للبلاد. وأما علاقاته بالأجانب، فإنها تغلب عليها المجاملات والشكليات. طالب القارئ والمهتم بالتمعن في الألفاظ وقراءة ما بين السطور وتمحيص مدلول الألفاظ ومعاني التراكيب؛ لأنه إذا لم يقم بذلك، فلن يدرك منطقها الدبلوماسي. وبالرغم من اهتمام ابن زيدان بهذا الحقل، فإنه ظل سجين الزاوية التي انطلق منها والتي كانت تتجسد في العمل على إثبات أن دولة المغرب ودولة العلويين بالخصوص كانت كياناً متراصّاً قائماً على أسس ونظم لا يمكن الطعن فيها.

وعلى عكس هذا المؤلف، تناول السلطان المولى عبد الحفيظ أسباب اضمحلال المغرب من زاوية علاقاته بالعالم الخارجي، لأنه أراد فهم العوامل التي كانت وراء انحطاط المغرب، فكتب يقول:

---

(208) عبد الرحمن بن زيدان، العلائق السياسية للدولة العلوية، مخ. خ. ح. رقم 11747؛ العز والصولة في معالم نظم الدولة.

(209) "أما نظم الدولة ذات العزة... موضوع مع شدة الحاجة إليه أغفله المؤرخون والكتاب... حتى توهم الأغمار والأغرار أنه لم تكن لدولة المغرب نظم... ولا قواعد.. ولا إدارة ولا مناهج تدبير الملك مألوفة". (ابن زيدان، العز والصولة...، مصدر مذكور، ج1. ص ص. 3 - 4).

(210) المصدر نفسه، ج 1، ص. 276.

أردنا أن نضع كتاباً يستفيد منه القارئ أموراً كانت في طي الإهمال... والقصد من ذلك هو البحث عن الأسباب التي كانت سبباً لاضمحلال المغرب... بعد أن يعلم القارئ أن الغرض من هذا التقييد ليس هو تتبع سيرة الأجداد وما فعلوا من مصالح الدنيوية...، لأن ذلك مثبوت في عدة تواريخ؛ وإنما المقصود هو التنبيه على ما طرأ عليهم من الحوادث التي صدتهم عن تتبع أوائلهم في السهر على السياسة الخارجية حتى قبلوا شروط الدول الأجنبية[211] .

عاد المولى عبد الحفيظ إلى القرن السادس عشر ليتتبع علاقات المغرب بأوربا، واستعان في تحليله برسائل رسمية تبادلها سلاطين المغرب فيما بينهم وبين العالم الخارجي. واستطاع باستقرائه لهذه المعطيات أن يبيّن أن "**داء العطب قديم**"[212] ، وأن الأسباب التي أدت إلى عقد الحماية ضاربة في أعماق هذه العلاقات التي كانت في صالح أوربا على حساب المغرب، وأشار هذا السلطان إلى أن الداء كان مركّباً ساهم فيه المغاربة والأجانب بالإضافة إلى الوسطاء أهل الذمة.

من خلال هذه التآليف والمراسلات الرسمية، يتبين أن السلطان يظل المنشط الأساسي للدبلوماسية المغربية. وكان يستعين في تحريكها بخدام له يبعثهم إلى البلدان التي يريد الاتصال بها وسماهم ابن زيدان بالسفراء اعتماداً على رسالة إسماعيلية إلى شريف مكة: "واخترنا للسفارة... وصيفنا الحاج أحمد... وقد كان قبل هذا بالبلاد المشرقية... وتردد ما بين حواضرها وبواديها سفيراً"[213] . فهل كان لهؤلاء المبعوثين تكوين يؤهلهم للقيام بمهام السفارة؟ الملاحظ أن المغرب لم يهتم بتعيين سفراء لتمثيله عند ملوك أوربا على أساس أن يقيموا عند هؤلاء لمدة طويلة، بل كان يرسل مبعوثين عنه لفترات قصيرة جداً وفي مهام مضبوطة؛ وغالباً ما كان هؤلاء السفراء يستعينون في رحلاتهم بخدمات القناصل المعتمدين بالمغرب أو بالتجار الأجانب، بالإضافة إلى أهل الذمة. واعتادوا التنقل في السفن الأوربية. وهكذا كانت هذه السفارات تذهب إلى أوربا في جو رسمي، معروف في الداخل والخارج. وعند

---

(211) المولى عبد الحفيظ، **داء العطب قديم**، مصدر مذكور ، ص. 2.

(212) اختار المولى عبد الحفيظ هذه الجملة المعبرة عنواناً لمؤلفه.

(213) ابن زيدان، **العز والصولة...**، مصدر مذكور ، ج 1، ص. 284.

وصولهم، يجدون برامج تحركاتهم مسطرة ومضبوطة ينتقلون من مكان إلى آخر وفق ما رسمته الدولة المضيفة. ومن ثم ظلت معرفتهم بهذه المجتمعات سطحية، ولا سيما أن تكوينهم ظلّ معتمداً على المألوف وعلى التجربة.

نماذج من السفراء المغاربة

من الصعب الإقرار بوجود آلة دبلوماسية على غرار ما كان حاصلاً في أوربا، حيث كانت هذه المؤسسة تعكس مظهراً من مظاهر حيوية الدولة الحديثة وطموحاتها، في حين كانت السفارة في المغرب تندرج ضمن منطق إسلامي معهود في تاريخه: الرحلة. ولن نقف عند أبعاد هذه الرحلات وأصنافها، ولكن سنكتفي بالرحلة السفارية على حد قول محمد الفاسي[214] التي تهدف إلى القيام بسفر إلى دولة أجنبية من أجل قضاء أمر سلطاني. فهي عمل مؤقت وبأمر رسمي. وانطلاقاً من هذا، نتساءل: هل نستطيع، ونحن نفكر في أبي القاسم الحجري وأحمد الغزال وابن عثمان والزياني وغيرهم، الحديث عن دبلوماسية مغربية متراكمة وفعالة أو أن الأمر لا يزيد على عمل معزول، وبالتالي فإنه يدخل ضمن المنطق المخزني المبني على السخرة؟

قد نتساءل عن الأسباب التي جعلت أحمد المنصور الذهبي - بالرغم من شهرته ومكانته الدولية - لا يفكر في خلق إطار لسفير المقيم في البلدان الفاعلة والمتحكمة في العلاقات الدولية في نهاية القرن السادس عشر: العالم العثماني وإسبانيا وأنجلترا وهولندا. ولاشك في أن لطبيعة السياسة التي اتبعها المنصور دوراً في ذلك. فقد اتبع هذا السلطان في علاقاته بجيرانه سياسة التوازن على أساس استغلال الظروف والبحث عن المصلحة من أجل التقرب من هذا البلد أو ذاك: فبعد معركة وادي المخازن مباشرة، تقرب أحمد المنصور من إسبانيا لمعاكسة الأطماع التركية. ولما بدأ يخطط لحملة السودان، انتهز فرصة انهزام إسبانيا أمام

(214) محمد الفاسي، "الرحلات السفارية المغربية"، مجلة البينة، العدد 6، أكتوبر 1962، ص. 14؛ و انظر كذلك ابن عثمان، الإكسير...، مصدر مذكور ، المقدمة (ر).

الجيوش الأنجليزية في الأرمادا سنة 1588 ليدخل في مفاوضات مع الملكة الأنجليزية من أجل استعادة عائلة دوم أنطونيو إلى العرش البرتغالي على حساب فليب الثاني الإسباني. فلم ينس هذا الأخير هذا الموقف العدائي الذي تبناه أحمد المنصور، ولذلك وقف فليب الثاني ودعم ثورة الناصر في الريف وكادت هذه الثورة ان تقضي على دولة المنصور.

في هذا الجو المشحون بالمناورة تدخل السفارة التي أرسلها أحمد المنصور إلى إيليزبيط. فما المهام التي أنيطت بهذه السفارة؟ ومن هذا السفير؟ فالمبعوث هو عبد الواحد بن مسعود بن محمد بن عنون الأصيلي. وقد ألحت المصادر التي ذكرته على شخصيته المتميزة بالحزم والعزم والنباهة، وكان من رجالات المنصور المرموقين[215]. كلفه هذا الأخير بمهام كثيرة منها الكتابة وتسيير بيت المال. وكان يراسل المنصور بالزمام أو الشفرة، وهو الخط الذي ابتدعه المنصور؛ وكان يراسل به الأمراء ورجالاته، وكان خطه مرموزاً لا يفهمه إلا المعني بالأمر. وقد بين محمد حجي أن المنصور كلف هذا السفير أثناء توجهه إلى أنجلترا بثلاث مهام رئيسة: الأولى سياسية لا نعرف عنها الكثير ويظهر من خلال رسالة بعث بها أحمد المنصور إلى إيليزابيط أنه قد بعث به قصد التشاور: "وعرفناكم لتعلموا أننا حملناه إلقاء ذلك إليكم، وأمرناه ببثه عليكم. والمراد أن تصغوا إلى ما استودعناه تبليغه"[216]. والملاحظ من خلال هذه الرسالة، التي جاءت في الجزء الثاني من المصادر الأصلية المخصصة للأرشيف الأنجليزي، أن الأمر قد بلغه السفير شفهياً. ويبدو أن الأمر يتعلق بالتحضير المشترك لحرب ضد إسبانيا. ومما يرجح ذلك محاولة الأسطول الإسباني إغراق السفينة التي كانت تحمل الوفد المغربي المتجه إلى أنجلترا[217]. وأما المهمة الثانية التي كلف بها ابن مسعود، فكانت اقتصادية. فقد أمر بتعرف السوق

(215) ابن القاضي، درة الحجال...، مصدر مذكور، ج 3، ص. 143؛ محمد حجي، الحركة الفكرية...، مرجع مذكور، ج 2، ص ص. 387 - 389.

S.I.H.M., 1ère série, Angl., T. II, pp. 159-160, 164-165, 168 et 173.

(216) *Ibid.*, p. 160.

(217) *Ibid.*, p. 168.

الأنجليزية ومدى رواج البضائع المغربية خاصة السُّكر والعمل على استرجاع الأموال المغربية التي كانت بذمة التجار الأنجليز. واهتم الوفد المغربي في المهمة الثالثة بتعرُّف الاختراعات الأنجليزية المتعلقة بأمور البحر وحاول السفير اقتناء الرسوم والآلات التي قد تساعد القوافل في توجهها في الصحراء[218]. لقد ارتبطت هذه السفارة بظروف خاصة تميزت بإرادة المنصور التعامل مع إيليزبيط ضد فليب الثاني وبقي الوفد المغربي في أنجلترا مدة ستة أشهر. وبالرغم من حيوية السفارة، فإنها ما زالت بحاجة إلى التنقيب والبحث قصد استكشاف أسرارها في الأرشيف الأنجليزي والإسباني، ولا سيما أن ابن مسعود لم يترك مؤلفات قد تساعد على إدراك جوانب من شخصيته أو بعض أهداف رحلته، على عكس أبي القاسم الحجري.

شكلت سفارة أبي القاسم الحجري المعروف بأفوقاي إلى أوربا في مطلع القرن السابع عشر حدثاً متميزاً بالمقارنة مع النماذج الأخرى. هاجر من الأندلس زمن أحمد المنصور واشتغل عنده مترجماً واستمر مع ابنه زيدان؛ فكان ـ على حد قوله ـ "كاتب سره (يقصد السلطان) باللسان العجمي"[219]. وعلى عكس السفراء الآخرين، ذهب الحجري إلى أوربا ساعياً إلى إنصاف الطائفة الموريسكيَّة التي تعرضت لنهب أرباب السفن الفرنسية الذين التزموا بنقل أفرادها إلى المغرب "وبعدما أخذ (فليب الثالث) كل ما كان لهم، أخرجهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين وأربعة من تلك السفن المنهوبة خرجت بالمغرب"[220]. لقد سافر الحجري ملتزماً بالقضية الموركسية لا مبعوثاً للسلطان في مهمة خاصة به. ويختلف الحجري عن المبعوثين الآخرين بكونه يحسن اللغات الأجنبية كما أشار إلى ذلك بنفسه عندما أجاب الأمير موريس الهولندي الذي استفسره في موضوعها، فقال له بأنه يعرف "العربية، ولسان اشبانية، ولسان أهل برتقال؛ وكلام الفرنج نفهمه ولكن ما نعرف

---

(218) محمد حجي، الحركة...، مرجع مذكور، ج 2، ص. 388.

(219) أبو القاسم الحجري، العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، مخ: خ. ح، ج 87، ص. 245.

(220) أبو القاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء، 1987، ص. 17.

نتكلم به"[221]. بالإضافة إلى هذه المعطيات، فإن أفوقاي أقام مدة طويلة في أوربا مقارنة مع السفراء الآخرين، ودخل في اتصال مباشر مع المستعربين هناك سواء في فرنسا أو في هولندا زيادة على إسبانيا التي عاش فيها وكان يعرفها. ولهذه الأسباب، استطاع أن يتعرف أوربا التعدد والاختلاف، أوربا العلماء الذين ناقشهم وناقشوه وارتبط معهم بصداقة وطيدة كما يتبين من الرسالة التي بعث بها أفوقاي لجوليوس وقال فيها:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله.

أما بعد؛ فإني قبلت كتابك وفرحت به... أما ما ذكرت في كتاب "مروج الذهب" أنه لم يبلغ إليك وأنه نهبه العرب من أيدي حامله، فذلك عادتهم في هذه البلاد وفي هذا الزمان؛ وفرحت إذ جاء في غرضك "الكتاب المستعيني في صناعة الطب" ما زلت تكتب لك في شأنه شيئاً، لأن في غالب ظني أن النسخة التي بيد صاحبنا الطبيب ظهر لي أنها مكتوبة نحو الأربع مائة سنة، وهو هذا الكتاب مقبول عند المسلمين[222].

انطلاقا من خصوصية الظروف التي ذهب فيها الحجري إلى أوربا ومن التزامه بالقضية المورسكية واستعماله للغات، استطاع هذا السفير أن ينفذ إلى عمق الأشياء في المواضيع التي تناولها في المناظرات التي خاضها مع علماء أوربا الدينيين أو أثناء تنقلاته داخل هذه المجتمعات. غير أن سفارته تبقى تجربة استثنائية لعدم تحكم المنطق المخزني فيها، عكس ما حصل مع السفراء الذين أتوا بعده.

لم يهتم المخزن المغربي بمسألة تكوين الأطر التي كان يكلفها بمهام في البلدان الأجنبية. وكان هؤلاء عموماً يتبعون الأسلاك التعليمية المعهودة. وحتى نكون أكثر اقتراباً، سوف نأخذ نموذجين اعتُبرا من مؤسسي الدبلوماسية المغربية خلال العصر الحديث وهما: محمد بن عثمان المكناسي وأبو القاسم الزياني. واخترنا هذين العالمين، نظراً للسمعة التي حظيا بها وللمكانة العلمية التي صاحبتهما

---

(221) المصدر نفسه، ص. 108.

(222) رسالة من أفوقاي لجوليوس بتاريخ 10 جمادى الأولى عام 1033 الموافق 2 مارس 1624. محفوظة بخزانة جامعة ليدن، عدد OR 1228، رقم 320.

بالإضافة إلى التكامل الدبلوماسي بين الرحلين حيث اهتم الزياني بالشؤون الشرقية، في حين كلف ابن عثمان أساساً بعلاقات المغرب مع أوربا. وإلى جانب هـذا كلـه، ظهرت منافسة بين الرحلين أشار إليها الزيـاني بقولـه: "ولما أتيـت أول يـوم لبيـت الشيخ كمال...، وجدت صاحبنا السيد محمد بن عثمان سبقنـي إليـه، حيـث بلغـه اختصاري للتأليف، و لم يجد إليه سبيلاً، فبلغ به الحسـد كـل مبلـغ"[223] . لقـد كـان هذان السـفيران من حيـل الغـزال وسـكيرج، وتعلمـا علـى الشـيوخ أنفسـهم وفي المساجد والمدارس نفسها وبالمناهج والطرق نفسها، وكانت المنافسة بينهم قائمة[224]

واخترنا ابن عثمان والزياني، لأنهما خدما لمدة طويلة ثلاثة ملوك هـم: محمـد بـن عبد الله والمولى يزيد والمـولى سـليمان. وإذا كـان ابـن عثمـان يجسـد المدينـة، فـإن الزياني كان رمزاً للبادية والجبل.

كان أبو القاسم من قبيلة بربرية هي زيان، ومـارس والـده التجـارة ورافقـه إلى الشرق وسنه لا يتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة. وتابع الزياني دراسـة عاديـة حيـث أخذ "**الأجرومية**" و "**ابن عاشر**" على يد شـيخه أحمـد بـن الطـاهر الشـرقي، وقـرأ "**الرسالة**" على الطيب القادري، ثم "**مختصر خليل**" و"**الألفية**" بـالقرويين وبمدرسـة العطـارين، ودرس "**البخـاري**" و"**الشـفا**" لعيـاض علـى الفقيـه التـاودي. ولمـا علـم الزياني التحاق أقرانه بالخدمة المخزنية، تعلق اهتمامه بهـا وصـار يعمـل كـل مـا في وسعه لتحقيق ذلك بالرغم من معارضة والده له:

> يا بُنـيَّ! اتق الله واشتغل بما يعنيك، ولا تقدم ما يضنيك، فما لي سواك، ولا أستريح حتى أراك... فساعدني إلى أن تجعلني في رمسي، فقلت إن رفقائي ومن كنت آنس بهم ذهبوا، وحصلوا على ما طلبوا، وبلغـوا الغايـة في العز والجـاه، وعلـى مـن أقيـم وأترجاه؟ وأية معصية في هذا المجال؟[225] .

---

(223) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1967، ص. 104.

(224) المصدر نفسه، ص ص. 60 - 61.

(225) المصدر نفسه، ص. 61.

أما أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي الذي لا نعرف تاريخ ولادته بمدينة مكناس، فعُرف والده مقرئاً وواعظاً في أحد مساجد هذه المدينة التي كانت أيام المولى إسماعيل عاصمة المغرب وقبلة للعلم والسياسة. درس المبادئ الأولى على والده قبل التحاقه بفاس ليأخذ العلم مع أقرانه أو كما قال الزياني متحدثاً عن هؤلاء بمن فيهم ابن عثمان: "هؤلاء كانوا أقراننا ومعاصرين لنا ومشاركين معنا في القراءة والأنس"(226) . التحق ابن عثمان بالقصر واشتغل مقرئاً وسارداً للكتب قبل أن يقربه محمد بن عبد الله إليه ليعينه كاتباً خاصّاً له. واستطاع - بفضل فطنته - أن ينال حظوة، واكتسب تجربة كبيرة في الحقل الدبلوماسي، مما مكنه من أن يكون مؤسِّساً لهذه المؤسسة في المغرب. واستطاع أن يربط علاقات وطيدة مع الباشدورات والقناصل، واستغل إرادة السلطان محمد بن عبد الله الانفتاح على العالم الخارجي ليعمق هذه العلاقات إلى أن صار الناطق الرسمي للسلطان مع القنصليات الأجنبية كما يتبين من الرسالة الآتية: "إلى كافة القونصوات. سلام على من اتبع الهدى. وبعد؛ وصلنا كتابكم وعرفنا جميع ما فيه من عرض أموركم كلها على كاتبنا الفقيه محمد بن عثمان إن عرض لكم أمر منها وهو يذكرها لنا عن يده ياتيكم الجواب عنها. فعلى ذلك عملكم. في 22 ربيع الثاني 1207 هـ"(227) . وارتبط ابن عثمان بعلاقات خاصة مع إسبانيا كما أشار إلى ذلك أرياس بلاو. لقد اعتبرت وفاة ابن عثمان خسارة كبيرة لا للمغرب وحده، بل للأجانب أيضاً الذين اعتبروها أعظم ضياع(228) .

وقد تكون السفراء المغاربة في مهنتهم عن طريق التجربة والممارسة الميدانية، فلم يهتم سلاطين المغرب بدبلوماسية الإقامة في البلدان الأجنبية و لم يعطوا مبعوثيهم تكويناً خاصّاً. فقد سافر الزياني إلى المشرق وقام فيه بمهام سلطانية و لم يصل إلى

---

(226) المصدر نفسه.

(227) دارالمحفوظات الوطنية بلاهاي، قنصلية طنجة، سلسلة 01. 02. 1، رقم. 34.

(228) Don Mariano Arribas Palau, *Cartas Arabes De Marruecos en Tiempo de Maawlay Al Yazid* 1790-1792, Tetuan, 1961, pp. 165-168, 171-173.

المستوى الذي اكتسبه ابن عثمان في المجال الدبلوماسي، ولكنه تجاوزه علماً. فكانت له نقاشات كثيرة في المناطق التي زارها. وتعتبر رحلته "الترجمانة الكبرى" مرآة لما ذهبنا إليه: فهي عبارة عن موسوعة تناولت قضايا كثيرة، وإن غلب على موضوعها التشتت وانعدام التنظيم والوحدة؛ وهي تزخر بمعلومات كثيرة في التاريخ والجغرافيا وعلم البحار. وتمت تنقلات الزياني داخل دار الإسلام، لذا لم يكن يشعر بالغربة ولا بالغرابة. لكنه لاحظ وجود اختلاف بين المناطق الإسلامية؛ إلا أن خطابه يظل خاضعاً للمنطق الإسلامي الموحد، لأنه لم يكن في حاجة إلى استعمال أسلوب الحذر والمفاضلة على غرار السفراء الذين تنقلوا في أوربا. ومن هذا المنطلق، كان الزياني يختلف عن ابن عثمان الذي كان متشبعاً بالعمل الدبلوماسي بحكم احتكاكه بالباشدورات والقناصل، إضافة إلى التنقلات التي قام بها في إسبانيا، وفي نابلي. فقد اتسمت مواقفه بالانفتاح والتسامح. ومع ذلك، تميزت كتاباته ـ أثناء الحكي ـ بأسلوب المفاضلة، والتشبث بالمواقف المسبقة.

فمن خلال ما سبق، يظهر أن المغرب لم تكن له آلة دبلوماسية هادفة إلى تحقيق مصالح متداخلة اقتصادياً وسياسياً ومعتمدة على فاعلين سياسيين لهم تكوين خاص وإطار معين يتحركون فيه من أجل الدفاع عن مصالح المغرب ومنافعه، بل كانت دبلوماسية مندرجة في منطق السخرة المخزنية. لذلك لم تكن دبلوماسية تعتمد التراكم والتكامل، بل جاءت مشتتة ومرتبطة بالمهمة وبتكوين المبعوث نفسه. فرأينا اختلاف الحجري عن الزياني، واختلاف هذا الأخير عن الأول وعن ابن عثمان المكناسي. وعلى العكس من هذا، كانت بلدان أوربا تستخدم الدبلوماسية لتحقق أهدافها التي كانت تتمثل في فرض منطق غلبتها، والعمل على خلق الأسلوب الملائم لهذه الغلبة وهذا التجاوز. وفي هذا الصدد، اهتمت الدول الأوربية باستعمال الإطار القانوني القادر على محاصرة وتطويق العناصر التي كانت تعارض مصالحها. ولأجل الوصول إلى هذه الغاية، لجأت إلى دعم وفرض أسلوب المعاهدات والمهادنة مع العوالم الأخرى، بما في ذلك المغرب خلال العصر الحديث.

5 . المهادنة والمعاهدة أو الإطار القانوني للتجاوز الأوربي

ـ ملاحظات عامة

تميزت مرحلة العصر الحديث بتوقيع المغرب لعدد كبير من المعاهدات مع العالم الأوربي. وغابت هذه الأوفاق مع العالم الإسلامي؛ ويرجع هذا الغياب إلى أهمية انتماء المغرب إلى هذا العالم. ومن ثم لم يكن بحاجة إلى تعاهد أو تعاقد، لأن أرض الإسلام كلها داره، لا لأن كل أمير مسلم يعتبر نفسه هو الأمير الشرعي كما اعتقد برنار لويس[(229)] . وقد تهافت الأجانب على التعامل مع أحمد المنصور بعد معركة وادي المخازن؛ إلا أن الأزمة التي زعزعت البلاد بعد وفاته فتحت الباب لطموحات القوى المحلية التي أصبحت تغازل الدول الأجنبية وتعمل على استمالتها لتدعم حركتها. وفي هذا الاتجاه، حاول السلطان زيدان توقيع معاهدة مع البلاد الواطئة سنة 1610، واستعمل الديوان الفلامنكي الإغراءات المادية حيث أعطى هدايا للوفد المغربي الذي كان مسؤولاً عن التفاوض. وهكذا توصل أحمد بن عبد الله المبعوث السلطاني بسلسلة من ذهب بقيمة 1600 فلوران وبقطع من الثوب بالثمن نفسه. وأخيراً، توصل بميدالية ذهبية لم يحدد التقرير ثمنها. وأما الذمي ساموبل بلاش، فقد توصل بدوره بسلسلة ذهبية بقيمة 600 فلوران وبميدالية ذهبية، وتسلم أخوه موسى بلاش ميدالية ذهبية[(230)] . والملاحظ أن الوفد المغربي لم يسهر و لم يشارك حسب التقارير الهولندية في تحرير المعاهدة، بل كان الوفد الهولندي هو الساهر على تحرير بنودها: "لقد بين السيدان سيم ومانيوس أنَّ سفير الملك المغربي ووكيله ساموبل بلاش قد اطلعا على الترجمة الإسبانية لبنود المعاهدة التي حررتها بالهولندية الأقاليم المتحدة وبعدما اطلعا عليها وقبلاها وأيدا ما جاء فيها". واكتفيا بالتنبيه إلى الاهتمام بالألقاب السلطانية وتساءلا عن اللغة التي ستحرر بها[(231)] .

فيظهر أن المغاربة، على عكس الأوربيين، لم يكونوا يولون أهمية لمضمون

---

(229) B. Lewis, *Le langage politique arabe*, pp. 127-128.

(230) *S. I. H. M.*, 1ère série, Pays-Bas, T. I, pp. 586-587.

(231) *S. I. H. M.*, 1ère série, Pays-Bas, T. I, p. 571.

بنود المعاهدات، وكانوا يوقعونها من أجل الحصول على هدايا وفوائد مادية. واهتم السلاطين بالمعاهدات من أجل الحصول على العدة والأسلحة التي كانت تستخدم أساساً في الداخل ضد تمردات القبائل. بعث المولى إسماعيل رسالة للأقاليم المتحدة سنة 1682، يجيبهم فيها عن طلبهم الصلح، فكتب يقول:

إلى عظماء الروم بفلامنك الإسطادوس... اعلموا أنه بلغنا كتابكم... ووقعنا على ما طلبتموه منّا من الأمان في البحر وفي مراسي طاعتنا... وقبلنا منكم الأمان الذي سألتموه منا على مقتضى الشروط التي اشترطتموها مع أهل الجزائر[232]، حسب ما طالعناها ورأيناها، لكن سارعوا لنا بستمائة قنطار من البارود الجيد الخالص ياتينا عزما عزما في سفينة من سفنكم وبادروا لنا بقرّوصة جيدة أحببناها لأنفسنا... وكتابنا هذا أمان سفينتكم وأمان من ياتي منكم... واكتبوا لنا بخط أيديكم الشروط التي تشترطونها على أنفسكم واطرحوا عليها علامة أيديكم وفي اليوم الذي تصلنا شروطكم على هذه الصفة، نبعث لكم نحن كتابنا المعظم بقبول ذلك منكم. ومن ذلك اليوم ينبرم الأمر وينعقد الصلح بيننا وبينكم... في 10 ربيع الأول عام ثلاثة وتسعين وألف[233].

فالملاحظ أن السلطان غير مبال ببنود المعاهدة، ولكنه متحمس وملح على العدة والعربة. وكان المولى إسماعيل أكثر وضوحاً في إلحاحه على الأسلحة في رسالة بعث بها في 15 صفر 1097: "إلى ديوان الإسطادوس... فإنه كان يهودي أبوابنا... ميرمان يطلب منا المهادنة معكم وما زال يطلب... نحو العامين... ووقعت تلك المهادنة... و لم تعتنوا بأمور العدة المتفق عليها ولا البارود... وهاذان هما الأكيدان عندنا"[234]. واهتم محمد بن عبد الله بالأسلحة والعدة، لكنه كان أكثر اهتماماً بتجهيز المراكب الجهادية أو ما كانت تسميه الوثائق بـ "تقاييد إقامة مراكب سيدنا الجهادية"[235].

من الصعوبات التي كانت تعترض العمل الدبلوماسي المغربي وتجعله يترك

---

(232) انظر المعاهدة بالفرنسية بالملاحق.

(233) دار المخطوطات الوطنية بلاهاي، سلسلة 08. 01. 1، رقم 51/ 12578.

(234) دار المخطوطات الوطنية بلاهاي، سلسلة 08. 01. 1، رقم 5/ 12578.

(235) انظر مخطوط خزانة ليدن، رقم OR 1353، الرسالة رقم 13، بتاريخ 15 يونيو 1785.

المبادرة فيه لأوربا مسألة اللغة التي كانت تحرر بها المعاهدات. لقد اهتمت الجامعات الأوربية خلال عصر النهضة بتدريس اللغة العربية، لأنها كانت لغة التجارة وعن طريقها يمكن تعرّف مضامين الكتب العلمية كالطب والحساب. فكان المستعربون يكلفون بالترجمة، فتعود الأوربيون تحرير المعاهدات في لغاتهم على أساس أن يترجموا بنودها إلى العربية، واكتفى المغاربة بهذه الوضعية، ولم يهتموا بتعلم اللغات. ويمكن اعتبار هذا الموقف مؤشراً من المؤشرات التي تبين تجاوز أوربا للمغرب خلال العصر الحديث، لأنها ستعمل عن طريق تحرير المعاهدات على ضبط مضامين بنودها لتجعل منها الإطار القانوني الذي سيمكنها من تطويق المغرب ومحاصرة سفنه الجهادية تدريجياً.

- قراءة في نماذج من المعاهدات

لقد ازداد اهتمام أوربا بالمعاهدات خلال العصر الحديث وأصبحت كل دولها تسعى في أن تعمل على عقد المهادنة والصلح مع المغرب. وكلما خظي بلد بامتيازات، سارع بلد آخر للمطالبة بالشروط نفسها. وعرف هذا التسابق ذروته زمن سيدي محمد بن عبد الله الذي اتخذ من الانفتاح على أوربا الدعامة الأساسية في سياسته، والقراءة المتأنية لعينات من بنود هذه المعاهدات تبين لنا بأن هم أوربا الأساسي هو الدفاع عن مصالحها وامتيازاتها التجارية والأمنية والعمل على استخدام القانون للحد من أنشطة المغرب القرصانية وإرغامه على فتح البلاد لتجارها.

ففي المعاهدة التي وقعها السلطان زيدان مع الأقاليم المتحدة سنة 1610، حاول الطرف الهولندي ضبط المسطرة الإجرائية؛ وأكد تقرير توصل به الديوان الفلامنكي قبل عقد المعاهدة أن السلطان المغربي متحمس لهذا التعاون. إلاّ أن الجانب الهولندي أعطى نفسه الوقت اللاّزم للتفكير من أجل دراسة الاقتراحات التي تكون في صالح التجار. ومن أهم هذه الاقتراحات حرية التجارة، وحق استعمال الموانئ المغربية، وحماية البضائع ومصالح التجار، وتخلي المغاربة عن حجز

السفن والبضائع الهولندية دون قانون، والتزام هولندا بمساعدة وتلبية طلبات المغرب (بيعه الأسلحة) على قدر ما تسمح لها به الوضعية[236].

وعملت الأقاليم المتحدة على عقد معاهدة جديدة مع المولى إسماعيل سنة 1684 على غرار المعاهدة التي أبرمتها مع الجزائر سنة 1680[237]. تتضمن هذه المعاهدة واحداً وعشرين شرطاً[238]. وقد ذيل المولى إسماعيل هذه الشروط، التي سنعود لقراءتها بعد قليل، بملاحظة مفادها قوله: "فالشروط المذكورة أعلاه رأيناها، ولاكن لا نبرمها ونكمل فيها حتى تصلنا الهدية التي تكلمنا مع القنص والتجار. فحين يصل ذلك، تكمل المهادنة وتبرم. والسلام. وكتب في الثالث عشر من ذي الحجة الحرام ثلاثة وتسعين وألف"[239]. وبقيت هذه المعاهدة معلّقة، ولم توقع إلاّ في 10 رمضان من سنة 1095/ 1684 م.

وعقد عبد الله بن إسماعيل معاهدة مع الأقاليم المتحدة سنة 1752 كما يتضح من الوثيقة الآتية:

> هذه... شروط الصلح بين سيدنا نصره الله ومولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل قدس الله روحه في الجنة. ءامين. سلطان مراكش وفاس ومكناسة والغرب مع الإصطادوس المعظمين في بلادهم وهم سبعة من قبائل فلامنك... بأمر سيدنا وتفويضه نصره الله والباشدورات افرنصصك ودون اليوز بوطلير تاجر وتفويض الاصطادوس مع وكيل سيدنا ومولانا نصره الله وهو خديمه القائد محمد لوكاش[240].

وألح الشرط الأول والثاني على الأمان وحرية التنقل للمراكب وللتجار الهولنديين.

واتخذ محمد بن عبد الله من علاقاته مع العالم الخارجي الدعامة الأساسية لسياسته. ولهذا تميز حكمه بكثرة المعاهدات. فقد عقد الصلح والمهادنة مع أغلب

---

(236) *S. I. H. M.*, 1ère série, Pays-Bas, T. I, pp. 542-543.

(237) دار المخفوظات الوطنية بلاهاي، سلسلة 08. 01. 1، رقم 51/ 12578.

(238) دار المخفوظات الوطنية بلاهاي، سلسلة 08. 01. 1، رقم 27/ 12594.

(239) يمكن الرجوع لهذه النماذج من المعاهدات في الملاحق.

(240) عامل تطوان في ما بين سنتي 1752 و 1754.

الدول الأوربية. وتكفي الإشارة هنا إلى المعاهدة التي وقعها مع لويس الخامس عشر في 28 ماي 1767[241]، وتلك التي وقعها مع هولندا في 25 أبريل 1756[242]. ما أهم الاستنتاجات التي نخرج بها من خلال قراءة هذه المعاهدات؟

فمعظم الشروط المتفق عليها في هذه الأوفاق تنص على ضمان حماية مصالح التجار الأجانب. ويغلب على هذه البنود سعي الجانب الأوربي إلى دفع سلاطين المغرب إلى الالتزام بالمنطق القانوني حتى يكون هو المتحكم والمحدد لكل تعاقد أو تعامل في ما بين الجانبين. وعلى هذا الأساس واعتماداً على هذه الإرادة الأوربية الهادفة إلى التشبث بالحماية القانونية، سعى المفاوضون الأوربيون إلى تشخيص الحالات المتعاقد عليها وتدقيقها. وهكذا نصوا في بنود كثيرة على حماية التجارة والتاجر في ذاته وممتلكاته سواء كان حياً أو ميتاً. فمن واجب القانون أن يصون ممتلكاته:

> إن مات تاجر من رعية الفلامنك وترك سلعة أو مالاً، فلا يتعدى عليه أحد من عمالنا ولا يأخذ من ذلك شيئاً؛ فإن أوصى الهالك على ذلك أحداً، فيبقى بيده سواء كان وارثه أو شريكه أو وكيله. فإن كان حاضراً، بقي بيده؛ وإن كان غائبا أو توفي، فالقونصو الفلامنك يأخذ ذلك ويبعثه لأربابه؛ وإن لم يحضر القونصو، فتجار الفلامنك المقيمون بالبلاد يحوزونه ويبعثونه لأربابها[243].

أعطت بنود المعاهدات من جهة ثانية الأهمية إلى حماية السفن وضمان حرية تنقلها وحق استعمالها للمراسي المغربية. وألحت الشروط المتعلقة بهذا الجانب على الصيغ الملزمة للمغرب ولمراكبه القرصانية:

> إن جميع مراكب الإصطادوس ومراكب من انضاف إليهم، وكان تحت طاعتهم من نصارى أو يهود فلامنك، يدخلون حيث شاءوا من مراسي طاعة مولانا السلطان...

---

(241) كناش شروط الأجناس، مخ. خ. ع. ص 1694.

(242) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، سلسلة 08. 01. 1، رقم 24/ 12597.

(243) الشرط 14 من معاهدة 1756؛ انظر كذلك الشرط 2 من معاهدة 1684؛ الشرط 2 من معاهدة 1767.

يقيمون بها مدة شاءوا ويرتحلون متى شاءوا ويبيعون ويشترون... ويعطون لازم سلعتهم الذي جرت به العادة قديماً العُشر[244].

إلى جانب هذه الامتيازات التي ضمنتها المعاهدات للتجار الأوربيين نصارى ويهود، فقد حصلت الدول الأوربية على امتيازات قضائية؛ فصار من حق القونصوات الفصل في نزاعات قد تحصل في المغرب بين النصارى وأهل الذمة: "النصارى الفلامنك وأهل الذمة منهم إن وقعت بينهم دعوى أو خصام أو موت أو جرح، فالقونصو الفلامنك الذي بيده تولية الإصطادوس يحكم فيهم"[245]. وإذا كان لمسلم خصام مع نصراني، فإن البت في النزاع يكون على يد الحاكم والقونصو. وكانت معاهدة 1767 مع فرنسا أكثر جرأة، لأنها أقصت القاضي المغربي من الفصل في هذه النزاعات. كما أكد الشرط الثاني عشر منها: "إذا وقع نزاع بين مسلم وفرنصيص، فإن أمرهما يرفع للسلطان نصره الله ولنائبه حاكم البلد ولا يحكم بينهما القاضي في نازلتهما"[246].

أوضحت المعاهدات التي وقعها المغرب مع بلدان أوربا التفاوت الحاصل بين الطرفين. فبقدر ما اتسعت هوة التجاوز، كانت أوربا تحتكر المبادرة لتحاصر المغرب. فعن طريق المعاهدات حاولت تطويق الممارسات السلطانية التي أرادت أن تجعل الجهاد البحري مؤسسة لمواجهة البلدان الأوربية والضغط عليها. إلا أن النتيجة كانت عكس ما أراده السلاطين. فقد أصبحت القرصنة فرصة ومناسبة استعملها الأوربيون للضغط عليه، مستغلين في ذلك تفوقهم التقني والاقتصادي، واحتياج المغرب المتزايد للأسلحة والعدة والتجهيزات البحرية. فاستخدمت بلدانها تفوقها هذا واحتياج المغرب المتزايد لها لتخضع سلاطينه تدريجيّاً للالتزام بمنطق القانون،

---

(244) الشرط 2 من معاهدة 1684. والملاحظ أن 12 شرطاً من بنود هذه المعاهدة تهم الحماية للسفن الهولندية من القرصان المغاربة وغير المغاربة وخصصت معاهدة 1767 ستة بنود لأمور المراكب الفرنسية في علاقاتها مع المغرب.

(245) الشرط 16 من معاهدة 1756؛ الشرط 17 من معاهدة 1756.

(246) الشرط 12 من معاهدة 1767؛ كناش شروط الأجناس، د 1694.

الذي يبقى في أساسه أوربيّاً ولصالح أوربا. ومن ثم جعلته يخضع لشروطها، فصارت تتدخل في أمور كانت بالأمس من اختصاص القضاء المغربي، وتم لها ذلك بفضل سيطرتها على الملاحة العالمية؛ لأن أساطيلها كانت تجوب البحار والمحيطات على عكس المغرب الذي أهمل شؤون البحر التي كانت أساس النمو في أوربا.

الفصل الرابع

المغاربة والبحر

السواحل والمناطق الداخلية: تكامل أم تجاهل وتعارض؟

1 . ملاحظات عامة

لم يحظ موضوع تاريخ علاقة المغاربة بالبحر بالاهتمام اللازم بسبب قلة المصادر والمراجع وندرة المتخصصين فيه[247] . ولاشك في أن هذه العوامل دوراً في هذا التهميش؛ إلا أنها لا تكفي لتبرير غياب البحر وأمور البحر في المخيلة المغربية، بالرغم من توفر البلاد على ثلاثة آلاف كلم من السواحل. هل حقاً ولى المغاربة ظهرهم للبحر؟ وهل يعتمد دعاة هذا الطرح على دلائل أو أن لمواقفهم خلفيات لا علاقة لها بالواقع؟

لقد شكل الاقتصاد البحري المحرك الأساسي للنمو في أوربا ما بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر. واهتمت الدول الأوربية خلال هذه الفترة بالقطاع البحري بشقيه الأساسين: البحرية العسكرية والبحرية التجارية. واختارت

(247) من أهم هذه الدراسات:

L. Brunot, *La mer dans les traditions et les industries indigènes à Rabat - Salé*, Paris, éd., Laroux, 1920; R. Montagne, "Les marins indigènes de la zone française", *Hespéris*, 1923, Vol. III.; "Coutumes et Legendes de la cote berbère du Maroc", *Hespéris*, 1924, Vol. IV.; R. Cointreau, *Les Corsaires de Salé*, I.H.E.M, 1947; Colloque, *Le Maroc et L'Atlantique*, Casablanca, 1992.

إبراهيم التادلي، زينة البحر في علوم البحر، مخ. خ. ع. ضمن مجموع: د 1347؛ حسن إميلي، الجهاز البحري بمصب أبي رقراق خلال القرن 17، الرباط، كلية الآداب، 1989، رسالة مرقونة.

الدول الموجودة داخل القارة الأوربية (فرنسا - إسبانيا) تدخل الدولة وتوجيهها للصناعة البحرية. فأنشأت أوراشاً كبيرة وممركزة التفّ حولها خلق كثير. وجسد الوزير كولبير هذا الاتجاه، وصرح في سنة 1664 بأنه لو استطاع أن يضاعف الأسطول الفرنسي ثلاث مرات، لتمكنت أوراش المراكب من تشغيل ملايين من الفرنسيين. وعلى عكس هذا الاتجاه، اختارت دولة أنجلترا عدم التدخل في هذه الصناعة وتركت الباب مفتوحاً للخواص. ولأجل هذا، كانت أوراش صناعة السفن فيها صغيرة منتشرة عَبر ترابها.

واهتمت الدراسات الأوربية في تناولها لموضوع البحر بتحالف الملكية مع الطبقة التجارية، ورأت من جهة ثانية في نمو هذا القطاع وتقدُّمه تحالف الأشرعة مع المدافع[248]. وبمعنى آخر، لا يمكن فصل الاختراعات المرتبطة بالأساطيل البحرية عن الابتكارات الحاصلة في التقنيات الحربية. فالحروب تتطلب الفعالية والسرعة في الإنجاز. ولأجل هذا السبب، دعمت الدول وشجعت البحث في تقنيات البحرية. واعتمدت في تحقيقها لذلك على الخبرة والممارسات الموروثة.

فإذا كانت الحروب قد تبنت الفعالية، فإن التجار في أوربا كانوا مهتمين أساساً بالربح. ولأجل هذا، أولوا المواصلات البحرية أهمية كبرى، لأنهم فهموا أن السيطرة على الطرق التجارية البحرية تعني السيطرة على التجارة العالمية. ومن هذا المنطلق، يمكننا فهم عمق المقولة المشهورة "انتصار الكَرَافيلاَّ على القافلة" خلال العصر الحديث. ففي القرون السابقة كان أساس المبادلات التجارية يتم عبر العالم العربي الإسلامي، وكانت هذه المبادلات في صالحه نظراً لدوره الوسيط بين أوربا والسودان والشرق الأقصى. فالطرق البرية كانت أساس هذا التبادل، والقافلة هي الوسيلة المعتمدة في الربط بين عوالم الإنتاج وعوالم الاستهلاك. وربما بسبب هذا، أولى العالم الإسلامي القافلةَ أهميةً كبرى، واهتمت بها الأسطوغرافية العربية فجاءت بمعلومات دقيقة عنها لا تجد لها مثيلاً حينما يتعلق الأمر بالبحر.

وكان المغرب صلة وصل بين السودان وأوربا: فمنه تنطلق القوافل في اتجاه

---

(248) F. Mauro, *Le Portugal et l'Atlantique* au *XVIIe (1570-1670)*, Paris, 1960, p. 31.

هذه المنطقة أو نحو الشرق. فهل هذا يعني أن المغاربة ولّوا ظهرهم للبحر؟ وأن علاقاتهم معه بقيت سطحية وارتبطت في أساسها بعناصر خارجية كما ذهبت إلى ذلك الكتابة الاستعمارية؟ وما الأسباب التي حالت دون اهتمامهم بالبحر حتى يجعلوه محركاً لاقتصادهم على غرار ما حصل في البلدان الأوربية خلال العصر الحديث؟

2 - المغاربة والبحر: مواقف وذهنيات

استغرب الأجانب من عدم اهتمام الأسطوغرافية المغربية بأمور البحر، بالرغم من امتداد سواحل البلاد. ولملء هذا الفراغ، قاموا بأعمال أظهروا من خلالها أهدافهم ومواقفهم، وتساءلت مجموعة من الباحثين الفرنسيين في مطلع القرن العشرين عن الأسباب التي جعلت المغاربة يهملون سواحل بلادهم ويولون الظهر للبحر، ويعرضون عن الأنشطة البحرية التي كانت أساس نمو أوربا. ومن أجل الإجابة على هذا السؤال، وفي غياب كتابة مغربية عن الموضوع، أنجز كل من لوي برونو (L. Brunot) وإيميل لاووست (E. Laoust) وروبير مونطاني (R. Montagne) أعمالا ميدانية، لم تكن بريئة، إذ كانت مشحونة بمواقف مسبقة. فركزت تحريات كل من مونطاني وجورج كولان (G. Colin) على دراسة المصطلحات البحرية المرتبطة بمناطق ذات أعراف وتقاليد بربرية، وخصوصاً سوس. وانطلاقاً من هذه المصطلحات التي أحصوها، حاولوا استخراج المجالات البحرية الواردة فيها وعملوا على تصنيفها، فتحدثوا عن أنواع الأسماك، وعن تقنيات الصيد، وعن القوارب، وتساءلوا عن إمكان استعمال هذه المصطلحات من أجل التسرب إلى ثقافة هذه المجموعات المغربية، وبناء فرضيات في الموضوع.

واهتم لوي برونو بدراسة المصطلحات البحرية الواردة في الاستعمالات اليومية في مدينتي الرباط وسلا. وحاول إرجاع هذه الكلمات إلى أصلها الإسباني، وانتهى إلى خلاصة مفادها "أن الصناعات البحرية الموجودة في المغرب

صناعات مستوردة من إسبانيا"[249] ، لأن اللغة العربية - في رأيه – تفتقر إلى المصطلحات التقنية المضبوطة. فهي وإن كانت غنية في ميادين أخرى، فإنها تبقى محدودة في أمور البحر. وغياب هذه المصطلحات في هذه اللغة يعني في تقدير هذا المؤلف عدم اهتمام المغاربة بالبحر وخوفهم المفرط منه. وفي هذا الصدد، كتب يقول: "ويعود فزع الإنسان المغربي من البحر إلى جهله لأبسط المعطيات النفسية والطبيعية المتعلقة بشوونه بالإضافة إلى الأوهام والوساوس والخرافات والأساطير التي تهيمن عليه وتحدد علاقاته بالبحر"[250]. وتبنى روجي كواندرو (R. Coindreau) الموقف نفسه، بل ذهب أبعد في حكمه على المغاربة؛ إذ قال: "فالخوف من البحر ظاهرة عامة عند المسلمين. ويبقى هذا الرعب أشد حدة عند المغاربة مقارنة مع غيرهم من أهالي شمال إفريقيا"[251] . استغل كواندرو بعض المراسلات السلطانية ليؤكد خوف المغاربة بكل فئاتهم من البحر. فالمولى إسماعيل يقول بأن الله وهب البر للمسلمين، وترك البحر لأهل الوثنية؛ لأن العرب تحسن ركوب الخيل والإبل لا السفن في البحر[252] . ولعل هذا الخوف هو الذي جعل المغاربة يسمون المحيط ببحر الظلمات. يقول كواندرو: "فمعرفة الأهالي بتقنيات البحر بسيطة جداً ومواقفهم منه ساذجة"[253] . ولأجل هذا، أسند سلاطين المغرب أمور البحر للعلوج وللمورسكيين. وبالرغم من ذلك، ظلت ممارساتهم محدودة الفعالية لأن رُياسهم وبحارتهم كانوا بلا خبرة ولا تكوين، ولأن القرصنة السلاوية

---

(249) L. Brunot, *Notes Lexicographique sur le vocabulaire maritime de Rabat - Salé*, Paris, éd. Laroux, 1920, p. 11.

(250) *Ibid.*, p. 3.

(251) R. Cointreau, *Les Corsaires de Salé*, Paris, 1948, p. 53.

(252) قيل في هذا الصدد:

لا تعجبن لراسي كيف شاب ... واعجب لأسود عيشي كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفن به ... إلا على خطر فكيف للعرب

(المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم...، مصدر مذكور، ص. 104).

(253) R. Coindreau, *Les Corsaires de Salé...*, *op. cit.*, p. 53.

التي اشتهروا بها كانت من عمل الأجانب(254) . فمن خلال هذه العينات، يظهر أن الكتابة الاستعمارية ألحت في تناولها لموضوع المغاربة والبحر على الفرضيات التالية:

- اعتبرت خوف المغاربة من البحر مسألة ثقافية متجذرة في شخصيتهم الحضارية والتاريخية. وتبقى معرفتهم بالبحر سطحية وساذجة، ويرجع الفضل فيها في أساسه إلى الأجانب العلوج الموروسكيين الأسرى والقراصنة الأوربيين مع تمييز خاص للعنصر البربري. وأخيراً، فإن التجارة البحرية في المغرب ارتبطت على الدوام بالأساطيل المسيحية(255). فإذا كانت الكتابة الاستعمارية قد صارت على هذا النهج، فهل تغيرت الصورة مع الكتابة الحديثة؟

- دار نقاش كبير عن القرصنة، وأظهرت دراسات جادة أنه لا يمكن ربط الظاهرة بدين دون آخر أو بحضارة دون أخرى، بل هي ظاهرة كونية مارسها المسيحي والمسلم. ورأى بعض الباحثين في تركيز الأوربيين على القرصنة المسيحية المعادية للإسلام إرادة ونزعة مدعمة ومدافعة عن مركزية الغرب: "تدخل كل الكتب التي تدرس القرصنة المعادية للإسلام ضمن نماذج أسطوغرافية ذات دعاية لمركزية الغرب المسيحي الذي أراد أن يجعل من نفسه النموذج لكل الحضارات"(256)، لأن القرصنة المسيحية حسب هذا الطرح ما هي إلا شرطة بحرية كانت تهدف إلى حماية المسيحية من هجومات البربري. فبقدر ما كان الفارس المسيحي يحركه الإيمان والعدالة، كان القرصان المغربي تحركه العدوانية والرغبة في السطو وسفك الدماء وابتزاز حقوق الناس. فتصدت الدراسات الحديثة الجادة لضرب هذا الطرح، وبيّن أصحابها أن القرصنة المسيحية كانت آلة تهدف إلى جمع الأموال بالرغم من معارضة البابا أحياناً، لأنه كان يرى أن الحركة لا تخدم المسيحية إذ قال: "إنه من

---

(254) *Ibid.*, p. 55.

(255) "Le Commerce sur mer est le repos de la chretienté" (*Ibid.*, p. 19).

(256) Michel Fontenay, "Corsaires de la Foi ou rentiers du sol ? Les chevaliers de Malte", in *Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine*, Vol. XXXV, juillet-septembre 1988, p. 363.

الأفضل للمسيحيين أن يهاجموا بعض الثغور الإفريقية عوض نهب ممتلكات السفن التجارية، لأن هذه الممارسات لا تضعف الإمبراطورية العثمانية، بل تتسبب في تهييج سلاطينها دون أن تلحق بهم أي ضرر"[257].

وترتفع الأصوات اليوم من أجل الاهتمام بالتاريخ البحري المغربي في ضوء ما وصل إليه البحث في أقطار أخرى. وتتساءل هذه الدراسات عن الأهداف الكامنة وراء التركيز على دراسة القرصنة: ألا يخفي هذا الطرح إرادة حجب قضايا أخرى أهم؟ لقد بين جان ـ لوي مييج، اعتماداً على أرشيف ميناء مرسيليا، أن عدد المراكب المغربية التي دخلت هذا الميناء في ما بين سنتي 1685 و 1792 قد وصل إلى 1568 مركب؛ ومثّل هذا العدد نسبة 7 % من حركة هذا الميناء. واعتماداً على هذه المعطيات، طالب مييج بإعادة النظر في الفرضيات المألوفة والتي تعود الباحثون ترديدها دون العمل على تجاوزها اعتماداً على الأرشيفات الأجنبية[258].

فمهما اختلف التناول لموضوع المغاربة والبحر عند الأوربيين، فإن كتابتهم تبقى، عن قصد أو عن غير قصد، تحت تأثير المركزية الغربية. إزاء هذه المقاربة، ما المواقف التي تبناها المغاربة من البحر؟ وهل كانت مواقف منسجمة أو أنها تختلف باختلاف انتماءات أصحابها؟ وهل هي مواقف جامدة أو كانت تتغير بتغير المصالح والظروف؟

لقد ارتبط البحر في المخيلة بالهول والهلاك على حد قول ابن منظور، وشبهت الكتابة العربية البحر بظلام الليل الدامس. فمن أين جاءت هذه المواقف، مع العلم أن القرآن لم يحكم في الآيات التي تناولت البحر على هذا المجال بالقسوة الزائدة، بل أشارت هذه الآيات في عدة مناسبات إلى الخيرات التي سخرها الله للإنسان في البحر[259]. واستعمل القرآن البحر لإظهار عظمة الله وقدرته، فجعل

---

(257) *Ibid.*, p. 366.

(258) J. L. Miège, "Pour une méthodologie de l'histoire maritime du Maroc", in *Le Maroc et l'Atlantique*, p. 11 et 17.

(259) توجد عدة آيات تبين كيف سخر الله البحر للإنسان (انظر: سورة البقرة، الآية 184؛ سورة إبراهيم، الآية 32؛ سورة النحل، الآية 14؛ سورة الإسراء، الآية 70، إلخ).

التحكم فيه آية من آيات الخالق. فإذا كان الكتاب المقدس يقدم البحر بأنه مجال حيوي سخره الله للإنسان، فمن أين جاءت مواقف العلماء المبنية على الخوف من البحر، مما جعل هؤلاء ينظمون شعراً ويتركون ارتسامات تدل على رهبتهم منه؟

البحر صعب المرام جداً ... لا جعلت لي حاجتي إليه

أليس ماء ونحن طين ... فما عسى صبرنا عليه

فاستعملوا كلمة البحر بمعنى المكر واليأس من الحياة. ويقول المقري إن من ركب البحر عليه أن يعتبر نفسه ضائعاً، "يعيش وحيداً معزولاً بدون عائلة ولا أهل ولا يبقى له من الأهل سوى البحر الذي هو قبر، والماء الكفن"[260]. وقد شبه بعض المتصوفة البحر بالجيش الفتاك. ولاشك في أن معرفة المغاربة بأمور البحر ظلت محدودة، لأنهم لم يتعودوا أنشطته في حياتهم، كما أننا لا نعرف إلا ارتسامات العلماء الذين ركبوا البحر للحج أو للسفارة. ولا نعرف ما فكر فيه أهل الحرفة أولئك الذين اتخذوا من الأنشطة البحرية عملا لهم. ففي غياب المصادر والوثائق التي ترشدنا إلى ذلك، ستبقى نظرتنا غير كاملة؛ لأن المعلومات التي دونها العلماء الذين تحدثوا عن أمور البحر تبعث أحياناً على الاستغراب. ونذكر مثالاً على ذلك ما قاله أبو القاسم الزياني الذي خدم ثلاثة ملوك وجال عبر العالم الإسلامي سفيراً وتعرف بعلماء من الشرق وآسيا وناظرهم في قضايا مختلفة. وعند كلامه عن المحيط، كتب يقول: "البحر الكبير، ويسمى المحيط، وهو البحر الأعظم الذي منه مادة جميع البحار المفصلة وهو بحر لا يعرف له ساحل ولا يعلم عمقه إلا الله تعالى. ومن هذا البحر عرش إبليس لعنه الله، وفيه مدائن تطفو على وجه الماء، وهي آهلة من الجن في مقابلة الربع الخراب من الأرض"[261].

وألف إبراهيم الرباطي التادلي (ت 1894) مؤلف "زينة البحر بعلوم البحر"؛ وإن جاء هذا المخطوط متأخراً عن الفترة، فإنه يستحق التوقف؛ لأن القضايا التي طرحها تمكن من مقاربة ذهنية المغاربة العلماء من البحر. أشار التادلي

(260) المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4، ص. 304.

(261) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى...، مصدر مذكور، ص ص. 291 - 292.

إلى أنه ألف هذا المخطوط "لينتفع به من اضطر لركوب البحر"[262]. واستعان في تدوينه للمعلومات الواردة فيه بخبرة أهل العلم من المسلمين والنصارى. واعتبر المؤلف أنه بصدد الحديث عن علم قائم بذاته: "فحد هذا العلم أنه علم يعرف به كيفية سير السفينة في البحر، وموضوعه السفينة، واضعه سيدنا نوح... غايته زيادة الإيمان بزيادة الآيات"[263]. وكان التادلي يرجع باستمرار إلى الآيات القرآنية ذات الصلة بالبحر ليؤكد قوله. وقام بالتحريات اللازمة عن طريق طرح الأسئلة على أرباب السفن من أجل التعرف على المراكب وأنواعها وأحجامها وسرعتها. فدقق المعلومات وحدد الأخطار المحيطة بها وانتهى إلى الخلاصة الآتية: "إذا جاء القدر، عمي البصر؛ ولا ينفع الحذر من قدر. إلا أن استعمال الأسباب مشروع"[264]. واستطاع التادلي أن يميز بين السفن التي تستعمل الريح في سيرها وتلك التي أصبحت تستعمل الفحم الحجري أو النار كما قال، وهي البابورات التي تجري كالبرق. وبعدما قدم المؤلف هذه الأصناف، أنهى حديثه قائلاً: "وفي الحقيقة إنما تجري (المراكب) بقدرته تعالى"[265]. وقد انتبه إلى تفوق الإنجليز في أمور البحر عن غيرهم. واعترف في الأخير بتفوق أوربا التي تبنت الضبط والانضباط سواءً في الأمور التقنية أو في أمور التدبير. وبالرغم من الملاحظات التي قدمها التادلي، فإنّ كلامه يبقى مشحوناً بالتعجب؛ لأن معرفته بأمور البحر محدودة وإرادته مشلولة لأنه لا يرغب في ذلك ولا يومن به. ونلمس معرفته السطحية بأمور البحر عندما حاول التعريف بمضيق جبل طارق فقال:

> وكانت طنجة مع الأندلس متصلة ببر واحد، فكان أهل الأندلس يغيرون على أهل المغرب الأقصا وينهبونه فشكَوْا ذلك إلى ذي القرنين ... وكان زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، فحفر ما بين طنجة والأندلس من البر حتى صار بحرا واحدا ممتدا إلى الإسكندرية والشام وأرض الروم[266].

---

(262) إبراهيم التادلي، زينة النحر بعلوم البحر، مخ. خ. ع، ضمن مجموع د 1347، ص. 199.

(263) المصدر نفسه، ص. 199.

(264) المصدر نفسه، ص. 201.

(265) المصدر نفسه، ص. 200.

(266) المصدر نفسه، ص. 203.

يبدو أن خوف العلماء من ركوب البحر وتجاربهم فيه هي التي جعلتهم يصدرون في حقه الأوصاف المفزعة حتى أن أمثالا حذرت من ثلاثة ليس لها أمان: البحر والسلطان والزمان. لاشك في أن الخوف مصدره الجهل؛ لم تكن الأنشطة البحرية مندمجة في حياة الناس اليومية. لهذا كان خوف الفقهاء خوفاً سلبياً، على عكس الخوف من البحر في أوربا الذي كان موجوداً إلا أنه كان إيجابيا. فالشاعر البرتغالي بْسُوًا صاح بأن الله قد جسد عظمته في البحر الذي هو رَمز الأخطار الساحقة. غير أن الخوف من هذه الأخطار قد يتحول عند الشاعر بْسُوًا إلى طاقة يسخرها الإنسان لتدجين البحر، فيصبح عندها مصدراً للأمل والطموح(267). يحضر البحر موضوعاً في المجال الإبداعي الأوربي؛ لأن أنشطته تهم واقع الإنسان العادي: فازدهار الأساطيل التجارية ينعكس إيجابياً على الحياة اليومية. فقد ركب التاجر والدبلوماسي والمغامر والمبشر البحر؛ وكل واحد منهم كان يبحث عن ضالته. فكان البحر باب الخلاص ورمز الحرية للفرد والجماعة في أوربا العصر الحديث(268).

تعرفنا مواقف النخبة العالمة من أمور البحر، لكننا نجهل كل شيء عن مواقف العامة والبحارة أنفسهم بسبب انعدام المصادر والوثائق أو جهلنا لها. ويقتضي هذا الحفرَ في الذاكرة الشعبية: في الأغاني والأمثال والأساطير و مناقب الأولياء وكراماتهم، لكن دون السقوط في فخ المواقف المسبقة؛ لكن في انتظار ذلك، نستطيع مقاربة الموضوع من زاوية أصحاب القرار السياسي(269).

---

(267) Dieu donne le péril et l'abime à la mer.
Mais c'est en elle qu'il refleta le ciel.

(F. Psoa).

(268) A. Baccar, "Histoire maritime et création littéraire en France 1640", in *Revue historique*, P.U.F, N° 572, septembre-sécembre 1989, p. 347.

(269) نقصد بالقرار السياسي المواقف الرسمية لملوك المغرب في مسألة تأسيس الأساطيل المغربية.

3 - الاهتمام الرسمي بالبحرية

شكل وصول طارق بن زياد إلى الأندلس منعطفاً أساسيّاً لتاريخ البحرية المغربية. لقد تم عبور المغاربة بواسطة المراكب، فمن أين جاءتهم هذه السفن؟ وهل صنعوها في أوراش مغربية أو استعانوا في ذلك بجهات أخرى؟ تصعب الإجابة على ذلك، في غياب المصادر والوثائق المتعلقة بالحدث المنعطف. إلا أن وصول المغاربة إلى الأندلس كان يجسد التفوق الإسلامي في البحر المتوسط. ومن دون شك، فإنّ الهيمنة العربية الإسلامية على الأندلس وعلى بعض الجزر المتوسطية حتمت على المسلمين عموماً، وعلى المغاربة خصوصاً، الاهتمام بأمور البحر، بالرغم من سكوت المصادر العربية عن ذلك، ما عدا بعض الإشارات الخاطفة التي نجدها عند الجغرافيين الذين أولوا أهمية للموانئ الإسلامية. فقد تحدث اليعقوبي عن أنشطة ميناء "ماسّة"، وأشار إلى السفن التي كانت تصل إليه. ووقف كل من ابن حوقل والإدريسي على علاقات الأندلس بالموانئ المغربية، مع تركيز خاص على سلا عند الإدريسي[270]. وأبرزت حليمة فرحات الدور الذي قام به ابن فضل الله العمري في إظهار أهمية البحر للمسلمين. وجاءت فرحات بقولة معبرة جدّاً لهذا الصالح عندما قال: "اعلم أن البحر هو العنصر الأعظم والمخلوق الأكبر والعجب العجيب، وجمع العلم في دائرته... وهو على ما في ركوبه من الخطر العظيم والضرر الكبير، يفيد الأموال الجمة والنعم الضخمة ويخرج اللؤلؤ ويقذف العنبر وينفذ الذهب... البحر يعطي جزافاً ويأخذ جزافاً..."[271].

فاهتمام المسلمين بالبحر أمر حاصل أيام عظمتهم. ويبدو أن الأسطول

---

(270) لا ننسى الخريطة التي وضعها الإدريسي لروجي الثاني ملك صقلية:
"Appellé à la cour de Roger II" de Sicile, Edrissi fut chargé d'établir un grand planisphère en argent terminé en 1154: il adoptait comme premier méridien... celui qui passait Canaries..." (in Marianne Mahn-Lot, *La découverte de L'Amérique*, Paris, Flammarion, 1970, p. 20.

(271) انظر مقولة في: H. Ferhat, "Démons et merveilles: l'Atlantique dans l'imaginaire marocain médiéval", in *Le Maroc et l'Atlantique*, *op. cit.*, p. 31.

المرابطي كان مكوناً من حوالي مائة قطعة حربية، عدد مهم منها كان راسيا في الميريا وقادس وكان على رأس هذه القطع أمير البحر. وأعطت المصادر أهمية خاصة للأسطول الموحدي الذي كان مكوّناً من حوالي أربع مائة قطعة موزعة بطريقة تضمن حماية الغرب الإسلامي: مائة قطعة مرابطة في الأندلس، ومائتان في المغرب الأقصى، ومائة في المغرب الأوسط والأدنى. وازداد هذا الأسطول أهمية وشهرة، مما جعل مسلمي المشرق يتطلعون لمساندته لهم في حروبهم ضد المسيحيين.

وتبقى مدينة سبتة، بسبب موقعها الجغرافي ودورها التاريخي، من أقدم مراكز صناعة السفن بالمغرب. وكان سكانها ذوي مهارات بحكم جوارهم للبحر. ولأجل هذا:

> أصبحت سبتة مركز القيادة الدائمة للأسطول المغربي أيام الموحدين، حيث استقر بها قائد الأساطيل البحرية، فلم يعد يقيم بألميريا وقادس كما كان زمن المرابطين... وكان الموحدون يعينون عناصر غير موحدية لقيادة هذه الأساطيل؛ لكن سرعان ما تخلوا عن ذلك وصاروا يعينون الموالين لهم، خصوصاً من الشيوخ الموحدين(272) .

وازدادت أهمية أسطول هذه المدينة أيام المرينيين الذين تركوا قيادته لأهلها. إلا أن المد البرتغالي استفاد من تمزق المغرب وضعفه في نهاية المرينيين وأيام الوطاسيين. وكان أول مركز احتلته أساطيلهم هو ميناء سبتة. فدشنوا بذلك الغزو مرحلة الانكماش والانزواء المغربي وابتعاد أهله عن شؤون البحر.

وبالرغم من محاولات السعديين إعادة بناء أسطول مغربي، فإن الأوضاع لم تعد إلى ما كانت عليه، لأن ميزان القوى أصبح لصالح أوربا التي صارت سيدة البحار بحكم تقدمها الاقتصادي والتقني. لقد حاول محمد الشيخ بعد دخوله فاس إعادة تنشيط صناعة السفن في بادس. واهتم عبد الله الغالب بأمور البحر، غير أن عمله بقي محدود الفعالية. ويبدو أن إرادة عبد المالك في تأسيس أسطول مغربي على غرار ما عرفه عن الأسطول العثماني، وعن أساطيل بلدان أوربا التي تعرّفها أثناء تنقلاته عبر البحر المتوسط أو في مشاركاته إلى جانب الأسطول التركي أثناء

---

(272) Mohamed Cherif, *Ceuta aux époques Almohade et Mérinide*, Paris, L'Harmattan, 1996, pp. 99-100.

حروبه ضد المسيحيين (معركة ليبنطو سنة 1571، معركة حلق الوادي سنة 1574). واكتسب هذا الأمير خبرة كبيرة في أمور البحر، إلا أن تجربته لم تعمر طويلا بسبب موته المفاجئ في معركة وادي المخازن سنة 1578. وبقدر ما جاءت المعلومات محدودة ومتفرقة عن القرنين الخامس عشر والسادس عشر، أصبحت متوافرة نسبياً عن المراحل اللاحقة. فكيف حصل ذلك، ولماذا؟

خصصت الكتابة الأوربية لظاهرة القرصنة المغربية حيّزاً هامّاً، وجعلتها أساس أنشطة البلاد البحرية، وحملت المغاربة مسؤولية التوتر الذي ساد العلاقات المغربية الأوربية خلال العصر الحديث. ألا يحمل هذا الطرح في طياته الإرادة الواضحة والهادفة إلى تهميش مساهمة المغرب والمغاربة في أمور البحر؟ ألا يريد دعاة هذه الفرضية تغييب قضايا ذات أبعاد أهم من القرصنة؟ لقد دعمت كتابات استعمارية الفكرة القائلة بضرورة ربط اللصوصية والنهب بالمغاربة، واستعملت هذه الفرضية لتبرير كل التحركات الأوربية ضد المغرب والمغاربة، واعتبرتهم خارجين عن القانون. وأعادت كتابات حديثة الاعتبار للمغرب، لأنها أظهرت أن القرصنة ظاهرة كونية لا تتوقف على ضفة دون أخرى أو على جنس دون آخر أو على دين دون آخر، وأنها ضاربة في أعماق التاريخ[273].

واستمرت القرصنة في الضفة الجنوبية للبحر المتوسط خلال العصر الحديث بسبب الخنق الاقتصادي الذي أصاب بلدان هذه الضفة من جراء احتلال إسبانيا والبرتغال لسواحلها. فقد تعرضت الثغور المغربية للاحتلال الإيبيري بعد خروج أوربا من مجالها الضيق بهدف اكتساح مجال واسع. وقد تم لها ذلك، بعدما سيطرت على الطرق البحرية العالمية وابتكرت التقنيات البحرية الضرورية لذلك. ولما صار ميزان القوى لصالح بلدان الضفة الشمالية، بدأت دولها تتضايق من القرصنة التي كانت توظفها بالأمس، واعتبرت القراصنة خطراً وتهديداً لمصالحها. ولتجاوز هذه الأخطار، فكرت دول أوربا في ضرورة خلق إطار قانوني قادر على حماية تجارتها،

---

(273) "القرصنة مغامرة وحرفة لا وطن ولا دين لها" (F. Braudel, *La Méditerranée...*, *op. cit.*, Vol. II, pp. 191-192).

وتستطيع استعماله لضرب قراصنة الضفة الجنوبية للبحر المتوسط قصد الحد من حيويتهم. وفي هذا الاتجاه، ابتكرت أوربا مبدأ "حق الانتقام" (Lettre de reprisaille) وبدأت تستعمله لردع القرصنة. وجوهر هذا المبدإ هو أن يكون من حق كل رب سفينة أو تاجر أوربي تعرضت ممتلكاته للنهب والتلف على يد القراصنة أن يستعيد ما ضاع منه أو يأخذ ما يعادل ذلك من أيّ سفينة التقيا بها، على أساس أن تكون هذه السفينة تابعة للبلد الذي ينتمي إليه القراصنة الذين استولوا على الممتلكات المذكورة(274).

فإلى أي حد يمكن اعتبار القرصنة السلاوية مؤشر تجاوز أوربا للمغرب؟ لقد مال روجي كواندرو لهذا الطرح اعتمادا على قولة جاء بها مَاسْ لاتري عندما كتب: "تأتي معاناة المسيحيين من القرصنة الإسلامية من ازدهار تجارة هؤلاء ومن سهولة الهجوم على سواحلهم غَيْر المحصنة والتي تصعب حمايتها. وزيادة على هذا، يبقى تاريخ أوربا معروفا مقارنة مع تاريخ العرب"(275). فبالرغم من هذه المواقف، ظلت القرصنة ممارسة عادية في البحر والمحيط، ويصعب فصلها عن الظروف العامة التي تسود ضفتي البحر عبر مراحله التاريخية. وقد استأنست الدول بالقرصنة، لأنها كانت تخافها أو لأنها كانت تستفيد منها. ولكن ما السر الكامن وراء شهرة قراصنة سلا؟

أدّى موقع المدينة دوراً مهمّاً في هذه الشهرة. فالميناء لا يبعد كثيراً عن مضيق جبل طارق، ويوجد بالقرب من مفترق الطرق البحرية التي تمر عبر المحيط الأطلسي بمحاذاة السواحل المغربية، وكانت هذه الطرق هي المسالك الرئيسة للأساطيل الأوربية الراغبة في الذهاب نحو الشرق أو نحو العالم الجديد. وإلى جانب هذا الموقع المتميز، كانت سلا محاطة بمعطيات طبيعية ملائمة للقرصنة: فواد أبي رقراق لا يسمح بتوغل السفن الكبيرة التي كانت تطارد السلاويين الذين تعودوا

(274) R. Coindreau, *Les Corsaires de salé...*, *op. cit.*, p. 14.

(275) *Ibid.*, p. 27.

استعمال القوارب الصغيرة والخفيفة(276). وقد أدّى الموريسكيون الذين طردهم فليب الثالث سنة 1609 أدواراً هامة في هذه القرصنة التي استفادت من خبرتهم ومهاراتهم البحرية، بالإضافة طبعاً إلى مساهمة مهارات قراصنة أوربيين كانوا مستقرين بسلا لمزاولة هذا النشاط أو يفدون عليها لبيع غنائمهم بها. وقد ازدهرت القرصنة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر بسبب التشتت السياسي الذي كان يعيشه المغرب أيام الأزمة التي اندلعت به بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي.

ومع مجيء الدولة العلوية، تراجعت القرصنة في سلا. إذ حاول المولى إسماعيل توظيف هذا النشاط وتسخيره للضغط على الدول الأوربية حتى تبيع له العدة والأسلحة كما يتبين ذلك من الوثائق الرسمية. ففي إحدى الرسائل التي وجهها هذا السلطان إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر سنة 1684 نقرأ:

من أمير المومنين... الشريف الحسني أيده الله... إلى عظيم الروم لويس الرابع عشر. أما بعد؛ فاعلم أن الذي ظهر لنا أن ليس عندك قول صحيح... فالإنجليز تكلموا معنا كلمة وقبضنا ووفوا بها. فحين ذهب خديمنا لبلادهم...، فرحوا به وأكرموه وبروا به وأتى من عندهم بعشر مائة مكحلة وستة عشر مائة قنطار من البارود... ثم بعد ذلك، قدم لعلي مقامنا صاحبكم انبشدور وأتانا بشيء من الخرو مع بالظو الحرير. وهل نحن ممن يعجبه ذلك ويسره؟ فنحن معشر العرب لا نعرف إلا الصحيح(277).

وكان المولى إسماعيل يعتبر الأسلحة أساس الشروط التي يتم فيها التفاوض مع الدول الأوربية: "ثم إنكم خللتم بشروطها (المهادنة مع الاسطادوس) ولم تعتنوا بأمور العدة المتفق عليها ولا البارود... . وهذان هما الأكيدان عندنا"(278). واستطاع المولى إسماعيل أن يجعل من القرصنة أداة ضغط على أوربا بفضل رياس مهرة كابن عائشة والحاكم وفنيش والروسي وقنديل. وعمل هذا السلطان من

---

(276) *Ibid.*, p. 34; Jcrome. B. Bookin Weiner, "The Moroccan corsaires of Rabat- Salé", in *Le Maroc et l'Atlantique*, p. 163.

(277) *S. I. H. M.*, *Dynastie Filalienne*, France, T. 2, p. 434.

انظر كذلك ما أشرنا إليه عن الموضوع في الفصل السابق.

(278) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، سلسلة 04. 01. 1، ستاتن جنرال 6916.

جهة أخرى على بناء القلاع وتحصينها على طول السواحل المغربية واهتم من جهة أخرى بإصلاح الموانئ. وبالرغم من هذه المحاولات، تبقى البحرية المغربية محدودة الفعالية زمن المولى إسماعيل على عكس ما حصل في عهد حفيده سيدي محمد بن عبد الله الذي تميزت سياسته بإرادة الانفتاح والاعتماد على التجارة الخارجية من أجل تجاوز المشاكل الداخلية التي كانت وراء أزمة جيش العبيد. فوجد محمد بن عبد الله نفسه في تناقض: إذ كيف يمكنه الجمع بين إرادته الانفتاح على أوربا والتعامل الاقتصادي والسياسي معها واتخاذه القرصنة أداةً تستعملها الدولة للضغط على الدول الأوربية؟ ولتجاوز هذا التناقض، مال محمد بن عبد الله إلى تقنين القرصنة وعمل على استبدالها بأسطول تجاري، لكن كيف التعامل مع أوربا بهذا المنطق وأساطيلها العسكرية تجوب السواحل المغربية وجيوشها ما زالت تحتل ثغوراً مغربية؟ ثم إن تأسيس الأسطول المغربي، وفق الشروط التقنية المعروفة، يقتضي الاستعانة بالدول الأوربية. فهل كانت هذه الأخيرة على استعداد لإعانة المغرب ودعم مشروعه القاضي بتحديث أسطوله وتجهيزه حتى يكون في مستوى الأساطيل الأوربية التي كانت تتجاوز المغرب في هذا المجال؟ فالرسائل الرسمية المتبادلة بين السلطان ومسؤولي هذه الدول تبين اهتمام محمد بن عبد الله وحرصه على تجهيز الأسطول المغربي. فبالرجوع إلى مخطوط يحتوي على مجموعة رسائل تبادلها سلاطين المغرب مع الأقاليم المتحدة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وإلى حدود مطلع القرن التاسع عشر، نستطيع أن نأخذ فكرة عن هذا الحرص وهذه الرغبة[279]. توجد ضمن هذه الرسائل تقاييد مفصلة لما كان يحتاجه الأسطول المغربي. ففي الرسالة المرافقة لأخذ التقاييد كتب محمد بن عبد الله يقول: "فها نحن وجهنا لكم باشدورنا الطالب عمر أيوب... فابعثوا لنا مع مراكبكم. ويصلكم معه

(279) يوجد هذا المخطوط بخزانة جامعة ليدن عدد OR 1753، عدد صفحاته 62، مكتوب بخط رديء. أغلاط كثيرة. الرسائل منسوخة، ويظهر أن الناسخ لا يحسن العربية. لذلك كان يرتكب أخطاء كثيرة. ولا تتعلق الرسائل كلها بأمور البحر كما أننا نجد رسائل تهم تونس، وطرابلس؛ إلا أن عددها محدود جداً مقارنة مع تلك التي تتعلق بالمغرب.

زمام مطبوع بطابعنا، فاقضوا جميع ما فيه و (تيقّوا) بكل ما يقوله...وكتب في العاشر من يوم جمادى الثانية عام سبعة وتسعين ومائة وألف"[280]. وفي الرسالة السابعة يوجد هذا الزمام وكتب عليه: "الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه... تقييد مبارك سعيد يذكر فيه إقامة مراكب سيدنا الجهادية"[281]. وأثبت هذا المخطوط في الرسالة الثالثة عشرة وصول الإقامة إلى المغرب سنة 1785 على الشكل الآتي: "الحمد لله. تقييد إقامة مراكب سيدنا الجهادية التي وجهها الفلامنك هدية لمولانا مع خديمه باشدور الطالب عمر أيوب وبوسدرة"[282]. وذكر هذا الزمام كل التجهيزات التي وصلت إلى المغرب في ثلاث صفحات. وأشارت بعض الرسائل الواردة في هذا المخطوط إلى الامتيازات التي حصل عليها جنس الفلامنك في بعض الموانئ المغربية كالعرائش وأكدير: "فاعلموا أن سيدنا... أمرني بالكَتْبِ إليكم لنعرفكم على أنه... تفضل عليكم بمرسة العرائش.."[283]. وتذكر رسالة أخرى: "ولما تحقق سيدنا بمحبتكم في جانبه والوقوف في أموره، أنعم عليكم بمرسة أكدير ليعمروها تجاركم"[284].

يبدو أن محمد بن عبد الله كان منشغلاً بخلق أسطول أراده في مستوى أساطيل أوربا. وتتضح هذه الإرادة من قراءة كناش في أمور بحارة العدوتين لمؤلف مجهول[285]. خصص هذا الكناش صفحات مهمة للبحرية المغربية زمن محمد بن عبد الله، وبين أن الأسطول صار مؤسسة مخزنية؛ فاصبح البحارة يتقاضون أجرة

(280) مخطوط OR 1753، الرسالة السادسة، خزانة جامعة ليدن.

(281) المصدر السابق، الرسالة السابعة، OR 1753. وفصل هذا التقييد في التجهيزات اللازمة للأسطول المغربي في ثلاث صفحات.

(282) مخطوط خزانة جامعة ليدن OR 1753، الرسالة 13.

(283) المصدر نفسه، الرسالة 19.

(284) المصدر نفسه، الرسالة 6.

(285) مجهول، كناش في أمور بحارة العدوتين، مخ. خ.ح.ع، د 1409؛ انظر القراءة التي قدمناها لهذا الكناش في:

A. Kaddouri, "Le Maroc et l'Atlantique à la fin du XVIIIè siècle, à travers un Kunnach", in *Le Maroc et l'Atlantique, op. cit.*, pp. 75-85.

وامتيازات أخرى من السلطان: "الحمد لله. تقييد مُنَّ به مولانا السلطان... وبارك في عمره على خدامه المجاهدين أهل سلا وأهل المشرق، وذلك لكل واحد منهم كسوة مشتملة على ملف وكرية وريالين... وزيادة كمية من زرع. وفرق ذلك على يد خدامه المجاهدين الرايس عبد الله أحمد والأمين الحاج عبد العزيز عواد والحاج قاسم بن القاضي والحاج محمد المريني والحاج محمد زنيبر في ثلاثة عشر صفر الخير عام 1198"[286]. وأحصى هذا الكناش عدد البحارة المغاربة وقدرهم بأربعة آلاف: ثلاثة آلاف من المغرب وألف من المشرق[287]. وتمكّن قراءة أسماء البحارة من إعادة النظر في الطرح الذي كان يؤكد ربط العمل في الأساطيل المغربية بالعنصر المورسكي. صحيح أن عدداً كبيراً من الأسماء ذات أصل أندلسيّ (بريطل، بيريز، فنيش، بيرو، إلخ.)، لكننا نجد، إلى جانب هذه الأسماء، أسماء تحيل على كل مناطق المغرب (العربي العبدي وعبد الرحمن الدكالي وعزوز الدمناتي وحسن المكناسي)، ونجد من جهة أخرى الأسماء المعروفة أو تلك التي ترتبط بالحرف (الحداد، النجار، الجزار) بالإضافة إلى الأسماء التي تحيل على المناطق الإسلامية (أحمد التلمساني ومحمد البنزرتي وسعيد التونسي ويوسف الطرابلسي والصابونجي).

كذلك أورد المخطوط توزيع القطع البحرية في الموانئ المغربية سنة 1186 هـ/ 1772 م على الشكل التالي:

---

(286) المجهول، كناش...، مصدر مذكور، ص. 34.

(287) المصدر نفسه؛ وأكد ابن زيدان هذا الرقم في الإتحاف...، ج III. ص. 258.

الميناء	عدد البحارة	عدد الرياس
الرباط	400	4
سلا	200	2
العرائش	100	
أصيلة	31	
طنجة	80	
تطوان	127	

والملاحظ أن الأسطول المغربي كان يسترعي اهتمام القناصل والسفراء الذين كانوا يعملون على رصد تقارير عن عدد سفنه وعدد المدافع التي تتوفر عليها المراكب، وكانوا يذكرون أسماء قواد هذا الأسطول. فقد وجدت في دارالمخفوظات الوطنية الهولندية تقريراً يذكر بتفصيل أنواع السفن الموجودة في كل ميناء من موانئ المغرب، دون أن ينسى عدد المدافع وعدد البحارة[288].

الميناء	عدد السفن	عدد المدافع الموجودة بها	عدد المجاديف	عدد البحارة
سلا	2 جالير (قادس) 2 فراجط	3 18	36	200
العرايش	30 فراجط 24 بيطو 16 تسابك 3 جالير			200 180 150 150
طنجة	3-8 جاليوت	24 - 30		70 - 80
تطوان	18		34	100

(288) دار المحفوظات الوطنية بلاهاي، سلسلة 04. 01. 1، ستاتن جنرال، 6977، بتاريخ 1775.

لقد اعتنى محمد بن عبد الله بأمور البحر أكثر من غيره، واستقامت له فيه الأيام مؤقتاً؛ مما جعل الضعيف يكتب: "وتكاثرت سفنه في البحر من أهل سلا ورباط الفتح، وأقبلت عليه الأيام، ووقف له السعد في البر والبحر... وفي هذه السنة أمر بإنشاء السفينة الكبيرة من طبقتين وأنفق فيها مالاً كثيراً... نحو الأربعين قنطاراً أو أشد"[289]. فالإرادة الرسمية لخلق أسطول أمر مفروغ منه، خصوصاً عند هذا السلطان؛ لكن هل الإرادة وحدها تكفي في وقتٍ مَالَ فيه ميزان القوى لصالح أوربا التي لم تكن على استعداد لدعم محاولات محمد بن عبد الله؟ فقد صارت تحاول إفشالها، لأنها كانت ترى في ضعف الأسطول المغربي مصلحتها؛ مما جعل محمد بن عبد الله يتراجع عن فكرة اعتماد البحر أداةً للنمو ولمسايرة أوربا. فكيف حصل ذلك وأين تجلى هذا الانكماش؟

4 - السواحل المغربية والمناطق الداخلية: تكامل أم تعارض؟

الملاحظ أن البلدان التي اكتسبت مهارة كبيرة في أمور البحر هي بلدان صغيرة المساحة كإيطاليا والبرتغال وأنجلترا ثم هولندا. واستطاعت هذه البلدان ربط مصيرها بالبحر، واعتبرته مجالا حيويا لمعاش سكانها. لقد ركب الإيطاليون البحر قبل غيرهم، وزودوا البلدان الأوربية الأخرى بالتقنيات والخبرة. وقاد البحارة الإيطاليون المغامرات الأوربية خارج البحر المتوسط، وشكلوا الأطر التي كانت وراء الاكتشافات الكبرى. واستطاعت عائلة آفيس البرتغالية أن تبعد هذا البلد عن قشتالة، وأن تربط مصيره بالمحيط الأطلسي. وفهمت أنجلترا أن مستقبل البشرية في البحر، ولذلك أولته الاهتمام اللازم والعناية الكافية. وتبقى التجربة الهولندية فريدة مع البحر. فصراع سكان هذا البلد ضد مياه البحر صار أمراً أزليّاً. ويظهر من خلال هذه النماذج أن البلدان التي كانت مرغمة على مواجهة البحر هي التي استطاعت أن تكتسب خبرة ومهارة في أموره، لأن حياة السكان اليومية كانت دائما مرتبطة بطريقة أو بأخرى بالبحر، وبمعنى آخر إن هذه البلدان لا تتوفر على

(289) الضّعيف، تاريخ...، مصدر مذكور، ص ص. 169 - 170.

عمق قاري يسمح لها - إن أرادت - بالابتعاد عن البحر. فهل للقارية دور في اهتمام المغرب أو في عدم اهتمامه بهذا المجال؟

تمتد سواحل المغرب على طول يقدر بثلاثة آلاف كلم. ولهذا البلد عمق قاري مهم جداً. فبالابتعاد عن السواحل نحو الداخل، يخترق المسافر في المغرب مناظر طبيعية متنوعة: من سهول وهضاب وجبال ومناطق صحراوية. فموازاة مع السواحل، تمتد السهول الأطلنتيكية الغنية بفلاحتها؛ وتعتبر هذه السهول خزاناً للحبوب في المغرب. فالقاعدة الاقتصادية لهذا البلد هي الفلاحة. وكان أساس القيمة المضافة مرتبطاً بالعمل الفلاحي.

وأولى المغاربة أهمية كبيرة للقاعدة التاريخية التي ساهمت في بناء الشخصية المغربية: التجارة الصحراوية. كان العالم الإسلامي صلة وصل بين الشرق الأقصى، وأوربا من جهة، والسودان وأوربا من جهة ثانية. واستطاع المشرق أن يسيطر على الطرق البرية المتجهة نحو الشرق الأقصى، وهيمن المغرب على الطرق الصحراوية التي كانت تتجه نحو السودان. وبالسيطرة على الطرق التجارية البرية، سيطر العالم الإسلامي قبل الاكتشافات على التجارة العالمية وصار بفضل هذا الواقع مركز الكون. وكانت القافلة هي الوسيلة الأساسية للنقل والتنقل عبر هذه الطرق. ولهذا حظيت باهتمام الرحالة الذين أعطوا عنها تفاصيل ودققوا في الحديث عنها سواء كانوا مغاربة أو أجانب. وسوف نستعين بنموذجين للتفصيل في هذا المجال(290).

لقد قيد الرحالة البرتغالي جواكين فريسمو معلومات دقيقة عن الحياة داخل القافلة التي كانت تشق طريق الحرير، فصوّر توقفها "كأنها مدينة جديدة قد شيّدت"(291). وأشار من جهة أخرى إلى عدد الأشخاص الذين كانوا يرافقون

---

(290) Joaquine Verissimo Serrão, *Un Voyageur portugais au début du XVII^e siècle*, Nicolau Orta Rebelo, Lisbonne, 1972;

أبو سالم العياشي، الرحلة الصغرى، مخ. خ.ع. ك 43، ضمن مجموع، ص ص. 303 - 316.

(291) Joaquine Verissimo Serrão, *Un Voyageur Portugais...*, *op. cit.*, p. 169.

القافلة، وقدر هذا العدد بـألف. وتستعمل القافلة الإبل والخيل والحمير. وتضم أشخاصاً من أجناس مختلفة ومن أديان مختلفة (مسلمون/ مسيحيون/ يهود من تركيا والهند والبرتغال وإيطاليا)[292]. وكانت التجارة قائمة في القافلة أثناء التنقل ووقت التوقف.

وتحدث الرحالة عن المناطق التي مرت منها القافلة، وانتبه إلى غنى بلاد الفرس مقارنة مع أوربا. ومن المدن التي أعجب بها مدينة شيراز ومدينة حلب. ولاحظ أن الأجانب كانوا يعاملون في هذه المدن معاملة حسنة: يتحركون بحرية، ولا يتعرضون لأيِّ مضايقة. وشبه الرحالة البرتغالي القافلة في الصحراء بالسفينة في المحيط: "تضطر القوافل إلى الاستعانة بالمرشدين، لأن الصحراء كالمحيط لا توجد بها الطرق المرسومة والمعروفة"[293].

وقد اكتسب المغاربة تجربة كبيرة في الأسفار بواسطة القوافل. فأبو سالم العياشي ألّف رحلته المشهورة "ماء الموائد" وألّف "**الرحلة الصغرى**". وتعرف هذه الأخيرة بـ "**التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه في طريق الحجاز**"، وهو عبارة عن دليل وضعه العياشي لكل من أراد السفر إلى الحج في القافلة. فالغاية واضحة، لأن المؤلف أراد أن يعرف المسافرين "ببعض ما يحتاجون إليه من مهمات الطريق واختلاف أحوالها"[294]. ولعل أهم ما يحتاج إليه المسافر: "الصبر... فإنه كنز لا يفنى"[295]. وأعطى العياشي معلومات عن المواد التي يحتاج إليها المسافر وفصل في ذكر الأماكن التي تكون بها هذه المواد بأثمنة منخفضة وتلك التي تكون فيها مرتفعة. وطالب المؤلّف المسافر بأن يكون يقظاً ومسلحاً: "وخذ لنفسك ما تحتاج إليه من البارود والرصاص"[296]. ثم تتبع العياشي المراحل والمحطات التي تمر منها القافلة وعمل على إبراز خصائص كل مرحلة وكل محطة: "فإذا وصلتم

---

(292) *Ibid*.., p. 117.

(293) *Ibid*.

(294) أبو سالم العياشي، **الرحلة الصغرى**...، **مصدر مذكور**، مخ. خ.ع، ك 43، ص. 303.

(295) **المصدر نفسه**، ص. 304.

(296) **المصدر نفسه**، ص. 305.

بسكرة، فحددوا ما تحتاجون من زاد؛ لأن أرحية الماء ليست إلا هناك، وهي بلدة رخيصة في الغالب، وهي أول عمالة الترك"[297]. وكان العياشي ينصح المسافر ويبين له، انطلاقاً من تجربته، كيف يمكنه القيام بعمليات تجارية مربحة:

> وإن أردتم المشي إلى جزيرة جربة فمن هناك (أي من قابس) تصلون إليها وبها بيعوا ما وجدتم قيمته من دوابكم فإنهم يرغبون في اشتراء الدواب أكثر من غيرهم، وكل ما وجدتم من الإبل الرخيصة من بسكرة إلى طرابلس فاشتروه واشتروا من جربة ما تحتاجون من زبيب وزيت وأكثروا من شراء الثياب من هناك فإنكم تحتاجون إليها كثيراً[298].

فقد حاول العياشي إعطاء معلومات عملية لمن أراد التوجه إلى الحجاز. وفصل أكثر في "**الرحلة العياشية**" أو "**الرحلة الكبرى**" أو "**ماء الموائد**". وإلى جانب مؤلفات هذا الفقيه، توجد تقاييد أخرى مفصلة عن السفر في القافلة. وكانت هذه التقاييد بمثابة سجل الأسفار الذي كان يصاحب ربابنة السفن. ويظهر من خلال ما سبق أن المسلمين عموماً استطاعوا أن يكتسبوا مهارات وخبرة في الأسفار البرية التي كانت مندمجة في التجارة الصحراوية، التي كانت قوة المغرب والمغاربة. ولا ننسى أن أهم التغيرات السياسية التي عرفها المغرب قد انطلقت من جنوبه وبمحاذاة الطرق الصحراوية (المرابطون والسعديون والعلويون) وأن السواحل المغربية كانت أساس التدخلات الأجنبية، وأن عواصم المغرب كانت داخل المغرب (فاس، مراكش، مكناس)، وأن محاولة محمد بن عبد الله اتخاذ الرباط عاصمة لملكه لم تنجح؛ وتحققت الفكرة في مطلع القرن العشرين على يد ليوطي[299]. فهل لوجود الأجانب في السواحل دور في انكماش المغرب وتخلي المغاربة عن البحر بما هو أداة نمو؟

---

(297) المصدر نفسه، ص. 307.

(298) المصدر نفسه، ص. 308.

(299) توجد الظاهرة في مناطق أخرى من العالم: فمدينة مادراس لم تكن في مطلع هذا القرن سوى قرية، فأصبحت اليوم من أهم مدن ساحل الهند.

J. C. Heesterman, "Le littoral et intérieur de l'Inde", in *History and underdevelopment in Asia and Africa*, Leiden, 1980, p. 91.

رأينا كيف كان المغاربة يعتمدون على الفلاحة أساساً لاقتصادهم. ويبدو أن للقارية دوراً هاماً في عدم اهتمام المغاربة بأمور البحر. والمسألة لا تخص المغاربة وحدهم، بل نجدها في مناطق أخرى من العالم: فالصين كانت تعتبر نفسها مركز الكون، ولذلك لم تكن في حاجة إلى البحث عن "الآخر"، بل كان الصينيون يعتقدون أن على الآخرين التوجه إلى الصين: وكان تشبثهم بالسلطة في الداخل يعني المحافظة على التراتب الطبيعي داخل الحدود البرية للإمبراطورية، واعتبروا السواحل الحدود الطبيعية مع الهوامش التي يجب أن تظل هوامش في المنطق الصيني[300].

لقد شكلت سواحل المغرب مراكز توغل الأجنبي منذ القديم، وكان لاحتلال الإيبيريين للثغور المغربية دور في اختناق اقتصاد المغرب. وتسبب هذا الغزو في دمار المناطق الفلاحية المجاورة بسبب الغارات البرتغالية على الفلاحين الذين هاجروا السواحل نحو الداخل وبقيت المناطق الساحلية خراباً "قنط مدينة صغيرة على بعد نحو عشرين ميلاً من أسفي... وهي الآن خراب تخضع أراضيها لبعض أعراب دكالة"[301]. وأشار الوزان إلى أن ملك فاس الوطاسي قد نقل سكان المدينة بدكالة إلى عاصمته حذراً من البرتغاليين. وتحدث الوزان من جهة أخرى عن أنفا وكيف كانت: "فأرضها خصبة تصلح لجميع أنواع الحبوب، وتمثل أجمل منظر في إفريقيا كلها... لدرجة أن ملك البرتغال قرر تدمير أنفا.... ولما رأى السكان الأسطول قادما إليهم... اجتمعوا كلهم وفروا... تاركين مدينتهم خالية... وبقيت أنفا مهجورة خربة إلى الآن"[302]. وبسبب هذا الاحتلال، نقلت الدول الأوربية منافساتها إلى السواحل المغربية. ففي نهاية القرن السادس عشر حاولت القوى البروتستانتية الانطلاق من سواحل المغرب لضرب مصالح إسبانيا في المحيط الأطلسي كما تؤكد ذلك الوثائق:

---

(300) Léonard Blussé, Le "Modern World system" et l'Extrême Orient: Plaidoyer pour un 16è s" in *History and Underdeveloppement*, *op. cit.*, p. 101.

(301) الحسن الوزان، وصف إفريقيا...، مصدر مذكور، ج 1. ص. 119.

(302) المصدر نفسه، ج 1، ص ص. 155 - 156.

منذ شهرين حلت سفينتان من أنجلترا إلى ميناء سوس، وأفرغتا فيه حمولتهما. وبعد ذلك، غادرتا الميناء إلى المحيط حيث تمكنتا من الاستيلاء على مركبين إسبانيين كانا متوجهين إلى الهند الغربية. كان المركب الأول مشحونا بالخمر، والثاني بالزيت والملح ومواد أخرى. وأجبر المركبان على الدخول إلى ميناء سوس، حيث تم تسويق البضائع الموجودة بهما"[303] .

وبسبب المضايقات الإنجليزية للأساطيل الإسبانية، حاولت إسبانيا أن تتدخل في السواحل المغربية. واشترط دوم سباستيان على المتوكل أن يترك له السواحل المغربية مقابل المساعدة: "فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل وله (للمتوكل) ما وراء ذلك"[304].

فإلى جانب هذا الغزو وهذه الشروط المفروضة على المغرب، أصبحت الأساطيل العسكرية الأوربية تحاصر خلال القرن الثامن عشر السواحل، وتجوب المحيط لمطاردة السفن المغربية. وكان القناصل المقيمون في الموانئ يمدون بلدانهم بكل المعلومات المتعلقة بتحركات المراكب المغربية.

وقد سعت الدولة الأوربية إلى ضرب السفن المغربية، وعملت على منع المغرب من تكوين أسطوله. واستعملت كل الوسائل لأجل ذلك: التجسس والمحاصرة والمطاردة. وكان جبل طارق القاعدة المكلفة بحراسة المغرب يقول البارون شخونينغ: "وصلنا إلى ميناء جبل طارق، القاعدة التي توجد بها الأساطيل الهولندية المكلفة بالإبحار بالقرب من سواحل المغرب من أجل مراقبة سفنه وردعها"[305] . وكانت المحاصرة شاملة، والهدف هو منع المغرب من امتلاك أسطول قادر على التوغل في أعماق البحار: "لقد تيقن هذا السلطان من الحصار الذي أصبحت السفن المسيحية تفرضه على موانئه"[306] . فصار الأسطول المغربي لا يستطيع مغادرة هذه الموانئ، خوفاً من الأساطيل الحربية الأوربية التي تجوب السواحل

---

(303) *S. I. H. M.*, 1ère série, Angl, T. I, pp. 503-504.

(304) الناصري، الاستقصا...، مصدر مذكور، ج 5، ص. 69؛ المجهول، تاريخ الدولة السعدية...، مصدر مذكور، ص. 59.

(305) Baron Schoening, *Croisières...*, *op. cit.*, p. 3 et 11 et 20.

(306) "ce monarque voit ses ports bloqués par les fregates", (*Ibid.*, p. 30).

المغربية لحماية التجار والتجارة، بل صارت لاتتردد في مُطاردة المراكب المغربية وضربها في قواعدها[307] .

لقد تسبب تفوق أوربا التقني وسيطرتها على الطرق البحرية في إلحاق أضرار جسيمة بمصالح المغرب. وأدى الحصار الذي فُرض عليه إلى ابتعاد المغاربة عن سواحلهم، وإلى عدم الاهتمام بتجهيز موانئهم. فركزوا على الأرض وغيّبوا البحر عن حياتهم اليومية. فبقدر ما كان البر مجالهم، كان البحر مصدر قوة أوربا وأساس نموها. فبالسيطرة على طرقه، اكتسحت العالم وهيمنت عليه. وتحقق لها ذلك، لأنها عرفت كيف تجعل من التعليم أداة لفهم أمور البحر واستيعابها، لأن المناهج المستعملة صارت تمزج العلم النظري بالعلم النفعي أو العملي؛ على عكس المغرب الذي ظل متشبثاً بنظام تعليمي مبنيّ على التكرار والحفظ والتلخيص، و لم يهتم بالانفتاح على التحولات الحاصلة فبقي جامدا: فما مميزات هذا النظام؟ وما الأسباب التي جعلته يعجز عن مسايرة المنعطفات الحاصلة؟ وما أدواره في انكماش المغرب؟

(307) R. Coindreau, *Les Corsaires...*, *op. cit.*, pp. 146-147.

النظام التعليمي في المغرب خلال العصر الحديث ومسألة التجاوز

ألا توجد علاقة بين النظام التعليمي والعملية التربوية؟ حتى لا نقول المشروع التربوي والواقع الاجتماعي ؟ وما الارتباطات الظاهرة أو الخفية الموجودة بين التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمشاريع التربوية ؟ وهل نستطيع أن نتحدث عن مشروع تربوي في مغرب ما قبل الحماية ؟

الإجابة على هذه الأسئلة ليست سهلة. وتبقى غايتنا الأساسية منها هي طرح تساؤلات وقضايا ترتبط بعلاقة النظام التعليمي بالتجاوز. ونود في البداية تسجيل الملاحظات التالية:

أولا: يتناول هذا الفصل المسألة التربوية في مغرب العصر الحديث، إذا كان لهذا المصطلح مدلول في تاريخ المغرب. ولمزيد من التحديد، نقول إن هذا الفصل يتناول النظام التعليمي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وحدد اختيارنا لهذه الفترة وجود أدبيات تربوية متميزة: كتاب "**القانون**" للحسن اليوسي، وكتاب "**مواهب المنان مما يتأكد على المعلّمين تعليمه للصبيان**" للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، بالإضافة إلى وجود مرسوم صدر عن هذا الملك تنتظم بمقتضاه المواد التي تدرس بجامع القرويين[308] .

(308) أبو علي اليوسي، **القانون**. مخ: خ. ع. D 2382؛ محمد بن عبد الله، **مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان**، م. خ. ع، ك 795؛ أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، **الأقنوم في مبادئ العلوم**، مخ. خ. ع، ك 15.

ثانياً: فإذا كان كتاب اليوسي يتناول العملية التربوية في إطار عام ونظري وغير ملزم، فإن مؤلّفات محمد الثالث تتضمن دلالات وأهدافاً خاصة نجملها فيما يلي: فهي وثائق رسمية اهتمت بالعمل التربوي وتدخلت فيه وعملت على توجيهه في كل التراب المغربي. إذ خص السلطان أهل البادية بتأليف **"مواهب المنان..."** وأورد فيه المبادئ الأولى الضرورية لكل مسلم. وأما المرسوم، فقد وجهه لعلماء فاس وأراد به التدخل في التعليم وفي برامجه بجامع القرويين. ومما يزيد من أهمية الأدبيات التربوية التي صدرت عن هذا السلطان كونه اشتهر في حقل الكتابات التاريخية والسياسية بأنه كان رجل مشروع تحديثي، واعتبره العروي كما أشرنا إلى ذلك المهندس الحقيقي للمغرب الحديث. واعتمدنا منهج المقارنة؛ ولهذا رجعنا إلى الأدبيات التربوية الأوربية المعاصرة لتلك التي رجعنا إليها فيما يخص المغرب. وكان الهدف هو ضبط المنطق المتحكم في هذا النظام أو ذلك وإبرازُه من أجل فهم الإواليات المحركة للعملية التربوية قصد ملامسة دور التعليم في عملية التراجع في المغرب. والعمل على دراسة هذه الإواليات من الداخل، مع العلم أن مفهوم التراجع يطرح عدة مشاكل. فكيف انبنت العلمية التربوية في الضفة الشمالية للبحر المتوسط؟ وما مساهمات التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها أوربا في مشروعها التربوي ؟

1 - واقع جديد: بناء تربوي جديد: مشروع النهضة: الإنسان الكامل

عرفت أوربا منذ القرن الثالث عشر، وخصوصاً بعد الاكتشافات الكبرى، قفزة نوعية أثرت في الحياة اليومية فيها. فقد فجر كريستوف كلومب بوصوله إلى العالم الجديد، وماجلان بدورته حول العالم، ذهنية الإنسان الأوربي؛ إذ صار هذا الأخير واعياً بمؤهلاته وطاقاته، وأدرك أن العالم الذي يعيش فيه أصبح عالماً محدوداً ومعروفاً؛ ولذلك آمن الأوربي بإمكان السيطرة عليه. فأعطيت الفردَ مؤهلاتٌ خارقة وركزت الحركة الفكرية على إبراز قدرات الإنسان الهائلة الكامنة فيه. واستبدلت مبادئ التربية المسيحية بمبادئ وقيم تربوية جديدة: فعوض المحبة المسيحية

التي كانت أساس المناهج التعليمية، اعتبرت المناهج الجديدة الإنسان مركز الكون له الحق في أن يختار لنفسه ما يريد وأن يكون على الشكل الذي يريد. و لم تبق غاية العلم والإنسان غاية مقدسة، بل صارت غايتهما الأساسية المعرفة النافعة. وأصبح النظام التربوي الجديد يهدف إلى إبراز الإنسان الكامل وإعطائه الوسائل اللازمة للسيطرة على الطبيعة.

وانطلق النظام التربوي الجديد من إيطاليا، ليستجيب لحاجيات ولمثل المدن الدويلات التي كانت تعيش تحولات آنذاك وساعدها نظامها التعليمي على تكوين الإنسان القادر والمؤهل لتسيير الإدارة والتجارة. فقد مزجت العملية التربوية في هذه المدن بين التكوين النظري والتطبيقي، و لم تعد الأطر الإيطالية سجينة التكوين القديم أو محصورة في إيطاليا، بل خرجت لتساهم في نشر النظام الجديد ودعمه في مناطق كثيرة من أوربا. فركزت مدينة "جنوى" مثلاً على تكوين رجال الأعمال والبحارة، لأنها كانت مدينة التجارة وتكونت فيها بورجوازية غنية كانت تحب الأسفار والمغامرة المربحة. وكان رجل الأعمال فيها محترماً جداً. ويقول هيير إنه "انطلاقاً من هذا الواقع، كان رجل التجارة والأعمال والمال يحظى في "جنوى" باحترام كبير"[(309)]. و لم يعش هؤلاء على هامش السلطة، بل كانوا أطرافا فيها؛ وسهروا على تكوين أبنائهم تكويناً عملياً ليكونوا في مستوى تسيير أمور المدينة. وكان التعليم يمر بمرحلتين في "جنوى": المرحلة الابتدائية والمرحلة الثانوية، ويمزج بين النظري والتطبيقي فيهما. و لم يهتم رجال الأعمال بإرسال أبنائهم إلى الجامعات، بالرغم من وجودها، لأنهم أرادوا لهم تكويناً عملياً هو: ركوب البحر وتعرّف أموره سواء في الموانئ والأوراش أو في أعالي البحار. وكان الطفل مجبراً على معرفة التجارة وأنواع البضائع وجودتها إضافة إلى التفقه في الأسعار. واهتمت جامعة باڤي (Pavie) بتكوين الأطباء والقضاة والأساتذة. وأوليت أهمية كبيرة

---

(309) Jacques Heer, "L'enseignement à Gêne et la formation culturelle des hommes d'affaires en Méditerranée à la fin du Moyen-Age", in colloque international de *la napoule: l'enseignment en Islam et en Occident*, Geuthner, Paris, 1977, p. 230.

لتكوين العدول والموثقين، لما كان لهذه الحرفة من علاقة بالأعمال. وكانت للموثقين مكانة متميزة في المجتمع، لأن الاستغناء عنهم غير ممكن[310]. وهكذا ارتبطت العملية التربوية في المدن الإيطالية بالتعليم العملي والوظيفي المندمج أساساً بحياة الناس اليومية وبطموحات رجال الأعمال.

وفي هذا الجو المتفتح والمطالب بتجاوز الانغلاق الثقافي، برز دعاة التربية الجديدة في أوربا كلها. فقد طالب رابلي المتعلّم بالانخراط في الحياة اليومية، وآمن بأهمية التجربة في التكوين، وانتقد بشدة الطرق القديمة واعتبرها طرقاً عقيمة؛ لأنها كانت تركز على الحفظ وجمع المعلومات دون فهمها، وثار على جمود المناهج، وألح على المربي بأن يتبنى خطة جديدة لخصها في قوله: "فكلما تكفّل مربٌّ جديد بطفل...، فعليه أن يبدأ أولاً بإفراغه وغسله من الداخل والخارج. عليه أن يغسل دماغه وكل أعضائه حتى يخرج منه رواسب تقاليد الماضي كلها". فالتربية الجديدة عند رجالات النهضة الأوربية تحرر الإنسان من المناهج العقيمة وتجعله يهتم بالحاضر بكل ما يحمل هذا الحاضر من آمال للمستقبل. لقد زعزع رابلي بطريقته الساخرة المألوفة الأسس التربوية التي كانت سائدة، وساهم في خلق الإنسان الجديد الملائم لعالم جديد.

وأولى رجال النهضة مكانة خاصة لدراسة أسرار الطبيعة، خصوصاً عند المدرسة الإنجليزية. ويعتبر فرانسيس باكون (1561 ــ 1626) من رواد هذا الاتجاه. لقد رأى هذا العالِمُ أن القيمة الحقيقية للعملية التربوية تكمن في دراسة خبايا الطبيعة، لأن دراسة الكتب وحدها لا تكفي. ولهذا أكّد في أقواله ضرورة التركيز على الملاحظة واعتماد التجربة، لأنهما أساس المعرفة. وانتقد الذين بالغوا في التشبث بالفكر اليوناني الذي يبقى في أساسه فكراً تأملياً. فحض على التجربة وعلى العمل في الأوراش والمصانع، لأنها هي الكفيلة بالزيادة في الخير والرفاهية للبشر.

ومن خلال هذه المواقف، نلمس أن العملية التربوية خلال عصر النهضة

---

(310) *Ibid.*, p. 233.

كانت تساير التحولات والطموحات التي كانت تحرك أوربا. وأدى هذا الاندماج إلى إخراج هذه القارة من الانعزال والانكماش، وجعلها تقتحم أسرار الكون والطبيعة لتسيطر عليها. فهل بقيت الأهداف التربوية التي رسمها عصر النهضة ملائمة لأهداف أوربا وطموحاتها خلال القرن الثامن عشر؟

2 - عصر الأنوار ومشروع المواطنة في التربية

عرفت أوربا خلال القرن الثامن عشر ثورة صناعية استطاعت بفضلها أن تزيد من عمق المسافة وطول هذه المسافة التي كانت تفصلها عن العوالم الأخرى. وتميز الإنسان الأوربي خلال هذه الفترة بتعطشه إلى المعرفة المبنية على التجربة والعقل والنقد. فلم يعد الناس يقبلون بسهولة الأمور التي كانت سائدة منذ أمد طويل. فناهض رجال الفكر الاستبداد بجميع أشكاله، وسخروا فكرهم الحر الطليق لتحليل هذه الاقتناعات والمقدسات ونقدها، فلم يقبلوا إلاّ ما كان يقبله العقل ويستسيغه المنطق. فكان القرن الثامن عشر قرن العلوم الطبيعية وساهم تقدم هذه العلوم في تحسين وسائل العيش، مما جعل بروديل يقول: "لقد استطاعت الحياة أن تنتصر على الممات"[311] . وبسبب هذه التحولات عرف المجال التربوي قفزة نوعية. فقد تم التركيز خلال هذه المدة على ضرورة خلق الإنسان المواطن، واعتبر كتاب "إميل" (Emile) لجان - جاك روسو الذي نشر سنة 1762 ثورة تربوية. فقد وضع هذا المؤلّف الطفل مركزاً لكل عملية تربوية، وبنى مشروعه البيداغوجي على مبادئ أساسية لعل أهمها ضرورة اعتبار العمل التربوي عملاً مبنياً على مبدإ الحرية، وأن المربي الحقيقي هو الذي يسخر الطبيعة وكل ما تعطيه له ليمكن المتعلم من إدراك حدوده. وعلى المعلم من جهة أخرى أن يساعد الطفل على تجاوز ضغوط العائلة التي تكون مبنية على طغيان العاطفة، وضغوط المجتمع الذي ينبني على عدم المساواة. فبفضل الحرية يستطيع الطفل تجاوز استبداد العادات والتقاليد.

---

(311) F. Braudel, *Civilisation matérielle et capitalisme du XVe au XVIIIe*, Paris, 1967, T. 1, p. 54.

وهناك عنصر آخر اعتمده روسو في عمله التربوي؛ ويتلخص في ضرورة معاملة الطفل على أساس أنه طفل وليس رجلاً. وتتغير الأهداف التربوية بتغير سن الطفل؛ ويبقى الأساس عند روسو أن تكون العملية التربوية عملية جذابة وتدريجية وواعية. وكان هذا المربي يستحضر دائماً مقولة رابلي التي تؤكد أن العلم الذي يدرك بلا وعي ما هو في الحقيقة إلا دمار للروح.

لذلك كانت العملية التربوية عند روسو تضع الطفل داخل محيطه الطبيعي حتى يكون إنساناً طبيعياً، وكان الارتباط بالطبيعة - عند روسو - يكوّن الإنسان العادل. وهكذا ألح على وضع المتعلم في محيطه وإرشاده إلى تعلم الجغرافية والمناخ وعلم النباتات، ثم الحرف؛ وكذلك معرفة العلوم المرتبطة بالإنسان كالتاريخ والسياسة والدين. وإذا لم يتمكن من إدراك كل ذلك أيام التعلم، فلا بأس؛ لأنه سيصل إلى ذلك وحده عن طريق تعلم المنهج الذي يمكنه من التعلم بلا توقف.

لقد انتشرت أفكار روسو بسرعة في أوربا، وألهمت نظرياته في التربية كل المهتمين بأمور التعليم خلال الثورة الفرنسية. وكان يلجأ إليه منظرو البيداغوجية خلال هذه الفترة من أجل الاستشارة والنصح، واعتبروه أهم من استوعب النظريات التربوية من فلاسفة عصر الأنوار،.واستعملت بعض أفكاره شعاراً للثورة مثل: "تكوين الطفل أساس لخلق الإنسان المواطن". وترجم كتاب "إيميل" إلى لغات كثيرة واستلهمت منه بعض الدول بعض برامج تعليمها. وهكذا نرى أن نظريات روسو التربوية تأثرت بمحيطها وأثرت فيه، لأنها انطلقت من واقع أوربا الجديد، أوربا الثورة الصناعية، أوربا الثورات السياسية والفكرية والتربوية بأهدافها الجديدة والمتمثلة في إرادة خلق المواطن الواعي بأهمية المواطنة. فإذا كان المنطلق الأوربي واضحاً كما هي علاقات النظريات التعليمية في المغرب بالظروف التي نشأت فيها ؟ وما الأهداف التي كانت الأنساق التعليمية ترمي إلى الوصول إليها؟

3 - منطلق النظام التعليمي في مغرب ما قبل الحماية

يعتبر استيلاء المولى رشيد على الزاوية الدلائية سنة 1668 محطة أساسية في تقوية الحكم العلوي. فلما خرب هذا السلطان الزاوية، أخرج منها جميع من كان

فيها بمن في ذلك الطلبة والعلماء. فلاشك في أن اليوسي تأثر بهذا الحدث، لأنه كان شديد الارتباط بالدلائيين طالباً وعالماً ومدرّساً. فاليوسي عالم متميز، واعتبره جاك بيرك رمز الثقافة الهامشية. لقد ترك هذا الفقيه مؤلّفات كثيرة لعل أهمها في المجال التربوي هو "**القانون**". ويمكن اعتبار هذا الكتاب ذا بعد نظري، وإن غلب عليه المنهج البيداغوجي؛ إذ كان اليوسي يستعمل بكثرة حرف " أو " و "أي"، بحثا عن التبسيط والتوضيح. وكان المؤلّف حاضراً بقوة في النقاشات التي كان يفتحها. ونظم اليوسي كتابه في ثلاثة أبواب، خص الأول منها للتعريف بالعلم وذِكْرِ أصنافه؛ وتناول في الباب الثاني العالم وكل المعطيات المرتبطة به وبمحيطه؛ وخصص الباب الأخير للمتعلم. ولم يتردد اليوسي في تزويد قارئه ببعض الشروحات والتوضيحات، وتحديد بعض المصطلحات كلما دعته الضرورة لذلك. واستعمل في كتابته الأسلوب البرهاني، منطلقاً من البسيط إلى المعقد. ونورد هنا مثالاً على ذلك ما جاء به عند كلامه عن العلم الطبيعي حيث قال: "هو العلم الباحث عن جسم الإنسان، أي المادي وهو المحسوس من حيث هو معرض للتغير والانفعال. موضوعه الجسم، قاعدته معرفة أحوال الأجسام البسيطة والمركبة. وتتفرع عنه عشرة علوم: الطب - البيطرة - الفراسة - تعبير الرؤيا — علم السحر — الكيمياء - الفلاحة - الطلسمات - السمياء"[312] . ويلاحظ القارئ للـ"**قانون**" معرفة اليوسي للعلوم اليونانية؛ وكان يذكر بعضها ويناقشه من منطق العالم المسلم، فيقبل منها ما وافق الشرع ويرفض ما كان يخالفه. فالحكمة قسمان عنده: حكمة عملية تهدف إلى العلم بأمور تتعلق باكتسابنا وترتبط بالعمل وحكمة نظرية وغايتها هو علم الله: "ومذهب أهل الحق أن كل ذلك إدراك يخلقه الله تعالى متى شاء ويخصه عادة بأي محل شاء؛ ولو شاء، لجعله في محلٍ آخر لأن الكل ممكن والفاعل تعالى"[313] . فقد كان اليوسي يقدم العلم من زاوية الموعظة والاتعاظ، ومن ثم جاء تعليمه منفصلا عن هموم الناس المادية، لأن هدفه الأساسي هو التطرق

---

(312) اليوسي، **القانون**، مخ. خ. ع. D 2382، ص ص. 37 - 38.
(313) **المصدر نفسه**. ص. 25.

لغايات الله في عبده. ويتضح ذلك عند كلامه عن العلوم النفعية، إذ يستعرض حولها الشروحات والتفاصيل من دون أن يتوقف عند إمكان التطبيق، فكتب عن علم استنباط المياه قائلاً: "وهو ما يعرف به استنباط المياه الكامنة في الأرض ومنفعته ظاهرة. ويقال لُمقَدِّر مجاريها ومقدر الأبنية هنداز و مهندز، فعُرب بدل الزاي سيناً. إذ ليس في العربية زاي دال فقالوا: مهندس وصنعته هندسة"[314]. فالعلم النافع عند اليوسي هو: "العلم القاصد وجه الله من أجل القيام... بوظائف العبودية، هو الذي يستعان به على طاعة الله، وهو علم المعرفة بالله"[315]. فإذا كان العلم مسخراً بالأساس لمعرفة الحق، فكيف قدم اليوسي العالم ؟

فاللفظ مأخوذ من علم: "فمن له علم يجب أن يكون عالما بحكم الاشتقاق، والعالم من أسماه الله والله هو العالم الحقيقة. وليس العلم مجرد إدراك؛ وإلاّ كان الناس علماء، إذ لا يخلو إنسان في الجملة من إدراك"[316]. وقد استشهد اليوسي بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال مأثورة حاول أن يبرز من خلالها أدوار العلماء ومكانتهم المتميزة في المجتمعات الإسلامية. فالعالم الحقيقي هو الذي يكون مناراً للمسلمين: "فإذا كان الأكابر يحكمون على الورى، فعلى الأكابر بحكم العلماء"[317] وللعالم درجة على العابد، لأن منفعة العالم عامّةٌ، في حين أن منفعة العابد مقتصرة على نفسه خاصّةٌ به. وأشار اليوسي من جهة أخرى إلى أن درجة العالم فوق درجة التصوف، لأن العالم يكون قدوة لغيره؛ في حين يسعى المتصوف لخلاص نفسه. وهكذا يكون اليوسي قد قدم العالم المسلم النموذج الذي يكنون مسؤولاً عن مساعدة المسلمين على ركب الطريق السوي طريق الإيمان. ومن هذه الزاوية عالج العملية التربوية وأبعادها على المتعلم.

لقد اعتبر هذا الفقيه نشر العلم مصلحة عامة، ولاحظ أن العلماء قسمان:

---

(314) المصدر نفسه. ص. 35.

(315) المصدر نفسه. ص. 167.

(316) المصدر نفسه. ص. 183.

(317) المصدر نفسه. ص. 165.

قسم كرّس حياته للتدريس، وقسم للتأليف: "فأما التدريس، فنفع حاضر ينتشر به العلم في الآفاق؛ وأما التصنيف، فنفع مدخر يوجد عند الحاجة"[318]. وطالب اليوسي المدرس بأن يعتبر حال الوقت وأن يراعي مستوى طلبته. فإذا لاحظ فيهم نجابة، "فليشتغل بهم". وإلاّ "فليدع علمه في بطون الأوراق". فإذا لم يستطع الطالب المسايرة، فعلى الأستاذ أن يلقنه ما يستطيع. فالمتعلم طالب صنعة، وهو الباحث عن الفهم والإدراك. فعليه ألاّ يتردد في طرح السؤال وألاّ يتعض من ارتكابه للخطإ، لأن الخطأ قد يكون أفيد. طالب اليوسي المربي بأن ينهج الأسلوب التدريجي وأن يراعي قدرات الطالب، وعليه ألا "يهجم على الخلافات العقلية قبل أن يعرف مدى عقله؛ فليشتغل بما يطيق من الفنون حتى يقوى على غيره"[319]. وحذر هذا الفقيه الطالب من مخاطر الحسد والافتخار، وطالبه بالإعراض عن السفسطة؛ واعتبر السفسطائيّين مجانين لابد من كسر شوكتهم: "فحقهم أن يقتلوا... حتي لا يفسدوا على العامة عقائدهم ولا يدخلوا عليهم الوسواس في دينهم ودنياهم"[320]. وختاماً، نقول إن العملية التربوية عند اليوسي لا تخرج عن إرادة الإحاطة بكل ما يتعلق بالشرع: "فأولى بالطالب ـ اليوم ـ أن يبدأ بكتاب الله تعالى...ولا يطلب منه التغلغل في علومه، وأن يستعين عليه بعلوم أخرى ثم يأخذ في القواعد اللغوية والعقلية؛ حتى إذا تضلع فيهما، أقبل على العلوم الشرعية"[321]. ومن ثم يبقى كتاب "**القانون**" كتاباً نظرياً بالأساس مرتبطاً بالفئة المثقفة شأنه شأن المؤلّفات الإسلامية التي اهتمت بالعلم والعلماء[322]. فما حالة مؤلفات محمد بن عبد الله التربوية ؟

---

(318) المصدر نفسه، ص. 206.

(319) المصدر نفسه، ص. 241.

(320) المصدر نفسه، ص. 21.

(321) المصدر نفسه، ص. 240.

(322) انظر: كتاب الإرشاد القاصد إلى أسنا المقاصد لابن الأكفاني؛ واللؤلؤ النظيم في روع العلم والتعليم لأبي زكريا يحيى الأنصاري الشافعي. (مخ. خ. ع. د 2173؛ وأرجوزة الأقنوم في مبادئ العلوم، لعبد القادر الفاسي.

لاشك في أن التحديث يمر عبر القطاع التعليمي. فما المبادئ التي تبناها هذا السلطان في هذا المجال ؟ وهل حملت مؤلّفاته جديداً في التربية ؟ تعرض محمد بن عبد الله لأمور التربية في "**مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان**"، وهو مؤلّف صغير لا يزال مخطوطاً. وتوجد عدة نسخ منه، واعتمدنا نسخة الخزانة العامة تحت رقم ك 795. والكتيب في 43 صفحة من الحجم الصغير، مكتوبة بخط مغربي جميل، وتاريخ نسخها 1241 هـ 1825 م. وقد ألف محمد الثالث هذا المؤلف لصالح طلبة وأئمة البادية: "وكنت لقيت حال سفري من مكناسة إلى مراكش سنة ثلاث بعد المئتين والألف من الأساتيذ الجم الغفير، ولقيت كل ما اختبرت منهم لم يتمسك من علم دينه بقمطرير. حملني ذلك، لما انطوى عليه الفؤاد من حب النصح للمسلمين، أن أجمع لهم مسائل أمهات من أمور الدين"[323]. فالمؤلف عمل تربوي موجه أنجزه السلطان تقرباً من الله وجرياً وراء المصلحة، لأن "تعلم قواعد الإسلام من أوجب الواجبات على العباد"[324]. وخاطب السلطان الآباء وحثهم على ضرورة الاهتمام بتعليم أبنائهم هذه المبادئ في سن مبكرة حتى "يألفوا الدين قبل البلوغ"[325]. والملاحظ أن السلطان يستعمل الخطاب الإلزامي من أجل إثارة الانتباه إلى أمور يعتبرها ضرورية. وهكذا نراه يستعمل بكثرة **يتعين**، **يتأكد**، **يجب**؛ وناهض من جهة أخرى اعتماد الحفظ، لما لاحظ إهمال الطلبة للفهم وعاتبهم على ذلك بقوله: "فضل حفظ كتاب الله مأثور... لكن لا مع الجهل"[326]. ولذلك ألف كتابه من زاوية دينية طمعاً في عمل خير يتقرب به إلى الله لا من زاوية المسؤولية السياسية.

وخطط محمد بن عبد الله للمعلم ما يلزمه القيام به. فأوصاه باعتماد التدريج حيث يبدأ بـ "الفاتحة" ثم حزب "سبّح". وإذا صعب ذلك على المتعلم،

---

(323) محمد بن عبد الله، مواهب المنان، مصدر مذكور، مخ. خ. ع، ك 795، ص. 9.

(324) المصدر نفسه، ص. 3.

(325) المصدر نفسه.

(326) المصدر نفسه، ص. 5.

فعلى المربي أن يلقنه الربع الأخير من هذا الحزب. وبعد ذلك، يعلمه عقيدة الشيخ ابن أبي زيد. ونصح السلطان المعلم بأن ينهج أسلوب التكرار لترسيخ هذه التعاليم: "ويتأكد على المعلم إعادة الأمور على الصبيان وتكرارها حتى ترسخ في أذهانهم؛ فإن تعلم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر"[(327)] . وأشار السلطان من جهة أخرى إلى أهمية التعليم، لأنه يهذب الاستقامة ويدعمها داخل المجتمع؛ والاستقامة هي ضمان السلامة. وعندما يُدرك المتعلم أمور دينه، تبقى للمعلم الصلاحية في توجيهه. فإن اقتنع هذا الأخير بنجابة الطفل، شجعه على الاستمرار وحاول إقناع والده بذلك. وأما إذا تأكد من العكس، فعليه أن يرشده إلى أخذ حرفة والده: "ثم إذا ظهرت فيه نجابة في القراءة، فليتركه يقرأ؛ وإن لم تكن فيه نجابة في القراءة، وهو قد تعلم أمور دينه وبرئت ذمة والده من تبعات بقائه بجهله؛ فعليه أن يحترف بالحرفة التي كان والده يحترف بها من تجارة أو صنعة يد أو فلاحة لمعاشه. وبالله التوفيق"[(328)] .

وبعد أن قدم السلطان الأهداف التربوية، تابع حديثه عما يجب تعلمه وتناوله في أربعة أبواب هي: الطهارة والزكاة والصيام والحج، وتطرق في الخاتمة للتصوف.

فإذا كان كتاب "مواهب المنان" عملاً تربوياً تبسيطيّاً موجهاً بالأساس لأهل البادية، فإن السلطان عالج المسألة التعليمية بعمق في المرسوم المنظم للدراسة جامع القرويين[(329)] .

فالمرسوم وثيقة رسمية تعبر بوضوح عن إرادة السلطان التحكم في توجيه العملية التربوية في القرويين. وتبنى المرسوم خطاباً صارماً ولهجة جازمة. خصص المرسوم فصله الثالث للتعليمات الصادرة عن السلطان: "فإنا أمرناهم أن يدرسوا"، حيث نلاحظ استعمال السلطان صيغة التأكيد والأمر الرافض لأي نقاش. بعد

---

(327) المصدر نفسه، ص. 16.

(328) المصدر نفسه، ص ص. 18 - 19.

(329) ابن زيدان، الإتحاف...، مصدر مذكور، ج 3، ص ص. 211 - 214.

ذلك، حدد المرسوم المواد التي يجب أن تدرس وهي **"القرآن"** و **"دلائل الخيرات"**، لنلاحظ ذكره لهذا الكتاب قبل كلامه عن الحديث والكتب الصحاح. وبعدما أشار المرسوم إلى هذه الكتب، ذكر كتب الفقه كـ **"المدونة"** و **"البيان والتحصيل"** و **"مقدمة ابن رشد"**، ثم حدد الشراح الخمس الواجب اعتمادهم في قراءة **"خليل"** وهم بهرام الكبير والمواق والحطاب وعلي الأجهوري والخرشي الكبير. أما ما عدا هؤلاء الشراح، فيأمر المرسوم بأن "ينبذ ولا يدرس به". وقد ذهب المرسوم أبعد من ذلك، فحدد بعض الفصول في بعض الكتب وأنهى القول بتهديد مخزني صريح: "وهذه المسائل التي نهينا عن قراءتها، فمن تعرض لقراءتها ونالته عقوبة على أيدينا، فلا يلوم إلا نفسه". وحدد المرسوم من جهة أخرى الكتب التي تتضمن ما عرف بعلم الآلة أو العلوم المساعدة على فهم كتاب الله وحديث رسوله. ونبه السلطان إلى أن باب الاجتهاد لم يعد واجباً في الأصول، لأن الأمر قد حسم فيها. واتخذ موقفاً صارماً ممّن أهمل تعاليمه، ولا سيما في علوم كان يعتبرها مضرة بطلبة البادية الوافدين على القرويين: "ومن أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص، فليتعاط ذلك في داره مع أصحابه الذين لا يدرون بأنهم لا يدرون؛ ومن تعاطى لما ذكرنا في المساجد ونالته عقوبة، فلا يلوم إلا نفسه". وشدد السلطان في انتقاداته للطلبة الذين تمادوا في الاهتمام بالعلوم التي منعها المرسوم. وأشار السلطان إلى أن هؤلاء الطلبة يبحثون عن السمعة والظهور، "ويضلون طلبة البادية الذين يأتون من بلدهم بنية التفقه في الدين".

وهكذا يكون هذا السلطان قد تناول العملية التربوية داخل المنطق الموروث، فلم يحاول أن يدخل عناصر بيداغوجية جديدة ومجددة؛ بل حارب المواد التي تساعد على الفهم والنقد، مع العلم أنه تبنى سياسة الانفتاح على العالم الخارجي وكان يتوصل بتقارير من سفرائه. فقد كتب ابن عثمان تفاصيل عن المؤسسات التعليمية في أوربا. ومن جملة ما ذكر عن إحدى المدارس البحرية:

فمن نجب من الصبيان في الكتابة والحساب، ينتقل من تلك المرتبة إلى المرتبة التي فيها السفينة ويتعلم فيها أمور البحر مباشرة. وعندهم بالبيت المذكور كثير من الآلات التي يتوقفون عليها في البحر مثل القوس والبوصلة وكورة العالم وما أشبه ذلك... ولما كنت بالموضع الذي فيه السفينة المذكورة، أمر القيم الموكل بالصبيان المتعلمين أن يخدم كل واحد منهم خدمته المعين لها من السفينة. ففي لحظة عين، تعلق الصبيان بالسفينة وشدوا حبالها وأخرجوا قلوعها وعمروا مدافعها في أقرب مدة[330].

كيف نفهم مواقف محمد بن عبد الله المتضاربة؟ فهل كان يومن بضرورة التمييز بين العلم الضروري لمعرفة الأغلبية لأبسط أمور دينها، والعلم العقلي التصوري للنخبة العالمة؟ وهل كانت له حقاً إرادة تحديث المغرب؟

لقد فصّل محمد حجي القول عن التعليم في العصر الحديث[331]. فميز في دراسته بين العلوم الشرعية والعلوم الأدبية والعلوم البحتة، ووقف كثيراً عند المناهج التعليمية التي كانت مبنية على الحفظ حتى قيل: "من لا يحفظ النص، فهو لص"[332]. وكانت ظاهرة الحفظ تمس كل مراحل التعليم، فيضطر المراهق إلى حفظ أمهات الكتب كـ "ألفية" مالك و "لاميتــ"ـه، ومن أجل تسهيل هذه العملية، انتشرت ظاهرة المختصرات المبنية على تلخيص التنى ثم تلخيص التلخيصات[333]. وانتقد ابن خلدون هذه العملية، لأنها أدت إلى عكس المراد منها: "قصدوا تسهيل الحفظ على المتعلمين، فأركبوهم صعباً"[334]. وخلص محمد حجي إلى القول بأن آفة التعليم في المغرب آتية من الحفظ والاختصار: "لكن رغم الفتح وما نتج عنه من تنوع في المادة الدراسية، لم يستطع التعليم في المغرب أن يتخلص من ظاهرتين خطيرتين طالما جثمتا على عقول الدارسين في عصر الانحطاط وعرقلتا كل تطور

(330) محمد ابن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، الرباط، 1965، ص. 42.

(331) محمد حجي، **الحركة الفكرية...**، مرجع مذكور، ج .1، ص ص. 85 - 92.

(332) المرجع نفسه، ج. 1، ص ص. 83 - 84.

(333) إبراهيم حركات، **السياسة والمجتمع في العصر السعدي**، الدار البيضاء، 1987، ص. 399.

(334) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص. 501 - 502.

فكري، وهما الاختصار والحفظ"[335].

لقد تعرض ابن خلدون في أماكن مختلفة من "المقدمة" إلى مواضيع تتعلق بالتعليم، وتناولها من منظور اجتماعي وتربوي حيث انتقد طرق العملية التربوية وأساليبها. ولاحظ تراجع التعليم في الغرب الإسلامي، بل ربط سقوط الأندلس بهذا التراجع، وتأسف لعدم ربط التعليم بالواقع اليومي: إذ يقضي المتعلم وقتاً ثميناً من عمره في دراسة علوم قد لا يحتاجها: "فالظاهر أن المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله، فلا يفي له تحصيل علمْ العربية مثلاً الذي هو آلة من الآلات ووسيلة. فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة[336]. كما لاحظ ابن خلدون ارتباط العلم في المغرب بالأمور النظرية، وأرجع ذلك إلى اعتياد العلماء الغوص والنظر في المعاني "وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن". وأوضح بأن ذلك يعود إلى إتباع العلماء في تحاليلهم المنهج المبني على القياس المتخذ في الفقه وأنهى ابن خلدون كلامه قائلا: "ولا تزال أحكامهم (العلماء) وأنظارهم كلها في الذهن"[337]، ولا تصير إلى المطابقة إلا بعد الفراغ من البحث والنظر، فلا تصير بالجملة إلى المطابقة[338].

كانت البرامج التعليمية ومناهج تلقينها أساس تكوين أطر الدولة المغربية خلال العصر الحديث. ونذكر مثالاً على ذلك أبا فارس عبد العزيز الفشتالي على عهد السعديّين، والوزير اليحمدي في عهد العلويين. ينتسب الفشتالي إلى قبيلة فشتالة، وهي قبيلة في شمال فاس. ولد في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ولا نعرف بالضبط متى توفي ولا أين. ويظهر أن وفاته كانت في الثلاثين من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وقد أخذ الفشتالي عن علماء عصره ممن عرفوا بالتضلع من اللغة والفقه والحديث كأبي العباس المنجور

---

(335) محمد حجي، الحركة الفكرية...، مرجع مذكور، ج.1، ص. 82.

(336) ابن خلدون، المقدمة، مصدر مذكور، ص. 501.

(337) المصدر نفسه، ص. 503.

(338) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

وعبد الواحد الحميدي وأبي العباس الزموري وغيرهم من أئمة الوقت في فاس، وكان يغلب على تكوينه الأدب واللغة. وتألق الفشتالي في بلاط أحمد المنصور وكلف بالكتابة الخاصة وعرف بوزير القلم ورئيس ديوان الإنشاء، وكان من شعراء البلاط المرموقين.

وأما الوزير اليحمدي، فهو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد اليحمدي، نسبة إلى بني يحمَد القبيلة المعروفة قرب جبال غمارة: "ولد على رأس ستين وألف. سمعت ذلك مشافهة منه في دار أبيه ببني يحمَد ونشأ بها حتى شب"[339]. فرحل إلى فاس لطلب العلم وأخذه عن مشاهير علمائها كالإمام عبد القادر الفاسي وابنه سيدي محمد بن عبد القادر والشيخ أبي العباس أحمد حمدان. ويظهر من خلال ما كتبه عنه الزرويلي، ومن خلال المراسلات التي تبادلها معه أن اليحمدي كان مولعاً بعلوم الآداب والفقه: "فهو أعلم الأدباء بآداب العلماء وأشعارها وآثارها وأخبارها"[340]. ومن خلال الكتاب الذي ألفه علي ابن أحمد بن قاسم بن موسى المعروف بمصباح الزرويلي تحت عنوان "**سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير أبي العباس اليحمدي**" نستطيع أن نأخذ فكرة عن هذا الوزير الذي بقي إلى جانب المولى إسماعيل مدة طويلة. كما وصل إلى الوزارة بعض أبنائه: "فمن بنيه الوزير الأجل الرئيس السيد أبو الربيع سليمان وهو أكبر بنيه"[341]. ففي الباب الرابع من المخطوط المخصص لذكر الرسائل التي بعث بها اليحمَدي للزرويلي نستطيع أخذ فكرة عن تكوين هذا الوزير؛ ويغلب على هذا التكوين الأدب والشعر. كان له إلمام كبير بكبار الشعراء وبكتاب "**الأغاني**" لأبي الفرج الأصبهاني وبه كان يرد ويناقش الزرويلي في أمور الشعر[342]. وفي رسائل أخرى ناقش اليحمدي قضايا فقهية. فقد كتب يقول للزرويلي: "فلقد طالعت المطولات من كتب الفقه و "**تكميل التقييد**" لابن غازي و "**التقييد**" لأبي الحسن الصغير

---

(339) الزرويلي، سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير اليحمدي، مخ. خ. ح.، رقم 521، ص. 7.

(340) المصدر نفسه، ص. 12

(341) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(342) المصدر نفسه، ص ص. 339 - 341.

وشراح ابن الحاجب و خليل[343]. فمن خلال ما كتبه الزرويلي عن اليحمدي، عرفنا أن المولى إسماعيل قد استوزره "سنة خمس وعشرين ومائة وألف... وهو في جميع المدة المذكورة الوزير الأكبر والرئيس الأعظم المقدم الباسط يد الأمر على سائر الكتاب... فهو ـ أعزه الله ـ لسان حضرته وترجمان مملكته ولسان عين دولته... وهو المتولي الإنشاء بين يدي السلطان"[344]. فبالرغم من هذه المهام، يظهر أن تكوين اليحمدي كان تكويناً عادياً في جامع القرويين شأنه في ذلك شأن باقي العلماء.

فما أهم الخلاصات التي نستطيع استخراجها من خلال ما وقفنا عنده في الأنساق التعليمية ؟ يظهر أن التعلم والعلم العملي كان أساس العمليات البيداغوجية في أوربا، وعلى العكس من ذلك بقي النظام التعليمي في العالم الإسلامي عموماً، وفي المغرب الأقصى خصوصاً، مرتبطاً بالذهنية الشرعية؛ لأن من شروط العلم كما ألح على ذلك أبو زكريا يحيى الأنصاري الشافعي عندما قال: "ألا يقصد من تعلمه (العلم) اكتساب المال والجاه"[345]. واتضح لنا من جهة ثانية وجود علاقة وطيدة بين المشروع التربوي والتحولات والمنعطفات التي تعيشها المجتمعات. وهكذا أفرزت النهضة الأوربية بيداغوجية الإنسان الكامل المغامر والملائم لمتطلبات العصر، وأدى عصر الأنوار إلى ظهور الإنسان المواطن. على العكس من ذلك، لم يعرف المغرب تحولات اقتصادية اجتماعية عميقة. ولهذا لم يعرف ظهور مشاريع تربوية عميقة، ولكن ظهرت فيه محاولات ومؤلفات لا تختلف عن المناهج التربوية الإسلامية السابقة التي كانت تعتمد الذهنية التجريدية على حدّ قول ابن خلدون، وتبتعد عن المحسوسات. ولأجل هذا، "لا تزال أحكامهم وأنظارهم (العلماء) كلها في الذهن... ولا تصير بالجملة إلى المطابقة"[346].

---

(343) المصدر نفسه، ص. 343.

(344) المصدر نفسه، ص. 10.

(345) أبو زكريا يحيى الأنصاري الشافعي، اللؤلؤ النظيم في روح التعلم والتعليم، مخ. خ. ع، د 2173، ص. 12.

(346) ابن خلدون، المقدمة، ص. 503.

الخاتمة

ما هي الخلاصات الأساسية التي توصلنا إليها من خلال دراسة هذا الموضوع الشائك ؟ فالقرب من أوربا أثر ولا شك على المغرب إلا أن هذا التأثير بقي محدودا مقارنة مع تأثير وضغط التقاليد والعادات. إن المستوى الاقتصادي والإجتماعي الذي عاشه المغرب إلى حدود القرن السادس عشر لا يختلف كثيرا عما كانت تعيشه بلدان أوربا، ورغم ذلك أصبح التجاوز الأوربي للمغرب واقعا معيشا وديناميكية مستمرة ويمكن اعتبار احتلال سبتة سنة 1415 بداية المنعطف، فقد دشن هذا الحدث مرحلة المد والاندفاع الأوربي والانكماش والتراجع المغربي. فبقدر ما ازدادت أوربا يقينا بتفوقها، ووعت حيويتها، بقدر ما ابتعدت عن العوامل الأخرى وعمقت الهوة التي تفصلها عنها.

حاولنا خلال هذه الدراسة تجاوز الأحداث والانفعالات من أجل مقاربة العوامل الخفية المرتبطة بالذهنية المغربية قصد إدراك بعض العناصر المسؤولة عن التراجع والانكماش. واعتمدنا معالجة القضايا المطروحة في المدى البعيد من أجل تتبع مراحل التفاوت. ففي مطلع القرن السابع عشر ناقش وناظر أبو القاسم الحجري المعروف بأفوقاي، أثناء وجوده في أوربا، علماءها مناقشة الند للند، وحاورهم من موقع العالم المعتز والمفتخر بشخصيته الثقافية العربية الإسلامية. وكانت مناظراته تنتهي مع هؤلاء العلماء بالجدل كما حصل له في باريز وعن هذا الحدث قال: "وكنا نبتدي بالكلام في العلم ثم تقع المنازعة بيننا على الأديان،

وغير ذلك من الكتب"[347] . ومع مرور الوقت تقوت أوربا وفطن السفراء المغاربة لذلك فأصبحوا ينسجون خطابات تبريرية يعترفون فيها بقوة وإبداعات أوربا في القضايا المادية ويرفضون لها الأبعاد الروحية. "والحاصل - يقول السفير ابن عثمان — أمور الدنيا لم يعجزوا في شيء منها يعلمون ظاهر الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون"[348] .

وكانت محاولات التحديث التي عرفها المغرب محاولات انعدمت فيها الاستمرارية والتراكم لأنها كانت رسمية ومرتبطة بأصحابها فما يكاد يغيب صاحب المشروع حتى تضيع الفكرة. فالأزمات وتواليها تظهر المغرب وكأنه محكوم عليه بأن يرجع دائما إلى البداية. وربما ومن هذه الزاوية نفهم البعد البيولوجي للدولة عند ابن خلدون. وقد تسببت هذه الأزمات في ضعف اقتصاد المغرب كما أن الاحتلال الإيبيري - للثغور المغربية — زاد في خنقه وإبعاد المغاربة عن السواحل التي أصبحت ملطخة بالوجود النصراني، لذا وجب تطهيرها. وأدى الوجود البرتغالي الإسباني إلى ظهور مغاربة رأوا في التعامل مع الإيبيريين منفعة ومصلحة لأنه سيمكنهم من المشاركة في التجارة العالمية عن طريق البرتغال وإسبانيا، وجسد هذا الاتجاه يحي أوتعفوفت الذي خدم البرتغاليين وتكونت لديه على ما يبدو طموحات سياسية محلية غير أن تطلعاته هذه لم تتحقق. لقد تسبب الاحتلال الإيبيري للثغور في هجرة المغاربة للسواحل. وهكذا، وفي الوقت الذي سعت فيه أوربا إلى السيطرة على الطرق البحرية من أجل السيطرة على التجارة العالمية عزف المغاربة عن أمور البحر واتجهوا صوب الداخل، مع العلم أن البحرية المغربية كانت ذات شأن عظيم خلال العصر الوسيط إذ كانت سبتة وسلا من أهم الموانئ المغربية خلال هذه الفترة. وقد انتبه السلطان المولى عبد الحفيظ إلى إهمال المغاربة لأمور البحر واعتبره من أسباب تراجع المغرب. "قلت وإذا أحطت علما أيها القارئ بما جلبناه من المكاتب السابقة بعلم صحة ما أشرنا إليه سالفا مما كان

---

(347) - أبو القاسم الحجري، ناصر الدين. ص: 130.
(348) - ابن عثمان، البدر السافر، مخ: خ.ع، رقم 12523. ص: 130.

عليه حال الدول قبلنا بهذه الأقطار المغربية بمد يد المساعدة للدول الأجنبية وإهمال لأمور البحرية التي إهمالها سبب كل بلية"[349].

كما أدت الأزمات المتكررة إلى منع أي تراكم وإلى تشبث العامة بذهنية الخرافة والإيمان بالغيب[350] وبقيت النخبة العالمة متشبعة بالتجريد والطوباوية بعيدة كل البعد عن الواقع اليومي، في الوقت الذي اهتمت فيه المجتمعات الأوربية بالعقل العملي من أجل معرفة الطبيعة والسيطرة عليها، واعتمد عبد الله العروي على هذا الاختلاف ليقر بوجود عقلين: "أحدهما يهم الفكر وحده... هدفه النظر في شروط التماسك والاتساق، والثاني يهم السلوك أو الفكرة المجسدة في فعل، هدفه النظر في ظروف مطابقة الوسائل للأهداف المرسومة، أيا كانت، الأول عقل المطلق، عقل الكائنات المجردة... والثاني عقل الواقعات، أفعال البشر المتجددة... هنا تحل القطيعة الجوهرية بين القديم والحديث"[351].

وقد ازدادت هوة تجاوز أوربا للمغرب، لأن الأوربيين اهتموا بالملموس وعملوا على تغييره قصد تحسين حياتهم اليومية لا التأمل فيها. وهكذا سيطرت أوربا على التجارة وفرضت شروطها على العوالم الأخرى بفضل تفوقها التقني والعسكري. فركزت على منطق المهادنة والمعاهدة المعتمد على القانون الذي يبقى قانونا أوربيا في أساسه، وضع لضبط التصرفات والممارسات التي كانت تعوق مصالحها، وتشوش على أرباح تجارها. واستخدمت الدول الأوربية القانون البحري الدولي للضغط على سلاطين المغرب الذين كانوا يستعملون القرصنة لمواجهة الأساطيل الأوربية.

ولم تنجح محاولات التحديث في مغرب العصر الحديث ربما لأنها كانت محاولات سلطانية آتية من الأعلى وغير متجدرة في المجتمع على عكس أوربا التي

---

(349) - المولى عبد الحفيظ، داء العطب قديم، مخ: خ. ح رقم 11400 ز. ص: 83.

(350) - إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي. الدار البيضاء، 1987. ص: 337 - 372.

(351) - عبد الله العروي، مفهوم العقل. - الدار البيضاء، 1996. ص: 398.

حققت ذلك لأنها كان تتوفر على قاعدة ثقافية واقتصادية مؤهلة للتغير. وقامت فيها الأنظمة التعليمية بأدوار هامة لأن العملية التربوية كانت مبنية على دراسة وإدراك الواقع وكانت تومن بأهمية التجربة على عكس النظام التعليمي في المغرب الذي ظل مبنيا على الحفظ والتكرار والاختصار رافضا لكل إبداع خلاق، ولكل نقد بناء، فبقيت التقاليد راسخة لأن القاعدة الاقتصادية والاجتماعية ظلت جامدة. ولم يكن المجتمع قابلا أو قادرا على التغيير لأنه لم يكن واعيا بأهميته وكانت محاولات التحديث الرسمية تصطدم بمعارضة الفقهاء لسان العامة وحماة الوضع القائم، ففشل كل تلك المحاولات راجع إلى شروط الحداثة التي لم تتحقق بعد.

المصادر والمراجع العربية

- إبراهيم المراكشي (عباس).
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. ـ فاس: المطبعة الجديدة، 1983 في 8 أجزاء.
- ابن أبي زرع (علي).
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. ـ الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973.
- ابن أبي محلي (أحمد بنعبد الله).
- إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت. ـ مخطوط خ ح، رقم 100.
- مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة ومدراس نفوس السفلة المنخدعة ـ مخ: خ . ع. ك 192.
- سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق. ـ مخ : خ.ح رقم : 4733.
- سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة. ـ مخ :خ.ع.ف : 338.
- ابن الأكفاني (شمس الدين ابن عبد الله الأنصاري السنجاري).
- كتاب إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد. ـ تقديم وتعليق يوست ويتكام، ليدن : 1989.
- ابن خلدون (عبد الرحمن).
- مقدمة تاريخ ابن خلدون. ـ بيروت : دار الفكر 1981.
- ابن زيدان (عبد الرحمن).
- إتحاف أعلام الناس، بجمال حاضرة مكناس. ـ الرباط ـ المطبعة الوطنية، 1347 هـ. خمسة أجزاء.

- العز والصولة في معالم نظم الدولة. ـ الرباط: المطبعة الملكية جزءان سنة : 1961.

- ابن عثمان المكناسي (محمد).
  - الإكسير في فكاك الأسير. ـ تحقيق محمد الفاسي، الرباط : 1965.
  - البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر. ـ مخ: خ ح. الرباط، رقم : 12523.
- ابن عسكر (محمد الحسني الشفشاوني).
  - دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر . ـ تحقيق محمد حجي. الرباط: دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، 1976.
- أبو القاسم (محمد بن سليمان المراكشي).
  - الحلل البهيجة في فتح البريجة. ـ دراسة عبد الكريم كريم. الرباط، 1986.
- ابن القاضي (أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي).
  - درة الحجال في أسماء الرجال. ـ تحقيق محمد الحمدي أبو النور. ـ تونس: المكتبة العتيقة، القاهرة: دار التراث. 3 أجزاء، 1971.
- ابن مرزوق (الخطيب محمد التلمساني ت 1380).
  - المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن. ـ مخ: خ.ع.ف،111.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين).
  - لسان العرب. ـ بيروت. دار صادر، 15 جزء. 1300 هـ.
- الإفراني (محمد الصغير).
  - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. ـ باريز: طبعة هوداس، 1888.
- أمين (أحمد).
  - فجر الاسلام. ـ القاهرة: مكتبة النهضة، الطبعة السابعة، 1959.
- الأنصاري (أبو زكرياء يحي).
  - اللؤلؤ النظيم من روع التعلم والتعليم ضمن خ ع بمجموع د. $\frac{2173}{2}$. من ص 16 إلى ص 24.
- البادسي (عبد الحق بن اسماعيل).
  - المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف . ـ تحقيق سعيد أعراب. ـ الرباط: المطبعة الملكية، 1982.

■ برينتون (كرين).
- تشكيل العقل الحديث. - ترجمة شوقي جلال. الكويت: عالم المعرفة، 1984.
■ البزاز (محمد الأمين).
- تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. - الدار البيضاء: النجاح الجديدة ، 1992.
■ بنكرعي (حليمة).
- مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين. - دبلوم الدراسات العليا، رسالة مرقونة. الرباط، 1985.
■ البوعصيبي (أبو بكر).
- أضواء على ابن يجبش التازي. - الدار البيضاء : النجاح الجديدة، 1976.
■ بوشرب (أحمد).
- دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور قبيل غشت 1481 – 1541. - الدار البيضاء : دار الثقافة، 1984.
■ البيذق (أبو بكر بن علي).
- أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. - الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971.
■ التادلي (إبراهيم).
- زينة النحر في علوم البحر. - مخ: خ ع ضمن مجموع: د 1347 من ص (199 - 208).
■ تامر (عارف).
- الإمامة في الاسلام. - بيروت: دار الكاتب العربي، بدون تاريخ الطبع.
■ الجابري (محمد عابد).
- بنية العقل العربي. - الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 1986.
- تكوين العقل العربي. - الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 1991.
■ الجنابي (مصطفى بن حسين الهاشمي التركي ت 1590).
- البحر الزاخر والعيلم التيار. - مخ: خ.ح، رقم : 1507.

▪ الحجري (أحمد بن قاسم).
- ناصر الدين على القوم الكافرين. - تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء: النجاح، 1987.
- العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع. مخ : خ.ع. ج 87.
▪ الحجوي (محمد بن الحسن).
- الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي. - القاهرة: دار التراث، 1376 هـ، جزءين.
▪ حجي (محمد).
- جولات تاريخية. - بيروت : دار الغرب الاسلامي 1995.
- الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين. - المحمدية : مطبعة فضالة، 1977. جزءان.
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي. - الرباط : المطبعة الوطنية، 1964.
▪ حركات (ابراهيم).
- السياسة والمجتمع في العصر السعدي. - الدار البيضاء: 1987.
▪ الحساني (إبراهيم بن علي).
- ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي. - تحقيق عمر أفا. - البيضاء : النجاح الجديدة، 1989.
▪ حميد الله (محمد).
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة . - بيروت : دار النقاش، الطبعة الخامسة، 1985.
▪ الحوات (سليمان بن محمد العلمي).
- البدور الضاوية، في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية. - مخطوط: خ.ع. د 261.
▪ راندال (جون هرمان).
- تكوين العقل الحديث. - ترجمة جورج طعمة، بيروت : دار الثقافة، ط. الثانية، 1965. في جزءين.

■ الريفي (عبد الكريم بن موسى).
- زهر الأكم، مساهمة في تاريخ الدولة العلوية من النشأة إلى عهد المولى عبد الله بن إسماعيل. - دراسة وتحقيق بنعدادة آسية. - الرباط : لابورت، 1992.

■ الزرويلي (علي مصباح).
- سنا المهتدى، إلى مفاخر الوزير اليحمدي. - مخ : خ.ح. رقم : 521.

■ زريق (قسطنطين).
- نحن والتاريخ. - بيروت : دار الحقيقة، 1973.

■ الزياني (أبو القاسم).
- الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. - تحقيق عبد الكريم الريفي، المحمدية : 1967.
- البستان الظريف في دولة مولاي علي الشريف. - دراسة وتحقيق رشيد الزاوية. الرباط، 1992.

■ السايح (محمد بن عبد السلام).
- أسبوع في باريز. - مخطوط: خ. ح. رقم : 161.

■ السفير (محمد التابعي).
- السفارات في الإسلام. - القاهرة، 1988.

■ السنوسي (محمد علي).
- كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن. - ليبيا : وزارة الإعلام والثقافة، 1968.

■ السوسي (محمد المختار).
- المعسول . - الدار البيضاء : النجاح، 1962. 20 جزء.
- سوس العالمة. - الدار البيضاء : الطبعة الثانية، 1984.

■ الشاذلي (عبد اللطيف).
- الحركة العياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17. - الدار البيضاء، 1982.
- التصوف والمجتمع، نماذج من القرن العاشر الهجري، سلا ،1989.

- الضعيف (محمد).
- تاريخ الضعيف. ـ تحقيق وتعليق أحمد العماري، الرباط : دار المأثورات، 1987.
- عارف (تامر).
- الإمامة في الاسلام. ـ بيروت : دار الكتاب العربي. ـ بغداد : مكتبة النهضة، بدون تاريخ.
- العبادي (الحسن).
- الملك المصلح، سيد محمد بن عبد الله العلوي (حياته ـ حركته السلفية ـ نهضته العلمية). ـ الدار البيضاء : بنميد 1987.
- عبد الحميد (محمد).
- الإسلام والتنمية. ـ جدة : دار المنارة ، 1989.
- عبده (محمد).
- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده. ـ بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 3، 1972.
- العروي (عبد الله).
- ثقافتنا في ضوء التاريخ. ـ الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 1983.
- العرب والفكر التاريخي. ـ بيروت : دار الحقيقة ، 1973.
- مفهوم الإيديولوجيا. ـ الدار البيضاء : المركز الثقافي العربي، 1980.
- مفهوم الدولة. الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1981.
- مفهوم العقل. الدار البيضاء، 1996.
- العزفي (أبو العباس).
- دعامة اليقين في زعامة المتقين مناقب الشيخ أبي يعزى. ـ تحقيق أحمد التوفيق. ـ الرباط : مكتبة خدمة الكتاب، 1995.
- علام (عبد الله علي).
- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي. ـ القاهرة : دار المعارف، 1971.
- العمراني (عبد الله).
- مولاي إسماعيل بن الشريف : حياته ـ سياسته ـ مآثره. ـ تطوان : 1978.

- عياش (جرمان).
- دراسات في تاريخ المغرب . ـ الدار البيضاء : الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1986.
- العياشي (أبو سالم).
- الرحلة العياشية، ماء الموائد. ـ الرباط : 1977، في جزئين.
- الغزال (أحمد بن المهدي).
- نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد. ـ تحقيق إسماعيل العربي. ـ الجزائر : المطبوعات الجامعية، 1984.
- الفاسي (علال).
- النقد الذاتي. ـ بيروت ـ القاهرة ـ بغداد : منشورات دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، 1966.
- الحركات الاستقلالية في المغرب العربي. ـ تطوان : دار الطباعة المغربية، 1948.
- معركة وادي المخازن في ذكراها الأربعمائة. ـ الرباط: مطبعة الرسالة ، 1978.
- الفاسي (محمد العربي).
- مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن. ـ فاس، طبعة حجرية، 1906.
- الفاسي (محمد المهدي
- ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع. ـ فاس : طبعة حجرية، 1906.
- الفشتالي (عبد العزيز).
- مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا. ـ تحقيق عبد الكريم كريم. ـ الرباط : مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة.
- القادري (محمد بن الطيب).
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني. ـ تحقيق محمد حجي و أحمد التوفيق. ـ الرباط : مكتبة الطالب، 1986. ـ 4 أجزاء.

■ القبلي (فاطمة خليل).
- رسائل أبي علي الحسن اليوسي. ـ جمع وتحقيق ودراسة. ـ الدار البيضاء : دار الثقافة، 1981 في جزئين.
■ القدوري (عبد المجيد).
- سفراء مغاربة في أوربا 1610 ـ 1922 في الوعي بالتفاوت. الدار البيضاء : النجاح الجديدة، 1995.
- ابن أبي محلي ورحلته الإصليت الخريت. ـ الرباط ـ عكاظ : 1991.
■ كريم (عبد الكريم).
- المغرب في عهد الدولة السعدية . ـ الدار البيضاء : شركة الطبع والنشر، الطبعة الثانية.
■ الكواكبي (عبد الرحمن).
- أم القرى. ـ بيروت : دار الشرق العربي، الطبعة الرابعة، 1991.
■ لمرابط أزروال (ثريا).
- تاريخ الزلازل بالمغرب من 846 ـ 1960. ـ رسالة جامعية. مرقونة، كلية الآداب. الرباط، 1991.
■ لوك (جون).
- رسالة في التسامح، ترجمة عبد الرحمن بدوي. ـ بيروت : دار الغرب الإسلامي، 1988.
■ مارمول كَرْبَخَال.
- إفريقيا. ـ ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط : مكتبة المعارف، 1984.
■ الماوردي (أبو الحسن).
- الأحكام السلطانية. ـ دون ذكر مكان الطبع، طبعة 1909.
■ المجهول.
- تاريخ الدولة السعدية التكمادارتية.ـ طبعة كولان، 1934.
■ مجهول.
- ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين. ـ مخطوط: خ. ع، د 1115.
■ مجهول.
- كناش في أمور بحارة العدوتين. ـ مخ: خ.ع، رقم : 1409.

- المحاسبي (الحارث بن أسد)، الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد).
- شرف العقل وماهيته. ـ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت : دار الكتب العلمية، 1986.
- محسن (عبد الحميد).
- الإسلام والتنمية الإجتماعية. ـ جدة : دار المنارة للنشر والتوزيع، 1989.
- محمد (بن عبد الله).
- مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان. مخ: خ ع ك، 795.
- المعداني (أبو علي الحسن بن محمد الهداجي التادلي).
- الروض اليانع الفائح في مناقب أبي عبد الله محمد المدعو بالصالح. مخ: خ. ع، د 1835.
- مفتاح (محمد).
- السياسة الحيوانية، قراءة في كرامات أبي يعزى من التاريخ واللسانيات، النص ومستويات التأويل. ـ الرباط: منشورات كلية الآداب، 1992.
- المقري (أحمد بن محمد التلمساني).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ـ بيروت : دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، 10أجزاء .
- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس. ـ الرباط: المطبعة الملكية ، 1983.
- المولى عبد الحفيظ.
- داء العطب قديم. ـ مخ: خ ح، رقم: 11400.
- الناصري.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. ـ الدار البيضاء : دار الكتب، 1956. 9 أجزاء.
- ندوة المغارب في العهد العثماني. ـ الدار البيضاء، 1995.
- ندوة، الصويرة، الذاكرة وبصمات الحاضر. ـ الدار البيضاء : 1994.
- ندوة، المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية. ـ الدار البيضاء: مشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: 4، 1995.

- الهبطي (عبد الله بن محمد).
- الألفية من تنبيه العامة والخاصة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية. ــ مخ خ. ح. رقم 2808 (29 ورقة).
- الوزان (الحسن بن محمد).
- وصف إفريقيا. ــ ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. ــ الرباط: 1980. جزءان.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحي).
- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. أخرجه محمد حجي وآخرون. بيروت : دار الغرب الاسلامي، 1981. ج 1.
- اليوسي (أبو علي).
- القانون. ـ مخطوط: خ.ع، D 2382.

المصادر والمراجع الأجنبية

- ABITBOL (Michel).
  - Tombouctou et les ARMA. - PARIS, Maisonneuve et Larose, 1977.
- AMIN (SAMIR).
  - Le Développement Inégal Essai sur les formations Sociales du Capitalisme Périphérique Ed. minuit PARIS 1973.
- ARKOUN (Med).
  - Lectures du Coran. PARIS.
- BATAILLON (MARCEL) y SAINT- LU (ANDRÉ).
  - El Padre las CASAS Y la Défensa de los Indios SARPE - MADRID 1985.
- BAUTUSTA (FRAY JUAN).
  - Chronica de la vida y admirables hechos del... señor MULEY ABDELMELECH valence 1577? Hesperis - Tamuda vol XXIV 1986.
- BENNASSAR (M.B) ET autres.
  - Historia Moderna. Madrid. AKAL Editor 1980.
- BERQUE (JACQUES).
  - Ulémas, fondateurs, Insurgés du Maghreb XVII^{e} siècle. PARIS - SINDBAD 1982.
  - L'Intérieur du Maghreb XV - XVII^{e} siècle. PARIS - GALLIMARD 1978.
- BERTHELOT (ANNE).
  - Textes Français et Histoire Litteraire, XVI^{e}, XVII^{e} siècle NATHAN PARIS. 1984.
- BERTHIER (PAUL).
  - les Anciennes Sucreries du MAROC et leurs Reseaux Hydrauliques RABAT. Ministère de l'Education Nationale Centre National de Recherche Scientifique. 2T. 1966.
- BLUSSE (L), WESSELING (G.D).
  - History and under développement LEIDEN 1980.
- BRAUDEL (FERNAND).
  - la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'Epoque de Philippe 2T. ARMAND. COLIN PARIS 1966.
- BRIGNON (JEAN ET autres).
  - Histoire du Maroc . PARIS - hachette 1967.

- BRUNCHWIG (HENRI).
  - l'Avénement de l'Afrique Noire. PARIS 1963.
- BRUNOT (LOUIS).
  - Notes léxicografiques sur le vocabulaire maritime de RABAT- SALE. PARIS ed. LEROUX 1920.
- CAHEN (CLAUDE).
  - L'Islam des Origines au début de l'Empire OTTOMAN. PARIS - BORDAS - 1970.
- CALVEZ (JEAN-YVES).
  - La pensée de karl Marx. PARIS. Seuil 1970.
- CHEVALLIER (CORRINE).
  - Les Trente Premières Années de l'Etat d'Alger. 1510 - 1541. Office des Publications Universitaires . Alger 1986.
- CISSOKO (S.M).
  - Histoire de l'Afrique Occidentale Moyen Age et temps Modernes. PARIS Présence Africaine. 1966.
- CLARAC (PIERRE) y SIMON (A).
  - Le XVII^{e} siècle textes choisis et commentés . - PARIS. librairie classique Eugène belin, 1956.
- COLOMB (CHRISTOPHE).
  - La Découverte de l'Amérique:
    I. Journal de bord 1492-93.
    II. Relation de voyage. 1493. 1504.
    PARIS, 1984. 2 Tomes.
- COLLOQUES et SEMINAIRES.
  - Le Maroc et l'Atlantique Publication de la Faculté des Lettres. RABAT. coordonné par A. KADDOURI. CASA BLANCA. 1992.
  - Mahdisme, Crise et Changement dans l'Histoire du MAROC coordonné par KADDOURI A. CASA BLANCA . 1994.
- DAHIRU (YAHYA).
  - Morocco in the Sixteenth Century. Problems - and Patterus in African foreign Policy. BRISTOL, LONGMAN 1981.
- DE CHAMPIGNY (LE COLONEL CHEVALIER).
  - CROISIERES et Negociations de Mr de KINSBERGEN. chevalier de l'ordre de st george, colonnel et capitaine de haut bord au service de LL.HH.PP et leur ambassadeur à la cour du Maroc. AMSTERDAM. 1779.
- DELMAS (CLAUDE).
  - HISTOIRE de la Civilisation Européenne PUF. PARIS. 1969.
- DENIS (HENRI).
  - HISTOIRE de la Pensée Economique. PARIS. P.U.F. 6^{e} ed. 1980.
- DE PREMARE (A.L).
  - Sidi abd -ER. RAHMÂN. EL MEJDÛB. PARIS. ed C N R S, SMER RABAT. 1985.

- DERMENGHEM (EMILE).
  - Le Culte des Saints dans L'Islam Maghrébin. PARIS. GALLIMARD. 1954.
- DE TORRES (DIEGO).
  - Relación del Origen y succeso de los xerifes y del Estado de los Reinos de Marruecos, Fes y Tarudante. ed. Mercedes Garcia - ARENAL. siglo veinteuno de españa . ed. S.A 1980.
- DJAIT (HICHEM).
  - L'Europe et L'Islam. PARIS 1978.
- DOMENACH (JEAN - MARIE).
  - Approches de la Modernité. PARIS, Ecole Polytechnique Ellipses 1986.
- DOZY (R).
  - Supplément aux dictionnaires Arabes Leyde - PARIS 1881. Reproduction par la LIBRAIRIE du LIBAN. Beyrouth 1968, 2 Tomes..
- ENCYCLOPEDIE de L'ISLAM . 1960.
- FARINHAS (A.D).
  - Historia de Mazagaô durante periodo Felipino - LISBOA. 1976.
- FEBVRE (Lucien).
  - Au CŒUR du Religieux du XVI^{e} siècle. PARIS. SEVPEN, 1957.
- FERHAT (HALIMA).
  - SABTA. Des Origines au XIV^{e} siècle. RABAT . MANIHIL 1993.
- FONTENAY (MICHEL).
  - Corsaires de la foi au rentier du sol ? Les chevaliers de Malte. le corso au XVII^{e} siècle. IN Revue D'Histoire Moderne et Contemporaine. JUILLET. septembre 1988. T XXXV. pp. 361 - 384.
- FREUD (JULIEN).
  - Sociologie de Max Weber. PARIS. P. U. F. 1966.
- GANDOSSI (CHRISTIANE VILAIN-). BOCHMANN (KAUS). METZELTIN (MICHEL). SCHÄFNER (CHRISTINA).
  - Le Concept de l'Europe dans le Processus de la CSCE. TÜBINGEN GUNTER NARR VERLAG TÜBINGEN 1990.
- GARIN (EUGÈNE).
  - La Renaissance Histoire d'une Révolution Culturelle. VERVIERS, MARABOU. 1970.
- GAUDIO ATTALIO.
  - Histoire du Naufrage et de la Captivité de M. BRISSON IN 1785. NEL 1984.
- GILLE (BERTRAND).
  - Histoire des Techniques Encyclopédie de la Pléiade. Paris. GALLIMARD, 1978.
- HAUSSER (HENRI). RENAUDET (A).
  - Le Début de l'Age Moderne. PARIS. PUF 1956.
  - La Prépondérance Espagnole 1559 . 1660. PARIS. P.U.F 1948.

- HEER (FRIEDRICH).
  - L'Univers du Moyen. Age traduit de l'Allemand Maurice de gaudillac. PARIS. FAYARD. 1970.
- HEILBRONER (L. ROBERT).
  - Les Grands Economistes. seuil - PARIS 1973.
- HUNKE (SIGRID).
  - Le Soleil d'Allah brille sur l'Occident notre héritage arabe. Albin Michel. PARIS. 1963.
- KABLY (MOHAMED).
  - Variations Islamistes et Identité du Maroc Médiéval. PARIS - Maisonneuve RABAT / OKAD. LAROSE 1989.
  - Société, Pouvoir et Religion au MAROC à la Fin du Moyen - Age. PARIS- Maisonneuve et Larose 1986.
- KIZERBO (JOSEPH).
  - Histoire de l'Afrique Noire d'Hier à Demain. PARIS Hatier 1972.
- LAROUI (ABDALLAH).
  - Esquisses historiques Casa blanca, centre culturel ARABE 1992.
  - L'Histoire du MAGHREB: un essai de synthèse. PARIS. François Maspero 1970.
- LEFEBVRE (HENRI).
  - Introduction à la Modernité. PARIS. Edition de Minuit 1962.
- LE GOFF (JAQUES). NORA (PIERRE).
  - Faire de L'Histoire nouveaux objets. PARIS. ed. GALLIMARD 1974. 3 Tomes.
- LOUPIAS (BERNARD).
  - FRAY JUAN BAUTISTA et sa chronique HESPERIS - TAMUDA. VOL XXIII, fax. unique 1985, 129 - 178.
- LOURIDO (RAMON).
  - Marruecos y El Mundo Exterior en la Segunda Mitad del Siglo XVIII. MADRID. Agencia Española de Cooperacion International, 1989.
- MAHN - LOT (MARIANNE).
  - la Découverte de l'Amérique, questions d'histoire / flammarion. PARIS. 1970.
- MARIA ISAURA PERREIRA DE QUEIROZ.
  - Historia y Etnologia de Los Movimientos Mesianicos Siglo Veinteuno editores MADRID 2[e] ed. 1978.
- MARX (KARL).
  - Le Manifeste du Parti Communiste. PARIS, 10x18.1962.
- MAURO (FREDERIC).
  - Le XVI[e] siècle européen, aspects économiques. PARIS. 2[e] ed 1970.
  - L'expansion Européenne 1600 - 1870. PARIS. nouvelle clio. PUF 1967.
  - Le Portugal et l'Atlantique au XVII[e] s. PARIS, 1960.

- MELANGES d'Etudes Luso - Marocaines Dédies à la Mémoire de DAVID lopes et PIERE CENIVAL. LISBOA , 1945.
- MEZZINE (LARBI).
  - Le TAFILALET . Contribution à l'Histoire du Maroc au XVII et XVIII[e] siècles. Ed. Faculté des Lettres et des Sciences Humaines. Casa Blanca, 1987.
- Ministerio de Education y Ciencia. Dirección général de archives y bibliotecas. Tratado de Tordesillas 17 Junio 1494. Madrid 1973.
- MONTESQUIEU.
  - De L'Esprit des Lois. PARIS, 1970.
- MORSY (Magali).
  - la Relation de Thomas Pellow une Lecture du Maroc au 18[e] siècle.
  - Comment décrire l'Histoire du MAROC? Actes de DURHAM. Bulletin économique et social de MAROC. N°. 138 - 139 Année 1979.
- NORDMANN (CLAUDE).
  - La Montée de la Puissance Européenne (1492 - 1660) P.U.F. PARIS 1974.
- NOUSS (ALEXIS).
  - La Modernité. PARIS, QUE - SAIS - JE ? PUF 1995.
- PASCON (PAUL).
  - LE HAOUZ DE MARRAKECH . 2 Tomes. RABAT, 1977.
- PESSOA (FERNANDO).
  - Mensagem . Porto. edition ASA 1991.
- RENAN (ERNEST).
  - L'Avenir de la Science. PARIS, 1848.
- REUTER (PAUL).
  - INSTITUTIONS INTERNATIONALES. PARIS. P.U.F. 1969.
- Revue Europe, octobre 1983. N° 654. Jacques le Goff. - Pour un Long Moyen - Age . pp: 19 - 24.
- ROCKEMORE.
  - La Modernité et la Raison HABERMAS et HEGEL Archives de Philosophie Avril - Juin 1989. T. 52 PP: 176 et suite.
- RODINSON (MAXIME).
  - Islam et Capitalisme. SEUIL. PARIS, 1966.
  - La Fascination de LIslam. PARIS. 1980.
- ROSENBERGER (BERNARD) . TRIKI (HAMID).
  - Famines et Epidémies au MAROC au XVI[e] siècle VOL. XIV Fascicule unique 1973.p. 109 - 175. - VOL. XV Fascicule unique 1974. p. 5 - 103.
- ROUSSEAU (CLAUDE).
  - Le Prince de Machiavel. - Hatier. PARIS 1973.).
- SCHAMA (SIMON).
  - L'Embarras de Richesses, la Culture Hollandaise au siècle D'OR. trad. DE L'ANGLAIS PAR PIERRE. EMMANUEL DAUZAT. GALLIMARD , PARIS 1987.

- SCHOENING (MR. le BARON).
  - Croisières et Negociations de MR. De KINSBERGEN. Amsterdam, 1779.
- SEBTI (Abdelahad).
  - Aristocratie Citadine. Pouvoir et discours savant au Maroc pré - colonial. Contribution à une relecture de la littérature généalogique fassie XV^{e} début du XX^{e} siècle. Doctorat de 3^{e} cycle Histoire et Civilisation Université de PARIS VII. U.E.R. de géographie , Histoire et science de la santé - 1984.
- SERRAO (JOAQUIM VERISSIMO).
  - Un Voyageur Portugais en Perse au Début du XVII^{e} siècle. NICOLAU de ORTA Rebelo. LISBONE, 1972.
- SOURCES INEDITES DE L'HISTOIRE DU MAROC. Première Série, Dynastie Saadienne, deuxième Série, Dynastie filalienne.
- STRAUSS (CLAUDE LEVI.)
  - RACE et Histoire. Mayenne ed Ganthier, 1978.
- TAHA JABIR AL ALWANI.
  - L'Ijtihad. London. International Institute of Islamic Thought. 1993.
- TOYENBE (A).
  - Le Monde et L'Occident. PARIS. 1953.
- VALENSI (LUCETTE).
  - Fables de la Mémoire la Glorieuse Bataille des Trois Rois. Seuil. PARIS - 1992.
- VERONNE (CHANTAL DE LA).
  - Vie de Moulay Isma'Il Roi de Fes et de MAROC D'après Joseph de LEON 1708 - 1728. PARIS , GEUTHNER, 1974.
- MR. DE WISQUEFORT.
  - Mémoires Touchant les Ambassadeurs et les Ministres Publics. LA HAYE , chez JEAN et DANIEL STEUCKNER 1676.
- ZELLER (GASTON).
  - Les Temps Modernes de Christophe Colomb à CROMWELL. PARIS. Hachette - 1953.
  - La vie Economique de l'Europe au XVI^{e} S. PARIS. centre de Documentation Universitaire Cours de Sorbonne. Fascicule III, 1952.
- ZUILI (MARC).
  - Industrie et commerce dans l'Espagne du XVI^{e} S. in Revue Information Historique Année 1995 , N° 3.

ملحق

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا
ومولانا محمد وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما
(طابع: محمد ابن عبد الله الله وليه ومولاه)

هذا كتاب كريم نافذ الأحكام مامون إن شاء الله تعلى من التغير والانصرام يشتمل على ذكر شروط انعقد عليها الصلح بيننا وبين الاصطادوس القائمين بديوان الفلامنك في الوقت.

الشرط الأول من اليوم الذي انعقد فيه الصلح وانبرم بيننا وبين الاصطادوس فقد ثبت الأمان للجهتين وصح بحيث يامن الخايف منهما وكل ما وقع في الزمان الماضي من الفرة وغيرها فهو منبوذ لا تباعة فيه لجهة على الأخرى والصلح ثابت دائم يشمل الجانبين ورعيتهم.

الشرط الثاني أن جميع سفن الفلامنك وسفن رعيتهم المعروفين للديوانهم المذكور سواء كانوا من النصرى أو من أهل الذمة الذين تحت أيديهم إن دخلوا مرسى من مراسينا التي إلى نظرنا الاسد وطاعتنا بقصد الارساء بها إما بقصد التجارة أو مخافة من البحر فلا يتعدى عليهم أحد ولا يعطون إلا العشر ولا يخرق عليهم أحد عادة حادثة والسلعة التي تبور لهم في البلاد بعد أن أدوا عشرها إن أرادوا حملها يحملونها ويرجعون بها إلى حيث يظهر لهم برا أو بحرا من غير مطالبة بلازم ءاخر عليها وإن ورد مركب من مراكبهم لبلاد من طاعتنا وكانت عنده سلعة وأراد أن يهبط بعضها في تلك البلاد ويسافر بالباقي منها لغيرها فلا يتعرض أحد لذلك المركب ولا يكرهه على إنزال باقي السلعة بتلك البلاد التي يرسي بها أولا ولا يعطي إلا عشر السلعة التي اهبطها للبلاد فقط ويخلي سبيله وكل ما يكون من ءالات الحرب كالبارود والعدة واللوح للسفن وما أشبه ذلك إن جاء به مركب من مراكبهم لمرسى من مراسينا حرسها الله بقصد التجارة فلا يلزمهم فيه عشر.

الشرط الثالث أن جميع سفن الفلامنك إذا هاج عليهم البحر أو فرّوا من عدوهم إن دخلوا مرسى من مراسينا فلا يلزمهم بارود ولا تخطاف ولا غير ذلك مما هو معلوم من لوازم المراسي ووظائفها وكذالك مراكب طاعتنا إن وردت على مرسى من مراسي الفلامنك علة الحالة المذكورة لا يلزمهم شيء.

الشرط الرابع أن جميع سفن الفلامنك تسافر في البحر ولا يتعدى أحد على مراكبهم لا في مال ولا في سلعة ولا في رءيس ولا في بحري ولا في راكب إن كان معهم من غيرهم إن كان تحت سنجقهم وسواء كانت السلعة لهم أو لغيرهم.

الشرط الخامس أن جميع مراكبنا القرصانية وغيرها إذا تلاقوا في البحر مع سفن البزرفان وأراد أحدهما أن ينظر البسبرط فإنه يبعث إليها رجلين من غير القذافين ينظرون ذالك ويرجع كل واحد منهم لمركبه من غير تعد ولا تعارض ولا يطلع أحد منهم للسفينة إلا من يحب رءيسها وإذا أظهر له البسبرط على شرطها فيسرحه في الحين وإذا سافر مركب من مراكبنا القرصانية وغيرها فتكون عنده البسبرط بخط قونصوا الفلامنك المقيم بطاعتنا فإن كان القونصوا غائبا فتجار الفلامنك فإن لم يحضروا فمن تدار النصرى المقيمين بطاعتنا وان ذلك عنده يظهره للرءيس ويسرحه من حينه وساعته ولا يتعدى عليه.

الشرط السادس أن لا يتعدى رءيس ولا بحري من طاعتنا على سفن الفلامنك ولا ينزلوا منهم راكبا من أي جنس كان ولا يترامى عليه أحد إذا كان تحت سنجق الفلامنك.

الشرط السابع أن لا يتعدى أحد على سفن الفلامنك سواء كانت قرصانا أو بزرفانا إذا حرثت في طاعتنا ولا يأخذ أحد لهم شيئا لا سلعة ولا قلوعا ولا غير ذلك من سائر حوايج المراكب المعلومة ولا ركّابه ولا رءيس ولا يوخذون أسرى وأهل طاعتنا يعينونهم إن وقع شيء من ذلك ليلا تفسد سلعتهم وإن مات أحد من أهل ذلك المركب فلا يضيع شيء من متاعه ويدفع ذلك للرءيس أو لمن له الأمر يأخذ السلعة ويعطي الأجرة لمن يعينهم وأهل المركب يتوجهون حيث شاءوا ولا يتعرض لهم أحد.

الشرط الثامن والتاسع أن لا يأتي أحد من أهل طاعتنا ولا من طاعة

الفلامنك إلى طاعة أخرى ويعمل سنجقا غير سنجقه ويقرصنوا على من له صلح معهم من طاعتنا وطاعة الفلامنك وكذلك بسبرط التي هي لعمالة أخرى غير العمالة التي هو صلح معها، وجميع سفننا القرصانية لا تأتي لطاعة الفلامنك ولا تقرصن لا عليها ولا على نواحيها.

الشرط العاشر إذا كان بمرسى من طاعتنا مركب من أعداء الفلامنك وكان مركب من مراكب الفلامنك بتلك المرسى فلا يقربه أحد بسوء وإذا أراد مركب الفلامنك أن يسافر من تلك مرسى فلا يترك مركب العدو يسافر إلا بعد سفر الفلامنك بأربعين ساعة.

الشرط الحادي عشر إذا أخذ الفلامنك سفينة من أعدائه النصرى أو من أعدائنا ودخلها إلى مرسى من طاعتنا وأراد بيعها فلا يتعرض له أحد وكل ما ينزلونه من السلعة بخاطرهم في البر فلا يلزمهم فيها إلا العشر من غير زيادة وإن توقفوا على الفريشك بسعر السوق يأكلونه فلا يلزمهم عليه خراج.

الشرط الثاني عشر إن ورد مركب من قرصان الفلامنك على مرسى من طاعتنا فالقونصو الفلامنك يعلم به حاكم البلاد إذ ربما يكون عنده أسير فيفرّ له وإن دخله شك بأن الأسير فر إلى المركب فيسئل رعيس المركب هل هو هناك أم لا ورعيس المركب يقبضه له وإن لم يكن هناك وقال رعيس المركب ما هو عندي فلا يتعدى أحد على رعيس القرصان ولا على القونصوا ولا على أحد من التجار وإذا تحقق خبر الأسير بأنه هرب في ذلك المركب من غير علم للرعيس وأخفوه عند البحرية فإن القونصوا يكتب للاصطادوس ويحكم فيمن أخفاه ورب الأسير يقبض مال أسيره.

الشرط الثالث عشر من يوم انعقد الصلح لا يقع أسر على أحد من رعية الفلامنك لا نصارى ولا أهل الذمة ولا على من يكون تحت سنجقهم وإذا أخذ مركب بعد الصلح فيرجع ولا يطالب أهله بفدية ولا غيرها.

الشرط الرابع عشر إن مات تاجر من رعية الفلامنك وترك سلعة أو مالا فلا يتعدى عليه أحد من عمالنا ولا يأخذ من ذلك شيئا فإن أوصى الهالك على ذلك أحدا فيبقى بيده سواء كان وارثه أو شريكه أو وكيله فإن كان حاضرا بقي

بيده وإن كان غائبا أو توفي فالقونصوا الفلامنك يأخذ ذلك ويبعثه لأربابه وإن لم يحضر القونصوا فتجار الفلامنك المقيمين بالبلاد يحوزونه ويبعثونه لأربابها.

الشرط الخامس عشر أن تجار الفلامنك المقيمين بطاعتنا من نصرى الفلامنك أو من أهل الذمة إذا جاءوا فإنهم يعطون عشرها منها إن أردنا ذلك أو قيمتها في الوقت إن أردناه وحاكم البلاد إن كانت بيده سلعة فإنه لا يكلفهم بأخذها منه كرها إلا برضائهم بها وكذلك رؤساء المراكب لا يكلفهم حاكم البلاد يحملون سلعة في مراكبهم إلى بلاد أخرى إلا إذا رضي الرئيس بذلك ولا يثقف الحاكم سفينة ولا رءيسا ولا بحريا وقونصوا الفلامنك وتجارهم لا يقبضهم أحد في دين على أحد إلا إذا كانوا ضامنين عنه وكذلك سفينة الفلامنك إذا تعمل زمنطوط فلا يوخذ فيها لا قونصوا ولا تجار وإنما القونصوا يكتب للاصطادوس يفتش عليها.

الشرط السادس عشر النصرى الفلامنك وأهل الذمة منهم إن وقعت بينهم دعوى أو خصام أو موت أو جرح فالقونصوا الفلامنك الذي بيده تولية الاصطادوس يحكم فيهم.

الشرط السابع عشر إن كان لمسلم خصام مع نصراني فحاكم البلاد مع القونصوا يفاصلون بينهم وإن كان لأحد من نصرى الفلامنك جرح لمسلم فإن أمرهم يدفع إلينا ونتولى الحكم عليهم وإن هرب صاحب الدعوى فلا يقبض فيه القونصوا ولا أحد من تجار الفلامنك.

الشرط الثامن عشر أن ديوان الاصطادوس يبعثون قونصوا واحدا أو أكثر لطاعتنا للموضع الذي يريدونه ولا يتعدى على القونصوا أحد في ماله ويستوصي به وإن التجار المقيمين بطاعتنا وترجماناتهم وسماسرهم يطلعون للمركب الذي يريدونه من طاعتنا ولا يتعدى عليهم أحد ويسافرون في البر للموضع الذي يريدونه من طاعتنا ويدفنون موتاهم كيف يريدون لا يتعرض لهم أحد ولا يمنعهم من صلاتهم المعهودة من دينهم والقونصوات والتجار هم الذين ينظرون من يصلح بهم من السماسر والترجمانات.

الشرط التاسع عشر إن وقع شيء مما يوجب نقض الصلح بحسب ما

يقتضيه الرأي السديد أن يعمل بواجب ذلك ويوحل القونصوا الـذي بطاعتنـا ستة أشهر يجمع فيها ماله الذي يكون مفترقا من دين أو معاملة ويرجع لبلاده هو وجميع من يكـون مـن التجـار بطاعتنـا بـأمتعتهم وأولادهـم وأصحـابهم ولا يتصدى أحـد عليهم.

الشرط الموفي العشرين إن كان أحد من جنس الفلامنك راكبا في مركـب لعدو لنا وظفرنا بذلك المركب فلا يتعرض أحد لذلك الراكب من الفلامنك سواء كان نصرانيا أو ذميا ولا يتعرض أحد لسلعته وإن كان تحت سنجق العدو وكذلـك إن كان أحد من طاعتنا راكبا في المراكـب الذيـن هـم أعـداء الفلامنـك وظفـر بـه الفلامنك فلا ياخذ منه شيئا لا سلعة ولا غيرها.

الشرط الحادي والعشـرون إن ظهـر علـى أحـد أنـه يـروم نقـض الصلـح ويسعى في الأمور التي تكون سببا لذلك وكان نصرانيا فإننا نعلمهـم بـه ويحكمـون فيه ويرد كلما أخذ وإن فعل ذلك أحد من أهل طاعتنا فإننا نحكم فيـه ويـرد كلمـا أخذ ويكون الأجل في ذلك ستة أشهر قدر ما يبلغ الخبر ويأتي الجواب.

الشرط الثاني والعشـرون نضـع علامتنـا المباركـة بموافقـة الصلـح ويجعـل الاصطادوس علامتهم بخط المعجم في وقت يساعدهم فيه الهواء والريح وهذا الصلح مبدأه من يوم الكتب بعقدة صحيحة ولابد أن نامر حكام طاعتنا به ونعرفهم بـأمره ونبينه لهم حتى يكونوا فيه على بصيرة ليلا يتعذر أحد بكونه لا علم له بهذا الصلح وكذلك يفعل الاصطادوس في جميع طاعتهم.

انتهت الشروط وكتب بحاضرة مراكش حرسها الله في الخامس والعشـرين لرجب 1169.

معاهدة الصلح بين محمد بن عبد الله
وديوان الأقاليم المتحدة.
دار المحفوظات الوطنية لاهاي
سلسلة 08 - 01 - 1 (St. gen). رقم 12597/241
(سنة 1756).

فهرس المحتويات

القسم الثاني

التحديث كممارسة سلطانية

نماذج وآفاق

عبد المجيد القدوري

المغرب وأوروبا

في خضمّ التحولات التي جرت في أوروبا، وفي غمرة النقاش حول تجاوز هذه القارّة لغيرها في الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر. ما الأوضاع التي كانت تسوّد العالم الإسلامي؟

سوف ننطلق في هذا الكتاب من أسئلة أخذت باهتمام المهتمين بدراسة نمو الغرب بالمقارنة مع العالم الإسلامي. وانصبت معظم هذه التساؤلات في اتجاه الإسلام والمشروع المجتمعي.

يبدو أن تشبث المسلمين بماضيهم المجيد جعلهم لا يولون أهمية كبرى في دراستهم التاريخية للأزمات والنكبات. وجاءت الكتابة التاريخية التي اهتمت بالعالم الإسلامي في علاقاته بـ«الآخر»، أي الغرب، كتابة تمجيدية للحضارة الإسلامية خلال العصور الوسطى حين كان زمان ازدهارها وقوتها وإشعاعها الكوني. فلم تدرس الأسباب التي أدت إلى انقلاب الأدوار بشكل كاف.

والفترة التي سنتناولها تمتد من المدّ الإيبيري على السواحل المغربية، كتدشين لمرحلة التوسع الأوروبي واستغلال العوالم الأخرى، وتنتهي مع تجربة محمد بن عبد الله التجديدية، بنهاية القرن الثامن عشر. وقد اعتمدنا هذا المدى الطويل من أجل تتبع المراحل التي تمت فيها محاولات التجديد بالمغرب، من أجل إبراز خصوصيات كل مرحلة وإدراك ما إذا كان الجديد مستمراً ومتراكماً أم أن كل تجربة كانت تموت بموت الذي قام بها؟

ISBN 978-9953-68-121-4
9789953681214

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com